

أسس المسيحية

كارل كاوتسكي

ترجمة/ سعيد العليمي

مقدمة المترجم

- اهتممت منذ زمن طويل بمسألة تطبيق المنهج المادى التاريخى على الاديان .
وصادفت منذ عقود كتاب كارل كاوتسكى : اسس المسيحية الذى يعده البعض واحدا
من اهم مائة كتاب فى العالم . وهو كتاب لازال يلقى التقدير رغم انصرام مايزيد
عن قرن على كتابته . والكتاب لايتعرض للمسيحية فقط وانما لليهودية ايضا ، وفى
كل الاحوال فان الابحاث العلمية الاخيرة التى تابعتها حتى وقت قريب فى هذا
المجال لم تنقض اطروحاته ومقولاته الأساسية . وقد ترجمته بوصفه منهجا يحتذى
فى النظر للديانات الابراهيمية الثلاث اجمالا مقتفيا اثر من قال ان الترجمة هى "
تأليف بشكل غير مباشر" . ورغم ان الكتاب يتعرض لما تناوله بشكل علمى نقدى
يحترم عقائد المؤمنين بالدينين الا ان الظروف التى احاطت ببلادنا قد دعتنى الى
ارجاء نشره عدة مرات رغم انتهائى منه منذ زمن طويل. وقد افادتنى هذه الترجمة
فائدة هائلة فقد كان على ان اقرأ مكتبة كاملة تتناول تاريخ هذه الفترة من نواح عدة
بدءا بحضارات الشرق الادنى القديم حتى مخطوطات البحر الميت مروراً بالطبع
بالتوراة باسفارها المعترف بها وغير المعترف بها (الابوكريفا) وكذلك التوراة
والانجيل فضلا عن بعض ماورد عن المسيحية فى تراثنا الاسلامى فى فترات
تاريخية حاسمة (فترتا الغزو الصليبي ، والخروج من الاندلس بكل مافيهما من
مرارة) . ولابد من التنويه الى ان " الحقائق الدينية " تتمايز عن الحقائق التاريخية
 . فالحديث عن شخصية يسوع عند المؤرخ الذى تعنيه المصادر التاريخية غيرها
عند المؤمن بالمسيحية او الاسلام الذى يرجع فى هذه الحال الى القرآن والاناجيل .
وأود هنا ان اشير لبعض الكتابات التى يمكن الرجوع لها لتعميق المعرفة ولمتابعة
التطورات اللاحقة لمن يرغب : ١ - سيرة السيد المسيح لابن عساكر الدمشقى -
تحقيق سليمان على مراد - الصادر عن المعهد الملكى للدراسات الدينية - دار
الشروق - رام الله - ١٩٩٦ - ٢ - عيسى ومريم فى القرآن والتفسير - تحرير رياض
ابو وندى وعلاء رشق وآخرون - المعهد الملكى للدراسات الدينية - دار الشروق -
رام الله ١٩٩٦ - وكذلك الى : ٣ - التاريخ القديم للشعب الاسرائيلى - توماس ل .
طومسون - ترجمة صالح على سوداح - دار بيسان - بيروت - ط.١ . ١٩٩٥ . ٤ --
تاريخ نقد العهد القديم تحرير زالمان شازار - ترجمة احمد محمد هويدي -
المشروع القومى للترجمة - ٢٠٠٠ ج. م. ع. ٥ - بابل والكتاب المقدس - جان
بوتيرو ومحاورات مع ايلين مونساكريه - ترجمة روزا مخلوف - دار كنعان -
دمشق ٢٠٠٠ - ٥ - انبياء التوراة والنبؤات التوراتية - م . ريجسكى - ترجمة د .
آحويوسف - دار الينابيع - دمشق ١٩٩٣ .

المحتويات

مدخل

القسم الأول: شخصية يسوع

الفصل الأول: المصادر الوثنية

الفصل الثانى: المصادر المسيحية

الفصل الثالث: الصراع من أجل صورة يسوع

القسم الثانى: المجتمع الرومانى فى المرحلة الإمبراطورية

الفصل الأول: نظام تملك العبيد

أ - ملكية الأرض

ب - العبودية المنزلية

ج - العبودية فى الإنتاج السلعى

د - الدونية التقنية لنظام تملك العبيد

هـ - التدهور الاقتصادى

الفصل الثانى: حياة الدولة

أ - الدولة والتجارة

ب - النبلاء والعامّة

ج - الدولة الرومانية

د - الربا

هـ - النزعة الاستبدادية

الفصل الثالث: التيارات الفكرية فى الفترة الإمبراطورية الرومانية

أ - ضعف الروابط الاجتماعية

ب - السذاجة

ج - اللجوء إلى الكذب

د - النزعة الإنسانية

هـ - النزعة الأممية

و - الاتجاه إلى الدين

ز - التوحيد

القسم الثالث: اليهود

الفصل الأول: بنو إسرائيل

أ - الهجرات القبلية السامية

ب - فلسطين

ج - مفهوم الرب في إسرائيل القديمة

د - التجارة والفلسفة

هـ - التجارة والقومية

و - كنعان معبر الأمم

ز - الصراعات الطبقيّة في إسرائيل

ح - سقوط إسرائيل

ط - التدمير الأول لأورشليم

الفصل الثاني: اليهود بعد المنفى

أ - النفي

ب - الشتات اليهودي

ج - الدعاية اليهودية

د - كراهية اليهود

هـ - أورشليم

و - الصدوقيون

ز - الفريسيون

ح - الغيرون (القنائيون)

ط - الإسينيون

القسم الرابع: بدايات المسيحية

الفصل الأول: المجمع المسيحي الأول

أ - الطابع البروليتارى للمجمع

ب - الحقد الطبقي

ج - الشيوعية

د - الاعتراضات على الشيوعية

هـ - احتقار العمل

و - تدمير العائلة

الفصل الثانى: الفكرة المسيحية عن المخلص

أ - مجيء مملكة الرب

ب - أسلاف يسوع

ج - يسوع كمتنرد

د - قيامة المصلوب

هـ - الفادى الأمى

الفصل الثالث: المسيحيون اليهود والمسيحيون الوثنيون

أ - التحريض بين الوثنيين

ب - التعارض بين اليهود والمسيحيين

الفصل الرابع: قصة آلام المسيح

الفصل الخامس: تطور تنظيم المجمع

أ - بروليتاريون وعبيد

ب - تدهور الشيوعية

ج - الرسل، أنبياء ومعلمون

د - الأسقف

هـ - الدير

الفصل السادس: المسيحية والاشتراكية

مدخل:

كنت مهتما لفترة طويلة بالمسيحية وبالنقد الإنجيلي. وقد أسهمت منذ خمس وعشرين عاما بتمامها بمقال فى مجلة كوزموس (cosmos) ، حول أصل تاريخ ما قبل تاريخ الإنجيل، وبعد ذلك بعامين كتبت مقالا آخر لمجلة الأزمنة الحديثة Neue Zeit حول أصل المسيحية. إنها من ثم لهواية قديمة تلك التى أعود إليها الآن. ومناسبة هذه العودة كانت ضرورة إعداد الطبعة الثانية من كتابي رواد الاشتراكية.

إن الانتقادات التى وُجّهت للكتاب الأخير - تلك التى أُتيحت لى فرصة قراءتها - قد وجدت أخطاء فى المدخل بصفة خاصة، حيث عرضت فيه موجزا قصيرا عن شيوعية المسيحية الأولية. لقد أعلنوا أن وجهة نظري لن تصمد لضوء المعرفة الناتج عن الأبحاث الأخيرة.

وسرعان ما أعلن جوريه Göhre وآخرون عقب أن ظهرت هذه الانتقادات، أن وجهة النظر هذه - أى، لاشئ محدد يمكن أن يقال عن شخصية يسوع، وأن المسيحية يمكن أن تُفسر بدون الرجوع الى هذه الشخصية - التى دافع عنها أولا برنوباور ثم قبلها بعد ذلك فى نقاطها الأساسية فرانز مهنج وأنا، وصغتها بشكل مبكر فى عام ١٨٨٥، قد باتت الآن عتيقة.

ولذلك فلم أرغب فى نشر طبعة جديدة من كتابي، الذى ظهر منذ ثلاثة عشر عاما مضت، دون أن أراجع بعناية أولا، على أساس الأدب الأخير حول الموضوع، تلك الأفكار التى حصلتها من دراسات أسبق.

وفى النهاية توصلت الى النتيجة المرضية بأن لاشئ يحتاج الى تغيير، غير أن الأبحاث اللاحقة قد كشفت لى عددا من وجهات النظر الجديدة ومقترحات جديدة، أدت الى توسيع تنقيح مدخلى لكتاب رواد الى كتاب كامل.

أنا لا أدعى، بالطبع، أننى استنفذ الموضوع، الهائل بذاته الى حد يستعصى على الاستنفاد. وسوف أكون راضيا إذا نجحت فى الإسهام فى فهم تلك المراحل من تاريخ المسيحية التى تثير انتباهى باعتبارها الأكثر أساسية من وجهة نظر المفهوم المادى للتاريخ.

ولا أستطيع أن أجرو على مقارنة نفسى علمياً، بالنسبة لشئون التاريخ الدينى، باللاهوتيين الذين جعلوا هذه الدراسة مهمة حياتهم، بينما كان على أن أكتب المجلد المائل فى ساعات الفراغ القليلة التى أتاحتها لى أنشطتى التحريرية والسياسية، فى فترة كانت فيها اللحظة الراهنة غاية فى الكفاية لتحترك انتباه أى شخص يشارك فى

النضالات الطبقيّة لزمنا، إلى الحد الذي كان فيه وقت قليل متاحا للماضي: إننى أشير إلى الزمن الواقع بين استهلال الثورة الروسية عام ١٩٠٥ وانفجار الثورة التركية عام ١٩٠٨.

غير أن من المحتمل أن نصيبى الكثيف فى النضالات الطبقيّة للبروليتاريا قد زودنى تحديدا بتلك اللّمحات عن جوهر المسيحية الأولى التى قد تبقى بعيدة عن متناول أساتذة اللاهوت والتاريخ الدينى.

يرد المقطع التالى عند جان جاك "روسو فى كتابه جولى، أو هيلواز الجديدة: "يبدو لى من السخرية محاولة دراسة المجتمع (العالم) كمجرد ملاحظ خارجي. إذ أن من يرغب فى أن يلاحظ فقط لن يلاحظ شيئا، حيث لأفائدة فى ذلك فى العمل الفعلى ومقيت فى التجديد، فلن ينطوي فى أيهما. إننا نلاحظ أفعال الآخرين الى المدى الذى نفعل فيه نحن أنفسنا فقط. فى مدرسة العالم مثلها فى ذلك مثل مدرسة الحب، يجب أن نبدأ بالممارسة العملية لذلك "الذى نرغب فى تعلمه". (القسم الثانى، الرسالة ١٧).

ربما يوسع هذا المبدأ، المحدد هنا بدراسة الإنسان، لينطبق على بحث كل الأشياء. لن يجرى الحصول على الكثير فى أى مجال بمجرد الملاحظة دون مشاركة عملية. ويصدق هذا حتى على بحث مثل تلك الأشياء البعيدة كالنجوم. أين سيكون علم الفلك اليوم إذا كان قد اقتصر على مجرد الملاحظة، إذا لم يكن قد اقترن بالممارسة، أي باستخدام التلسكوب، والتحليل الطيفى، والتصوير ! ولكن يعتبر هذا المبدأ صائبا حتى بدرجة أكبر حين يطبق على أشياء هذه الأرض، التى لممارستها معها عادة إجبارنا على صلة أكثر قربا من مجرد الملاحظة. إن مانتعلمه من مجرد ملاحظة الأشياء قليل الى حد بعيد حين يقارن بما يمنحه لنا العمل العملى على هذه الأشياء وبهذه الأشياء. دع القارئ يتذكر فحسب الأهمية الضخمة التى حازها المنهج التجريبي فى العلوم الطبيعية.

لا يمكن أن تُصنع التجارب كأدوات لبحث المجتمع الإنسانى، ولكن النشاط العلمى للباحث مع ذلك ليس بأية حال ذو أهمية ثانوية، كيفما كان الأمر، فإن شروط نجاحه مشابهة للشروط المتعلقة بتجربة مثمرة. وتتقوم هذه الشروط فى معرفة أكثر النتائج التى أحرزها الباحثون الآخرون أهمية، وإلمام بمنهج علمى يشدّد تقويم النقاط الأساسية فى كل ظاهره، مُعينا الباحث على تمييز الأساسى من غير الأساسى، كاشفا العنصر المشترك بين تجارب متنوعة.

لن يواجه المفكر المجهز بمثل هذه الملكات، والدارس لحقل هو منخرط فيه فى عمل فعال، متاعب فى الوصول الى نتائج لم يكن له سبيل إليها إذا كان قد بقى مجرد ملاحظ.

ويعتبر هذا صحيحا خاصة فيما يتعلق بالتاريخ. إذا كان السياسى العملى مجهزا بتدريب علمى كافٍ، سوف يفهم بسهولة أكثر تاريخ السياسة، وسوف يجد بسرعة أكثر وجهته فى دراستها من فيلسوف منعزل لم يكن لديه أبدا أدنى اطلاع عملى على القوى المحركة للسياسة. وسوف يجد الباحث أن تجربته العملية ذات قيمة خاصة، إذا كان منخرطا فى دراسة حركة لطبقة فى المجتمع كان هو نفسه نشطا فيها ومن ثم مطالعا على نحو أفضل على طابعها النوعى.

كان هذا الإلمام بالحقائق غالبا حتى الآن، فى تناول الطبقات المالكة، التى احتكرت التعلم، على وجه القصر. وقد وجدت حركات الطبقات الدنيا فى المجتمع بعد بعض الدارسين المقدرين لأهميتها.

كانت المسيحية فى بداياتها بلا شك حركة الطبقات المفقرة من أشد الأنواع تباينا، التى يمكن أن تسمى بالمصطلح العام "بروليتاريين" على أن "يفهم هذا التعبير باعتباره لا يعنى فقط العمال المأجورين. إن رجلا بات ملما بالحركة البروليتارية الحديثة، والذى يفهم العنصر المشترك لمراحلها فى البلدان المختلفة من خلال عمله بنشاط فيها، رجل تعلم أن يحيا فى مشاعر وإلهامات البروليتاريا، مقاتلا بجانبها، له أن يدعى القدرة على فهم كثير من الأشياء عن بدايات المسيحية بسهولة أكثر من المدرسين الذين نظروا للبروليتاريا من بعيد فقط.

ولكن بينما للسياسى العملى المدرب علميا ميزة على مجرد مدرسى الكتاب من نواحى متعددة فى كتابة تاريخه، فإن هذه الميزة غالبا ماتوازن على نحو فعال بالغواية الأقوى التى يتعرض لها السياسى العملى، وهى ألا يسمح لفصيله بأن يعاق. فهناك خطر أن يهددان بصفة خاصة الإنتاج التاريخى للسياسيين العمليين أكثر من إنتاج الباحثين الآخرين: فى المحل الأول، قد يحاولون أن يصيغوا الماضى كلية وفق صورة الحاضر، وفى المحل الثانى، ربما يسعون للنظر إلى الماضى على ضوء إحتياجات سياسة الحاضر.

ولكننا نحن الاشتراكيون، إلى الحد الذى نكون فيه ماركسيين، نشعر بأن لدينا وقاية ممتازة ضد هذه الأخطار فى المفهوم المادى للتاريخ، الذى يرتبط جوهريا بوجهة نظرنا البروليتارية.

ينظر المفهوم التقليدي للتاريخ للحركات السياسية باعتبارها صراعا من أجل إيجاد مؤسسات سياسية نوعية معينة فقط - الملكية، الأرستقراطية، الديمقراطية، الخ - والتي تُعرض بدورها باعتبارها نتاج مفاهيم ومطامح أخلاقية معينة. ولكن إذا لم يتقدم مفهومنا للتاريخ ما وراء هذه النقطة، إذا لم نفتش عن أساس هذه الأفكار والمطامح والمؤسسات، فسرعان ماسنتوقف فجأة في مواجهة حقيقة أن هذه الأشياء تعتربها فقط تغيرات زائفة في مجرى القرون، حيث تبقى هي في الأساس، حتى كأننا نتعامل دائما مع نفس الأفكار، والمطامح، والمؤسسات، التي تتكرر مرة بعد أخرى، وأن التاريخ بأسره يتجلى كنضال طويل واحد لاينقطع من أجل الحرية والمساواة، الذي يُقابل مرة بعد أخرى بالقمع وعدم المساواة، التي لم تتحقق أبدا، ولم يقضى عليها تماما أبدا.

حيثما كان أبطال الحرية والمساواة منتصرين لوهلة، فقد حولوا انتصاراتهم دائما الى قاعدة لقمع جديد ولامساواة، مما نتج عنه الظهور الفوري لمناضلين جدد من اجل الحرية والمساواة. ويبدو المجرى الكلى للتاريخ من ثم كدورة تعود دائما الى نقطة الاستهلال، تكرارا أبديا لنفس الدراما، مع تغير الأردية فحسب، وبدون تقدم حقيقى للإنسانية.

إن من يتبنى هذه النظرة سوف ينزع دائما لتصوير الماضى فى صورة الحاضر، وكلما عرف الإنسان أكثر كما هو الآن، كلما أمعن في تصوير الإنسان فى العصور المنصرمة طبقا لنموذجه الحاضر. هناك نظرة أخرى تتعارض مع هذه النظرة للتاريخ، وهي لا تترضى بتقدير الأفكار التاريخية وحدها، وإنما تسعى لأن تلاحق أسبابها الحقيقية التى تكمن فى ذات أساس المجتمع. سوف نواجه فى تطبيق هذا المنهج مرة بعد أخرى نمط الإنتاج، الذى يعتمد بدوره على مستوى التقدم التقنى، بالرغم من أنه لا يعتمد عليه وحده.

بمجرد أن نباشر بحث المصادر التقنية ونمط إنتاج العصور القديمة، نتخلى على الفور عن فكرة أن نفس التراجيكوميديا تتكرر أبديا على مسرح العالم. حيث يُظهر التاريخ الاقتصادى للإنسان تطورا مستمرا من الأشكال الدنيا الى الأشكال العليا، التى ليست، بأية حال، مُطردة أو موحدة فى الاتجاه. ولكن إذا بحثنا الشروط الاقتصادية للكائنات الإنسانية فى الفترات التاريخية المتنوعة، فإننا نتحرر على الفور من وهم التكرار الأبدى لنفس الأفكار والطموحات، والمؤسسات السياسية. نحن نعلم الآن أن نفس الكلمات ربما تغير معناها عبر مجرى القرون، وأن الأفكار والمؤسسات التى تشبه بعضها خارجيا لها مضمون مختلف، لأنها نشأت من احتياجات طبقات مختلفة وفى ظل ظروف مختلفة. إن الحرية التى يطالب بها

البروليتارى الحديث مختلفة تماما عن تلك الحرية التى كانت قد ألهمت ممثلى الطبقة الثالثة عام ١٧٨٩، وكانت هذه الحرية بدورها مختلفة جوهريا عن تلك التى ناضل من أجلها فرسان الإمبراطورية الجرمانية فى بداية الإصلاح.

إذا ماتوقفنا عن النظر الى النضالات السياسية باعتبارها مجرد نزاعات تتعلق بأفكار مجردة أو بمؤسسات سياسية وكشفنا أساسها الاقتصادى، فإننا نكون مهياؤن لأن نفهم أنه فى هذا الحقل، وكذلك فى حقل التقنية ونمط الإنتاج يجرى تطور ثابت نحو أشكال جديدة، وانه لا توجد حقبة تشبه تماما حقبة أخرى، وأن نفس الشعارات ونفس الجدالات ربما يكون لها فى أزمنة مختلفة معان مختلفة.

إن وجهة نظرنا البروليتارية سوف تسمح لنا بأن نرصد على نحو أكثر سهولة مما يتيسر للباحثين البورجوازيين تلك المراحل من المسيحية الأولية التى يجمعها شيء مشترك مع الحركة البروليتارية الحديثة. ولكن التأكيد الذى وضع على الشروط الاقتصادية، وهو لازمة ضرورية للمفهوم المادى للتاريخ، يقينا من خطر نسيان الطابع النوعى للبروليتاريا القديمة لأننا نرصد فحسب العنصر المشترك فى كلا الحقبتين. إن سمات البروليتاريا القديمة تعود الى مركزها الاقتصادى النوعى، الذى جعل مع ذلك طموحاتها مختلفة كليا عن تلك التى للبروليتاريا الحديثة برغم تشابهات عدة.

بينما تقينا النظرة الماركسية للتاريخ من خطر قياس الماضى بمستوى الحاضر وتشخذ تقديرنا لنوعية كل حقبة وكل أمة، فإنها تحررنا أيضاً من خطر آخر، وهو محاولة تكييف عرضنا للماضى للمصالح العملية المباشرة التى ندافع عنها فى الحاضر.

لايوجد إنسان شريف بالتاكيد، أيا ما كانت وجهة نظره، سوف يسمح لنفسه بأن يضل فى تزييف واع للماضى. ولكن الباحث ليس أحوج منه فى أى مجال لعقل غير متحيز منه فى العلوم الاجتماعية، وليس هناك حقل أصعب منها لاكتساب مثل هذا الموقف.

ليست مهمة العلم ببساطة عرضا لما هو كائن، بإعطاء صورة أمينة عن الواقع، حتى يقال بأن ملاحظاً بعينه سوف يشكل عادة نفس الصورة. تكمن مهمة العلم فى ملاحظة العام، أى العنصر الأساسى فى كتلة الانطباعات والظواهر المتلقاة، وهكذا يزودنا بمفتاح يمكن لنا بواسطته أن نجد اتجاهنا فى متاهات الواقع.

أضف الى ذلك، أن مهمة الفن، مشابهة تماما. إن الفن لايعطينا صورة عن الواقع فحسب، حيث يتعين على الفنان أن يعيد إنتاج مايشير انتباهه باعتباره المسألة

الأساسية، الحقيقية المميزة للواقع الذى يعرض تصويره. يتمثل الاختلاف بين الفن والعلم فى حقيقة أن الفنان يعرض الأساسى فى شكل طبيعى ملموس، يؤثر فينا من خلاله، بينما يعرض المفكر الأساسى فى شكل مفهوم، تجريد.

وكلما كانت الظاهرة أشد تعقيدا. وكلما قل عدد الظواهر التى يمكن أن تقارن بها، كلما كان أصعب عزل ماهو أساسى فيها عما هو عرضى. كلما جرى الشعور أكثر بالسمة الذاتية للباحث ومعيد الإنتاج. وعلى ذلك فالأكثر لزوماً هو أن تكون نظريته واضحة وغير متحيزة.

من المحتمل أنه لا توجد ظاهرة أشد تعقيدا من المجتمع الإنساني، مجتمع البشر، حيث كل واحد أكثر تعقيدا فى ذاته من أى كائن آخر نعرفه. بالإضافة الى ذلك، إن عدد العضويات الاجتماعية التى يمكن أن تقارن بعضها بالآخر، فى نفس مستوى التطور، قليلة للغاية نسبيا، لم يكن، من ثم، مدهشا، أنه كان على الدراسة العلمية للمجتمع أن تبدأ متأخرة عن الدراسات التى تتعلق بأى مجال آخر من التجربة، وليس مدهشا أنه فى هذا الحقل فقط كان على وجهات نظر الدارسين أن تنتشعب بشكل واسع.

ويتزايد تعاظم الصعوبات إذا كان للباحثين المتنوعين، كما هو الحال غالبا فى العلوم الاجتماعية، مصالح عملية تتجه فى اتجاهات غاية فى الاختلاف، وغالبا متعارضة، بصدد نتائج أبحاثهم، الأمر الذى لايعنى أن هذه المصالح العملية يجب أن تكون شخصية حسب طبيعتها ؛ فربما تكون بشكل غاية فى التحديد مصالح طبقية.

البين أنه يستحيل علينا تماما أن نحفظ بموقف قضائى إزاء الماضى بينما نحن مهتمون بأى طريقة بالتعارضات والصراعات الاجتماعية فى زمننا، راثين ظواهر الحاضر هذه تكرارا لتعارضات وصراعات الماضى. تصبح الأخيرة مجرد سوابق، متضمنة تبريرا وإدانة للأولى، فالآن يعتمد الحاضر على حكمنا على الماضى. هل يمكن لمن يهتم حقا بقضيته أن يبقى غير متحيز؟ كلما كان أكثر ارتباطا بالقضية كلما تصبح وقائع الماضى أكثر أهمية بالنسبة له - وسوف يؤكد عليها باعتبارها أساسية - خاصة تلك التى يبدو أنها تدعم وجهة نظره الخاصة، بينما يزيح الى الخلفية تلك الوقائع التى يبدو أنها تدعم وجهة النظر المعاكسة. يصبح الدارس أخلاقيا أو محاميا، مُمَجِّدا أو واصما ظواهر نوعية من الماضى بسبب أنه مدافع عن أو خصم لظواهر مشابهة فى الحاضر، مثل الكنيسة، الملكية، الديمقراطية، إلخ.

يصبح الوضع مختلفا تماما، على أية حال، حين يُدرك الدارس، نتيجة لفهمه الاقتصادى، أنه ليس هناك مجرد تكرار فى التاريخ، وأن الظروف الاقتصادية

للماضى قد مضت ولن تعود أبداً، وأن التعارضات التطبيقية السابقة والصراعات التطبيقية مختلفة بصفة أساسية عن تلك التى تدور فى الحاضر، ومن ثم فإن مؤسساتنا الحديثة وأفكارنا، بالرغم من تطابقها الخارجى مع تلك التى تتعلق بالماضى، هى مع ذلك ذات مضمون مختلف كلية. يفهم الدارس الآن أن كل حقبة يجب أن تقاس بمعياريها الخاص، وأن طموحات الحاضر يجب أن تؤسس على شروط الحاضر، وأن النجاحات والإخفاقات فى الماضى لها مغزى شديد الضالة حين تعتبر وحدها فقط، وأن مجرد التوسل بالماضى من أجل تبرير متطلبات الحاضر قد يكون مضللاً بكل ما فى الكلمة من معنى. اكتشف ديمقراطيو وبروليتاريو فرنسا هذا مرة بعد أخرى أيضاً فى القرن الماضى حين وضعوا إيمانهم فى "تعاليم" الثورة الفرنسية أكثر مما فى فهم العلاقات التطبيقية القائمة فعلياً.

إن من يقبل وجهة نظر المفهوم الاقتصادى للتاريخ يمكن أن يتبنى وجهة نظر غير متحيزة تماماً بشأن الماضى، وإن كان منخرطاً بنشاط فى الصراعات العملية للحاضر. فعمله يمكن فقط أن يشحذ نظرتة لكثير من ظواهر الماضى، فلا تبدو معتمدة.

كان هذا هو الغرض من عرضى لركائز المسيحية الأولية. لم يكن لدى أى نية سواء لتمجيدها أو التقليل من شأنها، حسبى الرغبة فى فهمها. لقد عرفت أنه أياً ما كانت النتائج التى قد أصل إليها، فإن القضية التى أناضل من أجلها لن تتأثر بذلك. أياما كان الضوء الذى قد يظهر فيه بروليتارى الفترة الإمبراطورية لى، وأياً ما كانت طموحاتهم، ونتائج هذه الطموحات، فليس هناك شك فى أنهم كانوا مختلفين تماماً عن البروليتاريا الحديثة، مناضلين وعاملين فى وضع مختلف كلية وبمصادر مختلفة كلية. وأياً ما كانت عظمة الإنجازات والنجاحات، النواقص الصغيرة والهزائم، الخاصة بالبروليتاريين القدامى، فلا يمكن أن تُعنى شيئاً فى تكوين تقدير لطبيعة ومنظورات البروليتاريا الحديثة سواء من وجهة نظر مُحبذة أو غير مُحبذة.

ولكن، مادامت هذه هى الحالة، فهل هناك أى غرض عملى على الإطلاق من أن ينشغل المرء بالتاريخ؟ تعتبر النظرة العامة أن التاريخ بمثابة خريطة لذلك الذى يبحر فى بحر النشاط السياسى؛ يجب أن تشير هذه الخريطة للجبال والمياه الضحلة التى سببت حسرة للبحارة السابقين، وتمكن خلفهم من أن يبحروا فى البحر متفادين العاقبة. على أية حال، إذا كانت طرق الإبحار الصالحة فى التاريخ متغيرة دوماً، فإن المواقع الضحلة تتحول متكونة مرة بعد أخرى فى بقاع أخرى، وإذا كان على الملاح أن ينتقى طريقه من خلال سبر أغوار البحر من أجل إبحاره الخاص فى

الطرق المائية ؛ فإن مجرد إتباع الخريطة القديمة فقط غالبا ما يقودنا للضياع، لم إذن دراسة التاريخ على الإطلاق، عدا ربما كهواية تربية الحيوانات؟

إن القارئ الذى يصل لهذا الافتراض يرمى بالفعل الحنطة مع الزوان.

إذا استبقينا المجاز السابق، فيجب أن نعترف بأن التاريخ باعتباره خريطة دائمة لملاح سفينة دولة هو بالفعل بلا فائدة، ولكن هذا لا يعنى أنه ليس له فائدة أخرى؛ إن الفائدة التي سيستخرجها منه ذات طبيعة مختلفة. فهو يجب أن يستخدم التاريخ بمثابة خيط سبر، كوسيلة لدراسة الطرق التي يبحر فيها، لفهمها ولموضعه فيها. إن الطريقة الوحيدة لفهم ظاهرة ما؛ هي في تعلم كيف نشأت. لا أستطيع أن أفهم المجتمع الحاضر إذا لم أعرف الطريقة التي صار بها، كيف تطورت ظواهره المتنوعة: الرأسمالية، الإقطاعية، المسيحية، اليهودية، الخ.

إذا كنت قد حصلت على فكرة واضحة عن الوظيفة الاجتماعية، المهام والمنظورات التي تخص الطبقة التي أنتمى إليها أو ربطت نفسى بها، يجب أن أحرص فهما للعضوية الاجتماعية، يجب أن أتعلم كيف أرصدها من كل زاوية، وهو الأمر الذي يستحيل كليا إذا لم أكن قد تتبعت نموها. فمن المستحيل أن تكون محاربا واعيا بعيد النظر في الصراع الطبقي بدون فهم لتطور المجتمع. بدون فهم كهذا يبقى المرء معتمدا على الانطباعات التي تحيط به مباشرة واللحظة المباشرة، ولن يكون المرء متأكدا أبدا من أن هذه الانطباعات لن تأخذه الى طرق تقود بوضوح الى الهدف، ولكنها تأتي به بالفعل بين منحدرات لامهرب منها.

لقد نجح بلا ريب عديد من الصراعات الطبقيّة بالرغم من حقيقة أنه لم يكن لدى المشاركين مفهوما واضحا عن الطبيعة الأساسية للمجتمع الذى عاشوا فيه. وتزول شروط مثل هذه النجاحات فى مجتمع اليوم، مثلما يصبح أمراً عبثيا بشكل متزايد فى هذا المجتمع أن يسمح المرء لنفسه بأن يقاد فى اختياره للطعام والشراب مستهديا بالغريزة والتقليد فحسب. ربما كانت هذه الأدلة كافية فى ظل ظروف طبيعية، بسيطة. كلما أصبحت شروط حياتنا أكثر اصطناعية، بسبب تقدم الصناعة والعلوم الطبيعية، كلما ابتعدت أكثر عن الطبيعة، وكلما باتت المعرفة العلمية المطلوبة أكثر ضرورة للفرد، حتى يختار من بين فيض المنتجات الاصطناعية المتاحة، تلك التي تكون أكثر ملائمة لعضويته. حينما شرب البشر الماء فقط، فقد كان كافيا أن تكون لديهم غريزة تقودهم للبحث عن نبع ماء جيد وأن يتفادوا ماء المستنقعات الراكدة. ولكن هذه الغريزة عاجزة فى وجود مشروباتنا المصنعة ؛ حيث يصبح الفهم العلمى الآن ضرورة مطلقة.

الحال شديد الشبه فى السياسة وفى النشاط الاجتماعى بصفة عامة. فى مجتمعات العصور القديمة، التى كانت غالبا صغيرة جدا، بشروطها البسيطة الواضحة، التى بقيت بلا تغيير لقرون، التقاليد و"الحس العام الواضح" - بمعنى آخر، الحكم السليم الذى حصل عليه الفرد من التجربة الشخصية - كانت كافية لتربية مكانة ووظيفته فى المجتمع. ولكن اليوم، فى مجتمع يطوق سوقه العالم كله، الذى هو فى عملية تحول دائم، من الثورة الصناعية والاجتماعية، الذى ينظم فيه العمال أنفسهم فى جيش من الملايين، والرأسماليون يراكمون الملايين من النقود، فإنه من المستحيل لطبقة صاعدة، طبقة لاتستطيع أن تقنع باستبقاء الوضع القائم status quo، والمضطرة لأن تهدف إلى إعادة بناء كاملة للمجتمع، أن تقود نضاله الطبقي بنجاح بواسطة اللجوء إلى مجرد "الحس العام الواضح" وللعمل التفصيلي للرجال العمليين. يصبح ضرورة لكل مقاتل أن يوسع أفقه من خلال الفهم العلمى وأن يرصد إشتغال القوى الاجتماعية الكبرى فى الزمان والمكان، ليس من أجل أن يلغى العمل التفصيلي، أو حتى أن يزيحه إلى المؤخرة، وإنما من أجل أن ينظمه فى علاقة محددة مع العملية الاجتماعية ككل. ويصبح ذلك أكثر ضرورة مادام هذا المجتمع، الذى يطوق عمليا العالم بأجمعه الآن، ويدفع قدماً تقسيمه للعمل، قاصرا الفرد أكثر فأكثر على اختصاص مفرد، على عملية مفردة، وهكذا يميل إلى أن يدنى بشكل متلاحق مستواه العقلي ليجعله أكثر تبعية وأقل قدرة على فهم العملية ككل، التى تتفكك فى نفس الوقت إلى أقسام هائلة.

يصبح عندئذ واجب كل إنسان جعل تقدم البروليتاريا عمل حياته، أن يعارض هذا الميل تجاه الركود الروحي والغباوة، وأن يجذب انتباه البروليتاريين لوجهات نظر عظمى، ولمنظورات كبرى، ولأهداف ذات قيمة.

تكاد لاتكون هناك أى طريقة لعمل هذا أكثر فعالية من دراسة التاريخ، بالنظر ورصد تطور المجتمع عبر فترات كبيرة من الزمان، خاصة حينما يكون هذا التطور قد شمل حركات اجتماعية هائلة يستمر عملها حتى الوقت الحاضر.

لإعطاء البروليتاريا فهما اجتماعيا، وعيا بالذات ونضجا سياسيا، لجعلها قادرة على تشكيل رؤى عقلية عظيمة، يجب أن ندرس لهذا الغرض العملية التاريخية بمساعدة المفهوم المادى للتاريخ. فى ظل هذه الظروف فإن دراسة الماضى، تكون بعيدة عن أن تكون مجرد هواية آثارية قديمة، وتصبح سلاحا ماضيا فى نضال الحاضر، بهدف تحقيق مستقبل أفضل.

كارل كاوتسكى برلين، سبتمبر، ١٩٠٨

القسم الأول شخصية يسوع

الفصل الأول

المصادر الوثنية

أيا ما كان موقفنا تجاه المسيحية، فيجب أن نعترف بها بوصفها واحدة من أكثر الظواهر العملاقة في التاريخ البشرى كما هو معروف لدينا. لانستطيع أن ننظر بدون إعجاب شديد للكنيسة المسيحية، التي استمرت حوالى عشرين قرناً، والتي نعتبر أنها ما زالت مليئة بالقوة، أقوى في عديد من البلدان حتى من الدولة. يصبح من ثم، كل شيء، يمكن أن يسهم في فهم هذه الظاهرة المهيبة اهتماماً حاضراً هاماً للغاية ذو مغزى عملى عظيم، هذا هو موقفنا إزاء دراسة أصل هذا التنظيم، الذى سوف يعود بنا آلاف الأعوام فى التاريخ.

تقودنا القوة الحالية للمسيحية لأن ننظر لدراسة بداياتها باهتمام أعظم مدى أكثر من أى بحث تاريخى آخر، ولو أنها تعود بنا فقط قرنين ، ولكنها تجعل أيضاً بحث هذه البدايات أكثر صعوبة مما إذا كانت خلافاً لذلك.

لقد أصبحت الكنيسة المسيحية تنظيمًا للهيمنة، سواء فى صالح رجالاتها أو رجالات تنظيم آخر، الدولة، حيث نجحت الأخيرة فى السيطرة على الكنيسة. إن من سيقا تل هذه القوى يجب أن يقاتل الكنيسة أيضاً. النضال من أجل الكنيسة، مثله فى ذلك مثل النضال ضد الكنيسة، قد أصبح من ثم قضية حزبية، الذى ترتبط به المصالح الاقتصادية الأشد أهمية. بالطبع، من المحتمل للغاية أن يُعتم هذا الوضع وحده على المتابعة الموضوعية لدراسة تاريخية عن الكنيسة، وقد دعا الطبقات الحاكمة لفترة طويلة لمنع أى بحث عن بدايات المسيحية على الإطلاق، لإضفاء طابعاً إلهياً على الكنيسة التى تقف فوق وما وراء النقد البشرى.

نجح " التنوير " البورجوازى فى القرن الثامن عشر أخيراً فى التخلص من تلك الهالة الإلهية مرة وإلى الأبد. فلم يكن البحث العلمى عن أصل المسيحية ممكناً حتى آنذاك. ومن الغريب أن نقول، أن العلم غير الإكليركى قد ابتعد عن هذا الحقل حتى فى القرن التاسع عشر، وبدا أنه ينظر إليه باعتباره مازال ينتمى لمجال اللاهوت على وجه الحصر، وهكذا ليس موضع اهتمام العلم على الإطلاق. إن عدداً عظيماً من المؤلفات التاريخية، التى كتبها أكثر المؤرخين البورجوازيين أهمية فى القرن التاسع عشر، تعالج الفترة الإمبراطورية الرومانية بخطو متهيب واضح لأكثر ظواهر هذه الحقبة أهمية، أى، نشوء المسيحية. وهكذا قدم مومسن، فى المجلد الخامس من كتابه التاريخ الرومانى، دراسة مفصلة عن تاريخ اليهود فى ظل

القياصرة، ولم يكن بمقدوره تجنب ذكر المسيحية عرضاً في هذا القسم، ولكن تظهر المسيحية في مؤلفه كحقيقة ناجزة، المعرفة بوجودها مفترض مسبقاً. إجمالاً، يمكن القول بأن اللاهوتيين وخصومهم فقط، الدعاة أحرار الفكر هم من أظهروا حتى الآن اهتماماً ببدايات المسيحية.

لم يكن بالضرورة جبناً هو ما أعاق المؤرخين البورجوازيين، إلى الحد الذي كانوا ينتجون فيه التاريخ وحده وليس أيضاً أدباً جدالياً من أن ينشغلوا بأصل المسيحية. لقد كان سبباً كافياً لعدم التوجه لهذه المسألة الضالة التعسة للمصادر التي ينبغي أن نستخرج منها معرفتنا بهذا الموضوع.

إن المسيحية وفقاً لوجهة النظر التقليدية هي من خلق رجل واحد هو يسوع المسيح، ووجهة النظر هذه لم تنمحي تماماً بأية حال. من المحقق، على الأقل، في الدوائر "المستنيرة"، "المثقفة" أن يسوع لا يعتبر بعد إلهاً، ولكنه مازال يعد شخصية استثنائية. فهو من انطلق ليؤسس ديانة جديدة ونجح في سعيه إلى درجة مرموقة واضحة في عمومها لحد بعيد. لم يتبنَ وجهة النظر هذه اللاهوتيون المستنيريون فقط، ولكن أيضاً المفكرون الأحرار الجذريون، يميز الأخيرون أنفسهم عن اللاهوتيين فقط بواسطة النقد الذي يوجهونه لشخصية يسوع، حيث يحاولون أن يطرحوا منها إلى أقصى مدى ممكن كل ما هو نبيل.

على أية حال، حتى قبل نهاية القرن الثامن عشر، فإن المؤرخ الإنجليزي جيبون، في كتابه تاريخ تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية (الذي كتب من ١٧٧٤ حتى ١٧٨٨) أشار بسخرية ناعمة للحقيقة المذهلة بأنه لا أحد من معاصري يسوع قد روى أي شيء عنه، بالرغم من حقيقة وجود مزاعم بأنه اجترح مثل تلك الأفعال العجيبة.

"ولكن كيف نعذر عدم الانتباه المهم للعالم الوثني والفلسفي تجاه هذه الأدلة التي قدمتها يد كلى القدرة، ليس لعقلهم، بل لأحاسيسهم؟ في خلال عهد المسيح، ورساله، وتلاميذهم الأول، كان المذهب الذي بشروا به قد صادقت عليه آيات لاتحصى. مشى المفلوج، رأى الأعمى، وشفى المرضى، وقام الموتى، وطُرد الشياطين، وأوقفت قوانين الطبيعة مراراً لصالح الكنيسة. ولكن حكماء اليونان وروما التفتوا عن المشهد المهول، مواصلين الاهتمامات العادية بالحياة والدراسة، وظهروا كأنهم غير واعين بأي تغيير في الحكومة الأخلاقية أو الفيزيائية للعالم".

طبقاً للتقليد المسيحي، فإن الأرض كلها، أو على الأقل كل فلسطين، قد غمرها الظلام لثلاث ساعات بعد موت يسوع. وقد جرى هذا أثناء حياة بليني الأكبر، الذي

كرس فصلا خاصا فى كتابه التاريخ الطبيعى عن موضوع الكسوفات، ولكنه لا يقول شيئاً عن هذا الكسوف (جيبون، الفصل ١٥ تدهور وسقوط، لندن، ١٨٩٥. المجلد ٢ ص ص ٦٩-٧٠).

ولكن حتى إذا تغاضينا عن المعجزات، فمن الصعب أن نفهم أن شخصية مثل يسوع الأنجيل، الذى أثار وفقا للرواية، مثل هذا الاضطراب فى عقول البشر، يمكن أن يواصل تحريضه ويموت فى النهاية باعتباره شهيد قضية بدون أن يكرس له معاصروه من الوثنيين والعبرانيين ولو كلمة واحدة.

يذكر يسوع أول ما يُذكر من قبل مؤلف غير مسيحي فى كتاب الآثار اليهودية Jewish Antiquities (الذى كتبه) يوسيفوس فلافيوس. الفصل الثالث، من الكتاب الثامن عشر، الذى يتناول الوالى بنطس البيلاطى، وهو يقول، من بين أشياء أخرى:

"حوالى هذا الوقت عاش يسوع، رجل حكيم، إذا كان يمكن أن يسمى رجلاً، لأنه حقق معجزات وكان معلماً للرجال، الذين قبلوا حقيقته بسرور، ووجد كثيراً من الأتباع بين اليهود والهيلينيين. هذا الرجل كان المسيح. بالرغم من أن البيلاطى قد صلبه آنذ وفقاً لإتهام أكثر الرجال امتيازاً من شعبنا، فإن هؤلاء الذين أحبوه بداية بقوا مخلصين له مع ذلك. لأنه ظهر لهم فى اليوم الثالث مرة أخرى، نهض لحياة جديدة، كما تنبأ أنبياء الرب بهذا وبآلاف الأشياء المعجزة الأخرى عنه. منه أخذ المسيحيون اسمهم؛ ولم تتوقف طائفتهم منذئذ".

يتحدث يوسيفوس مرة أخرى عن المسيح فى الكتاب الثانى عشر، الفصل التاسع، ١، قائلاً بأن رئيس الكهنة أنانوس، فى ظل حكم الوالى "ألبينوس (فى عهد نيرون) قد نجح فى تقديم "يعقوب أخ يسوع، المسمى بالمسيح للمحاكمة، مع عدد آخر أشير إليهم باعتبارهم منتهكى الناموس، ورجموا".

لطالما قدر المسيحيون الأدلة، لأنها كلمة لم تصدر عن مسيحي، وإنما من يهودى وفريسي، ولد فى عام ٣٧ ب.م، وعاش فى أورشليم، ومن المحتمل أن كانت لديه من ثم معلومات موثوقة للغاية تتعلق بيسوع. أضف إلى ذلك، فإن شهادته هى الأكثر أهمية، مادام، لكونه يهودياً، ليس لديه سبب لتلوين الحقائق لصالح المسيحيين.

ولكن هذا التمجيد المغالى فيه ليسوع من اليهودى الورع تحديداً جعل هذا المقطع فى مؤلفه يبدو مشكوكاً فيه حتى بالنسبة للدارسين الأوائل. لقد نوقشت مدى الثقة فيه

قبلا فى القرن السادس عشر، ومن المؤكد الآن أنه تزييف لم يكتبه يوسيفوس على الإطلاق .

لقد أضيف فى مجرى القرن الثالث من قبل ناسخ مسيحي، يبدو من الواضح أنه قد صدم لأن يوسيفوس لم يقدم أية معلومات تتعلق بشخص يسوع، بينما يورد أشد الثرائيات طفولية من فلسطين. لقد شعر المسيحي الورع عن صواب بأن عدم ذكره كان يساوي إنكار وجوده، أو على الأقل أهمية، مخلصه، وأصبح فضح إدراجه لهذا النص من الناحية العملية دليلا ضد يسوع.

ولكن المقطع الذى يتعلق بيعقوب هو أيضاً ذو طبيعة مشكوك فيها للغاية. إنه من الصحيح أن أوريجن، الذى عاش من ١٨٥ حتى ٢٥٤ ب.م، يذكر، فى تعليقه على متى Matthew، مقطعا عند يوسيفوس يتعلق بيعقوب. وهو يلاحظ فى هذا الصدد أنه من الغريب أن يوسيفوس مع ذلك لم يؤمن بيسوع باعتباره المسيح. وهو يقتبس مرة أخرى هذا التصريح الخاص بيوسيفوس فى جداله ضد سلسوس، ويشير مرة أخرى إلى شكية يوسيفوس. إن كلمات أوريجن هذه هى واحدة من الأدلة التى تظهر أن كتاب يوسيفوس فى شكله الأصلى لم يكن فيه المقطع الذى يتعلق بيسوع الذى يعترف فيه بالأخير باعتباره المسيح، المخلص. يبدو الآن أن المقطع الذى يتعلق بيعقوب، الذى وجده أوريجن عند يوسيفوس، هو أيضاً إدراج مسيحي، لأن هذا المقطع كما اقتبسه أوريجن مختلف تماما عن ذلك الذى تضمنته نصوص يوسيفوس التى وصلت إلينا. يعرض اقتباس أوريجن تدمير أورشليم كعقاب على إعدام يسوع. هذا الإدراج لم يمر إلى نصوص يوسيفوس الأخرى ومن ثم لم يحفظ. ولكن المقطع الذى وصل فى نصوصنا ليوسيفوس، من ناحية أخرى، لم يقتبس من قبل أوريجن، بينما يذكر المرات الثلاث الأخرى فى مناسبات متنوعة. وهذا بالرغم من حقيقة أنه قد اقتبس بعناية كل الأدلة عند يوسيفوس التى كانت تحبذ على الأرجح الإيمان المسيحى. إنه من ثم من المعقول أن نفترض أن مقطع يوسيفوس الذى وصل إلينا هو تزوير أيضا، وأنه قد أدرج من قبل أحد المسيحيين الورعين، من أجل مجد الرب الأعظم، بعد زمن أوريجن، ولكن قبل زمن إيوسيبوس، الذى يقتبسه.

ليس فقط ذكر يسوع ويعقوب عند يوسيفوس ولكن أيضاً يوحنا المعمدان (الآثار، ١٨، الفصل الخامس، ٢) هو موضع شك باعتباره إدراجا .

نحن من ثم نجد إدراجا مسيحيا لدى يوسيفوس عند كل خطوة، من البدايات الأولى للقرن الثانى. كان صمته فيما يتعلق بالشخصيات الرئيسية للأنجيل مصدما للغاية ببساطة، وكان لابد أن يتغير.

ولكن حتى لو أن التصريح المتعلق ببيعقوب حقيقيا، فسوف يبين على الأكثر أنه كان هناك يسوع ما يدعى المسيح، أى، المخلص. وليس من المحتمل أن يثبت أكثر من هذا. ولكن حتى إذا أقررنا بأن المقطع حقيقى، فلن يكون أقوى من خيط عنكبوت وسوف يجد اللاهوت النقدى من الصعوبة بمكان أن يوقف عليه شكلا إنسانيا. لقد كانت هناك وفرة من المُسحاء الكذبة فى زمن يوسيفوس، تعود حتى القرن الثانى، حتى أنه ليس لدينا أكثر من ذكر موجز عنهم. كان هناك يهوذا من الجليل، ثيوداسى، مصرى بغير اسم، سامرى، وبار كوخبى. وربما كان بالفعل هناك يسوعا بينهم. كان اسم يسوع مألوفاً للغاية بين اليهود - يوشع، يوسع، المخلص".

يفيدنا المقطع الثانى عند يوسيفوس على الأكثر أنه من بين المحرضين الذين كانوا يشتغلون فى فلسطين باعتبارهم مخلصين، ومرسومين من الرب، كان هناك واحد يسمى يسوع. لا يخبرنا المقطع بأى شيء يتعلق بحياته وعمله مطلقا.

يذكر يسوع عند كاتب غير مسيحي فى حوليات Annals المؤرخ الرومانى، تاسيت، التى ألّفت حوالى العام ١٠٠ ب.م. فى الكتاب الخامس عشر، وصف حريق روما فى ظل نيرون، ونقرأ فى الفصل ٤٤ مايلي:

"من أجل أن ينفي الرواية (التي وضعت اللوم بشأن هذا الحريق على نيرون) فقد أتهم أشخاصا كان يسميهم الشعب مسيحيين، والذين كرهوا بسبب أعمالهم الرديئة، بهذا الذنب، ومورست أشد العقوبات إيلاما عليهم. ومن أخذوا عنه اسمهم، المسيح، كان قد أعدم فى حكم طيباريوس من قبل الوالى بيلاطس البنطى، ولكن بالرغم من أن هذه الخرافة كانت قد قمعت للحظة هكذا، فقد ثارت مرة أخرى ليس فى اليهودية فحسب، الموطن الأصلي لهذا البلاء (Mali)، ولكن حتى فى روما نفسها، فى أى مدينة كل إعتداء وكل عار (atrocia aut pudenda) يجد ملاذا وانتشاراً واسعاً. فى البداية قبض على قلة الذين اعترفوا، وبعد ذلك بناء على اتهامهم، قبض على عدد كبير من الآخرين، الذين لم يكونوا، على أية حال، قد اتهموا بجريمة الإحراق عمدا وإنما بجريمة كراهية الإنسانية. لقد جعل إعدامهم تسليّة عامة، فغطوا بجلود الوحوش المفترسة ثم مُزقوا بعدئذ من الكلاب أو صلبوا، أو أعدوا للمحرقة، ثم بعدئذ حرقوا بمجرد أن هبط الليل، لإضاءة المدينة. قدم نيرون حدائقه من أجل هذا المشهد، بل أعد حتى ألعاب السيرك التى اختلط فيها مع الشعب فى زى سائق مركبة، أو اعتلى مركبة سباق. وبالرغم من أن هؤلاء الرجال كانوا مجرمين يستحقون أشد عقوبة، فقد وجد هناك بعض التعاطف معهم، لأنه بدا أنه قد ضحى بهم لا من أجل الصالح العام، وإنما بسبب قسوة رجل فرد".

ليست هذه الشهادة بالتأكيد تزويراً صنعه المسيحيون في صالح المسيحيين. "مما لاريب فيه، فقد طعن في صدقها. لأن ديوكاسيوس لايعرف شيئاً عن اضطهاد المسيحيين في ظل نيرون. على أية حال، فإن ديوكاسيوس قد عاش في القرن التالي على تاسيت. أما سويتينيوس، الذي كتب ليس بعد فترة طويلة من تاسيت، فيروى في سيرته الذاتية عن اضطهاد للمسيحيين، "الناس الذين اعتنقوا خرافة جديدة شريرة" (الفصل السادس عشر).

ولكن عن يسوع، لايقول لنا سويتينيوس شيئاً على الإطلاق، وتاسيت لاينبئ حتى بإسمه. المسيح، الكلمة الإغريقية "المرسوم"، ليست أكثر من الترجمة اليونانية للكلمة العبرية "المخلص". فيما يتعلق بنشاطات المسيح "ومضمون تعاليمه ليس لدى تاسيت شيء يقوله.

وهذا هو كل ما تخبرنا به المصادر غير المسيحية في القرن الأول من عصرنا عن يسوع.

.....

الفصل الثانى

المصادر المسيحية

ولكن ألا تفيض المصادر المسيحية على نحو أكثر غزارة؟ أليس لدينا فى الأنجيل أكثر الروايات دقة عن تعاليم وتأثير يسوع؟

مما لاشك فيه أنها دقيقة. ولكن جدارتها بالتصديق أمر مختلف تماما. إن مثال التزوير عند يوسفوس قد جعلنا بالفعل ملمين بسممة مميزة للكتابة المسيحية الأولى للتاريخ، أى، لامبالاتها الكاملة بالحقيقة. لم يكن الكتاب معنيون بالحقيقة، وإنما بتحقيق غايتهم، ولم يكونوا مرهفين على الإطلاق فى اختيار وسائلهم.

حتى نكون عادلين تماما، يجب أن نعترف أنهم لم يكونوا مختلفين فى هذا الصدد عن زمانهم. لم يكن الأدب الدينى اليهودى أفضل بأى حال، والحركات الصوفية " الوثنية " السابقة والتالية على بداية العصر المسيحى كانت موصومة بذات الانتهاك. إن سذاجة العوام، والرغبة فى خلق تأثير، وكذلك عدم الثقة فى قدراتهم الخاصة، والحاجة إلى التعلق بسلطات مافوق إنسانية، افتقار الحس بالواقع، وهى خصائص سوف نفحص أسبابها لاحقا، كانت حينئذ تفسد كامل جسد الأدب خاصة حيثما تمايز عن الخطوط التقليدية. سوف نجد أدلة كثيرة على هذا فى الأدبين المسيحى واليهودى. ولكن الحقيقة هى أن الفلاسفة الصوفيين أيضاً كانوا مائلين فى هذا الاتجاه - مما لاريب فيه أنهم كانوا مرتبطين بوثق بالمسيحية - كما ظهر على سبيل المثال، من جانب الفيثاغورثيين الجدد، وهى طائفة نشأت فى القرن السابق على ميلاد المسيح. مذهبهم، خليط من الأفلاطونية والرواقية، غنى بالإيمان بالرؤى، جائع للمعجزات، إدعى أنه تعاليم الفيلسوف القديم فيثاغورث، الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد، والذى عرف عنه كان ضئيلا للغاية. وهكذا أصبح من الأسهل نسبة أى شيء احتاج إلى نفوذ اسم عظيم إليه.

"لقد رغب الفيثاغورثيون الجدد فى أن يُعدوا تلامذة حقيقيين للفيلسوف الساموسى القديم: حتى يجعلوا من الممكن عرض تعاليمهم باعتبارها فيثاغورثية حقيقية، فقد قاموا بتلك التشويهات الأدبية التى لاحصر لها والتى نسبت كل شيء بلا تردد بغض النظر عن جدته، أو لأى حد يمكن أن يكون معروفا جيدا أصله الأفلاطونى أو الأرسطى، إلى فيثاغورث أو أرخيتاس".

والحالة بصدد الأدب المسيحى الأولى مشابهة تماما، فقد كان من ثم فى وضع من التشويش تطلب العمل المثابر لبعض العقول الأكثر ذكاء فى القرن الماضى لترتيبه، بدون تحقيق أية نتائج ملحوظة.

دعنا نشير إلى حالة واحدة وكيف كان التشوش الناتج عن خلط أكثر المفاهيم تنوعا فيما يخص أصل الكتابات المسيحية الأولية عظيما. إن الحالة المعنية هي رؤيا القديس يوحنا، وهي جوزة يصعب كسرها بصفة خاصة. وعند بفليدر ما يقال حول هذا الموضوع في كتابه المسيحية الأولية، كتاباتها وتعاليمها فيما يلي:

"كان كتاب دانيال هو الأبعد في هذه "النبوءات"، وقد وضع نموذجا للسلاسل كلها. حين جرى البحث عن مفتاح لتفسير رؤى دانيال في أحداث الحرب اليهودية في زمن أنطيوخوس إبيفانس، فقد افترض بشكل صحيح أن النبوءة اليوحانية (نسبة إلى يوحنا) كان ينبغي أن تفسر استنادا لظروف زمانها. وفقا لذلك، حين فُسر العدد الصوفي ٦٦٦ في الإصحاح الثالث، الآية ١٨، غالبا بشكل متزامن من قبل عدة باحثين (بنارى، وهيتزيج، ورويس) استنادا للقيمة العددية للحروف العبرية، باعتباره يعنى الإمبراطور نيرون، فقد استخلصت النتيجة من مقارنة الإصحاحين الثالث عشر والسابع عشر بأن النبوءة قد ظهرت فور موت نيرون عام ٦٨. ظلت هذه لفترة طويلة وجهة النظر السائدة، خاصة في مدرسة توبينجن الأسبق، التي استندت على الافتراض المسبق، والتي مازالت تتمسك به بحزم، ورأت أن تأليف الكتاب من قبل الرسول يوحنا، افترض أن المفتاح لكامل الكتاب كان يجب أن يوجد في واقع الصراع الحزبي بين اليهوديين Judaisers وأتباع بولس - وهو تفسير لم يكن ممكنا الخوض فيه بالتفصيل بدون اعتباطية عظيمة (واضحة بصفة خاصة عند فولكمار). أعطى تلميذ فينيسكر، دانيال فولتر، دافعا جديدا نحو بحث كامل للمشكلة عام ١٨٨٢، الذى صاغ الفرضية استنادا إلى أن هناك مراجعة متكررة وتوسيع أولى للوثيقة من قبل مؤلفين متعددين بين ٦٦ و ١٧٠ (مثبتا فيما بعد، عام ١٤٠ باعتبار الحد الأدنى). خضع منهج النقد الموثق المطبق هنا لأكثر التغييرات تنوعا في الخمسة عشر عاما التالية. افترض فيشر وثيقة يهودية بوصفها الأساس، الذى اشتغل عليه محرر مسيحي ؛ وافترض ساباتيير وشون، من ناحية أخرى وجود وثيقة مسيحية أصلية أدرجت داخلها مواد يهودية ؛ وميز ويلاند مصدرين يهوديين، يعود تاريخهما إلى زمني نيرون وتيتوس، ومحررا مسيحيا من عهد تراجان، كما ميز سبيتا وثيقة أولية مسيحية من عام ٦٠ ب.م، ومصدرين يهوديين من عام ٦٣ ق.م. وعام ٤٠ ب.م ؛ ومنقح مسيحي من عهد تراجان، وشميدت، ثلاث مصادر يهودية ومنقحين مسيحيين ؛ أما فولتر (فى مؤلف ثان عام ١٨٩٣)، فنبوءة أصلية من عام ٦٢، وأربع تنقيحات فى ظل تيتوس، دوميتيان، تراجان، وهادريان. وقد كانت نتيجة هذه الفرضيات المتعارضة معا والمعقدة لهذا الحد أو ذاك، أخيرا، أن " (من لا صلة له بالموضوع) تلقى انطبعا بأن لا شيء مؤكد ولا شيء مستحيل فى حقل نقد العهد الجديد، (يوليسر، مدخل، "ص، ٢٨٧)". ولكن بفليدر

يعتقد مع ذلك بأن "الأبحاث المثابرة للقرنين الماضيين" قد أثمرت "نتيجة محددة"، مع ذلك يجرؤ بالكاد على التصريح بذلك فى كلمات وافرة، بل يقوله فى شكل ما "يبدو" له هكذا. ويمكن القول بأن النتائج المطمئنة المعقولة بالنسبة للأدب المسيحى الأولى قد جرى الحصول عليها غالبا وبدون استثناء بطريقة سلبية، أى عبر التحقق مما كان مزيفا بالتأكد. من المؤكد أن قلة ضئيلة فقط من الكتابات المسيحية الأولى كتبت حقا من قبل المؤلفين الذين نسبت إليهم، أما بالنسبة للقسم الأعظم فقد ظهرت بشكل متأخر كثيرا عن التواريخ التى شاع أنها لها، وأن نصها الأصلي قد شوه بفضاعة فى حالات كثيرة بواسطة التنقيحات التالية والإضافات. وأخيرا، فمن المؤكد أنه لم يكتب أى من الأناجيل أو الأعمال المسيحية الأولى الأخرى من قبل أى معاصر ليسوع. يعتبر الإنجيل المسمى باسم القديس مرقس الآن أقدم الأناجيل، وهو لم يكتب بالتأكيد قبل تدمير أورشليم، وهو ما يعرضه المؤلف باعتبار أنه قد جرى التنبؤ به من قبل يسوع، بمعنى آخر، فهو التدمير الذى يتعين أن يكون قد أنجز بالفعل حين كُتب الإنجيل. من ثم، فمن المحتمل أن يكون هذا الإنجيل قد كتب ليس أقل من نصف قرن بعد الزمن الذى نسب إليه باعتباره زمن موت يسوع. إن ما يتضمنه هو من ثم نتاج لتطور خرافة خلال نصف قرن. بعد مرقس يأتى لوقا، وبعده المسمى متى، وأخيرا يوحنا، فى منتصف القرن الثانى، وعلى الأقل قرن بعد ميلاد المسيح. كلما تقدمنا أبعد فى الزمان، كلما أصبحت هذه الأناجيل عجائبية. مما لا ريب فيه، فإن المعجزات تجرى أيضاً عند القديس مرقس، ولكنها بريئة تماما بالمقارنة مع التالية لها. وهكذا، ففى حالة القيامة من بين الأموات، استدعى مرقس يسوع إلى جانب ابنة يايروس، التى أشرفت على الموت. الكل يعتقد أنها ماتت، ولكن يسوع يقول: "لم تمت الصبية ولكنها نائمة" ويضع يده عليها، فتنهض (مرقس الإصحاح الخامس).

عند لوقا، لدينا إضافة إلى ذلك إعادة الحياة إلى فتى نابيين. لقد مات لفترة طويلة تكفى لأن يكون فى طريقة إلى المقبرة حين يقابله يسوع، جعله الأخير يقوم من نعشه (لوقا الإصحاح السابع).

بالنسبة للقديس يوحنا، فإن هذه الموضوعات ليست قوية بما فيه الكفاية. يسجل فى إصحاحه الحادى عشر "قيامه لعازر، الذى صار أربعة أيام فى القبر"، "وقد أنتن". وهكذا فإن يوحنا يضرب الرقم القياسى.

"ولكن الإنجيليون كانوا رجالا غاية فى الجهل، أفكارهم حول موضوعات كثيرة تتعلق بما كتبوه خاطئة تماما. وهكذا جعل لوقا يوسف يرحل مع مريم من الناصرة إلى بيت لحم بمناسبة إحصاء روماني إمبراطورى للسكان مستهدفاً القول بأن يسوع

قد ولد فى بيت لحم. ولكن لم يجر إحصاء كهذا فى ظل أغسطس. أضف إلى ذلك، أن اليهودية لم تصبح ولاية رومانية حتى بعد التاريخ المنسوب إلى ميلاد المسيح. أجرى إحصاء للسكان فى العام السابع ب.م، بالفعل ولكن القائمين على الإحصاء ذهبوا إلى مستوطنات السكان. لم يكن ضروريا على الإطلاق أن يذهبوا إلى بيت لحم .

سوف تكون لدينا فرصة العودة لهذه النقطة. أضف إلى ذلك، فإن إجراءات المحكمة عند محاكمة يسوع أمام بنطس البيلاطى لاتتفق لامع القانون الرومانى أو اليهودى. حتى فى حالات معينة، حيث لايسرد الإنجيليون فيها معجزات، يعرضون غالبا مواقف غير حقيقية ومستحيلة.

وهكذا تخمر التلفيق فى "إنجيل" عانى أكثر من عدة تغيرات على أيدي "المحررين" التاليين والنساخين من أجل تثقيف المؤمنين.

تنتهى أفضل نصوص مرقس على سبيل المثال، بالإصحاح السادس عشر، الآية ٨، عند النقطة التى تبحث فيها النساء عن يسوع الميت فى القبر، ولكنهن يجدن بدلا منه شابا لابسا حلة طويلة بيضاء، حيث هربن من القبر، و "كن خائفات".

لاتنتهى طبعاتنا التقليدية عند هذه النقطة، ولكن ماتلى ذلك كتب فى وقت أكثر تأخرا. مع ذلك، لم يكن من الممكن للمؤلف أن ينتهى بالآية الثامنة الموصوفة آنفا. لقد افترض رينان سلفا بأن ما تلى ذلك قد اصطنع لصالح القضية الخيرة، لأنه تضمن مادة تعارضت مع التفسير التالى.

من ناحية أخرى، فإن بفليدرر وآخرون انتهوا، بعد بحث شامل، إلى الاستنتاج بأن "إنجيل لوقا لم يحتو أصلا على شيء عن الأصل ما فوق الطبيعى ليسوع، وإنما "ظهرت الرواية فيما بعد، وأدرجت فى النص بإضافة الآيات ٣٤ ومايليهما فى الإصحاح الأول، ولل كلمات "على ما كان يظن " فى الإصحاح الثالث، ٢٣ " .

على ضوء ماسبق، فليس من المدهش أن يبدأ كثير من الباحثين فى صدر القرن التاسع عشر بالفعل، فى النظر للأنجيل باعتبارها غير ذات فائدة تماما بوصفها مصادر لسيرة يسوع، وقد ذهب برونوباور إلى حد الإنكار المطلق للحقيقة التاريخية ليسوع. وكان من الطبيعى ألا يكون اللاهوتيين مع ذلك قادرين على أن يتخلوا عن الأنجيل، وحتى الأكثر ليبرالية منهم قد بذل كل جهد ممكن للاحتفاظ بسلطتها. ماذا سوف يبقى من المسيحية إذا جرى التخلي عن شخصية المسيح؟ ولكن من أجل إنقاذ الأخير فهم مضطرون للجوء لأكثر التحريفات والتركيبات سذاجة.

وهكذا فإن هارناك، فى محاضراته عن أساسيات المسيحية (١٩٠٠) أعلن أن دافيد فردريك شتراوس ربما اعتقد أنه كان يوقع بمصادقية الأناجيل وكأنها قبعة مطهية، ولكن العمل التاريخى والنقدى لجيلين قد نجح مع ذلك مرة أخرى فى تأسيس هذه الحقيقة إلى مدى بعيد. ولا شك، أن الأناجيل ليست أعمالا تاريخية، "وهى لم تكتب من أجل أن تقدم حقائق كما حدثت، ولكن قصد بها أن تكون وثائق مُثَقَّة." مع ذلك فهى ليست بلا فائدة كمصادر تاريخية، خاصة وأن غرضها لم يكن غرضا مفروضا من الخارج، ولكنها تتوافق مع نية يسوع بعدة طرق" (ص ١٤).

ولكن ماذا يمكن أن نعرف عن نوايا يسوع، إذا نحنا جانباً ماتقوله "الأناجيل لنا! إن تعليل هارناك بأجمعه دعماً لجدارة الأناجيل بالتصديق بوصفها مصادر لحياة يسوع يبرهن فحسب على كيف أنه من المستحيل تقديم أى دليل واضح فى هذا الاتجاه. يضطر هارناك نفسه لاحقا فى مقالته، للاعتراف بأن كل شيء ورد خبره فى الأناجيل فيما يتعلق بالثلاثين عاما الأولى من حياة يسوع هو غير تاريخى، وكذلك الأحداث اللاحقة التى يمكن أن يتم البرهان على أنها مستحيلة أو مصطنعة. ولكنه يود مع ذلك أن يحفظ الباقي باعتباره حقيقة تاريخية. "وهو يعتقد أننا مازلنا نحتفظ بـ "صورة حية لتعاليم يسوع، للقضاء على حياته، وللانطباع الذى تركه عند "تلاميذه" (صفحة ٢٠). ولكن كيف يعرف هارناك أن تعاليم يسوع قد صورت بأمانة تامة فى الأناجيل؟ "اللاهوتيون شاكون لمدى أبعد حين يتناولون موضوع إعادة إنتاج مواظ أخرى فى تلك الأيام. وهكذا نجد زميل هارناك، بفليدرر، يخبرنا فى كتابه، المسيحية الأولية:

" أن تجادل حول تاريخية هذه الأحاديث أو "تلك فى أعمال الرسل هو عبث بالفعل. يحتاج المرء فقط إلى أن يضع فى اعتباره كل الشروط التى يتعين إنجازها حتى يتأمن (وجود) تسجيل لفظى دقيق، أو حتى صحيحا بصفه عامة، لمثل هذا الحديث. لقد كان يتعين أن يُدون فوراً من قبل أحد الحاضرين (بالفعل، حتى يؤمن تسجيلا دقيقا فقد كان يتطلب ان يدون بالاختزال) وهذه الملاحظات المتعلقة بالأحاديث المختلفة كانت فى حاجة إلى أن تحفظ من قبل المستمعين، الذين كانوا فى أغلبهم يهودا أو وثنيين والذين كانوا إما معادين أو محايدين تجاه ما قيل، لأكثر من نصف قرن، وأخيرا جمعت من قبل المؤرخ من أكثر المواضع اختلافا! إن من انجلت له كل هذه الاستحالات سوف يدرك مرة والى الأبد كيف أن عليه أن ينظر لكل هذه الأحاديث التى ترد، فى الواقع، فى أعمال الرسل، مثلها تماما مثلما عند كل المؤرخين العلمانيين للعصور القديمة، بوصفها مجرد إنشاءات حرة، يجعل فيها المؤلف أبطاله يتحدثون كما يظن أنهم ربما تحدثوا فى ظروف اللحظة".

سليم تماما ! ولكن لم لا ينبغي أن ينطبق كل هذا التعليل أيضاً على الأحاديث التي تخص "يسوع، التي تقع أبعد (من حيث الزمان) ماوراء مؤلفي الأنجيل أكثر من إنطباقه على الأحاديث في أعمال الرسل؟ لم لا ينبغي أن تكون أحاديث يسوع في الأنجيل شيئاً سوى أحاديث رغب مؤلفو هذه التسجيلات أن يكون يسوع قد ألقاها؟ وفي الحقيقة، فإن الأحاديث كما وصلت إلينا تحتوى على تناقضات عديدة، تعبيرات متمرده في بعض الأوقات وخانعة في أوقات أخرى، ويمكن تفسير ذلك فقط بحقيقة أن اتجاهات مختلفة كانت قائمة بين المسيحيين، وقد كيّف كل منها حديث المسيح، في تراثه، لحاجاته الخاصة. سوف أعطى مثلاً آخر للطريقة المتهورة التي شرع فيها الإنجيليون في هذه الأمور. قارن موعظة الجبل كما رواها لوقا مع التسجيل المتأخر لها عند متى. مازال هناك تمجيد للفقراء، وإدانة للأغنياء عند لوقا. في أيام متى، لم يعد كثيرون من المسيحيين يحبون هذا الأمر، وإنجيل القديس متى، من ثم، يُحول الفقراء الذين يُباركون إلى هؤلاء الفقراء في الروح، بينما حذفت إدانة الأغنياء كلية، إذا كانت هذه هي الطريقة التي عوملت بها الأحاديث التي كانت قد سجلت بالفعل فأى سبب يدعونا لأن نعتقد أن هذه الأحاديث التي زُعم أن يسوع قد ألقاها قبل نصف قرن من تسجيلها قد ترددت بأمانة في الإنجيل! في المحل الأول، من المستحيل كلية للتقليد الشفوى وحده أن يحفظ بأمانة كلمات حديث لم تدون على الفور، لفترة تجاوز خمسين عاماً بعد إلقاءه. أى واحد، بالرغم من هذه الحقيقة الواضحة، يدون أحاديث نُقلت بالسماع فقط، يشير بهذا الفعل ذاته لإستعداده لأن يكتب ما يسره، أو لسذاجته المطلقة في التصديق استناداً إلى القيمة الظاهرة لكل شيء قيل له.

من ناحية أخرى، يمكن إثبات أن كثيراً من تصريحات يسوع لا تصدر عنه ، بل كانت متداولة قبل زمنه.

على سبيل المثال، تعتبر صلاة الرب إسهاماً أصلياً من قبل يسوع. ولكن بفليدرر يشير إلى أن متعبدا قادشيا آراميا من العصور القديمة العظمى ينتهى في دعائه بهذه الكلمات:

"ليتقدس ويتمجد اسمه العظيم في العالم الذى خلقه وفق مشيئته. لتأت مملكته في حياتك وفي حياة كل بنى إسرائيل". من الواضح أن الجزء الأول من صلاة الرب المسيحية هو بمثابة تقليد.

ولكن إذا لم يكن بمستطاعنا أن نؤمن بأحاديث يسوع، أو بالتاريخ الباكر لحياته، وبالتأكيد ليس في معجزاته، ماذا يبقى في الأنجيل؟

وفقا لهارناك مازال لدينا تأثير يسوع على تلاميذه، وقصة الآله. ولكن الأنجيل لم
تؤلف من قبل تلاميذ يسوع، وهى لاتعكس الانطباع الذى خلقته هذه الشخصية،
وانما بالأحرى الانطباع الذى خلقه وصف شخصية المسيح على أفراد الطائفة
المسيحية. حتى أكثر الانطباعات قوة لايمكن أن تثبت شيئا يتعلق بالصحة التاريخية
لهذا الوصف. فربما تخلق حتى حكاية تتعلق بشخص خيالى أكثر الانطباعات عمقا
على نظام للمجتمع، على أن تكون الشروط التاريخية مواتية لإنتاج مثل هذا
الانطباع. كيف كان عظيما الانطباع الذى ولده جوته بروايته، آلام قورثير، رغم أن
الجميع قد عرف أنها كانت رواية فحسب، مع ذلك، كان لقورثير أتباع وأخلاف.

مارست الشخصيات المصطنعة بين اليهود نفوذاً بالغاً، خاصة فى القرون التى
سبقت وأعقبت زمن المسيح، وذلك حيثما توافقت الأفعال والتعاليم التى نسبت إليها
مع الحاجات العميقة للشعب اليهودى. ويظهر هذا، على سبيل المثال، بواسطة
شخصية النبى دانيال، الذى يروى عنه سفر دانيال أنه عاش فى ظل نبوخذ نصر،
وداريوس وكورش، بمعنى آخر، فى القرن السادس ق.م، وأظهر أعظم المعجزات،
ونطق بنبوءات تحققت فيما بعد بطريقة مذهلة. آخرها كانت أن بلال عظيم سوف
تصيب أورشليم، وسوف يخلصها منها أو ينقذها مخلص، حتى تنهض مرة أخرى
لمكانتها السابقة. دانيال هذا لم يعيش أبداً؛ السفر الذى يتناوله لم يكتب حتى حوالى
عام ١٦٥، فى وقت الانتفاضة المكابية ؛ يكاد من ثم أن يكون معجزة أن تنطبق كل
النبوءات التى زعموا أن النبى قد تفوه بها بدقة على كل الأحداث السابقة على العام
١٦٥، والتى أقنعت القارئ الورع أن النبوءة الختامية لمثل هذا النبى المعصوم
يجب أن تتحقق أيضاً بلا إخفاق. إن كل المسألة هى اختراع جرىء كان له مع ذلك
أعظم أثر ممكن ؛ الاعتقاد فى المخلص، الاعتقاد فى فادى سوف يأتى، وجد أقوى
دعم له فى هذا النبى، لقد أصبح النموذج لكل النبوءات التالية عن المخلص. ولكن
سفر دانيال يُظهر أيضاً كيف يلجأ الناس الورعين بلا تردد إلى الاحتيال فى هذه
الأيام حينما كانوا يهدفون إلى توليد تأثير قوى. إن التأثير الذى ولدته شخصية يسوع
من ثم ليس دليلا على واقعيته التاريخية.

لم يتبق لدينا من ثم شيء مما يظن هارناك نفسه أنه قد أنقذه باعتباره النواة التاريخية
الحقيقية، عدا قصة آلام المسيح. مع ذلك فإن هذه القصة أيضاً، تتداخل لحد بعيد مع
معجزات من البداية وحتى النهاية، منتهية بالقيامة والصعود، حتى أنه من المستحيل
تقريباً أن نكتشف النواة التاريخية فى حياة يسوع. وسوف تكون لدينا فرصة لاحقة
لنلم بمصادقية قصة الآلام.

ليست الحالة بالنسبة لبقية الأدب المسيحي الأولى أفضل. الظاهر أن كل شيء قيل إنه كُتب من قبل معاصري يسوع، على سبيل المثال، بواسطة تلاميذه، قد اعتبر تزويراً بمعنى أنه نتاج عصر تال على الأقل.

لا تتضمن الرسائل الإنجيلية التي نسبت للقديس بولس واحدة لم يجادل في حقيقتها أيضاً؛ إن عدداً منها تعرف عليه النقد التاريخي بصفة عامة باعتباره غير حقيقي. ومن المحتمل أن تكون أكثر هذه التزويرات صفاقة هي الرسالة الثانية إلى التسالونيكين. ينطق المؤلف في هذه الرسالة المقلدة الذي يخفى نفسه تحت اسم بولس بالتحذير التالي "أن لا تنزعزوا سريعاً عن ذهنكم ولا تترتاعوا لأبروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا" (٢،٢) (المقصود خطاب مزيف)، وأخيراً يصرخ المزور: "السلام بيدى أنا بولس الذي هو علامة في كل رسالة. هكذا أنا أكتب". بالطبع، هذه الكلمات فقط هي التي وشت بالتزوير.

ربما يحتوى عدد من رسائل بولس الأخرى بعضاً من المنتجات الأدبية الأقدم للمسيحية، ولكنها لا تذكر عملياً أى شيء عن يسوع بخلاف حقيقة أنه صُلب ثم قام من بين الأموات.

تصديقنا بالقيامة هو بالكاد أمر نحتاج إلى مناقشته مع قراءنا. من ثم، ليس هناك عملياً عنصر واحد في الأدب المسيحي يتعلق بيسوع قد يتحمل اختبار الفحص.

.....

الفصل الثالث

الصراع من أجل صورة يسوع

لا يبدو أن النواة التاريخية للرواية المسيحية الأولية التي تتعلق بيسوع تتجاوز في أفضل الأحوال مايقوله لنا تاسيت: أى، أنه فى زمن طيباريوس، أعدم نبى، الذى تنتمي اليه الطائفة المسيحية في أصولها. ماذا علّم هذا النبى وماذا كان تأثيره، هذا موضوع لم تتأتى لنا عنه بعد أقل المعلومات إيجابية. على أى حال، فهو بالتأكيد لم يجذب الانتباه الذى تُسبب إليه فى السجلات المسيحية الأولية، وإلا لكان يوسيفوس قد روى لنا شيئاً عنه بالتأكيد، لأنه يحكى مراراً عن أشياء ذات أهمية أقل كثيراً. إن تحريض وإعدام يسوع لم يثر أدنى اهتمام لدى معاصريه على أى حال. ولكن إذا كان يسوع قد كان محرضاً فعلاً عبثته طائفة باعتباره بطلها وقائدها، فبالأكيد سوف تنمو أهمية شخصيته بنمو طائفته. بدأ يتشكل الآن تاج من الخرافات حول شخصيته، التى سوف تنسج حولها النفوس الورعة أي شيء رغبوا فى أن يكون نموذجهم/ مثالهم قد قاله أو فعله. ولكن حيث بات يسوع يعتبر أكثر فأكثر، كمثال لكل الطائفة، فقد حاولت أكثر كل المجموعات المتنافسة العديدة، التى تكونت منها الطائفة فى البداية، أن تعزو لشخصيته تحديداً تلك الأفكار التى كانت كل مجموعة أشد ارتباطاً بها، بحيث يمكنها أن تستشهد بهذا الشخص بوصفه حجة. وهكذا فإن صورة يسوع، كما صوّرت فى الخرافات التى جرى تناقلها فى البداية من فم إلى فم ودونت فيما بعد فحسب، أصبحت أكثر فأكثر صورة شخصية مافوق إنسانية، أو تناسخ لكل المثل التى طورتها الطائفة الجديدة، غير أنها أصبحت بالضرورة أيضاً مليئة بالتناقضات، و لم تعد السمات المتنوعة للصورة متوافقة مع بعضها البعض.

حين كانت الطائفة قد انتهت إلى أن تكون تنظيمًا ثابتًا، وأصبحت كنيسة شاملة، حيث توصل اتجاه نوعى فيها إلى أن يهيمن، كان واحد من مهماتها الأولى أن تضع قانوناً ثابتاً، وقائمة بكل هذه الكتابات المسيحية الأولية التى اعترفت بها باعتبارها حقيقية. وسوف يعترف بالطبع بمثل هذه الكتابات لأنها كتبت من وجهة نظر هذا الاتجاه المهيمن. وعليه فقد رُفضت كل هذه الأناجيل والكتابات الأخرى التى احتوت صورة ليسوع لم تتفق مع هذا الاتجاه الخاص بالكنيسة بوصفها "هرطقة"، ومزورة، أو على الأقل مشكوك فى صحتها (أبوكريفا)، وحيث أنها غير جديرة بالثقة، فلم تنتشر، بل حتى حُظرت إلى أبعد مدى ممكن، وأهلكت المخطوطات، مما مؤداه أن قلة ضئيلة منها قد بقيت. كانت الكتابات التى سُمح بدخولها فى القانون (الكتابات المعترف بها) أيضاً "محررة" من أجل إدخال أكبر وحدة ممكنة عليها، ولكن لحسن الحظ كان التحرير قد أجرى بغير مهارة إلى حد أن آثاراً من تقويمات

متناقضة أبكر مازالت تتكشف هنا وهناك، وهي تسمح لنا بأن نخمن مسار تاريخ الكتاب.

ولكن الكنيسة لم تنجح في هدفها، الذى كان مرتبطاً بإنتاج وحدة في وجهات النظر داخل الكنيسة بهذه الطريقة ؛ وكان هذا مستحيلاً. كانت الشروط الاجتماعية المتغيرة تولد دائماً اختلافات جديدة في وجهات النظر والطموحات داخل الكنيسة، وبفضل التناقض الذى حفظته صورة يسوع كما اعترفت بها الكنيسة بالرغم من التحرير والحذف الذى جرى عمله، فقد نجحت وجهات النظر المتنوعة هذه فى أن تجد دائماً فى هذه الصورة نقاطاً تخدم أغراضها. من ثم، أصبح الصراع بين القوى المتعارضة اجتماعياً داخل إطار الكنيسة المسيحية بشكل غير حقيقى مجرد صراع يتعلق بتفسير كلمات يسوع، واعتقد المؤرخون الزائفون، من ثم، بسيطى العقول بما يكفى أن كل الصراعات الكبرى وغالبا الدموية داخل العالم المسيحى، التى حوربت تحت رايات دينية، لم تكن شيئاً أكثر من نضالات من أجل مجرد كلمات، ومن ثم علامة مؤسفة على غباوة الجنس البشرى. ولكن حينما تعزى ظاهرة اجتماعية جماهيرية إلى مجرد غباوة البشر المشاركين، فإن هذه الغباوة الظاهرة تكون غباوة الملاحظ والناقد فحسب، الذى لم ينجح بوضوح فى أن يجد وجهته بين المفاهيم والآراء الغربية عليه، أو فى النفاذ إلى الشروط المادية والدوافع الكامنة وراء هذه الأنماط من الفكر. كقاعدة فإن الحرب قد شنت بين مصالح شديدة الواقعية ؛ فحين تتجادل الطوائف المسيحية المتعددة حول تفسير مختلف لكلمات المسيح فإن مثل هذه المصالح بالفعل هى التى تكون فعالة.

إن نشوء نمط التفكير الحديث وأقول نمط التفكير الإكليركى قد حرم بالطبع هذه الصراعات التى تتعلق بصورة المسيح من مغزاها العملى أكثر فأكثر، مختزلاً إياها إلى مجرد مباحكات من جانب اللاهوتيين، الذين تدفع لهم الدولة حتى يستبقوا السيكلوجية الإكليركية حية، والذين يجب أن يؤدوا مقابلاً ما لقاء مرتباتهم.

إن نقد الإنجيل الحديث، بتطبيق المناهج التاريخية لبحث المصادر على إصحاحات الإنجيل، أعطى حافزاً جديداً لبذل جهد لخلق شكل لشخصية يسوع. وقد قوض هذا النقد يقينية الصورة التقليدية ليسوع، ولكن لأنها وظفت بصفة رئيسية بأيدي اللاهوتيين، فنادراً ما تقدمت، انتهاءً إلى المدى الذى أعلنته وجهة النظر التى طرحها أولاً برونوباور، وبعد ذلك آخرين، بصفة خاصة أ. خالتوف، وهى أنه من المستحيل على ضوء الأوضاع الحالية للمصادر أن نكون صورة جديدة على الإطلاق. لقد حاول النقد مرة بعد أخرى أن يستعيد هذه الصورة، مع تكرار نفس النتيجة التى أنتجتها سابقاً مسيحية القرون الأخرى: يضع كل واحد من أصدقاءنا

اللاهوتيين مثله الخاصة، ورؤوحه الخاصة، فى صورته عن يسوع. تشبه أوصاف يسوع فى القرن العشرين تلك التى كُتبت فى القرن الثانى وفى هذا فهى لاتصور ماذا علّم يسوع بالفعل، ولكن مارغب منتجو هذه الصور فى أن يكون قد علم.

يعطينا خالتوف تقييما دقيقا للغاية لهذا التحول لصورة يسوع: "من وجهة النظر اللاهوتية الاجتماعية، فإن صورة يسوع هى من ثم أكثر التعابير الدينية وأشدّها تساميا لكل القوى الاجتماعية والأخلاقية الفعالة فى العصر محل البحث؛ وتزودنا التحولات التى عانتها دوما صورة المسيح هذه، خاصة توسعاتها وتقلصاتها، وإضعاف السمات القديمة وعودة ظهورها فى ألوان جديدة بأكثر الأدوات رهافة التى يمكن أن نقيس بها التغيرات التى تعاينها الحياة المعاصرة، من ذرى مثلها الروحية، حتى أدنى أعماق أكثر ظواهرها مادية. سوف تُظهر صورة المسيح هذه حيناً سمات الفيلسوف الإغريقى، وحيناً سمات القياصرة الرومان، ثم مرة أخرى سمات الإقطاعي، ومعلم الحرفة، الفلاح القن المعذب، والبورجوازي الحر، وكل هذه السمات حقيقية، وكلها حية حتى أصبح لاهوتى الكلية وقد استحوذت عليهم فكرة غريبة وهى إثبات السمات الفردية لزمهم الخاص بوصفها الملامح التاريخية الأصلية لمسيح الأناجيل. وفى أفضل الأحوال، صنعت هذه السمات لتبدو تاريخية من خلال حقيقة أن القوى الأكثر اختلافاً، وحتى الأكثر تعارضاً، كانت فعالة فى الفترات الوليدة والمنشئة للمجتمع المسيحى، وأن كل واحدة من إجمالى هذه القوى تحمل شبيهاً معيناً مع القوى الفعالة اليوم. ولكن صورة المسيح تبدو اليوم مليئة تماماً بالمتناقضات للوهلة الأولى. إنها مازالت تحمل إلى مدى معين سمات القديس القديم أو إله السموات، وكذلك أيضاً الملامح الحديثة كلية لصديق البروليتارى وحتى لقائد عمالى. ولكن هذا التناقض هو انعكاس لأكثر التضادات جوهرية التى تحى حياتنا المعاصرة فحسب". وفى مقتطف أسبق:

"إن أكثر ممثلى ما يسمى باللاهوت الحديث يستخدمون مقصاتهم حين يقتبسون طبقاً للمنهج النقدي المحبب إلى دافيد شتراوس: انهم يبترون العناصر الأسطورية فى الأناجيل، ويعلنون أن الباقي هو النواة التاريخية. ولكن حتى اللاهوتيون يدركون أن هذه النواة قد جرى تلميعها أيضاً لتسند عملياتهم.... ففى غياب كل اليقين التاريخي، فإن اسم يسوع قد أصبح وعاء فارغاً لللاهوت البروتستانتى، حيث يصب فيه كل لاهوتى عدته الذهنية الخاصة. أحدهم سوف يجعل من يسوع هذا سينيوزيا حديثاً، وآخر اشتراكياً، بينما سوف ينظر اللاهوتيون الرسميون الأساتذة إلى يسوع بالطبع فى الضوء الدينى للدولة الحديثة، فى الواقع قد عرضوه بجسارة ماتنفك تتزايد فى الأزمنة المعاصرة كمدافع دينى عن تلك الطموحات التى تدعى الآن الهيمنة فى اللاهوت القومى، البروسى الأعظم".

بالنظر إلى وضع الأمور فليس مما يدعو إلى الدهشة أن المؤرخين الزمنيين قد شعروا بميل ضئيل لبحث مصادر المسيحية، إذا ما بدأ هؤلاء المؤرخون بوجهة النظر التي تقول بأن المسيحية كانت من عمل رجل واحد. فإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فسوف يكون من المعقول بالطبع أن نتخلى عن كل جهد لتحديد أصل المسيحية، وأن ندع لاهوتيينا يحوزون حقل القص الديني حيازة لا تنازع.

ولكن موقف المؤرخ يصبح مختلفا تماما إذا نظر لديانة عالمية ليس بوصفها نتاجا لإنسان أعلى فرد (سوبرمان)، بل كنتاج اجتماعي. الشروط الاجتماعية في الزمن الذي ظهرت فيه المسيحية معروفة جيدا. ويمكن أيضاً تعيين الطابع الاجتماعي للمسيحية الأولية ببعض الدقة من دراسة أدبها.

من المحتمل ألا تكون القيمة التاريخية للأناجيل ولأعمال الرسل أعلى من قيمة القصائد الهومرية، أو أغنية النيبلونجن. وربما تعالج هذه شخصيات تاريخية ؛ ولكنها تنشئ بفعاليتها من خلال هذه الرخصة الشعرية حتى يستحيل أن نستخرج من رواياتها أقل مادة تتعلق بالوصف التاريخي لهذه الشخصيات، هذا إذا تغاضينا عن حقيقة أنها تختلط بشدة بعناصر خرافية، وعليه لن نستطيع أبدا أن نكون قادرين على أساس هذه القصائد وحدها أن نعين من هي شخصياتها التاريخية ومن هي المخترعة. فإذا لم تكن لدينا معلومات تتعلق بأتيلا عدا ما وجد في أغنية النيبلونجن، فينبغي أن نقول عنه كما نقول الآن عن يسوع، أننا لسنا متيقنون أبدا من أنه قد عاش، وربما كان شخصية أسطورية مثل سيجفريد.

ولكن مثل هذه الحكايات الشعرية لها قيمة لا تقدر في دراسة الشروط الاجتماعية التي ظهرت في ظلها، والتي تعكسها بأمانة، بغض النظر عن تحرر مؤلفيها في معالجة الوقائع والأشخاص. إن المدى الذي يتأسس عليه تقييم الحرب الطروادية وأبطالها على الحقيقة التاريخية مغلف بالغموض، وربما يبقى دائما هكذا، ولكن لدينا في الإلياذة والأوديسة مصدران تاريخيان من المرتبة الأولى لدراسة الشروط الاجتماعية للعصر الهومري.

غالبا ما تكون الأعمال الشعرية أكثر أهمية في دراسة زمانها من الروايات التاريخية الأشد أمانة. لأن الأخيرة تعطينا فقط العناصر الشخصية، المثيرة، غير العادية الأقل دواما في تأثيرها التاريخي ؛ بينما تزودنا الأولى من ناحية أخرى بوجهة نظر عن الحياة اليومية للجماهير، الثابتة والدائمة في تأثيرها، ذات النفوذ الدائم على المجتمع، حيث لا يروى المؤرخ هذه الأشياء، لأنه يفترض أنها معروفة بصفة عامة وواضحة بذاتها. لهذا السبب فإن روايات بلزاك هي واحدة من أكثر

المصادر أهمية عن الحياة الاجتماعية فى فرنسا فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

هكذا، قد لا نعلم شيئاً محدداً من الأناجيل، وأعمال الرسل، والرسائل، عن حياة ومذهب المسيح، إلا أننا قد نحصل على معلومات غاية فى الأهمية تتعلق بالطابع الاجتماعى للمُثل والطموحات الخاصة بالمجمع المسيحى الأولى. حين يكتشف النقد الإنجيلى المواد التى تجمعت فى طبقات متعاقبة فى هذه الكتابات، فإنه يزودنا بفرصة تتبع تطور هذه المجامع إلى مدى معين على الأقل، بينما ثمكننا المصادر "الوثنية" واليهودية من أن نلقى نظرة على القوى الاجتماعية التى كانت تتزامن فى التأثير فى المسيحية الأولية. وهذا يمكننا من أن ندرك وأن نفهم الأخيرة كنتاج لزمناها ؛ وهذا هو أساس كل المعرفة التاريخية. ربما يؤثر الأفراد على المجتمع، وتصوير الأفراد البارزين أمر لا مفر منه من أجل تكوين صورة كاملة عن زمانهم. ولكن حين يُقاسون بالحقب التاريخية، فإن تأثيرهم عرضى فى أفضل الأحوال، يقدم فقط زخرفات السطح، التى تصدم العين حيث أنها قد تكون القسم الأول من الهيكل، ولا تكشف لنا عن شيء يتعلق بجدران أساسه. إنه الأخير الذى يحدد طابع ودوام الهيكل. إذا استطعنا أن نكشفه فإننا نكون قد أنجزنا العمل الأكثر أهمية فى فهم الصرح.

القسم الثانى: المجتمع الرومانى فى الفترة الإمبراطورية

الفصل الأول: نظام تملك العبيد

أ – ملكية الأرض

هؤلاء الذين سيفهمون الآراء المميزة لحقبة معينة والتي تجعلها مغايرة لأفكار حقبة أخرى، يجب أولاً وقبل كل شيء أن يدرسوا الحاجات، والمشاكل الخاصة بتلك الفترة. فهى فى الأساس نتاج لنمط معين للإنتاج فى هذه الفترة، وللطريقة التى حافظ بها مجتمع هذا الزمن على حياته.

دعنا نحاول أولاً أن نتتبع النظام الاقتصادى الذى تأسس عليه مجتمع الإمبراطورية الرومانية من بداياته الأولى. إذ يمكننا بهذه الطريقة فحسب أن نفهم سماته النوعية فى لحظة خاتمة هذا التطور، أى، فى ظل الفترة الإمبراطورية، والاتجاهات النوعية التى أسفر عنها فى هذا الوقت.

كانت الزراعة هي أساس الإنتاج الاقتصادى فى البلدان التى تكونت منها الإمبراطورية الرومانية، التى مورس إضافة لها الصناعة الحرفية والتجارة فى السلع على نطاق أصغر بكثير. وكان الإنتاج من أجل الاستهلاك المباشر هو القاعدة العامة. وقد كان إنتاج السلع، بمعنى آخر، الإنتاج من أجل البيع، مازال فى طفولته. كان للحرفيين والتجار فى حالات كثيرة مزارع تخصصهم، وكانت هذه مرتبطة بوثوق بالحياة المنزلية، وكانت مهمتها الرئيسية الإنتاج من أجل الأسرة، حيث زودت الزراعة المطبخ بمواد الغذاء وكذلك ببعض المواد الخام مثل الكتان، والصوف، والجلد، والخشب، الذى يصنع منه أفراد العائلة ملابسهم الخاصة، وأنيتهم وأدواتهم. كان كل مايمكن أن يباع فائضاً – حين كان هناك بالكاد أى فائض – علاوة على احتياجات الأسرة.

يتطلب نمط الإنتاج هذا أن تكون هناك ملكية خاصة فى معظم وسائل الإنتاج، فى كل ما يتضمن عملاً إنسانياً، بما فيها أرض الزراعة، غير أنه لا يتطلب الملكية الخاصة للغابات والمراعى، التى قد تبقى حيازة مشتركة، والملكية فى الحيوانات المنزلية، ولكن ليس فى لعبة [يبدو أن المقصود هو الألعاب العامة المترجم]، أخيراً، فهو يتضمن الملكية الخاصة للأدوات والمواد الخام وكذلك المنتجات المتأتية عن استعمالها.

ولكن مع وجود الملكية الخاصة تكون لدينا بالفعل إمكانية عدم المساواة الاقتصادية. ربما تميز الأحداث حسنة الطالع وتثرى مؤسسة ما بينما تُضير وتُفقّر أخرى. سوف

تنمو المؤسسات من النوعية الأولى؛ سوف تتزايد أرضها وماشيتها، ولكن ينتج هذا الشرط على الفور مسألة خاصة بالعمل بالنسبة للمؤسسات الأكبر، أى، مسألة من أين يجرى الحصول على العمل الإضافى المطلوب من أجل العناية الملائمة بقطعان الماشية الأكبر والفلاحة المناسبة للحقول الأكثر اتساعاً.

تتجلى الخلافات الطبقيّة والتعارضات الطبقيّة كلما يصبح العمل الزراعى منتجاً أكثر، كلما كان الفائض الذى يقدمه أعظم زيادة على حاجات المزارع نفسه. يخدم هذا الفائض من ناحية فى إعالة الحرفيين، الذين كُلفوا بإنتاج مواد مفيدة معينة، مثل الحدادين وصانعى الفخار، من ناحية أخرى ربما يستعمل الفائض فى مبادلة مواد مفيدة، أو مواد خام لا يمكن إنتاجها فى الإقليم نفسه، لأن الطبيعة لا تقدمها، أو أن المهارة الضرورية لإنتاجها مفتقدة. مثل هذه المنتجات يأتى بها التجار من أقاليم أخرى. يدفع ظهور الحرفى والتجارة إلى زيادة عدم المساواة فى الملكية العقارية. بالإضافة إلى عدم المساواة بين الممتلكات الكبيرة والصغيرة فإن لدينا الآن أيضاً مسألة القرب أو البعد من النقاط التى يتجمع فيها العاملون والتجار حتى يتبادلوا سلعهم من أجل الفائض الذى أنتجه الفلاحون. كلما كانت وسائل المواصلات أسوأ، كلما أصبح من الصعب أكثر الإتيان بالمنتجات إلى السوق. وكلما كانت ميزة من يعيش بقرب السوق أعظم.

إننا نلاحظ من ثم تشكل طبقة الملاك العقاريين من بين كل هؤلاء الذين خُصوا بواحد أو أكثر من هذه العوامل، الذين يحصلون على فائض أعظم قياساً بجمهور الفلاحين، والذين يستطيعون عبر التبادل تأمين منتجات تجارية وصناعية أكثر، ويملكون وقت فراغ أكثر من الفلاح المتوسط، ويتحكمون فى مصادر تقنية أكثر فى العمل والحرب، ويتلقون حوافز عقلية أكثر بواسطة العيش مع الآخرين، أو بواسطة العلاقات المتواترة مع الفنانين والتجار، ويستطيعون أن يوسعوا أفقهم العقلى. هذه الطبقة من الملاك العقاريين المحظوظين لديها الآن الوقت، القدرة والوسائل للقيام بالأعمال التى تتجاوز الحدود الضيقة للنظرة الفلاحية. إن لديها الوقت والطاقة التى تمكنها من أن تصهر معاً، عدداً من الجماعات الفلاحية فى دولة، وكذلك أن تدير وتدافع عن الدولة وتنظم علاقاتها مع الدول المجاورة والأكثر بعداً.

تعيش كل هذه الطبقات، كبار الملاك العقاريين، والتجار، والحرفيين، على الفائض الناتج عن العمل الزراعى، الذى سرعان ما أضيف له الفائض من العمل الصناعى. وحيث أن وظائفها فى المجتمع قد حظت بأهمية، يحوز التجار وملاك الأرض الكبار مزيداً ومزيداً من هذه المنتجات الفائضة. وفور أن يصبح الملاك العقاريون أكثر قوة، بفضل تميزهم الاقتصادى، وكذلك مركزهم القوى فى الدولة، يكونون

قادرين على حرمان جمهور الفلاحين والحرفيين من الفائض الناتج عن عملهم. وهكذا فإنهم يحصلون على ثروة تتجاوز بعيداً مستويات فلاحهم وحرفيهم وبالمقابل تمتن سلطتهم الاجتماعية وقدرتهم على حيازة منتجات فائضة أكثر، ويحصلون على ثروات إضافية.

وهكذا نما فوق رؤوس الفلاحين والحرفيين، عدد من شرائح المستغلين الكبار، الملاك العقاريون، والتجار، فضلاً عن المرابين، الذين سوف تكون لدينا الفرصة للتحديث عنهم في معرض آخر. لقد صاحب زيادة ثروتهم حاجة متزايدة لتوسيع اقتصادهم المنزلى الذى مازال مرتبطاً بوثوق بفلاحة الأرض. إن من سيكون لديه اقتصاد منزلى خاص به يجب أن يكون فى هذه الفترة مازال يسيطر على مؤسسته الزراعية الخاصة، والتي تكون أكثر أمناً حيثما تكون على أرضه الخاصة. إن الطموح العام من ثم ينحو فى اتجاه ملكية الأرض، حتى طموح الحرفيين، والمرابين، والتجار. وتتقوم الرغبة العامة فى زيادة ملكية أرض المرء الخاصة مادام الإنتاج من أجل الاستعمال المنزلى مازال سائداً، فالرفاهية المتزايدة، والاقتصاد المنزلى الأكثر سخاءً، يمكن أن يؤسساً فقط على زيادة رقعة نطاق المزرعة.

إن الرغبة فى الحصول على وزيادة كمية الأرض التى يملكها المرء هى العاطفة المهيمنة فى هذه الفترة، التى تمتد من الحقبة التى يكف فيها المجتمع المؤسس على الزراعة، عن أن يكون رعويًا، بمعنى آخر، بدءاً من تأسيس الاقتصاد الفلاحى حتى زمن نشأة الرأسمال الصناعى. لم يتجاوز المجتمع القديم حتى فى ذروته، فى الفترة الإمبراطورية هذه المرحلة، التى لم تزول حتى زمن الإصلاح.

ب - العبودية المنزلية

ولكن ملكية الأرض لانفع فيها بدون أكارين يفلحونها. لقد أشرنا سلفاً إلى مشكلة العمل النوعية التى تنشأ من أول تكوين للملكيات العقارية الكبيرة. إننا نجد حتى قبل الأزمنة التاريخية، الأفراد الأغنياء يبحثون عن عمال يمكن الإعتماد عليهم دائماً، من أجل ضمهم لاقتصادهم المنزلى بالإضافة لأعضاء العائلة، الذين يرتبطون بالأسرة بروابط الدم.

لا يمكن الحصول على مثل هؤلاء العمال فى البداية بتقديم أجور لهم. مما لاشك فيه، فإننا نجد حالات من العمل المأجور مبكراً جداً، ولكنه دائماً ظاهرة استثنائية وعرضية، على سبيل المثال، فى المساعدة فى جمع المحاصيل. إن أدوات الإنتاج المطلوبة من جانب مؤسسة مستقلة لم تكن كثيرة لدرجة أن عائلة منافسة لاتستطيع

أن تحوزها كقاعدة. كانت العائلة والروابط المشاعية مازالت قوية لدرجة أن أى حادث أصاب عائلة وحرمها من ملكيتها كان يمكن أن يواجه عادة بواسطة مساعدة الأقارب والجيران.

بينما لم يكن هناك سوى رافد قليل من العمال المأجورين، فقد كان هناك أيضاً طلباً ضئيلاً للغاية عليهم. لأن الاقتصاد المنزلى وصناعته كانا مازالا مرتبطين بوثوق. إذا كانت هناك حاجة لعمال إضافيين من أجل المؤسسة، فقد كان عليهم أن يصيروا أعضاء فى الأسرة، مفتقرين بالضرورة ليس فقط لورشة تخصصهم، وإنما أيضاً لحياة أسرية تخصصهم، حيث يُستوعبون كلياً فى عائلة الغريب. لم يكن العمال الأحرار متوفرين فى ظل هذه الظروف. حتى خلال العصور الوسطى، فقد رضى العمال المياومين بقبول العضوية فى عائلة معلم (الحرفة) كمرحلة مؤقتة فقط، انتقالية حتى يصيروا معلمين، وحتى يؤسسوا عائلاتهم الخاصة. لا يمكن تأمين الرجال الأحرار فى هذه الفترة دائماً بواسطة دفع أجور باعتبارهم عمالاً إضافيين فى عائلة غريب. يمكن لاحتجاز إجبارى فقط أن يوفر العمال الإضافيين المطلوبين للمؤسسات الزراعية الكبرى. تحقق هذا الغرض بواسطة العبودية. وليس للغريب حقوق فى ظل العبودية. وبالنظر إلى صغر حجم الجماعة فى تلك الأيام، فإن مفهوم "الغريب" كان شاملاً. كان يُستبعد فى الحرب ليس فقط المحاربين المأسورين، وإنما غالباً جداً كامل سكان البلد المهزوم، وهم إما أن يقسموا بين المنتصرين أو يُباعوا. ولكن كانت هناك أيضاً وسائل للحصول على العبيد فى أزمنة السلام، خاصة عبر المواصلات البحرية، التى كانت ترتبط غالباً بالقرصنة فى مراحلها الأولى، وقد كانت أكثر أنواع الجزية المرغوبة، بشراً أقوياء ووسيمين، الذين كانوا يؤسرون فى غارات على السواحل حين يوجدون عُزلاً من السلاح على الشواطئ. إضافة لذلك، فإن نسل العبد الذكر والأمة الأنثى يدخل فى العبودية.

لم يكن وضع العبيد فى البداية سيئاً جداً، وكانوا أحياناً يقومون بمقطوعيتهم [نصيب العبد الإجبارى من العمل] بهوادة بوصفهم أعضاء فى أسرة ثرية. وإذا انخرطوا غالباً فى مهام تسهم فى الراحة أو الترف، فقد كانوا لا يعملون بشكل زائد إلى درجة ملحوظة. أما إذا كان عملهم ذو طبيعة إنتاجية، فقد كان ينجز غالباً – فى المزارع الكبيرة – بمساعدة السيد MASTER، ومثل فقط إنتاجاً من أجل الاستهلاك العائلى، المحدود بالضرورة. كانت مقطوعية العبد محددة بشخصية سيده، وبثروة العائلة التى إنتمى إليها. لقد كان للسادة اهتمام عظيم بتحسين وضع العبيد، لأن ذلك تضمن تحسيناً فى وضعهم الخاص. أضف إلى ذلك وقف العبد، عبر الاتصال الشخصى الدائم مع السيد، بدرجة أكثر أو أقل فى علاقة إنسانية مع الثانى، وربما يصبح، إذا حاز ذكاء وفطنة، لاغنى عنه بالنسبة للسيد وصديقاً إذا جاز القول. يمكن أن نجد

مقاطع عند الشعراء القدامى تظهر كيف كان العبيد أحراراً مع سادتهم وبأى عاطفة نظر كل منهم للآخر. ولطالما تكرر أن أنهيت خدمات العبيد بهدية قيمة للخدمات المخلصة، وآخرون كان يمكن أن يدخروا ما يكفي لشراء حريتهم. ولكن لم تكن قلة تلك التي فضلت العبودية على الحرية، أى، فضلت الحياة كأعضاء فى عائلة ثرية على العيش الوحيد، الهزيل وغير المؤكد بعيداً عن عائلة كهذه.

يقول ينتش: "يجب الا يفترض، أن الوضع القانونى للعبد، الكريه للغاية بالنسبة لنا، كان يؤخذ جدياً فى الحياة الخاصة وأن العبد لم يكن يعتبر ولم يعامل ككائن إنسانى، فحتى نهاية الحرب البونية الأولى فإن مقطوعية العبد لم تكن مؤذية. ينطبق ما قيل أيضاً على السلطة القانونية لرب العائلة على زوجته وأولاده على حقوقه إزاء عبيده، فبالرغم من أنها غير محدودة قانوناً، فقد كانت معدلة بواسطة الدين، والعادة، والعقل، والعاطفة، والمصلحة الذاتية، والإنسان الذى كان يُعتبر فى نظر القانون سلعة، خاضعاً بدون دفاع للشراء ولنزوة سيده، كان يُقدر كزميل عامل مخلص فى الحقول وكرفيق فى المنزل، يمكن للمرء أن يتحدث معه بسرور جانب المدفأة بعد العمل معه خارج الأبواب".

وجدت هذه العلاقة الرفاقية ليس فقط فى مزرعة الفلاح، وانما نلاحظ أنه حتى الأمراء مازالوا يقومون بقدر من العمل فى العصر البطولى. فى الأوديسة، تقوم ابنة الملك الكينوس بالغسيل مع أمّتها؛ ولايتحدى الأمير أوديسيوس منافسه بدعوته إلى مبارزة، ولكن إلى منافسة فى الحصاد والحراثة، وعند عودته إلى وطنه يجد أباه يعمل فى الحديقة مستخدماً الجاروف. أضف إلى ذلك، فإن أوديسيوس وابنة تيليماخوس هما موضوع اهتمام عاطفى من عبدهما، مربى الخنازير الخالد، إيومايوس، المقتنع بحزم أن سيده كان سيعطيه حريته منذ زمن طويل، وايضاً مزرعة وزوجة، إذا كان سيده قد عاد فقط".

كان هذا الشكل من العبودية من أشد أشكال الاستغلال المعروفة لنا اعتدالاً. ولكن تغير طابعه حين أصبح وسيلة للحصول على النقود، خاصة عندما بدأت الملكيات العقارية الكبيرة فى توظيف كثير من العمال، بعد أن انفصلت عن الاقتصاد المنزلى للسيد.

ج- العبودية فى الإنتاج السلعى

من المحتمل أن المناجم كانت أول مثل هذه الملكيات. التعدين واستخراج المعادن، وخاصة المعادن النفيسة لاتناسب البتة بطبيعتها الإنتاج من أجل الاقتصاد المنزلى فقط. فبمجرد أن تحرز مثل هذه الصناعات أقل درجة من التطور، فإنها تنتج فائضاً

عظيماً يتجاوز الحاجات المنزلية؛ أضف إلى ذلك أنها يمكن أن تحرز كفاية معينة فقط من خلال توظيفها عمل مجموعات كبيرة من العمال بشكل منتظم، لأن العامل لا يمكن أن يحوز المهارة الضرورية والخبرة بأى طريقة أخرى، أو أن يجعل الهياكل الهندسية الضرورية مربحة. إننا نجد بالفعل حتى فى العصر الحجرى مراكز كبرى كان فيها تصنيع الأدوات الحجرية يُنفذُ ببراعة وعلى نطاق واسع، حيث كانت توزع آنئذٍ بواسطة المقايضة من مجموعة إلى مجموعة أو من عشيرة إلى عشيرة. يبدو أن هذه المنتجات المعدنية كانت أول السلع التجارية ومن المحتمل أنها أول ماجرى إنتاجه بنية مقايضته.

بمجرد أن تطورت عملية تعدين استناداً إلى مخزون من المعادن الثمينة، وجاوزت حدود تعدين السطح الأكثر بدائية، فقد تطلبت جماعات أكبر فأكبر من العمال. ربما تجاوز بسهولة عدد العمال الأحرار الذين يمكن أن يستخدموا من مراتب العشيرة التى تملك المنجم. بيد أنه لا يمكن للعمل المأجور أن يقدم دائماً فرقاً عدة من العمال، بينما يمكن للعمل الإجبارى بواسطة العبيد أو المجرمين المدانين فقط أن يؤمن العدد الضرورى من العمال.

ولكن هؤلاء العبيد لم يعودوا ينتجون فقط آنية من أجل المتطلبات الشخصية المحددة لسيدهم، لقد عملوا من أجل أن يجنى نقوداً. لم يكونوا يعملون من أجل استهلاكه للكبريت، الحديد أو النحاس، الذهب أو الفضة، فى منزله، ولكن حتى يبيع المنتجات المعدنية، لتجعله حائزاً للنقود، هذه السلعة التى يمكن أن تشتري كل شئ، كل المتع، كل السلطة، والتى لا يحصل منها المرء على الكثير أبداً، بقدر ما كان ممكناً انتزاع عمل العمال فى المناجم، لأنه، كلما عملوا أكثر، كلما حصل سيدهم على نقود أكثر. وقد كانوا يُطعمون ويلبسون بأردأ شكل ممكن. لأن طعامهم ولباسهم كان يجب أن يشتري، كان يجب أن يدفع مقابلة نقوداً ؛ لا يستطيع العبيد فى المنجم أن ينتجوها. بينما لم يكن بمستطاع مالك مؤسسة زراعية ثرية أن يفعل شيئاً آخر بفائضه من مواد الاستهلاك غير أن يسرف على عبيده وأصدقائه من الضيوف، كانت الحالة مع الإنتاج السلعى مختلفة، كلما قل استهلاك العبيد كلما كان حاصل النقود أكثر من الصناعة. وقد أصبح وضعهم أسوأ فأسوأ عندما أصبحت الصناعة أكبر، وهكذا جرى إبعادهم أكثر فأكثر عن منزل السيد، وجرى تسكينهم فى ثكنات خاصة تناقض عريها الموحش بحدة مع ترف المنزل الأسبق. أضف إلى ذلك، توقف كل اتصال شخصى بين السيد والعبد، ليس فقط لأن الورشة قد انفصلت عن منزله، ولكن أيضاً بسبب عدد العمال الكبير. وهكذا فقد رُوى أنه فى أثينا فى زمن الحرب البيلوبونيسية أن هيبونيكوس كان لديه ستمائة عبد يعملون فى مناجم تراشيا TRACIAN وألف فى نيقيا. لقد أصبح مركز العبد بلية فظيعة له؛ بينما يمكن للعامل الحر بعد كل شئ أن

يجرى اختياراً معيناً من بين سادته ويمكن على الأقل فى ظل ظروف مواتية معينة أن يمارس ضغطاً معيناً على سيده بأن يرفض أن يعمل، وهكذا يقاوم أفضع الانتهاكات، فإن العبد الذى هرب من سيده أو رفض أن يعمل له ربما يُقتل عند رؤيته.

لقد كان هناك سبب واحد فقط للإبقاء على العبد، السبب الذى يبقى المرء من أجله على الماشية؛ تكاليف شراء واحد جديد. لا يكلف العامل المأجور شيئاً، فإذا دمره العمل فإن آخراً سيأخذ مكانه، ولكن كان يجب شراء العبد، إذا مات قبل أجله، كان سيده هو الخاسر – ولكن كان لهذا السبب تأثير أضال فاضال حين كان العبيد رخيصين، وقد أنتت أوقات كان ثمن العبد فيها متدنياً للغاية، حين قذفت الحروب الأجنبية والمحلية بأسرى عديدين فى السوق.

وهكذا فى الحروب الرومانية الثالثة ضد مقدونيا، فإن سبعين مدينة قد نهبت فى إبيروس EPIRUS فى عام ١٦٩ ق.م، بيع فى يوم واحد، ١٥٠٠٠٠ من سكانها كعبيد.

وفقاً لبوك BOCKH كان الثمن المعتاد للعبد فى أثينا يتراوح بين ١٠٠ – ٢٠٠ دراخمة (٢٠ – ٤٠ جنيه إسترليني). ويروى كسينوفون أن الثمن تراوح بين خمسين وألف دراخمة. يقول أبيانوس البنطى فى إحدى المناسبات بيع أسرى الحرب مقابل أربع دراخمت (مبلغ ضئيل يتجاوز ٧٥ سنت) لكل منهم. حين بيع يوسف من إخوانه لمصر بيع بمبلغ عشرون شاقل (٤,٥ جنيه) فقط.

كان حصان ركوب جيد أكثر تكلفة من العبد، وقد كان ثمنه فى زمن أريستوفان حوالى اثنى عشر ميناً MINAE أو حوالى ٢٥٠ جنيه.

ولكن نفس الحرب التى قدمت عبيداً رخيصين قد دمرت أيضاً فلاحين كثيرين. مادامت الميلشيا الفلاحية قد كونت آنئذ عماد الجيوش. فبينما كان الفلاح يشن الحرب فإن أرضه كانت تتشقق بسبب الافتقار إلى العمال. لم يكن لدى الفلاحين المدمرين مصادر أخرى غير اللجوء إلى قطع الطريق، هذا إذا لم تكن تواتيهم الفرصة لأن يذهبوا إلى مدينة مجاورة ويقتصدون فى عيشهم كحرفيين أو كجزء من البروليتاريا الرثة. هكذا أفرخ كثير من الجرائم والمجرمين الأمر الذى لم يكن معروفاً فى الأزمنة الأسبق، ووفرت مطاردة هؤلاء المجرمين عبيداً جدداً، لأن السجون لم تكن معروفة بعد، حيث أنها نتاج لنمط الإنتاج الرأسمالى. وكان يحكم على الأشخاص الذين لم يصلبوا بالعمل الإجبارى.

كانت تتوافر عبر فترات معينة من ثم جموعاً من العبيد الرخيصين للغاية الذين كانت أوضاعهم بائسة. مناجم الفضة الأسبانية، وهى من بين الأكثر إنتاجية فى العصور القديمة، هى مثال ممتاز. يقول ديودورس عن هذه المناجم: "فى البداية تولى أفراد خاصين عادييين التعدين، وحصلوا من ثم على ثروة عظيمة، حيث أن خام الفضة لم يكن على عمق فى الأرض وكان موجودا بوفرة غزيرة. حين أصبح الرومان سادة أيبيريا (أسبانيا)، فيما بعد انجذب عدد غفير من الإيطاليين نحو المناجم، محرزين ثروة عظيمة من خلال جشعهم لأنهم اشتروا عدداً من العبيد وسلموهم إلى مشرف المنجم استخرج العبيد الذين كان عليهم أن يعملوا فى هذا المناخ كميات لاتصدق من أجل سادتهم، ولكن كثيراً منهم، إذ يعملون عميقاً تحت الأرض ويجهدون أجسامهم نهائياً وليلاً فى مهاوى (المنجم) يموتون من فرط العمل. فلم يكن لهم حق استجمام أو عطلة من عملهم، ولكنهم كانوا يساقون بسيات مشرفيهم، ويتحملون أسوأ المتاعب ويشغلون حتى الموت. إن قلة ممن تملك قوة بدنية كافية ورباطة جأش صابرة قادرة على تحمل هذه المعاملة، ولكنها تطيل من بؤسهم فقط، وهولها يجعل الموت يبدو مرغوباً أكثر بالنسبة لهم من الحياة".

ربما كانت العبودية البطيريركية المنزلية هى الشكل المعتدل من الاستغلال، إلا أن العبودية فى خدمة الجشع هى بالتأكيد الأكثر بغضاً. إن الطرق التقنية للتعدين فى ظل الظروف المحددة جعلت من الضرورى تشغيل الإنتاج الكبير بالعبيد، فى المناجم. ولكن تزايد عبر مجرى الزمن الطلب على إنتاج السلع على نطاق كبير بواسطة العبيد فى فروع الصناعة الأخرى. لقد كانت هناك جماعات أكثر تميزاً بالقياس إلى جيرانها فى القوة العسكرية، وقد وجد هؤلاء الحرب مربحة لدرجة أنهم لم يتعبوا منها أبداً. لقد قدمت الحرب معيناً لاينضب من العبيد الجدد بغرض أن يُستثمروا فى عمل مربح. ولكن كانت هذه الجماعات مرتبطة دوماً بالمدن الكبرى. حين كانت مدينة كهذه، بسبب موقعها المتميز، قد أصبحت مكاناً عظيماً للتجارة، كانت التجارة فقط ستجذب اهتمام أشخاص كثيرين، وإذا كانت المدينة كريمة فى منحها حق المواطنة للغرباء، فسرعان ما تصبح أغنى بالسكان، وفى وسائلها أيضاً، أكثر من الجماعات المجاورة الأخرى التى أخضعتها. كان نهب واستغلال الريف المحيط مصدراً إضافياً لزيادة ثروة المدينة وسكانها. وكان لمثل هذه الثروة أن تحفز الحاجة إلى عمليات بناء كبيرة، سواء كانت مجارى ذات طبيعة صحية - قنوات سحب المياه؛ أو كانت ذات طبيعة جمالية ودينية - المعابد والمسارح، أو ذات طبيعة عسكرية - الأسوار المحيطة. كان يمكن لمثل هذه الهياكل أن تبني بأفضل شكل بواسطة جمهور غفير من العبيد. ظهر المقاولون، الذين اشتروا أعداداً ضخمة من العبيد ونفذوا عدة إنشاءات للدولة بعملهم. لقد قدمت المدينة الكبيرة أيضاً سوقاً

واسعاً من مواد الطعام للجماهير الغفيرة. وكان أكثر الفوائض ضخامة ينتج عن المؤسسات الزراعية التي تعمل على نطاق كبير، مع ثمن العبيد المنخفض. مما لا ريب فيه، لم يكن التميز التقني للإنتاج الكبير في الزراعة في هذا الوقت بأى حال حقيقة ناجزة. كانت العبودية، في الواقع، أقل إنتاجية من عمل الفلاح الحر، ولكن مادامت لم تكن هناك حاجة لتوفير قوة عمل العبد، ويمكن سوجه إلى الموت دون أسف، فقد أنتج فائضاً زيادة وأكثر من تكاليف بقاءه مما فعل الفلاح، الذى لم يكن قد تعلم بعد أن يُقدّر بركات العمل الزائد وكان معتاداً على الحياة السهلة. أضف إلى ذلك، كان لعمل العبد ميزة، فى هذه الجماعات تحديداً، وهى أن العبد كان متحرراً من الخدمة العسكرية، بينما كان يمكن فى أى لحظة أن يؤخذ الفلاح من على المحراث بسبب واجب الدفاع عن بلاده. وهكذا، فى النطاق الاقتصادى لمثل هذه المدن الكبرى شبة المحاربة، بدأ الإنتاج الزراعى الكبير على أيدي العبيد. وقد رفعه القرطاجيون إلى مستوى رفيع؛ وألم به الرومان فى الحروب مع قرطاج، وحين ضموا أقاليم كبرى من منافستهم العظيمة، فقد ضموا أيضاً ممارسة الإنتاج الزراعى الكبير، الذى طوروه أكثر ووسعوه.

وأخيراً، فى المدن الكبرى حيث كان هناك عبيد كثيرون يمارسون نفس التجارة، وأيضاً سوق جيد لمنتجاتهم، فقد كان من البساطة بمكان شراء عدد كبير من هؤلاء العبيد وتشغيلهم فى مشغل FACTORY عام، حتى إنهم قد ينتجون من أجل السوق مثلاً يفعل العمال المأجورين اليوم. ولكن مثل هذه المانيفاكتورات العبودية أحرزت أهمية فقط فى العالم الهيلينى وليس فى الرومانى. تطور فى كل مكان، على أية حال، نوع معين من الصناعة العبودية مع الإنتاج الزراعى الكبير، بغض النظر عما إذا كان إنتاجاً كهذا مجرد زراعة تزود بأنواع معينة مثل الحبوب بطرق المصنع من أجل السوق، أو ما إذا كانت قد خدمت بصفة رئيسية الاستهلاك المنزلى للعائلة، بواسطة الاقتصاد المنزلى، ومن ثم كان عليها أن تقدم أكثر المنتجات التى احتاجها الأخير تنوعاً.

العمل الزراعى له نوعيته فى أنه يتطلب عدداً كبيراً من العمال فى فصول معينة من العام فقط، بينما فى فصول أخرى – خاصة فى الشتاء – لا يتطلب سوى قلة. هذه مشكلة حتى بالنسبة لمؤسسات الإنتاج الزراعى الكبيرة الحديثة؛ لقد كانت مشكلة أصعب فى ظل نظام العمل العبودى. لأن العامل المأجور يمكن أن يفصل حين لا تكون هناك حاجة إليه ويعاد تشغيله حين تكون هناك حاجة إليه. كيف يتصرف فى الفترة الفاصلة هو أمر من شأنه. من ناحية أخرى، لا يستطيع الفلاح صاحب الإنتاج الكبير أن يبيع عبيده كل خريف ويشتري جديداً فى الربيع. كان سيجد مثل هذه الممارسة غاية فى التكلفة، لأنه فى الخريف لن يساوا شيئاً وفى الربيع قيمة

باهظة. لقد كان من ثم مضطراً أن يحاول أن يبقّيهم مشغولين خلال الفترات التي لم تكن هناك فيها فلاحه. لقد كان تقليد وجود زراعة وصناعة مرتبطتان مازال قوياً، وكان الفلاح مازال يحول كتانه، وصوفه، جلده، خشبه، ومنتجات أخرى من أرضه إلى ملابس وأدوات. كان عبيد المشاريع الزراعية الكبيرة يشتغلون من ثم، خلال الزمن الذي تكون فيه الفلاحه عاطلة، في مهام صناعية مثل النسيج ومعالجة الجلد، صنع العربات والمحاريث، إنتاج الآنية من كل الأنواع. ولكن، حين تقدم إنتاج مثل هذه السلع إلى مستوى عال، فقد صنعوها ليس فقط من أجل مؤسستهم الخاصة ومنزلهم، وإنما أيضاً من أجل السوق.

حين كان العبيد رخيصين، فقد كان يمكن لمنتجاتهم الصناعية أيضاً أن تكون رخيصة، حيث أن الأخيرة لم تتطلب إنفاقاً للنقود. قدم العقار، واللاتيفونديا (العزبة، الضيعة)، الغذاء والمواد الخام للعمال، وللقسم الأعظم حتى الأدوات وحيث كان ينبغي إبقاء العبيد أحياء في أي حالة خلال الفترة التي لاحتاجة لهم فيها لأعمال الفلاحه، تضمنت كل المنتجات الصناعية التي أنتجوها ما يزيد عن حاجة مؤسستهم ومنزلهم فائضاً ربما سمح بربح حتى وإن بيعت بأثمان قليلة.

ليس مما يثير الدهشة أنه لم تتمكن طبقة حرفية حرة وصحيحة من التطور في وجه هذه المنافسة من العمل العبودي. بقي الحرفيون في العالم القديم، خاصة العالم الروماني، بؤساء، يعملون على الأغلب وحيدون بدون صبيان، وعادة في منزل العميل، ب مواد مقدمة من الأخير. إن طبقة حرفية صحيحة، مثل تلك التي تطورت فيما بعد في العصور الوسطى، غائبة كلياً. بقيت الطوائف الحرفية ضعيفة، والحرفيون دائماً تحت رحمة عملاءهم، الذين كان أكثرهم من الملاك العقاريين الكبار، ووفقاً لمن هم عملائهم فقد عاشوا غالباً وجوداً طفيلياً على تخوم البروليتاريا الرثة.

ولكن الإنتاج الكبير المعتمد على العمل العبودي كان قوياً فقط بما يكفي ليمنع نمواً صحياً لصناعة حرة وتطوراً لتقنياتها، الذي بقي دائماً في مستوى متدنٍ في الأزمنة القديمة؛ ولكن ربما تصبح مهارة الحرفي في مناسبة ما متطورة للغاية، وإن بقيت أدواته بائسة وبدائية. ولكن لم تكن الحالة مختلفة في المشروعات الكبرى، هنا أيضاً للعبودية نفس الأثر الكابح على كل التطور التقني.

د- الدونية التقنية لنظام تملك العبيد

لم يتضمن الإنتاج الكبير في الزراعة بعد نفس شرط الكفاءة العالية كما في التعدين. مما لاشك فيه، فإن زيادة إنتاج السلع قد أنتج تقسيماً للعمل حتى في الزراعة، حيث اتجهت كثير من المزارع إلى زراعة الحبوب بينما قام البعض الآخر بتربية

الماشية، الخ. حين تطورت مؤسسة الإنتاج الكبير، أصبح من الممكن أن تدار برجال مدربين علمياً بقدرة أكبر مما للفلاح المعتاد، إننا نجد من ثم بالفعل في هذه البلدان التي أدخلت هذا الاقتصاد الزراعى الكبير، بمعنى آخر بين القرطاجين وفيما بعد الرومان، علم متطور تماماً للزراعة يقارب نفس المستوى الذى وجد فى الزراعة الأوربية فى القرن الثامن عشر. ولكن كان هناك افتقار للعمال الذين ربما استخدموا هذا العلم لرفع مؤسسة الإنتاج الكبير ماوراء ممارسة المؤسسة الفلاحية. حتى العامل المأجور ليس مهتماً كثيراً أو تواقاً لعمله مثل المالك العقارى الحر؛ إن تشغيل عامل مأجور مربح فقط فى الأماكن التى تكون فيها مؤسسة الإنتاج الكبير أكثر تميزاً بما لا يقاس بالنسبة للمؤسسة الأصغر. ولكن العبد المستخدم فى مؤسسة إنتاج كبير، الذى لم يعد يعيش فى شروط عائلة بطيركية، هو عامل مكره، فجهوده، فى الواقع، موجهة بصفة رئيسية للإضرار بصاحب عمله. لم يكن عمل العبد يعتبر حتى فى العبودية المنزلية منتجاً مثل عمل المالك الحر، يقول أوديسيوس فى حينه:

“الخدم لم يعودوا يحفزون من قبل السيد المهيّب فهم يهملون على الفور ما أن يشرعوا فى القيام بالعمل الذى أعطاه لهم سيدهم. نصف كامل من فضيلة العناية الإلهية لزيوس تؤخذ من الإنسان بمجرد أن يدركه يوم القنائة!”

كيف كانت الحالة أسوأ مع العبيد الذين كانوا يُعذبون يومياً فى الصميم، والذى كان موقفهم تجاه سيدهم موقف يأس وحقد. لقد كان ذلك يتطلب تميزاً كثيفاً من جانب الإنتاج الكبير على الإنتاج الصغير، حتى يحقق الأول نفس نتائج الأخير بنفس عدد العمال. ولكن الإنتاج الكبير لم يكن فقط غير متميز، وإنما كان بعدة طرق متدنياً. وجد العبيد، الذين أسيئت معاملتهم هم انفسهم، متنفساً لكل غضبهم فى معاملتهم للماشية، التى لا حاجة للقول بأنها لم تتكاثر بالمثل، فقد كان من المستحيل السماح لهم أن يستعملوا أدوات دقيقة. وقد أشار ماركس لهذا سلفاً. وهو يقول عن “الإنتاج المؤسس على العبودية”.

“هذا هو أحد الشروط التى تجعل الإنتاج بواسطة عمل العبيد عملية باهظة هكذا. العامل هنا، إذا استعملنا تعبيراً صارخاً عن القدماء، قابل للتمييز فقط باعتباره أداة ناطقة *instrumentum vocale* من الحيوان باعتباره أداة شبه ناطقة *instrumentum semi vocale* وعن الأداة باعتبارها أداة صامتة *instrumentum mututum* ولكنه هو نفسه يعنى بأن يدع كلا من الحيوان والأداة تشعر بأنه ليس واحداً منها، ولكنه إنسان. وهو يقنع نفسه برضى كبير، أنه كائن مختلف، بمعاملة الواحد بلا رحمة ومدمراً بحماسة *con amore* الآخر. من ثم

فإن المبدأ المطبق شمولياً في طريقة الإنتاج هذه هو أن تستخدم فقط أكثر الأدوات خشونة وثقلاً وتلك التي يصعب تخريبها بسبب عدم صقلها كلية. صممت المحاريث في الدول العبودية التي تتاخم خليج المكسيك، وحتى تاريخ الحرب الأهلية، وفق النماذج الصينية القديمة، التي كانت تقلب التربة مثل الخنزير، أو تبقي كتلة غير مستوية، بدلاً من عمل أخاديد، وهي وحدها التي كانت توجد فقط. "في كتابه الدول العبودية الساحلية، يخبرنا أولمستند: "لقد شاهدت هنا أدوات لا يوجد إنسان يمتلك حواسه، معنا، سوف يسمح لعامل، يدفع له أجوراً، أن يكون مثقلاً بها. ويمكنني أن أقرر أن الوزن الزائد والخشونة التي لها سوف تجعل العمل أكبر على الأقل بنسبة عشرة في المائة من تلك التي تستعمل عادة لدينا. وقد جرى التأكيد لي؛ عن الطريقة اللامبالية والخشنة التي لا بد وأن تستعمل بها من قبل العبيد، فأى شيء أخف أو أقل خشونة لم يكن ليزودهم باقتصاد جيد، وأن تلك الأدوات التي نعطيها دوماً عمالنا ونجد ربحنا في إعطاءهم إياها، لن تستمر ليوم واحد في حقل ذرة في فرجينيا - رغم أنها أخف كثيراً وأكثر خلواً من الحجارة مما لأدواتنا. وهكذا، أيضاً، حين أسأل لماذا استبدلت البغال بشكل شامل بالجياد في المزرعة، أول سبب أعطى، وباعتراهم السبب الأكثر حسماً، هو أن الجياد لا يمكن أن تتحمل المعاملة التي لا بد وأن تتلقاها دائماً من الزوج؛ فسرعان ماتصاب الجياد دائماً بالعرج أو تصاب بالشلل من قبلهم، بينما تتحمل البغال الضرب، أو فقد وجبة أو وجبتين بين الحين والآخر، ولن تصاب مادياً، وهي لاتصاب بالبرد أو المرض؛ إذا أهملت، أو ضوعف لها العمل. ولكن لا أحتاج إلى أن اذهب أبعد من نافذة الغرفة التي أكتب منها، حتى أرى تقريباً في أى وقت، معاملة للماشية سوف تضمن الفصل الفوري لأى سائق من قبل أى مزارع يملكها في الشمال".

غير ذكى، عابس، حقود، متطلع إلى فرصة يُضير فيها المُعذب المكروه، حينما سنحت الفرصة، أنتج عمل العبد في اللاتيفونديا أقل كثيراً من مزرعة الفلاح. أشار بلينى قبلاً، في القرن الأول من عصرنا، إلى كيف كانت حقول إيطاليا مثمرة حينما كان الفلاح لم يحتقر بعد أن يفلحها بنفسه، وكيف أصبحت أمنا الأرض حين سُمح للعبيد المغلولين والموسومين أن يسيئوا معاملتها. ربما يتأتى عن هذا النوع من الفلاحة في ظل ظروف معينة فائضاً أعظم من مزرعة الفلاح، ويمكن على أى حال أن يُبقى أناساً كثيرين في رفاهية. على أية حال، مادامت حالة الحرب قد استمرت، وهو ما ازعجت به روما كل العالم الذي أحاط بالبحر الأبيض المتوسط، فإن امتداد عملية الفلاح استمرت أيضاً، ولكن جنباً إلى جنب معه ساد تدهور الاقتصاد الفلاحي المضطهد منه، مادامت الحروب قد قدمت غنيمة ثرية للملاك العقاريين الكبار الذين كانوا يشنوها، إضافة إلى أرض جديدة وأعداد غير متناهية من العبيد الرخيصين.

وهكذا فإننا نجد في روما عملية اقتصادية تحمل تشابها صارخا مع تلك التي تجرى في الأزمنة الحديثة: تدهور الصناعة الصغيرة، تقدم الإنتاج الكبير، ومازالت هناك زيادة أعظم للملكيات العقارية الكبيرة، اللاتيفونديا، التي جردت الفلاح من ملكيته، وحينما لا يستطيعون أن يستبدلوه بواسطة طرق الزراعة أو أى إنتاج آخر كبير، يختزلوه على الأقل من مالك حر إلى مستأجر مستقل.

يقتبس بولمان Pö-HLMANN-؛ في مؤلفه تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة، من ضمن أشياء أخرى "نواح الفقير ضد الغنى" من المجموعة الكانتيلية المنحولة للخطب، التي وصف فيها نمو اللاتيفونديا بشكل ممتاز. إنه تفجع فلاح معدم، الذي ينوح قائلاً: "لم أكن دائماً جاراً لرجل غنى. كل من هم حولى كانوا ذات مرة في مزارع عديدة فلاحين مستقلين، متساوين في الغنى، الذين فلقوا أرضهم المتواضعة في جيرة مسالمة. كيف اختلف الحال الآن! الأرض التي أطعمت ذات مرة كل هؤلاء المواطنين هي الآن مزرعة واحدة كبرى، تخص رجلاً غنياً واحداً. لقد توسعت أملاكه في كل الاتجاهات؛ منازل الفلاحين التي التهمها قد سويت بالأرض ودمرت تماثيل آلهة الأسلاف. كان على الملاك السابقين أن يودعوا آلهتهم الحامية لبيت أسلافهم وأن ينطلقوا إلى مناطق أجنبية مع زوجاتهم وأطفالهم. إن تماثلاً عظيماً للعمل يهيمن على نطاق واسع. تطوقنى الثروة في كل مكان مثل جدار. هنا حديقة الغنى، وهناك حقوله، هنا كرومه، وهناك غاباته ومراعيه. أنا أيضاً كنت لأرحل بسرور ولكنى لم أجد بقعة واحدة من الأرض لن يكون لى فيها جيران أغنياء. لأنه أين نجد الأملاك الخاصة للأثرياء؟ إنهم لم يعودوا راضين عن توسيع ممتلكاتهم إلا أن يقابلوا حداً طبيعياً، كما تفعل الأمم، في شكل نهر أو جبل، وهم يستولون على أكثر قفار الجبل والغابات بعداً. ولا يواجه هذا التوسع فى أى مكان أى حد، أى حاجز، عدا حين تلتقى أرض غنى بأرض غنى آخر. وعنصر آخر فى الاحتقار الذى يوليه هؤلاء الأثرياء لنا نحن الفقراء، أنهم لا يعتبرون أن مما له قيمة أن ينكروا أفعالهم إذا أدينوا بأى انتهاك للحقوق". (تاريخ الشيوعية والإشراكية القديمة، المجلد الثانى، الصفحتان ٥٨٢، ٥٨٣).

يعتبر بولمان ماسبق تشخيصاً للاتجاهات "الخاصة برأسمالية متطرفة بشكل عام" ولكن تشابه هذا التطور مع التطور الخاص بال رأسمالية الحديثة وتركيزها للثروة الرأسمالية هو تشابه زائف فحسب ومن المضلل للغاية أن نقارن الإثنين. إن من يدرس الموضوع على نحو أكثر عمقاً سوف يجد بالأحرى تعارضاً حاداً بين التطورين. قبل كل شئ، فى حقيقة أن هذا الاتجاه للتركيز، وسعى المشروعات الأكبر لأن تحل محل الأصغر، وكذلك الاندفاع للاستقلال المتزايد للمشروعات الأصغر عن حائزى الثروات الكبيرة يجرى فى الوقت الحاضر بصفة رئيسية فى

الصناعة وبدرجة أقل كثيراً في الزراعة، بينما في الأزمنة القديمة، كان الحال عكس ذلك تماماً. أضف إلى ذلك، فإن إخضاع المشاريع الصغيرة من قبل الأكبر يجري اليوم في شكل منافسة، حيث تمكن الإنتاجية الأكبر للمؤسسة العاملة بالآلات ومنشآت ضخمة أن يكون لها فعاليتها الكاملة. اتخذ الإخضاع في العصور القديمة، شكل إضعاف الفلاحين الأحرار، المضطهدين بالخدمة العسكرية وبرخص أكبر لقوة العمل التي في متناول حائزى مصادر النقود الكبرى في شكل إمداد كثيف بالعبيد. وأخيراً بسبب الربا، الذي سوف نتكلم عنه لاحقاً. كل منها عوامل خفضت إنتاجية العمل بدلاً من رفعه. كانت الشروط الضرورية لتطوير واستعمال الآلات مفتقدة في العصور القديمة كما أنه لم تكن قد تطورت بعد طبقة حرفيين أحرار إلى مستوى عال يمكنها من أن تقدم كميات ضخمة من العمل الماهر الحر، مستعدة لتأجير نفسها بشكل دائم لقاء أجر، بأعداد كبيرة، أي عمال يُطلبون لإنتاج الآلات وتشغيلها. ومن ثم فإن الحافز الضروري للمفكرين والباحثين لاختراع الآلات كان أيضاً مفتقداً، مادامت هذه الآلات كانت ستبقى دون فائدة عملية. على أية حال، إذا ما اخترعت الآلات، ذات الصلاحية للاستخدام الناجح في الإنتاج، وبمجرد أن يظهر عدد من العمال الأحرار، التائقين للتوظيف في الإنتاج واستخدام هذه الآلات، تصبح الآلة واحداً من أكثر الأسلحة أهمية في المنافسة بين أصحاب المشاريع أنفسهم. النتيجة سعى ثابت نحو الكمال وحجم متزايد للآلة، زيادة إنتاجية العمل، زيادة الفائض فوق الأجر المدفوع للعامل، وأيضاً ضرورة اختزان أو مراكمة قسم من هذا الفائض بغرض التزود بآلات جديدة أفضل، وأخيراً أيضاً زيادة ضرورة توسيع السوق دوماً، مادامت الآلات المحسنة تستمر في تقديم منتجات أكثر فأكثر يجب التخلص منها. ويقود هذا إلى زيادة غير متقطعة للرأسمال حتى أن إنتاج وسائل الإنتاج يفترض دوراً متزايد الأهمية في نظام الإنتاج الرأسمالي، انتهاءً إلى أن الأخير، من أجل أن يتصرف بربحية في أدوات الاستهلاك المتزايدة التي خلقت متزامنة مع وسائل الإنتاج المتزايدة، يجب أن يبحث أكثر فأكثر عن أسواق جديدة، حتى يمكن أن يقال أنه في مجرى قرن واحد، أي القرن التاسع عشر، قد غزا العالم كله.

كان مجرى الأحداث مختلفاً تماماً في العصور القديمة. لقد رأينا أن العبيد الذين اشتغلوا في المؤسسات الكبرى يمكن أن يزودوا فقط بأكثر الأدوات خشونة، حتى يمكن أن يشتغل أكثر العمال غباوة وفضاظة، ومن ثم كان الرخص البالغ لمادة العبد فقط هو الذي جعل مؤسسة الإنتاج الكبير مربحة بشكل معقول. لقد أثار هذا بين أصحاب مشاريع مؤسسات الإنتاج الكبير ميلاً ثابتاً نحو الحرب، بوصفها أكثر الوسائل فعالية للحصول على عبيد رخيصين، ونحو توسع مستمر للحدود القومية.

أصبح هذا الميل بداية بالحرب ضد قرطاجنة، واحداً من أعتى القوى المحركة للسياسة الرومانية في الغزو، التي أخضعت في مجرى قرنين كل البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وفي زمن المسيح، بعد أن وضعت الغال – التي هي فرنسا الآن – تحت النير كانت تستعد لإخضاع المانيا، التي قدم سكانها الأشداء مثل هؤلاء العبيد الممتازين.

جعل هذا الميل الثابت النهم لزيادة المناطق المستغلة مشروع الإنتاج الكبير القديم مشابهاً إلى حد ما لمشاريع زمننا الحديث، ولكن كان هناك مع ذلك اختلافاً كبيراً في الطريقة التي طبق بها إنتاج المنتجات الفائضة بواسطة الجموع المتزايدة من العبيد. على الرأسمالي الحديث، كما رأينا، أن يوفر أرباحه إلى حد بعيد، من أجل أن يحسن ويوسع مشروعه، إذا لم يكن يرغب في أن يستولى عليه ويهزمه منافسوه. لم يشعر مالك العبيد القديم بحاجة كهذه. لم يكن الأساس التقني الذي ارتكز عليه إنتاجه أعلى، وبالأحرى كان أدنى من أساس الفلاحين الصغار الذين كان يخرجهم عنوة. لم يكن هذا الأساس التقني يُثَوِّر ويوسع دائماً، ولكنه بقي دائماً نفس الشيء. كانت كل المنتجات الفائضة التي تجاوزت التكاليف التي أنفقت، وإحلال أو تلف الأدوات، الماشية والعبيد، في متناول مالك العبيد من أجل متعته، حتى وإن لم يكن مسرفاً. مما لا ريب فيه فإن النقود يمكن أن تستثمر في التجارة والربا أو بقاءاً جديدة من الأرض، ويمكن أن تصبح هكذا مصدراً لربح متزايد، ولكن حتى هذا الربح الجديد لا يمكن أن يستثمر في غرض آخر سوى المتعة. إن تراكم رأس المال لأغراض إنتاج وسائل إنتاج جديدة ما وراء الكمية المحددة سوف يكون مثيراً للسخرية، لأن وسائل الإنتاج الجديدة هذه ربما لا تكون قد وظفت في تطبيق جديد.

كلما حلت اللاتيفونديا أكثر مكان الفلاحين، كلما تعاظمت كميات الأراضي والعبيد التي تجمعت تحت إطار ملكية واحدة، وكلما أصبح الفائض أعظم، زادت الكنوز التي كانت في متناول الأشخاص الفرديين، والتي لا يمكن للأخيرين أن يوظفوها في غرض آخر غير استهلاكها لمسرته الخاصة. بينما يتسم الرأسمالي الحديث بميله لمراكمة رأس المال، تميز الأرستقراطي الروماني في الفترة الإمبراطورية بملاحقته للمتعة: لقد نشأت المسيحية في هذه الفترة. لقد راكم الرأسماليون الحديثون رأسمالاً يجعل ثروة أغنى مواطن من روما القديمة مثاراً للسخرية بالمقارنة. إن نموذج ثراء الرومان القدماء كان نارسييس، عبد نيرون المحرر، الذي كانت لديه ثروة نافذة على ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه إسترليني ولكن ما هي ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه إسترليني مقارنة ب ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ التي قيل أن السيد روكفلر يملكها؟ ولكن التبذير الذي يمارسه الأمريكيون ذوي الملايين لا يمكن أن يقارن،

بالرغم من كل جنونه، بتبذير أسلافهم الرومانيين الذين قدموا السنة طيور العندليب في مآدبهم وأذابوا لآلى ثمينة فى الخل.

تزايد مع نمو الترف عدد العبيد المنزليين المستخدم فى الخدمة الشخصية أيضاً، وبات أكثر حين أصبحت مادة العبد أرخص. يقول هوراس فى واحدة من هجائياته إن أصغر عدد من العبيد يمكن لرجل أن يحتفظ به حتى يصبح مستريحاً نوعاً ما لا يقل عن عشرة. ربما يصل عددهم فى مؤسسة ارستقراطية إلى الآف. بينما وُضع البرابرة فى المناجم وفى المزارع الكبرى، فقد كان الأكثر دربة هم العبيد الأغارقة خاصة، مع "عائلات المدينة"، بمعنى آخر، فقد عاشوا فى منزل يقع فى المدينة. ليس فقط الطهارة، والكتاب SCRIBES، والموسيقيون، والمربون، والممثلون، وإنما حتى أطباء وفلاسفة كانوا يعتبرون عبيداً. تعارض وضع العبيد الذين خدموا فى زيادة ثروة المالك، مع وضع أغلب هؤلاء العبيد المتعلمين الذين كان لديهم عمل قليل يقومون به. كان العدد الأعظم منهم الآن عاطلين عظماء مثل سادتهم أنفسهم. ولكن الشرطين اللذين خدما سابقاً فى الإسهام فى معاملة حسنة لعبد العائلة اختفيا الآن: وهما ثمنه المرتفع، الذى جعل من الضرورى الإبقاء عليه، والعلاقة الرفاقية مع سيده، الذى عمل العبد معه. الآن، على ضوء الثروة الكبيرة للسيد ورخص العبيد، لم يشعر أحد بأدنى التزام لأن يُبقى على الأخيرين. أضف إلى ذلك، توقفت كل علاقة شخصية مع السيد بالنسبة للجمهرة العظمى من العبيد المنزليين؛ لقد عرفهم السيد بالكاد. وإذا جرى اتصال شخصى بين السيد والعبد، فلم يكن بشأن عملهم، الذى كان مصدر احترام متبادل، وإنما فى العريضة والردائل، التى تنتجها العطالة والخطورة التى ألهمت السادة والخدم باحتقار متبادل. رغم أنهم عاطلون، وغالباً مدللون، فقد كان عبيد المنزل معرضون لكل رداءة طبع بدون إمكانية دفاع، ولكل انفجار غاضب، الذى حمل لهم غالباً مصائر خطيرة. إن التصرف القاسى (الذى قام به) فيديوس بوليو معروف جيداً: لقد كسر العبد أنية مصنوعة من الكريستال، وبسبب هذا الخطأ أمر بوليو أن يلقي به كطعام لسمك متوحش MURDENAE، كان يبقيه فى بركة، لأن أسماك الإنفليس هذه كانت تقدر آنذاك كطعام شهى.

لقد عنت الزيادة فى عدد هؤلاء العبيد المنزليين زيادة فى عدد العناصر غير المنتجة فى المجتمع، الذين تزايدت جموعهم بالمثل بنمو البروليتاريا الرثة، التى جُندت جزئياً من الفلاحين المحررين. وجرى هذه العملية بينما كان طرد العمل الحر من قبل عمل العبيد يُنقص فى نفس الوقت لحد بعيد إنتاجية العمل فى عديد من المهن المنتجة.

ولكن كلما كان عدد أعضاء العائلة اكبر، أصبح من السهل أن تجهز المنتجات لاستهلاك المنزل من قبل عماله، منتجات كان أصغر منزل مضطراً لشراءها، مثل أرديّة معينة وأوعية. أدى هذا إلى تطور مجدد للإنتاج من أجل الاستهلاك المنزلي داخل العائلة. ولكن هذا الشكل الأخير من الاقتصاد العائلي للأثرياء لا يجب أن يخلط مع الاقتصاد العائلي البدائي البسيط، الذي كان مؤسساً تقريباً على غياب الإنتاج الجماعي، والذي أنتج هو نفسه تحديداً أكثر المواد أهمية والتي لاغنى عنها من بين حاجاته، شارباً فقط أدوات ومواد الترف. كان هذا الشكل الثاني من الإنتاج للاستهلاك المنزلي ضمن العائلة كما صادفناه في نهاية الجمهورية الرومانية والفترة الإمبراطورية، في منازل الأغنياء مؤسساً تحديداً على الإنتاج الجماعي، على إنتاج المناجم واللاتيفونديا من أجل السوق: كان هذا الإنتاج المنزلي أولاً وبصفة رئيسية إنتاجاً لمواد الترف.

كان هذا التطور الجديد للإنتاج من أجل الاستهلاك المنزلي خطراً على الحرفي الحر، حيث كانت المشاريع الصناعية في المدن واللاتيفونديا، التي نهض بها العبيد، تسبب له مايكفي من الأضرار. لقد كان من المحتم أن تتناقص طبقة الحرفيين الأحرار نسبياً، وبمعنى آخر، إن عدد العمال الأحرار لم يكن الا ليهبط مقارنة بعدد العبيد، حتى في العمل الحرفي. ولكن في عدد من التجارات ربما مازال عدد العمال الأحرار يتزايدون في العدد بشكل مطلق، بفضل زيادة التبذير، التي خلقت طلباً متزايداً على موضوعات الفن وعلى الصناعات الفنية، بل أيضاً على مجرد مواد تافهة، مثل أدوات التجميل والدهانات العطرية.

إن من يحكم على رفاهية مجتمع بواسطة مثل هذا التبذير، ويتخذ نفس الموقف ضيق الأفق كذلك الذي زعمه القياصرة الرومان والملوك العقاريون الكبار وبطانتهم من الحاشية، والفنانين، والأدباء LITERATI، سوف يغالي في تقدير الظروف الاجتماعية في فترة الإمبراطور أغسطس ويصفها بأنها ممتازة. لقد كانت الثروة اللامحدودة تتراكم في روما من أجل غرض وحيد هو خدمة المسرة الشخصية، وترنح المسرفون الأثرياء الباحثين عن المتع، من مأدبة إلى مأدبة ناثرين بأيدي مبذرة الوفرة التي كان من المستحيل عليهم أن يستهلكوها كلها بأنفسهم. تلقى كثير من الفنانين والباحثين عطايا من النقود غاية في الكرم من MOECENATES، وشيدت هياكل كبرى، اتسمت بالحجم الهائل والنسب الفنية التي هي موضوع إعجابنا حتى اليوم، بدا العالم كله وكأنه يعرق ثروة من كل مساهمه – ومع ذلك فإن هذا المجتمع كان قد حكم عليه بالدمار سلفاً.

د – التدهور الاقتصادي

إن نذيراً بحقيقة أن الأحوال كانت فى مسار هابط ظهرت بالأحرى فى وقت مبكر داخل الطبقة الحاكمة؛ نائين إذا جاز القول عن كل الأنشطة، فإن عملهم بما فيه ذلك المتعلق بالدراسة والسياسة، كان يقوم به العبيد. خدم عمل العبد فى بلاد الإغريق، أولاً هدف منح وقت فراغ كبير للسادة، ولإدارة الدولة، وللتأمل الذى يتعلق بأكثر مشاكل الحياة أهمية. ولكن كلما تزايدت المنتجات الفائضة التى كانت متمركزة فى أيدي أفراد معينين بتركيز الملكية العقارية، وتوسع اللاتيفونديا، وتزايد جمهرة العبيد، كلما أصبح الميل أعظم لاعتبار ممارسة الاستمتاع، فى تبديد تلك الفوائض، كأنه أكثر الوظائف الاجتماعية للطبقات الحاكمة أرسقراطية، وكلما تحرقوا أكثر بحماس المنافسة للتبذير، المنافسة فى أن يبرز الواحد الآخر فى الأبهة، والترف، والعطالة. أنجزت هذه العملية فى روما بشكل أكثر سهولة منها فى بلاد الإغريق، مادام البلد الأخير كان متخلفاً إلى حد ما فى مستواه الثقافى حين بلغ هذا النمط من الإنتاج. لقد توسعت القوة العسكرية الإغريقية بصفة رئيسية على حساب القبائل البربرية، بينما واجهت فى آسيا الصغرى ومصر معارضة قوية بالفعل. كان عبيدهم برابرة فلم يكن بمستطاع الإغريق أن يتعلموا منهم شيئاً، كما لم يستطيعوا أن يعهدوا إليهم بإدارة الدولة. والثروة التى كان من الممكن اقتطاعها من البرابرة كانت بالمقارنة ضئيلة. انتشر الحكم الرومانى من ناحية أخرى، بسرعة فى المواقع القديمة للحضارة فى الشرق، بعيداً حتى بابل (أوسلوقيا): لم يستخرج الرومان من هذه الولايات المغزوة حديثاً ثروة هائلة فقط، وإنما كثيراً من العبيد الذين كانوا أرفع قياساً بسادتهم فى المعرفة، حيث كان على الأخيرين أن يتعلموا منهم الكثير، وأمكن أن يعهدوا إليهم بإدارة الدولة. خلف مدبرى الدولة، الذين كانوا سابقاً أرسقراطيين ملاك أرض كبار، أكثر فأكثر فى الفترة الإمبراطورية عبيد البيت الملكى وعبيد الإمبراطور السابقين، المعتقين الذى بقوا مخلصين لسادتهم السابقين.

كانت المتعة هى الوظيفة الوحيدة فى المجتمع التى بقيت لملاك اللاتيفونديا ولحاشيتهم الكبيرة من الطفيليين. ولكن الإنسان لا يستجيب لمثير يستمر فى التأثير فيه لفترة طويلة، للذة كما للألم، للدوافع الشهوانية وللخوف من الموت. إن مجرد اللذة المتواصلة، التى لا يخدمها العمل، أنتجت فى البداية سعياً دائماً لمتع جديدة، التى استهدف منها أن تفوق التجارب الأسبق، لهماز الأعصاب المنهكة من جديد، الأمر الذى قاد إلى أكثر الرذائل مخالفة للطبيعة، وإلى أكثر القساوات إتقاناً، والذى رفع التبذير إلى أكثر الذرى علواً وعشوية. ولكن هناك حد لكل شيء، وإذا ما وصل الفرد إلى نقطة لم يعد فيها قادراً بعد على زيادة لذاته، إما من خلال الافتقار للمصادر، أو القوة، أو نتيجة لإفلاس مالى أو مادى، فقد كانت تعالينه أشد أنواع الغثيان حدة، مع بغض شديد لمجرد فكرة اللذة، وحتى مع اشمئزاز كامل من الحياة،

بدأت كل الأفكار والصور الأرضية الآن تافهة – VANITAS , VANITATUM , VANITAS. اليأس، الرغبة في الموت، كانت النتيجة، ولكن تجذرت أيضاً الرغبة في حياة أرقى جديدة. كانت هناك كراهية متأصلة للعمل في عقول كثيرة، على أى حال، حتى أن هذه الحياة الجديدة المثالية لم تكن تُتصور كحياة عمل مبهج، وإنما كحالة ساكنة تماماً من النعيم، استخلصت كل مسراتها من انفصالها الكامل عن الآلام وتحررها من وهم الحاجات والمتع المادية.

ولكن ظهر أيضاً بين أفضل أفراد الطبقة المستغلة شعور بالعار استناداً إلى حقيقة أن لذتهم كانت قائمة على تدمير عدد من الفلاحين الأحرار، وعلى سوء معاملة آلاف العبيد في المناجم واللاتيفونديا. أيقظ وخز ضميرهم أيضاً إحساساً بالتعاطف مع العبيد – الذي كان يتناقض بشكل غريب مع القسوة الفظة التي كان ينظر بها لحياة العبيد – إننا في حاجة إلى أن نشير عرضاً فقط إلى قتال المصارعين. أخيراً أثار الضمير المريض أيضاً كراهية نحو شهوة الذهب، والنقود، التي كانت تحكم العالم في هذا الزمن.

يصرخ بلينى فى الكتاب الثالث والثلاثون من التاريخ الطبيعى ” نحن نعرف أن سبارتاكوس (قائد انتفاضة العبيد) منع أى شخص فى معسكره من أن يقتنى ذهباً أو فضة. لأى مدى يفوقنا عبيدنا الهاربون فى عظمة العقل ! يكتب الخطيب ميسالا أن تريمفير أنطونيوس قد استخدم الأنية الذهبية لحاجاته الجسدية الدنيا أنطونيوس، الذى حط من الذهب إلى هذا الحد، وجعله أدنى شيء فى الطبيعة، كان يستحق أن يعلن خارجاً على القانون. ولكن سبارتاكوس فقط هو الذى كان يمكن أن يجعله “خارجاً على القانون“.

أسفل تحت، فى ظل هذه الطبقة الحاكمة، التى كان جزء فيها يُدمر نفسه بسعى مجنون الى المتعة، والشهوة للنقود والقسوة، وكان جزء آخر مملوءاً بالتعاطف مع الفقير، ومع كراهية الذهب والملذات، وحتى مع الرغبة فى الموت، توسع هناك جمع كثيف من العبيد الكادحين، الذين كانوا يعاملون بقسوة أشد من حيوانات حمل الأثقال، جُندوا من أشد القبائل تنوعاً، خُلِعوا وأفسدوا بإساءة المعاملة الدائمة، بالعمل جماعات مقيدة بالسلاسل تحت قرقرعات السوط، مملوئين بحقن عنيد، وبالرغبة فى الانتقام، واليأس، مستعدون دائماً لانتفاضة عنيفة، ولكن غير قادرين – بسبب تخلف العناصر البربرية التى شكلت أغليبيتهم – عن الإطاحة بمؤسسة نظام الدولة العاتى وإقامة نظام جديد، بالرغم من أن شخصيات بارزة مفردة بينهم ربما تابعت مثل هذه المطامح. لم يكن النوع الوحيد من التحرر الذى ربما نجحوا فى إحرازه يرتبط بالإطاحة بالمجتمع القائم، وإنما بالهروب من ذلك المجتمع، بالفرار إما للفئات

الإجرامية، إلى قطاع الطرق، الذين كان عددهم يتضخم باستمرار، أو بالهرب بتخطي الحدود الإمبراطورية واللاحق بأعداء الإمبراطورية.

كانت هناك إلى حد مافوق هذه الملايين الأكثر بؤساً من كل البشر طبقة من العبيد تحتوى على عدة مئات من الآلاف، التى عاشت غالباً فى ترف ووفرة، وشهدت دائماً وعانت من العواطف الأكثر عنفاً وغلواً، التى خدمت كملحق فى كل شكل للفساد يمكن تخيله، صائرين إما خاضعين للفساد أنفسهم ومن ثم فاسدين تماماً مثلهم مثل سادتهم، أو – مرة أخرى يشبهون بعض سادتهم، وغالباً أبكر فى اللعبة من الآخرين، مادام كان عليهم أن يعانون من شرور حياة اللذة بشكل أسرع للغاية – مشمئزون بعمق من الفساد، والبحث عن اللذة وحدها، ومليئين بتوق إلى حياة جديدة، أنقى، وأعلى.

وجنباً إلى جنب مع كل هذا كانت هناك أيضاً حشود من مئات آلاف المواطنين المحررين والعبيد المعتقين، وايضاً بقايا عديدة مفقرة من الطبقة الفلاحية، حائزين متدهورين، حرفيين حضريين بائسين وحمالي أثقال، وكذلك، أخيراً، البروليتاريا الرثة فى المدن الكبيرة، لديها الطاقة والثقة فى الذات الخاصة بالمواطن المحرر ومع ذلك فقد أصبحت غير ضرورية اقتصادياً فى المجتمع، مشردة، بدون إحساس بالأمان، تعتمد بشكل مطلق على الفئات الذى يلقيه لها السادة الكبار فائضاً عن حاجاتهم، مدفوعين إما بالكرم أو الخوف، أو بالرغبة فى السلام.

حين يصور إنجيل القديس متى يسوع قائلاً عن نفسه: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (الإصحاح الثامن، ٢٠) فهذا يعبر فحسب فى حالة يسوع عن فكرة كان قد عبر عنها طيباريوس جراكوس قبل ١٣٠ عاماً من ميلاد المسيح لكل بروليتاريا روما: "لوحوش فى إيطاليا كهوفها وأوجرتها التى تستريح فيها ولكن الرجال الذين يناضلون ويموتون من أجل عظمة إيطاليا لا يملكون شيئاً سوى النور والهواء لأنه لا يمكن سلبهم إياها. فهم مشردون بلا مأوى يتجولون مع زوجاتهم وأطفالهم". البؤس وعدم الأمان الدائم لوجودهم لا بد وأن أحقهم أكثر مع الوقاحة المتزايدة والترف الذى كانت ثروة العظماء تضعه دوماً أمام أعينهم. تؤكد من ذلك حقد طبقي عنيف عند الفقراء ضد الأغنياء، ولكن هذا الحقد الطبقي كان من نوع مختلف تماماً عن ذلك الذى تعينه البروليتاريا الحديثة.

كل مجتمع اليوم مؤسس على عمل البروليتارى. عليه أن يتوقف عن العمل فقط حتى يتزلزل المجتمع من أساسه. لم يقم البروليتارى القديم المتشرد بعمل وحتى العمل الذى قام به بقايا الفلاحين الأحرار والحرفيين لم يكن ضرورياً. لم يعيش

المجتمع على حساب البروليتاريا فى هذا الزمن، لقد عاشت البروليتاريا على حساب المجتمع. لقد كانت البروليتاريا نافلة تماماً وكان لها أن تختفى كلية دون أن تضر المجتمع. على النقيض من ذلك كان بإمكان اختفاء البروليتاريا فحسب أن يجعل النظام أكثر أمناً. كان عمل العبيد هو الأساس الذى بنى عليه المجتمع.

تحارب اليوم المتناقضات بين الرأسمالى والبروليتارى فى المصنع، فى الورشة، والسؤال هو: من سيسيطر على المنتجات، مالك وسائل الإنتاج، أم مالك قوة العمل ؟ يتضمن الصراع كامل نظام الإنتاج؛ انه نضال من أجل إحلال نمط إنتاج أرقى محل القائم الآن.

لم يكن البروليتارى القديم الفقير معنياً بهذا النضال. والحقيقة، أنه لم يكن يعمل ولم يرد أن يعمل. كل ماأراده هو نصيب فى متع الأغنياء، توزيع مختلف للملذات، وليس وسائل الإنتاج، نهب الغنى، وليس تغيير نمط الإنتاج. لم تؤثر معاناة العبيد فى المناجم والمزارع فيه كما أثرت معاناة الحيوانات العامة.

الأقل إمكاناً أن يفكر الفلاحون والحرفيون فى محاولة إقامة نمط جديد أرقى. لاتطمح هذه الطبقات لأى شيء كهذا حتى الآن. لقد كان حلمها فى أفضل الأحوال استعادة الماضى، ولكنها كانت مرتبطة بوثوق بالبروليتاريا الرثة، وكانت طموحات الأخيرة مغرية بالنسبة لهم، حتى أنهم أيضاً لم تكن لديهم رغبة أو طموح أكثر مما لهؤلاء البروليتاريون الفقرون: حياة بلا عمل، تعايش على حساب الغنى، شيوعية بواسطة نهب الغنى.

ربما يعرض المجتمع الرومانى فى نهاية الجمهورية وخلال الفترة الإمبراطورية، من ثم، متناقضات اجتماعية هائلة، كثير من الحقد الطبقي وكثير من الصراعات الطبقيّة، انتفاضات وحروب أهلية، نزوع لا حدود له لحياة مختلفة، أفضل، وإلغاء النظام القائم للمجتمع، ولكن لا يظهر أن هناك أى جهد قد بذل فى اتجاه إدخال نمط إنتاج جديد أرقى.

لم تكن المتطلبات الأخلاقية والثقافية لحركة كهذه قائمة، فلم تملك أى طبقة المعرفة، والطاقة، والفرح بالعمل والإيثار المتطلبة لممارسة ضغط فعال فى اتجاه نمط إنتاج جديد، وأيضاً، كانت المتطلبات المادية غائبة، وبدونها لم تكن لتظهر فكرة مثل هذا الشيء.

لقد رأينا عاليه أن الاقتصاد العبودى لم يتضمن من الناحية التقنية تقدماً وإنما تفهقراً، ذلك أنه لم يُخنث السادة فقط وجعلهم غير ملائمين للعمل، وأنه لم يفعل غير زيادة عدد العمال غير المنتجين فى المجتمع، ولكن إضافة إلى ذلك خَفَضَ إنتاجية

العمال المنتجين وأعاق التقدم فى التقنية العملية – ويمكن ان نستثنى تجارات ترف معينة. إن من يقارن نمط الإنتاج الجديد مع النمط الذى يخص طبقة الفلاحين الأحرار الذى أزاحه واضطهده، لا يمكن إلا أن ينظر إليه باعتباره تدهوراً، وعلى وجه اليقين ليس تقدماً. بدأ الناس يشعرون أن الأزمنة القديمة كانت الأزمنة الأفضل، العصر الذهبى، وكل حقبة لاحقة كانت نسبياً انحطاطاً. يتسم العصر الرأسمالى بفكرة التقدم اللانهائى للبشرية، بسبب جهد الرأسمالية الدائم لتحسين وسائل الإنتاج، وهو يسفر عن ميل للنظر إلى الماضى فى ألوان داكنة، وأن يرى فقط المستقبل وريداً؛ ولكن فى الفترة الإمبراطورية الرومانية فإننا نجد وجهة نظر معاكسة، أى، أن هناك تدهوراً متلاحقاً لايتوقف للبشرية، ونزوع دائم لاستعادة الأزمنة القديمة الطيبة. حينما كانت الإصلاحات الاجتماعية والمثل الاجتماعية فى الأيام الإمبراطورية معنية تماماً بتحسين شروط الإنتاج، فقد استهدفت فقط استعادة نمط الإنتاج القديم، أى، نمط إنتاج الفلاحين الأحرار، هكذا بحق، لأن هذا النمط من الإنتاج كان أرقى نسبياً. لقد أدى العمل العبودى لطريق مسدود. على المجتمع أن يوضع مرة أخرى على قاعدة العمل الفلاحى قبل أن يستطيع البدء فى صعود جديد. ولكن كانت الحضارة الرومانية عاجزة عن أن تأخذ حتى هذه الخطوة، لأنها فقدت الفلاحين اللازمين. لقد كان من الضرورى لهجرة الأمم أن تلقى بكتل كبيرة من الفلاحين الأحرار داخل الإمبراطورية الرومانية قبل أن تستطيع مرة أخرى بقايا الحضارة التى كانت تلك الإمبراطورية قد خلقتها أن تستخدم كأساس اجتماعى جديد.

مثل كل نمط إنتاج قائم على العداء المتبادل، كان الاقتصاد العبودى القديم يحفر قبره. كان هذا الاقتصاد فى الشكل الذى أحرزه فى النهاية فى الإمبراطورية الرومانية، مؤسساً على الحرب. فقط حروب منتصرة لاتتوقف، إخضاع متواصل للأمم جديدة، وتوسع متصل للنطاق الإمبراطورى يمكن أن تقدم كميات هائلة من مادة العبيد الرخيصين الذى احتاج إليها.

ولكن الحرب لايمكن أن تشن بلا جنود وكانت أفضل مادة للجنود هى الفلاح. المعتاد على العمل الشاق المتصل فى الهواء الطلق، فى القىظ والبرد، تحت الشمس المحرقة وفى المطر المنهمر، استطاع أن يتحمل أشد المعاناة التى تلقىها الحرب على عاتق الجنود. إن بروليتارى المدينة الفقير، لم يعد معتاداً على العمل، وكذلك الحرفى الحاذق، نساجاً، أو صانعاً أو نحائاً، باتوا أقل ملائمة لمثل هذا الغرض. لقد عنى اختفاء الفلاحين الأحرار اختفاء الجنود للجيوش الرومانية. لقد أصبح ضرورياً أكثر فأكثر أن يستبدلوا بالمتطوعين من المرتزقة، والجنود المحترفين، عدد الجنود المطلوبين لخدمة الميليشيا الذين كانوا مستعدين لأن يخدموا ما بعد مدتهم العسكرية.

وسرعان ما لم يعد يكفى هذا أيضاً، ما لم يُقبل أيضاً مواطنين غير رومانيين. قبل ذلك فى أيام طيباريوس، أعلن الإمبراطور فى مجلس الشيوخ، أنه كان هناك افتقار للجنود الجيدين، فكان لابد وأن يقبل كل أنواع الرعاى المتشردين. أصبح المرتزقة البرابرة أكثر فأكثر عدداً من الجيوش الرومانية، جُندوا من الولايات التى أخضعت؛ وأخيراً كان لابد وأن تملأ الخروق فى الجيش، بالمجندين الأجانب، أعداء الإمبراطورية. نجد بالفعل تيوتون فى الجيوش الرومانية فى ظل قيصر.

مع تناقص فرصة تجنيد الجنود للجيش من بين العرق المسيطر، ومع الندرة المتزايدة وتكلفة الجنود، تزايد حب الرومان للسلام بالضرورة، ليس بسبب أى تغير فى المفاهيم الأخلاقية، ولكن لأسباب غاية فى المادية. كان على روما أن تكون ضئيلة بجنودها، ولكنها أيضاً لم تستطع أن تحتل بعد توسيع حدودها الإمبراطورية، لقد كانت سعيدة كفاية بأن تكون قادرة على الحصول على عدد كاف من الجنود للاحتفاظ بالحدود القائمة. لقد جرى ذلك فى ذات الوقت الذى عاش فيه يسوع، أى، فى ظل طيباريوس، فالعدوان الرومانى، إذا نظر إليه فى إجماله، قد انتهى إلى توقف تام. يبدأ الآن جهد فى الإمبراطورية الرومانية للإبقاء على وحدتها ضد الأعداء الذين يهددونهم من الخارج. وبدأت صعوبات هذا الوضع فى هذه اللحظة تصبح أشد خطورة، لأنه كلما زاد عدد الأجانب، خاصة التيوتون، الذين كانوا يخدمون فى جيوش روما، كلما أصبح جيران روما البرابرة أكثر معرفة بثروتها، وبأسلوب حربها، فضلاً عن وضعها، وكلما أصبحوا ملهمين أكثر بالطموح إلى اختراق الإمبراطورية، ليس كمرتزقة وخدم، ولكن كغزاة وسادة. وبدلاً من القيام بحملات صيد أكثر للبرابرة، سرعان ما وجد السادة الرومان أنفسهم مضطرين للتقهقر أمام البرابرة أو لشراء السلام منهم. وهكذا فى القرن الأول من عصرنا انتهى تدفق العبيد الرخيصين إلى توقف مفاجئ وأصبح ضرورياً أكثر فأكثر تربية العبيد.

ولكن كانت هذه عملية غاية فى التكلفة. كان تدريب العبيد مربحاً فقط فى حالة العبيد المنزليين من الأنماط الأرقى، القادرون على انجاز عمل ماهر. لقد كان من المستحيل إدارة اللاتيفونديا باستخدام العبيد المدربين. كان استخدام العبيد فى الفلاحة قد أصبح أقل فأقل حدوثاً وحتى التعدين كان يتدهور، أصبح العديد من المناجم غير مربح مع توقف إمداد العبيد المأسورين فى الحرب، التى لم تكن هناك حاجة للإبقاء عليها.

ولكن سقوط الاقتصاد العبودى لم يؤد لانبعاث للطبقة الفلاحية. المخزون الضرورى من الفلاحين الكثر، الذى قد يهين لحل اقتصادى، كان مفقوداً، وبالإضافة لذلك،

كانت الملكية الخاصة للأرض عقبة. لم يكن ملاك اللاتيفونديا مستعدون للتخلي عن ملكيتهم، وإنما خفضوا فحسب من نطاق عملياتهم الأكبر. لقد وضعوا قسماً من أراضيهم تحت تصرف حائزين صغار، مؤجرينها إلى مستأجرين أو إلى مستوطنين COLONI، بشرط أن يكرس الأخيرين قسماً من عملهم لمزرعة السيد. وهكذا نشأ نظام للزراعة، بقي حتى فيما بعد، في الفترة الإقطاعية، طموح الملاك العقاريين الكبار، حتى حلت محله الرأسمالية بنظام الإيجار الرأسمالي.

كانت الطبقات العاملة التي جُند منها المستوطن جزئياً من العبيد الريفيين والفلاحين الذين أصابهم الفقر، وجزئياً بروليتاريين، حرفيين أحرار وعبيد من المدن الكبرى، لم يعودوا قادرين على أن يعيشوا في الأخيرة، مادامت الحصيلة الإنتاجية للمؤسسات العبودية في الزراعة والتعدين كانت في تدهور، انتهاءً إلى أن شهامة وترف الغنى كانت تعاني من انتكاس. إضافة إلى ذلك، كانت هذه القوى العاملة قد تضخمت أيضاً بواسطة سكان الولايات الحدودية الذين أخرجوا من ممتلكاتهم بسبب تقدم البرابرة وفروا نحو الولايات المركزية للإمبراطورية حيث وجدوا بيوتاً باعتبارهم مستوطنين.

ولكن لم يستطع نمط الإنتاج الجديد هذا أن يعوق عملية التدهور الاقتصادي الناجم عن الافتقار للإمداد بالعبيد. كان هذا النمط الجديد أيضاً متخلفاً تقنياً مقارنة بطبقة الفلاحين الأحرار، وكان عقبة في وجه التطور التقني. بقي العمل الذي كان على المستوطن أن يقوم به في المزرعة مهمة إجبارية، وعولج بنفس البطء والإهمال، بنفس الاحتقار للماشية والأدوات، كما كان الحال في العمل العبودي. مما لا ريب فيه أن المستوطن قد اشتغل بالفعل في مزرعة تخصصه، ولكنه أعطى مزرعة صغيرة حيث لم يكن هناك خطر من أن يظهر متعجرفاً، أو أن يحصل على أكثر من مجرد أسباب عيشه منها، يضاف إلى ذلك، الإيجار، الذي كان يدفع عيناً، وصار مفراطاً، حتى تعين على المستوطن أن يسلم لسيده كل ما أنتجه زيادة على الحاجات الأساسية للحياة. لقد كان بؤس المستوطن قابلاً للمقارنة ربما مع بؤس المستأجرين الصغار في أيرلندا، أو ربما مع فلاحى إيطاليا اليوم، حيث مازال نمط إنتاج مشابه قيد الوجود.

ولكن لدى الأقاليم الزراعية في الوقت الحاضر صمام أمان في الهجرة إلى الأقاليم المزدهرة صناعياً على الأقل. لم يكن هناك شيء كهذا بالنسبة للمستوطن في الإمبراطورية الرومانية. خدمت الصناعة آنئذ فقط بقدر ضئيل لإنتاج وسائل الإنتاج، ولكنها كانت مكرسة بصفة أساسية لمواد الاستهلاك والترف. حيث أن

العائدات الفائضة لملاك اللاتيفونديا والمناجم قد هبطت، تفهقرت الصناعة فى المدن وتناقص سكانها بسرعة.

ولكن كان سكان أقاليم الولايات أيضاً يتناقصون. لم يستطيع الحائزون الصغار أن يعولوا عائلات كبيرة، لأن محصول مزارعهم فى الأوقات العادية كان كافياً بالكاد لأن يبقينهم أحياء. يلقيهم عجز المحاصيل بلا مؤن وبدون نقود لشراء مايفتقرون اليه. كان للمجاعة والبؤس بالضرورة حصاد غنى، حيث كانت فئات المستوطنين يهلك معظمها، خاصة أطفالها. إن تناقص السكان فى أيرلندا فى القرن الماضى يشبه النقص فى السكان فى الإمبراطورية الرومانية.

“من السهل أن نفهم أن الأسباب الاقتصادية التى كانت تسبب نقصاً فى السكان فى كامل الإمبراطورية الرومانية أثرت بالضرورة بشكل محسوس أكثر فى إيطاليا، وأكثر فى روما منها فى أى مكان آخر. إذا سأل قارئ عن الأرقام، فدعه يفترض أن مدينة روما فى زمن أغسطس قد حوت حوالى مليون من السكان، الذى بقى فى نفس المستوى تقريباً خلال القرن الأول من الفترة الإمبراطورية، وعندئذ هبط فى عهد سيفرى إلى حوالى ٦٠٠٠٠٠ نسمة؛ وبعد ذلك استمر العدد فى التناقص بسرعة.”

يطبع إدوارد ماير، فى مؤلفه الممتاز، التطور الاقتصادى فى الأزمنة القديمة (١٨٩٥)، ملحقاً يتضمن الوصف الذى قدمه ديوكريسوسوتم (ولد حوالى ٥٠ ب.م) فى خطبته السابعة، حول ظروف مدينة صغيرة فى إيوبيا EUBOEA، والذى لا يورد اسمها، وهى تمثيل عنيف لتناقص سكان الإمبراطورية.

“تخص المقاطعة المحيطة بكاملها المدينة وتدفع جزية للمدينة. كل الأرض تقريباً، إن لم يكن كلها، مملوكة للأغنياء، وهم ملاك قطع أراضى شاسعة، تستخدم فى رعى الماشية والفلاحة. ولكن الأرض مهجورة كلية. أعلن مواطن فى الجمعية الشعبية، “ثلثى أرضنا قريباً، تترك فى راحة لأننا لانستطيع أن نعمل فيها، ولأن عدد سكانها ضئيلون للغاية. أنا نفسى لدى كثير من الأكرات مثل أى أحد آخر، ليس فقط فى الجبال، ولكن تحت فى الأودية. إذا أمكننى أن أجد أحداً مستعداً لأن يفلحها، فلن أدعه فقط يأخذها دون أن يدفع، ولكنى سوف أدفع له بسرور نقوداً فى الصفقة.”

“لقد مضى المتحدث فى القول بأن هجر (الأرض) قد بات الآن على عتبة الأبواب، “إن الأرض عاطلة تماماً وتقدم مشهداً حزيناً، كما لو كانت فى وسط الصحراء قريباً وليست خارج أبواب المدينة تماماً. ولكن داخل جدران المدينة، فإن معظمها مستخدم كمراعى. لقد تحول الجمنازيوم إلى حقل محروث، حتى أن هرقل وتمثيل الآلهة والأبطال الأخرى قد اختفت بسبب المحصول فى الصيف، والمتحدث

الذى سبقنى يسوق ماشيته كل صباح لترعى أمام قاعة المدينة ومكاتب المدينة، انتهاءً إلى أن الغرباء الذين يزوروننا يضحكون علينا أو يحزنون من أجلنا".

"وفقاً لذلك، فإننا نجد أن بيوتاً كثيرة فى المدينة نفسها خاوية، السكان يتناقصون بوضوح. قلة من صيادى الأرجوان تعيش عند الصخور الكافارية CAPHARIC ROCKS، خلافاً لذلك فلا توجد نفس واحدة بطول وعرض الإقليم كله. كانت كل هذه المنطقة سابقاً تخص مواطناً ثرياً حاز قطعان خيول وماشية عظيمة، مراعى كثيرة، وعديد من الحقول الجيدة المحروثة وكثير من الأملاك الأخرى. وبسبب ثروته، أمر الإمبراطور بقتله، أبعدت قطعانه، بما فيها الماشية التى تخص راعيه، ومنذئذ تعيش أرضه عاطلة. راعيان فقط، رجال أحرار ومواطنون من المدينة، قد بقوا هنا ويعولون أنفسهم بالصيد وقليل من الزراعة وتربية الماشية".

إن الظروف التى وصفها ديو هنا - وعبر بلاد الإغريق كلها كانت الأشياء تقريباً نفسها حتى فى أبكر أيام الإمبراطورية - هى نفس الظروف التى تطورت فى القرون التى تلت مباشرة فى روما وما أحاط بها، والتى وضعت بصمتها على كامبانيا CAMPAGNA حتى يومنا هذا. إننا نجد فى هذه المقاطعة أيضاً أن المدن الريفية قد اختفت، تبقى الأرض قاحلة فى كل اتجاه، وتستخدم فقط فى تربية الماشية (ايضاً لزراعة الكرم على جوانب التلال) وأخيراً روما نفسها تصبح خاوية من سكانها، ومنازلها خالية، وتنهار منشآتها العامة الكبرى فى الساحة العامة FORUM وفى الكابيتول قدمت الأرض مراعى للماشية. بدأت نفس الظروف فى الظهور فى قرننا (التاسع عشر) فى أيرلندا، وهى "لاتخفق فى أن تصدم أى زائر يأتى إلى دبلن أو يسافر عبر الريف". (نفس المصدر، ص ص ٦٧ - ٦٩).

كانت خصوبة التربة تهبط ايضاً. كانت التغذية للتسمين حتى آنذاك مستخدمة قليلاً، وبالضرورة كان يُلجأ إليها قليلاً فى نظام تملك العبيد، لأنها عنت هنا معاملة سيئة للماشية. ولكن عنى عدم وجود تغذية للتسمين عدم توفر سماد، والإخفاق فى إخصاب الأرض، أو زراعتها بكثافة، عنى أنها كانت تحرم من قدرتها على تقديم محاصيل تالية. يمكن الحصول على المحاصيل المربحة فقط من أفضل أنواع الترب بطريقة الزراعة هذه. ولكن عدد مثل هذه الأراضى الجيدة كان يتناقص بثبات، مع المحاصيل الدورية دوماً، تصبح التربة مجهدة أكثر فأكثر.

إن ظاهرة مماثلة قد شهدتها أمريكا فى مجرى القرن التاسع عشر، حيث لم تكن التربة تخصب فى الولايات الجنوبية، إذ كان يعمل هناك العبيد أيضاً، ومن ثم تدهورت بسرعة، وكان استخدام العبيد مربحاً فقط فى أكثر الترب مواتاة. أمكن فى

هذا البلد لنظام ملكية العبيد أن يبقى بواسطة توسع دائم تجاه الغرب، مستوعباً أكثر فأكثر أراض جديدة، تاركاً خلفه التربة القاحلة التي كانت قد استنفدت. والحالة كذلك في الإمبراطورية الرومانية، وقد شكل هذا واحداً من أسباب الجوع الدائم للأرض عند سادة تلك الإمبراطورية، ولجهدهم في غزو أراض جديدة بواسطة الحرب. كانت إيطاليا الجنوبية، وصقلية، وبلاد الإغريق، بالفعل مجهدة زراعياً في بداية الفترة الإمبراطورية.

إجهاد للتربة، اقترن بافتقار متزايد للعمال، وكذلك باستخدام غير عقلاني للأخيرين، لم تكن له نتيجة أخرى سوى تناقص دائم في المحاصيل.

ولكن تزامن مع ذلك أن كانت أيضاً قدرة الأمة على شراء المواد الغذائية من الخارج تتناقص. بات الذهب والفضة أقل ظهوراً، لأن المناجم كانت تنتج القليل، وكما رأينا، لكون العمال قلة. كان الذهب والفضة الذي كان متاحاً يفيض أكثر فأكثر داخل القنوات الأجنبية، بعضه إلى الهند والجزيرة العربية، لشراء مواد الترف لهؤلاء الأشخاص الأثرياء الذين كانوا مازالوا باقين، ولكن بصفة أساسية كجزية للقبائل البربرية على الحدود. لقد رأينا أن الجنود كانوا يجندون بقدر متزايد من هذه القبائل؛ وكان عدد الجنود الذين كانوا يعيدون مرتباتهم معهم يتزايد، أو على الأقل ماتبقى منها، حين كانت تنتهي مدة خدمتهم. إذ تدهورت القوة العسكرية للإمبراطورية فقد كان من الضروري أكثر فأكثر تهدئة الجيران الخطرين، وإبقاءهم في مزاج طيب، الأمر الذي كان يتأتى بسهولة أكثر بواسطة دفع جزية باهظة. كان الإخفاق في ذلك، يؤدي بالقبائل المعادية التي أتت للنهب إلى أن تغزو غالباً إقليم الإمبراطورية. وقد خدم هذا أيضاً في تناقص ثروة الإمبراطورية، وكانت البقية الأخيرة من هذه الثروة غارقة في الملذات في جهد يهدف لحمايتها. إذ هبطت القوة العسكرية الإمبراطورية، وإذ بات المجندون المحليون أقل فأقل وروداً، وإذ أصبحت الحاجة لاستيراد مجندين من الخارج أكثر إلحاحاً، وتدفق البرابرة المعادين من ثم أكثر اتساعاً، كل هذه الأسباب، أنتجت طلباً متزايداً على المرتزقة، بينما كانت المئونة تتناقص؛ وارتفع الأجر الذي كان يجب دفعه إليهم أعلى فأعلى. بداية بقيصر كان هذا الأجر ٢٢٥ دينارى (٥٠ جنيه إسترليني) وبالإضافة له تلقى الجند ٤ مودى MODII من الحبوب شهرياً (أو ٢/٣ ميديمنوس MEDIMNUS أو ٣٦ لتراً) وفيما بعد ارتفعت العلاوة الشهرية حتى ٥ مودى MODII. تلقى العبد الذى عاش على الحبوب فقط، نفس العلاوة الشهرية. بالنظر إلى الاعتدال فى الطعام الذى لوحظ بين الجنوبيين، فإن معظم احتياجاتهم يمكن أن تشبع بالحبوب. رفع دوميتيان الأجر إلى ٣٠٠ دينارى (٦٥ جنيه إسترليني)، وفى ظل الأباطرة المتأخرين كانت

حتى الأسلحة تقدم مجاناً. أجرى سبتيميوس سيفيريوس وبعده كراكلا زيادة إضافية على مرتب الجند.

ولكن كانت القوة الشرائية للنقود آنئذ أعلى كثيراً منها اليوم. يقول لنا سينيكا معاصر نيرون، أن فيلسوفاً يمكن أن يعيش على نصف سيسترتيوس SESTERTIUS (أقل من ثلاثة سنتات) في اليوم. كانت كلفة ٤٠ لتراً من النبيذ ٦ سنتات، وكلفة حمل ١٠ سنتات؛ وخروف حوالى ٤٠ سنتاً.

“كان من الواضح أن أجر الفيلقى الرومانى مرتفعاً للغاية بالنظر للأسعار السائدة. وبالإضافة إلى أجره، تلقى هدايا نقدية عند ارتقاء أباطرة جدد، فى الأيام التى كان يولى فيها الجنود إمبراطوراً جديداً كل بضعة شهور، وقد مثل هذا اختلافاً إلى حد بعيد. حصل الجندى عند إنتهاء خدمته على منحه عند صرفه، والتى كانت فى أيام أغسطس ٣٠٠٠ دينارى (٦٥٠ جنيه إسترليني)، خفض كاليجولا هذا المقدار إلى النصف، بينما رفعه كراكلا مرة أخرى وهذه المرة إلى ٥٠٠٠ دينارى (فوق ١٠٠٠ جنيه إسترليني).”

هذه أرقام ضخمة حين نتذكر أن عدد سكان الإمبراطورية كان قليلاً، بسبب المستوى المنخفض للزراعة، وأن فائض عملهم كان ضئيلاً. يقدر بيلوخ سكان كامل الإمبراطورية الرومانية، التى كان حجمها حوالى أربع أضعاف الإمبراطورية الألمانية الحالية، باعتباره حوالى ٥٥٠٠٠٠٠٠٠ نسمة فى أيام أغسطس. إيطاليا التى تحتوى وحدها الآن ٣٣٠٠٠٠٠٠٠ نسمة عدت آنئذ ٦٠٠٠٠٠٠٠ نسمة هذه ال ٥٥٠٠٠٠٠٠٠ نسمة، كانت مضطرة بطرقها البدائية، لأن تعول جيشاً كبيراً مماثلاً لذلك الذى يمثل عبئاً كبيراً حتى للإمبراطورية الألمانية الحالية، بالرغم من التقدم التقنى الضخم الذى جرى منذئذ، وهذا الجيش من المرتزقة المجندين كان يُدفع له بشكل أفضل بما لا يقاس أكثر مما يدفع للمحارب الألمانى اليوم.

وبينما كان السكان يتناقصون ويزدادون فقراً كانت أعباء النزعة العسكرية تتزايد. كان هناك سببان لذلك؛ وقد أكملنا معاً الانهيار الاقتصادى.

كانت الوظيفتان الرئيسيتان للدولة فى هذه الأيام هى شن الحرب وتشبيد المبانى الضخمة. إذا كانت ستزيد الإنفاق على الأولى، دون زيادة الضرائب، فهى بالضرورة يجب أن تهمل الأخيرة، وهذا ما فعلته. كانت الدولة فى فترة ثروتها، وحين كان هناك فائض كبير أنتجه عمل عدد كبير من العبيد، غنية بما يكفى لتنفيذ عمليات بناء كبرى،، والتى خدمت ليس الترف، والدين، وأغراض صحية فقط، وإنما أيضاً حاجات اقتصادية. شيدت الدولة بمساعدة جماهير الفلاحين الضخمة التى

كانت طوع أمرها، هذه الأعمال الهائلة التي لم نتوقف عن الإعجاب بها حتى اليوم، تلك المعابد والقصور، قنوات سحب المياه والمجارى، وأيضاً نظام الطرق الممتازة الذى يربط روما بأكثر ممتلكات الإمبراطورية بعداً، أداة جبارة للتوحيد الاقتصادى والسياسى وللمواصلات الدولية، فضلاً عن عمليات الرى والصرف الكبرى.

وهكذا، بواسطة تجفيف مستنقعات بونتين PONTINE جنوب روما، فإن إقليماً واسعاً من التربة الخصبة، يصل إلى مائة ألف هكتار قد فتح للزراعة، وذات مرة اشتمل على ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين مدينة. ان إنشاء وصيانة شبكة صرف مستنقعات بونتين شكل مصدراً دائماً للقلق لمن يتسمنون السلطة فى روما. تدهورت هذه الشبكة حتى أن إقليم المستنقع والأرض التي حوله قاحلة خربة إلى يومنا هذا.

حين ضعفت القوة المالية للدولة، أثر حكامها أن يهملوا صيانة كل هذه الإنشاءات بدلاً من أن يكبحوا النزعة العسكرية. باتت الصروح المهيبة خرائب مهيبة، وعجل اختفائها زيادة الافتقار لقوة العمل، التي جعلت من الأسهل أخذ مواد البناء من هذه المنشآت الجديدة، بدلاً من الحصول عليها من المحاجر النائية. أضارت هذه الطريقة أعمال الفن القديم أكثر مما فعل تدمير الوندال الغازين والقبائل البربرية الأخرى.

“يُغرى المشاهد، الذى يلقى نظرة حزينة على خرائب روما القديمة أن يتهم ذكرى القوط والوندال باعتبارهم سبب للأذى الذى لم يكن لديهم وقت فراغ، ولا قوة، وربما الميل، لأن يرتكبوه. ربما أصابت عاصفة الحرب بعض الأبراج السامقة وسوتها بالأرض؛ ولكن التدمير الذى قوض أسس هذه المصانع الكبيرة كان مقموماً، ببطء وفى صمت، خلال فترة عشرة قرون. إن آثار العظمة القنصلية أو الإمبراطورية لم تعد تحترم باعتبارها مجد العاصمة الخالد؛ لقد قدرت فقط باعتبارها منجماً لا ينضب للمواد، أرخص وأكثر ملائمة من المحجر البعيد “.

لم تكن أعمال الفن فقط هي التي خربها هذا التدهور، وإنما أيضاً المنشآت العامة التي كانت تخدم أغراضاً اقتصادية أو صحية، وأنظمة الطرق وإمداد المياه، هذا الخراب العام، عاقبة الانهيار الاقتصادى الشامل، ساعد بدوره فى تعجيل هذا الانهيار.

ولكن الأعباء العسكرية كانت تتزايد بالرغم من كل شئ، وأخيراً أصبحت غير محتملة محققة التدمير الأقصى. إن الإجمالى العام للأعباء العامة – المدفوعات العينية، المدفوعات بالعمل، الضرائب النقدية – بقيت كبيرة أو تزايدت، بينما كان السكان وثرواتهم تتناقص.

أصبحت الأعباء المفروضة على الفرد من قبل الدولة مضجرة أكثر فأكثر. سعى كل إنسان إلى أن ينقل هذا العبء إلى الأكتاف الأضعف؛ كان أكثر هذا النقل يتم باتجاه المستوطنين COLONI البائسين. وأصبح وضعهم الذى يحزن القلب بالفعل يائساً، كما أظهرته انتفاضات عديدة مثل (انتفاضة) الباجاودى BAGAUDI، التي جرت في مستوطنة غالية GALLIC، حيث انتفضت أولاً في ظل ديوكليتان، ٢٨٥ ب.م، ثم قمعت بعد بعض النجاحات في البداية، ولكنها عبرت مرة بعد مرة عن شدة بؤسها بالانخراط في محاولات متجددة للانتفاض والتمرد.

كانت هناك في هذه الأثناء طبقات أخرى من السكان مضطهدة بشكل أكثر قسوة، وإن لم تكن في سوء (حالة) المستوطن. لقد أخذت خزانة الدولة FISCUS كل شيء استطاعت أن تضع يدها عليه، ولم يكن البرابرة ناهيين أسوأ من الدولة. بدأت عملية ثابتة من التفسخ الاجتماعى، نفور متزايد وعدم قدرة أعضاء متنوعين من المجتمع على إنجاز حتى أكثر الوظائف ضرورة للرفاهية العامة COMMON WEALTH ولكل منهم للآخر.

ما كان قد نظم ذات مرة بواسطة العادة والحاجة الاقتصادية، تطلب الآن تدخلاً فعالاً من الدولة لتحقيقه. أصبحت الإجراءات أكثر تعديداً بعد ديوكليتيان. تربط بعض هذه القوانين المستوطن بالأرض، وهكذا فعلت محاولة إياه إلى قن، وأجبر البعض الآخر ملاك الأرض على المشاركة في إدارة المدينة، التي كانت وظيفتها بصفة أساسية جباية ضرائب الدولة. نظمت قوانين أخرى كهذه الحرفيين في اتحادات مهنية أجبرتهم أن يقدموا خدماتهم وكذلك السلع بأسعار محددة. أصبحت بيروقراطية الدولة التي جرى الاحتياج إليها لتنفيذ هذه الإجراءات الإجبارية أعظم.

واجهت البيروقراطية والجيش – بمعنى آخر، سلطة الدولة – معارضة متزايدة، ليس فقط من الطبقات المستغلة وإنما أيضاً من المستغلين. كانت الدولة بالنسبة للأخيرين قد كفت عن أن تكون مؤسسة حامية ومشجعة وصارت سلطة ناهية ومخربة. تزايد العداء للدولة، حتى اعتبر حكم البرابرة راحة. لقد كان سكان الحدود يهربون إلى الفلاحين البرابرة الأحرار، وفي النهاية دعى سكان الحدود الأخيرين باعتبارهم مخلصين ومنقذين من النظام السائد للحكومة والمجتمع، ورحبوا بهم بأذرع مفتوحة.

يكتب سالف-؛-يانوس وهو كاتب مسيحي من الفترة الإمبراطورية المتأخرة، مايلي حول الموضوع في كتابه DE GUBERNATIONE DEI:

“ان قسماً كبيراً من بلاد الغال وأسبانيا هو قوطى بالفعل، وكل الرومان الذين يعيشون هناك تدفعهم الرغبة فقط فى ألا يكونوا رومانين مرة أخرى. سوف أدهش فقط إن لم يهاجر كل الفقراء والمحتاجين إليهم، إن لم يكن بسبب حقيقة أنهم يشعرون أنهم لا يستطيعون أن يتركوا أملاكهم وعائلاتهم ورائهم. ونحن الرومان نعتبر كوننا لانستطيع التغلب عل القوط أعجوبة، بينما نفضل نحن الرومان أن نعيش بينهم أكثر مما بين شعبنا”. هجرة الأمم، وغمر الإمبراطورية الرومانية بواسطة جموع الجرمانيين الأفظاظ لم يكن يعنى التدمير المبكر لحضارة مزدهرة، متقدمة، ولكن إنهاء عملية الانحلال فحسب لحضارة محتضرة ووضع الأساس لنمو ثقافى جديد، الذى، لاريب فى أنه انطلق لقرون بطريقة شديدة البطء وغامضة.

اتخذت المسيحية شكلها: فى القرون الأربعة التى تقع بين تأسيس السلطة الإمبراطورية من قبل أغسطس وهجرة الأمم فى الفترة التى تبدأ بأعلى الذرى التى بلغها المجتمع القديم، مع أشد تراكم للثروة وللسلطة ضخامة ونشوة فى أيدي حفنة قليلة، مع تراكم كثيف لأعظم بؤس على العبيد، الفلاحين المتدهورين، والحرفيين وأدنى البروليتاريين، مع أشد المتناقضات الطبقيّة عنفاً، والحد الطبقي الأشد قسوة – والذى ينتهى بالإفقار الكامل ويأس كل نظام المجتمع. طبعت كل هذه الأوضاع بطابعها المسيحية وتركت آثارها على شكلها.

ولكن المسيحية تحمل أيضاً بصمات تأثيرات أخرى نشأت من الحياة القومية والاجتماعية لهذا الزمن، التى بنيت على أساس نمط الإنتاج الموصوف أعلاه، والتى عاظمت حتى بطرق مختلفة تأثيرات هذا النمط من الإنتاج.

الفصل الثاني: حياة الدولة

أ – الدولة والتجارة

كان هناك بالإضافة إلى العبودية نمطين آخرين من الاستغلال فى المجتمع القديم اللذين وصلا أيضاً إلى أوجهما حوالى زمن أصل المسيحية، شحذا التضادات الطبقيّة حتى الحد الأقصى، وبعدئذ عَجَلًا بشكل متلاحق من تدمير المجتمع والدولة: الربا، ونهب الولايات الخاضعة بواسطة السلطة المركزية القاهرة. كلا من هاتين المؤسستين مرتبطتان بوثوق بطابع الدولة كما تشكلت حينئذ، وهى متناسجة بوثوق مع الوضع الاقتصادى لهذه الأزمنة بصفة عامة حتى أنه كان علينا أن نذكر الدولة مراراً فى مناقشتنا حول أساس الدولة والمجتمع، أى، نمط الإنتاج. واجبنا الأول من ثم هو أن نقدم موجزاً قصيراً عن الدولة القديمة.

لم تتجاوز ديمقراطية العصر القديم أبداً حدود جماعة المدينة أو العشيرة. لقد تكونت العشيرة من قرية من القرى أو أكثر التى امتلكت وأدارت إقليماً معيناً بشكل مشترك. وقد تم هذا بواسطة التجنيد المباشر من جانب الناس أنفسهم، فى جمعيتهم لكل أعضاء العشيرة البالغين. تطلب هذا الوضع بالضرورة ألا تكون الكومونة أو العشيرة واسعة جداً؛ يمكن أن يكون إقليمها كبيراً بما يكفى لتمكين كل عضو من أن يسافر من مزرعته إلى الجمعية الشعبية بدون إجهاد وخسارة مفرطة. لقد كان من المستحيل فى هذه الأزمنة القديمة تطوير أى تنظيم ديمقراطى ماوراء هذه الدرجة، حيث كانت الشروط التقنية والاقتصادية الضرورية لمثل هذا التوسع غائبة. كانت الرأسمالية الحديثة بكتبها المطبوعة وبمكاتب بريدها، مع الجرائد، والسكك الحديدية، وأجهزة البرق، هى القادرة فقط على أن تصهر الأمم الحديثة فى وحدات ليس فقط بالنسبة للغة، كما كانت الأمم القديمة، وإنما أيضاً فى عضويات سياسية واقتصادية صلبة. بقيت هذه العملية غير كاملة بصفة أساسية حتى القرن التاسع عشر. لقد تمكنت إنجلترا وفرنسا بسبب ظروف خاصة من أن تصبحا أمتين بالمعنى الحديث فى تاريخ أبكر، وأن تؤسسا برلمانية قومية، أساس الديمقراطية على نطاق أكبر من نطاق الكومونة. ولكن حتى فى هذه البلدان بات هذا الشرط ممكناً فقط بقيادة مركزين كبيرين هما لندن وباريس، وفى زمن متأخر حتى عام ١٨٤٨ كان يهيمن على الحركة القومية الديمقراطية حركة مجتمعات بارزة معينة – باريس، فيينا، برلين.

بقيت الديمقراطية فى العصور القديمة بتسهيلات مواصلاتها الأقل تقدماً بما لا يقاس، محدودة بنطاق الكومونة. كان الانتقال بين البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، حقيقة، ذو مستوى محترم بالأحرى فى القرن الأول من عصرنا، فقد بلغ

مدى بعيداً لحد أنه وضع لغتين موضع الأهمية الدولية، أى، الإغريقية واللاتينية. ولكن أنجز هذا تحديداً لسوء الحظ فى الوقت الذى كانت فيه الحياة الديمقراطية والسياسية ككل على طريق الانحدار – نقول، لسوء الحظ، ولكن ليس كنتيجة لحادثة سيئة الحظ – كان تطور المواصلات بين المجتمعات فى هذا الوقت مرتبطاً بالضرورة بشروط كانت تسبب موت الديمقراطية.

ليست مهمتنا أن نثبت هذا فى حالة بلدان الشرق، حيث أصبحت الديمقراطية، المحدودة بالكومونة، الأساس لنوع معين من الاستبداد. سوف نتابع هنا فقط المسار النوعى للأحداث فى العالمين الهيلينى والرومانى، وسوف نفحص مثلاً واحداً فقط، وهو الخاص بالمجتمع الرومانى. فاتجاهات التطور القديم هنا واضحة بشكل مؤكد، لأن هذا التطور انطلق هنا على نحو أكثر سرعة وعلى نطاق أكثر عظماً مما هو الحال فى أى من مجتمعات المدينة الأخرى فى العالم القديم. ولكن كانت نفس الاتجاهات فاعلة، فى كل هذه المجتمعات وإن كانت ربما على نطاق أكثر تواضعاً وصغراً.

كان لنطاق كل عشيرة وكومونة حدود غاية فى الضيق، لاتستطيع أن تنتشر وراءها، وقد سبب هذا فى أن تبقى العشائر والكومونات المختلفة متساوية تماماً طالما ساد اقتصاد فلاحى فقط. ولم تكن هناك فى هذه المرحلة أسباب عديدة لاثارة أنواع الغيرة أو للنزاعات بينها، حيث أنتجت كل عشيرة وكومونة بصفة عامة كل مااحتاجت إليه. فربما تسبب زيادة فى السكان نقصاً فى الأرض فى أسوأ الأحوال. ولكن الزيادة فى السكان لم تكن لتؤدى لتوسيع حدود العشيرة، لأن الأخيرة لايمكن أن تكون شاسعة لتحول دون كل عضو وأن يكون قادراً على السفر إلى الجمعية الشعبية التشريعية دون جهد مفرط وخسارة. إذا ماحدث وأن كانت الأرض الصالحة للزراعة الخاصة بالعشيرة فى سبيلها للزراعة، فسوف يشرع العدد الزائد من الشباب القادر على حمل السلاح فى الهجرة ويؤسس عشيرة خاصة به، إما بطرد العناصر الأخرى الأضعف، أو بالاستقرار فى أقاليم مازال يوجد فيها نمط إنتاج أدنى، وبالتبعية سكان أقل ومساحة متاحة أكثر.

بقيت من ثم الكومونات والعشائر الفردية ذات قوة متساوية تماماً. ولكن تغير هذا الوضع بمجرد أن بدأت التجارة فى العمل بجانب الاقتصاد الفلاحى.

لقد رأينا سلفاً أن التجارة فى السلع تبدأ مبكراً جداً، وهي ترجع للعصر الحجرى. فى إقليم يتوافر فيه عدد من المواد المرغوبة أكثر يمكن الحصول عليها بسهولة أكثر، بينما فى مكان آخر لاتوجد دائماً أو لاتوجد على الإطلاق، فقد كان من الطبيعى لسكان مثل هذه الأقاليم أن يحوزوا من هذه المواد أكثر مما استهلكوا، وأنه كان

عليهم أن يطوروا مهارات أعظم في كسب، وتسخير هذه المواد. وسوف يقدمون عندئذ فائضهم في المقايضة بمنتجات أخرى لجيرانهم، الذين سوف ينقلونها بدورهم أبعد. كان بمقدور كثير من المنتجات في عملية المقايضة هذه من قبيلة إلى أخرى أن تغطي مسافات كبيرة بشكل لا يصدق. وقد كان المفترض المسبق لهذه التجارة نمط حياة رعوى من جانب الرعاة الأفراد الذين اتصلوا مراراً ببعضهم ببعض في تجوالهم وتبادلوا فوائضهم في مثل هذه المناسبات.

توقفت مثل هذه الفرص حين شرع الإنسان في الاستقرار، ولكن الحاجة إلى تبادل السلع لم تتوقف، خاصة الحاجة إلى الأدوات أو على الأقل المادة التي تصنع منها، التي كانت متوفرة في مستودعات قليلة فقط، ومن ثم يجري الحصول عليها بصعوبة، إلا من خلال التجارة في السلع، وقد نمت هذه بالضرورة. كان يجب لإشباع هذه الحاجة، أن تتشكل فئة خاصة من الرعاة، التجار وهؤلاء كانوا إما قبائل رعوية من مربي الماشية، الذين كرسوا أنفسهم الآن للتزود بالسلع من المقاطعات التي تكون فيها وفيرة، ومن ثم رخيصة، وحملوها إلى مقاطعات أخرى تكون فيها نادرة، ومن ثم غالية الثمن، بمساعدة حيوانات الحمل، أو كانوا صيادين أبحروا في قواربهم على طول الساحل أو من جزيرة إلى جزيرة. ولكن حيث ازدهرت التجارة أكثر فأكثر فحتى الفلاحين قد أغراهم أن يتعاملوا فيها. كقاعدة، كان لدى طبقة الملاك العقاريين احتقار متغطرس إزاء التجارة، بينما اعتبرت الأرستقراطية الرومانية الربا حرفة لائقة، وليس التجارة؛ وهذا كله لم يمنع الملاك العقاريين من أن يحصلوا عرضاً على ميزات من عمليات التجارة. تتبع التجارة طرقاً معينة تكون من ثم الأكثر اعتياداً في السفر. تتلقى المدن التي تقع على مثل هذه الطرق سلعها بسهولة أكثر مما تفعل الأخريات، ويجدون في التجار شراء لسلعهم. في نقاط عديدة، حيث تصادف أن امتنع الانعطاف جانباً عن الطريق، والذي لا يمكن الدوران حوله، والذي يكون بالإضافة إلى ذلك، في موضع محصور بالطبيعة، فإن سكان وسانة أماكن كهذه يقفون على إيقاف التجار وتعزيمهم، بفرض ضرائب عليهم. من ناحية أخرى، تصبح نقاطاً أخرى أماكن تخزين حيث يجب أن تنتقل السلع من سفينة لأخرى، على سبيل المثال، الموانئ البحرية أو تقاطع الطرق، حيث يصل التجار بأعداد كبيرة من أكثر البقاع اختلافاً وتبقى السلع غالباً مخزونة لبعض الوقت.

تطورت هكذا كل الكوميونات التي ميزتها الطبيعة في مسألة التجارة بالضرورة ما وراء حدود كوميونات الفلاحين، وبينما سرعان ما يصل سكان الكومونة الفلاحية حداً في نطاق وخصوبة إقليمهم، فإن سكان مدينة تاجرة يستقلون عن خصوبة التربة التي يملكونها وربما يمتدون ليتجاوزونها كثيراً. فبالنسبة للسلع التي يتحكمون فيها فإنهم يملكون وسائل شراء كل شيء يحتاجونه، بمعنى آخر، يتمكنون أيضاً من

الحصول على المواد الغذائية من ما وراء حدود القبيلة. تتطور أيضاً مع التجارة فى الأدوات الزراعية، وفى المواد الخام وأدوات الصناعة، وفى منتجات الترف الصناعية، التجارة فى الأغذية المطلوبة من قبل ساكنى المدينة.

ولكن توسع التجارة نفسها لايواجه أى حدود ثابتة، وبطبيعته يستمر فى الامتداد ما وراء الحدود التى جرى الحصول عليها سلفاً، دائم البحث عن زبائن جدد، منتجين جدد، مستودعات جديدة للمواد الخام، أقاليم صناعية جديدة، مشتررون جدد لمنتجاتها. وهكذا تجاوز الفينيقيون بشكل مبكر جدا فى التاريخ البحر الأبيض المتوسط ووصلوا إلى الشمال حتى إنجلترا، بينما داروا فى الجنوب حول رأس الرجاء الصالح.

“فى فترة مبكرة لاتصدق نجدهم فى قبرص ومصر، فى اليونان وصقلية، فى أفريقيا وحتى فى المحيط الأطلنطى وبحر الشمال. ووصل حقل تجارتهم من سيراليون وكورنوال فى الغرب، تجاه الشرق حتى ساحل مالابار. مر الذهب ولآلى الشرق خلال أيديهم، أرجوان صيدا، العبيد، العاج، جلود الأسود، والفهود، من داخل أفريقيا، اللبان من الجزيرة العربية، كتان مصر، الأوانى والأنبذة الجيدة من بلاد الإغريق، فضة أسبانيا، القصدير من إنجلترا، والحديد من إلبا“.

من الطبيعى أن يفضل الحرفيون، الاستقرار فى مدن تجارية، فى الواقع تقدم الأخيرة السوق الوحيد لطبقات عديدة من الحرفيين، وهى تشجع تكوين مثل هذه الطبقات: هناك من ناحية التجار الذين يبحثون عن البضائع، ومن ناحية أخرى الفلاحون من القرى المجاورة الذين يرحلون إلى المدينة يوم السوق حتى يبيعوا موادهم الغذائية ويشتروا الأدوات والأسلحة، والزينة بدخلها. تكفل المدينة التجارية أيضاً للحرفيين الإمداد الضرورى بالمواد الخام، التى لا يستطيعون بدونها أن يمارسوا تجارتهم.

بالإضافة إلى التجار والحرفيين تنشأ أيضاً طبقة من الملاك العقاريين الأثرياء فى مجتمع المدينة. إن أعضاء الكومونة الأصلية لهذه المدينة، الذين يملكون فى أراضى المدينة يصبحون الآن أغنياء، وحيث أن على الملكية العقارية طلباً بين القادمين الجدد، تصبح ذات قيمة ويرتفع سعرها بثبات، ويربحون أيضاً من واقعة أنه من بين السلع التى احضرها التجار كان هناك عبيد أيضاً، وكما رأينا سلفاً تمكنت الآن عائلات معينة من الملاك العقاريين التى تتجاوز فئة الفلاحين العاديين بملكيتها الأكبر فى الأرض أو ثروتها، لسبب أو لآخر، تمكنت من توسيع منشأتها الزراعية بواسطة زيادة العبيد فقط، بينما تنسحب هى نفسها إلى المدينة وتكرس نفسها للأعمال الحضرية، وإدارة المدينة أو شن الحرب. إن مالكا عقاريا من هذا النمط،

الذى كان لديه سابقا مزرعة فى الإقليم المجاور فقط، ربما يبنى الآن أيضاً منزلاً بالمدينة ويعيش فيه، ويستمر مثل هؤلاء الملاك العقاريين فى تأسيس قوتهم الاقتصادية ومركزهم الاجتماعى على ملكيتهم للأرض والزراعة، ولكن أضف إلى ذلك فهم يصبحون من ساكنى المدينة ويزيدوا سكان المدينة بعائلاتهم العديدة؛ والتى يمكن أن تصبح فى وقت ما، بإضافة العبيد لأغراض الترف، واسعة للغاية كما رأينا.

وهكذا تتزايد المدينة التجارية بثبات فى الثروة والسكان، ولكن بقدر ماتنمو قوتها، فإن روحها الحربية والرغبة فى الاستغلال تنمو أيضاً. لأن التجارة ليست بالشئ المسالم الذى تعلمه لنا الاقتصاديات البورجوازية، وكان هذا صحيحاً على الأقل فى أيام بداياتها. لم تكن التجارة والمواصلات آنذاك منفصلتان بعد. لم يكن بمقدور التاجر أن يجلس فى مكتبه كما يفعل اليوم، يتلقى طلبات زبائنه كتابة، ويلبىها بمساعدة السكك الحديدية، والباخرة والبريد. كان عليه أن يحمل بضاعته إلى السوق بنفسه، وقد تطلب هذا قوة وشجاعة عبر حقول لاممرات فيها، على القدم أو على ظهر جواد، أو فى البحار العاصفة فى قوارب صغيرة مفتوحة، وكان مضطراً لأن يكون فى الطريق لعدة شهور، وفى احوال كثيرة لسنوات، بعيداً عن الوطن. وقد تضمن هذا أعباء ليست أقل شأنًا من (أعباء) حمله، التى كان الرجال الأقوياء فقط كفؤاً لها.

ولم تكن مخاطر الرحلة أقل من مخاطر الحرب. لقد كان التجار مهددين فى كل لحظة ليس من قبل الطبيعة فقط بأمواجها العظيمة أو منحدراتها الصخرية، بزوابعها الرملية، بالافتقار للمياه أو التغذية، البرد الثلجى أو الحرارة المهلكة، إنما شكلت الكنوز الثمينة التى حملها التاجر معه غنيمة دعت الأقوى لأن يأخذها منه. بينما جرت التجارة بين قبيلة وقبيلة أولاً، فقد مورست فيما بعد من قبل مجموعات واسعة من الرجال، بواسطة القوافل فى البر، وبواسطة الأساطيل التجارية فى البحر. وكان على كل عضو فى حمله كهذه أن يكون مسلحاً وقادراً على الدفاع عن ممتلكاته، والسيف فى يده. أصبحت التجارة هكذا مدرسة للروح الحربية.

ولكن بينما اضطرت القيمة الكبيرة للسلع التى حملها التاجر معه على تطويره قدرته كمحارب حتى يدافع عنها، فإن هذه القوة الحربية بدورها أصبحت تغري على ممارستها لأغراض الهجوم. نتج ربح التجارة عن الحصول على ما هو رخيص وبيعه غالياً. ولكن كانت أرخص طريقة للحصول على أى شئ هى بلا جدال أخذ المرء ما يريد بدون إعطاء مقابل. السرقة والتجارة من ثم فى البداية مرتبطتان

بوثنوق. أصبح التاجر بسهولة قاطع طريق، حيثما شعر بنفسه أنه الأقوى، حين كانت الغنيمة الثمينة على مرأى منه – ولم يكن أقل مافى هذه الغنيمة الإنسان نفسه.

ولكن التاجر احتاج لقوته الحربية ليس فقط لتمكينه من أن يقوم بمشترواته ومكتسباته بأرخص ما يمكن، ولكن أيضاً حتى يُبعد منافسيه عن الأسواق التي كان يتردد عليها؛ لأنه كلما زاد عدد المشترين، زاد سعر السلع التي أراد أن يشتريها؛ وكلما زاد عدد البائعين، قلت أثمان السلع التي كان يحملها إلى السوق؛ بمعنى آخر، كلما عظم الفرق الناتج بين سعر الشراء وسعر البيع، وهو ما يعنى الربح. حيثما يقوم عدد من المدن التجارية الكبيرة دانية قريبة، فسرعان ما تتطور الحرب بينهما، والمنتصر يتوقع لا أن يزيح فقط منافسيه من المجال، وإنما تحويل المنافسين من عامل سالب للربح إلى عامل جالب للربح؛ إما بأشد الطرق جذرية، وهي غير قابلة للتكرار، أي بالنهب الكامل لمدينة الخصم وبيع سكانها للعبودية، أو بالطريقة الأقل جذرية، التي تتضمن مكسباً متجدداً كل عام، بإدماج المدينة المهزومة فى الدولة باعتبارها “حليف” ملزم بأن يقدم الضرائب والقوات وأن يحجم عن الإضرار بالمنافس المنتصر بأى طريقة.

ربما تضم مدن تجارية معينة، مميزة بأوضاعها أو بظروف أخرى بهذه الطريقة مدناً أخرى كثيرة، بأقاليمها، فى تنظيم دولة بدون أن تمنع بالضرورة الوجود المتواصل لقوام ديمقراطى فى كل مدينة كهذه. ولكن كلية هذه المدن، والدولة ككل، بالرغم من ذلك ليست محكومة ديمقراطياً، لأن المدينة المنتصرة المفردة هى وحدها التي تكون فى موضع السيطرة بينما الأخرى يجب أن تطيع دون أن تكون لديها أدنى سيطرة على أمور التشريع وإدارة الدولة ككل.

نجد فى بلاد الإغريق عدداً كبيراً من دول المدينة هذه، كانت أثينا الأكثر قوة من بينهم، ولكن لم تكن أى من المدن المنتصرة قوية بما فيه الكفاية حتى تخضع كل المدن الأخرى على نحو دائم، وأن تحوز سيطرة نهائية على كل منافسيها. من ثم ليس تاريخ بلاد الإغريق شيئاً سوى حرب أبدية بين المدن المختلفة ودول المدينة بينها وبين نفسها، ونادراً ما قاطع ذلك دفاع مشترك ضد عدو مشترك. لقد عجلت تلك الحروب بكثافة سقوط بلاد الإغريق، حيث ظهرت تبعات الاقتصاد العبودى، الذى وصف آنفاً. ولكن من المضحك أن تصبح ساخطاً أخلاقياً على هذا الوضع كما يفعل أساتذتنا. فالصراع ضد المنافس هو لازمة ضرورية للتجارة. تتغير أشكال هذا الصراع، ولكن الصراع يدخل بالضرورة مرحلة الحرب حين تقف المدن التجارية ذات السيادة وجهاً لوجه. ولم يكن من الممكن تجنب مشهد بلاد الإغريق تمزق لحمها بمجرد أن بدأت التجارة فى جعل مدنها عظيمة وقوية. ولكن الهدف النهائى

فى أى صراع تنافسى هو إزاحة أو قهر المنافس؛ أى تحقيق الاحتكار. لم تصبح أى مدينة فى بلاد الإغريق قوية بما يكفى لتحرز هذا الهدف، ولاحتى أثينا القوية. كان هذا الأمر محجوزاً لمدينة إيطالية، روما، التى أصبحت حاكم نظام الحضارة بكامله حول البحر الأبيض المتوسط.

ب - النبلاء والعامة

ليست المنافسة مع المنافسين السبب الوحيد الذى من أجله قد تشن الحرب مدينة تجارية كبيرة. حيث يكون إقليمها مجاوراً (لإقليم) فلاحين أشداء، خاصة فلاحين مربين للماشية فى الجبال، الذين هم عادة أفقر من الفلاحين المزارعين فى الأودية الخصبة، ولكن أقل ارتباطاً بالأرض بلاريب، فقد اعتاد الرجال إراقة الدماء والصيد، مدرسة ممتازة للحرب - ربما تثير ثروة المدينة بسهولة الرغبة فى الغنيمة لدى الفلاحين. ربما يمر الأخيرون بلا مبالاة جانب المدن الريفية الأصغر، خادمين فقط التجارة المحلية لمنطقة محدودة وحامين قلة من الحرفيين الصغار إضافة إلى ذلك، لكن لابد لكنوز مركز تجارى كبير بالضرورة أن تجذبهم وتغريهم بأن يتجمعوا معاً فى كتل من أجل هجوم لصوصى على المجتمع الثرى. من ناحية أخرى، يقوم الأخير بجهد دائم لتوسيع ممتلكاته فى الأرض وعامة رعاياه. لقد رأينا أن نمو المدينة مصحوب بتطور سوق واسع داخلها لمنتجات الزراعة، وأن التربة التى تنتج السلع للمدينة تصبح ثمينة، مثيرة الرغبة فى أرض أكثر، وربما يفلح العمال هذه الأرض التى جرت حيازتها حديثاً لصالح قاهريها. والنتيجة صراع دائم بين المدينة وقبائل الفلاحين المجاورة. إذا كان الأخيرون منتصرين تنهب المدينة ويجب أن تبدأ من جديد تماماً. ولكن إذا انتصرت المدينة، فإنها تسلب قسماً من أرض الفلاحين المهزومين، محولة إياها لملاك الأرض فيها، الذين يجعلون أحياناً أبناءهم اللذين لا أرض لهم يستقرون فيها، ولكن يترك القسم الأعظم الأرض المغزوة ثفلح لهم بالعمل الإجبارى، الذى يُقدم أيضاً من المجتمع المهزوم، اما فى شكل مستأجرين أو أقنان أو عبيد. يتخذ أحياناً، على أية حال، إجراء أرق بحيث لايتحول السكان المخضعين إلى عبيد فقط، ولكن يسمح لهم حتى بالمواطنة، فى المدينة المنتصرة، ليس مواطنة كاملة، بلاشك، لأن المواطنين الكاملين يحكمون المدينة والدولة فى جمعيتهم، وانما المواطنة من الدرجة الثانية، فيتمتعون بحرية تامة وكل الحماية القانونية للدولة، ولكن دون مشاركة فى حكومتها. احتاجت المدينة مثل هؤلاء المواطنين الجدد لأن ثروتها وبالتبعية أعباء الحرب تزايدت. مادامت عائلات مواطنى الزمن القديم لم تعد قادرة على تقديم العدد المطلوب من الجنود المواطنين. كانت الخدمة العسكرية وحقوق المواطنة فى البداية مرتبطتان بوثوق شديد. لم تكن هناك طريقة لزيادة عدد المحاربين بسرعة سوى بجعل الدولة تستقبل

مواطنين جددًا. لم يكن أقل الأسباب في إرتقاء روما إلى العظمة، أنها كانت في الواقع شديدة الكرم في منح حق المواطنة للمهاجرين وكذلك للمجتمعات المجاورة التي كانت قد هزمتها.

أمكن توسيع عدد هؤلاء المواطنين الجدد حسب الإرادة.

لم تنطبق الحدود المفروضة على عدد مواطني الزمن القديم على المواطنين الجدد. كانت هذه الحدود جزئياً ذات طبيعة فيزيائية. مادامت إدارة المدينة كانت وظيفة جمعية المواطنين القدامى، فربما لاتجعل هذه الجمعية غاية في الكبر حتى لا يستحيل التعامل التجاري، ولايمكن أن يعيش المواطنين بعيداً جداً عن مكان الجمعية حتى يستحيل بالنسبة لهم أن يسافروا إلى ذلك المكان دون صعوبة ودون إهمال مزارعهم في أوقات معينة. ولكن مثل هذه الاعتراضات لم تنطبق على حالة المواطنين الجدد. ففي الحالات التي تكون قد منحت لهم فيها حقوقاً سياسية معينة، حتى حق التصويت في جمعية المواطنين (التي كانت نادرة عند التحاقهم للمواطنة)، لم يكن ضرورياً على الإطلاق – من وجهة نظر المواطنين القدامى – أن يتمكن المواطنون الجدد من أن يشتركوا في هذه الجمعيات. فكلما كانت الأشياء على طريقة المواطنين القدامى، كلما أحبوا أكثر.

لم تنطبق الحدود المفروضة على عدد الأخيرين على المواطنين الجدد.

أمكن زيادة عدد المواطنين الجدد بقدر ما كان ذلك مرغوباً؛ لقد كان محدوداً فقط بحجم الدولة وبحاجة الدولة إلى الجنود الذين يُعتمد عليهم. لأنه حتى حين كان واجب الإمداد بالقوات يقع على عاتق الولايات الخاضعة، احتاج الجيش بعد نواة تضمن جدارته بالثقة، وأمكن تقديم هذه النواة بواسطة فرقة طوارئ عسكرية من المواطنين الجنود. وهكذا ينشأ هناك في المدينة النامية شكل ثانٍ لتنظيم غير ديمقراطي للدولة. بينما يصبح مجتمع المدينة الكبرى من ناحية السيد المطلق للكومونات والولايات المتعددة، وهناك ينشأ داخل مواطني الكومونة، التي تمتد الآن بعيداً وراء حدود إقليم المدينة الأسبق وأراضى المدينة، عداءً بين مواطني النمط القديم أو المواطنين الكاملين (النبلاء) والمواطنون الجدد (العامة) وهاتان العمليتان تحولان الديمقراطية إلى أرستقراطية، ليس بواسطة الحد من دائرة المواطنين ذوي المميزات الكاملة، أو برفع بضعة أشخاص ذوي امتياز فوقهم، ولكن بواسطة نمو الدولة نفسها، التي تبقى فيها هذه الدائرة نفس الشيء بينما يكون لكل العناصر الجديدة التي التحقت بالجماعة القديمة أو العشيرة حقوق أقل أولاً حقوق على الإطلاق. ولكن هذين النمطين لنشوء الأرستقراطية من الديمقراطية لاتتبع نفس المجرى تماماً. واحدة من أنماط الاستغلال والسيطرة على الدولة من قبل قلة

متميزة، وحكم جماعة واحدة على إمبراطورية بكاملها، ربما يتزايد دوماً في مداه، كما ظهر من مثال روما، ويجب أن يتزايد، مادامت الدولة تمتلك طاقة حيوية ولم تطح بها قوة أعظم. ولكن الحال مع المواطنين الجدد ممن لا يتمتعون بحقوق سياسية هو أمر مختلف تماماً. مادام هؤلاء المواطنين هم الفلاحون فقط، فقد قبلوا حقوقهم المقيدة بهدوء بهذا القدر أو ذاك. فبسبب المسافة الكبيرة بين مزارعهم والمدينة، فإن القسم الأعظم منهم غير قادر على ترك موطنه في الصباح الباكر، لحضور جمعية المواطنين في سوق المدينة في الظهر، والعودة ثانية في المساء. ومع نمو الدولة، تصبح ظروفها الداخلية والخارجية معقدة أكثر فأكثر. وتصبح السياسة والحرب عملاً يتطلب تدريباً سابقاً ليس متاحاً للفلاح. ولأنه لا يتوفر لديه قدر من الفهم للمسائل الشخصية والفنية التي تناقش في جمعيات المدينة السياسية، لذا يشعر بأضال حاجة لطلب حق المشاركة فيها.

ولكن لا يبقى جسم المواطنين الجدد مقصوراً على الفلاحين. فقد جعلوا الأجانب الذين يقيمون في المدينة ويعتبرون مفيدین لها مواطنين. ولم تتضمن المقاطعات الخاضعة التي منحت لها المواطنة قرويين فحسب؛ بل إنها احتضنت حتى مدناً بها حرفيين وتجار، وكذلك ملاك عقاريين كبار ممن كانوا يملكون منزلاً بالمدينة بالإضافة إلى منزلهم الريفي. بمجرد أن يحوز الأخيرون حقوق المواطنة الرومانية، يبدأوا يشعرون بالحاجة للتحرك من المدينة الأصغر إلى المدينة الكبيرة، التي أصبحوا فيها أكثر من محتملين والتي جذبتهم إليها فرص العمل الأسهل والتسلية الأكثر إثارة. في هذه الأثناء، وبالطريقة التي أشرنا إليها سلفاً صودر المزيد من الفلاحين بواسطة الحرب ومتطلبات العبودية. أفضل ملاذ لمثل هذه العناصر التي لا ميراث لها هو مرة أخرى المدينة الكبيرة، التي هم مواطنيها الذين حاولوا أن يشقوا طريقهم فيها كحرفيين أو حمالين، كباعة متجولين، أو مجرد بطانة لأحد السادة الأغنياء. الذين يصبحون عملاؤه بشأن كل أنواع الخدمة الممكنة، والتي تكون حاشيته – البروليتاريا الرثة.

مثل هذه العناصر لديها الوقت والفرصة أكثر بما لا يقاس من الفلاحين لتتنشغل بسياسات المدينة، التي يمكن إدراك أثرها عليهم لمدى أبعد كثيراً ومباشرة. إن لديها اهتماماً نشيطاً للحصول على نفوذ سياسي، وفي إحلال جمعية كل المواطنين محل جمعية المواطنين القدامى فقط، وفي أن تحقق لكل المواطنين حق انتخاب موظفي الدولة وتشريع القوانين.

حيث نمت المدينة، تزايد نمو عدد كل هذه العناصر، بينما لم يتزايد دائرة المواطنين القدامى. أصبحت الدائرة من ثم أضعف فأضعف نسبياً، والأكثر حيث أنها لم تكن

تملك أية قوة عسكرية منفصلة عن قوة كل المواطنين، ومادام المواطنون الجدد وكذلك المواطنين القدامى كانوا جنوداً، حاملين السلاح، ومدرّبون على استعمالها. وهكذا لدينا في كل المدن من هذا النوع صراع طبقي مرير بين المواطنين القدامى والجدد منتهياً دوماً أجلاً أم عاجلاً بانتصار الأخيرين، ومن ثم الديمقراطية، والتي لا تبلغ شيئاً أكثر ولا أقل من توسع الأرستقراطية، على أية حال، لأن الحرمان من حق التصويت واستغلال المقاطعات التي ليس فيها حقوق للمواطن، يستمر. بالفعل، أحياناً ما، تجرى زيادة في الإقليم، يرافقها في بعض الأحيان استغلال أشد للمقاطعات، في نفس الوقت الذي تحقق فيه تلك الديمقراطية تقدماً داخل المدينة الحاكمة.

ج - الدولة الرومانية

توجد كل هذه الصراعات، التي هي سمة لكل مدينة تجارية مزدهرة في العصور القديمة، متطورة تماماً في روما حين تظهر هذه المدينة أولاً في التاريخ.

لقد كانت روما مدينة مميزة للغاية بموقعها وصيرورتها مدينة سلعية للبضائع. تقع المدينة على نهر التيبر، على مسافة ما من ساحل البحر، الذي لم يكن في تلك الأيام عقبة أمام التجارة البحرية، لأن السفن كانت غاية في الصغر في الواقع، وكان ذلك ميزة لأن، كونها بعيدة عن الساحل، جعل المدينة محمية بشكل أفضل ضد القرصنة والفيضانات من المدن التي تقع على الساحل. ليس مصادفة أن كثيراً من المدن التجارية العظيمة الأقدم لم تنشأ على ضفاف ساحل البحر نفسه، ولكن على أنهار صالحة للملاحة على مسافة مامن أفواهاها - بابل وبغداد، لندن وباريس، أنتورب وهامبورج.

نشأت مدينة روما على نقطة كان مازال فيها التيبر صالحاً للملاحة وحيث هناك تلان محصنان بسهولة، امتدا لأسفل للالتقاء بالنهر، وهكذا تضمننا الحماية والأمن للمخازن التي تستخدمها السفن في الشحن والتفريغ. كانت المقاطعة التي تقع فيها روما مازالت خشنة، يسكنها الفلاحون فقط، ولكن في شمالها وجنوبها كانت هناك أراضي في مرحلة متقدمة من التطور الاقتصادي، إتروريا وكامبانيا، مع صناعة نشطة، تجارة ممتدة، ولديها بالفعل اقتصاداً زراعياً مؤسس على العمل الإجباري. ومن أفريقيا جاء القرطاجنيون الذين كانوا في حوالى نفس مرحلة تطور الحضارة مثل المستعمرات الأتروسكانية والإغريقية في إيطاليا الجنوبية، مع بضاعتهم.

هذا الموقع الجغرافي مميز جداً لروما. لقد بدت المدينة التجارية لشعوب محيطها المباشر، اللاتين والفولسكيان، أنها تمثل حضارة أعلى؛ ولكن لهؤلاء الذين في

التخوم الأكثر بعداً، الإيتروسكيين والإغريق الإيطاليين، بقى الرومان مجرد شعب فلاحى فقط. وفى الحقيقة، بقيت الزراعة المصدر الرئيسى للعيش بالنسبة للرومان، بالرغم من كل الزيادة فى التجارة. وحيث أنهم لم يكونوا قريبيين من البحر، فلم يعرفوا شيئاً عن الملاحة وبناء السفن، ولكن ترك للتجار الأجانب وربابنة السفن مهمة الإبحار إلى روما والقيام بتجارتها. بقى هذا الظرف ثابتاً ويفسر جزئياً حقيقة أن اليهود شكلوا مثل هذه المستوطنة المهمة فى روما فى زمن قيصر وأخلافه المباشرين، بمعنى آخر، حوالى زمن أصل المسيحية، لقد نجحوا فى ذلك الوقت فى السيطرة على قسم من التجارة الرومانية. يمكن أن نلاحظ أن ظرفاً مشابهاً يوجد حتى اليوم فى القنسطنطينية حيث التجارة فى أيدي غير الأتراك بصفة رئيسية.

كلما ازدهرت روما بسبب تجارتها، كلما تنازعت أكثر مع جيرانها. حفز السوق من أجل المواد الغذائية، الذى فُتح بواسطة التجارة، الملاك العقاريون الرومان لتوسيع ممتلكاتهم على حساب جيرانهم، بينما راود الأخيرون الجشع لثروة المدينة. من ناحية أخرى، نشأت صراعات تنافسية مع المدن الإيتروسكية. خيضت سلسلة من الحروب الطويلة والحادة من قبل المجتمع الشاب، ولكنه خرج منها منتصراً، والفضل للموقع النوعى المزدوج، الذى ذكرناه سلفاً. انتصرت المصادر التقنية الأعلى والتنظيم الحازم للمدينة الكبيرة على الفلاحين، ولكن الإيتروسكيين، الذين كانوا قد فقدوا سلفاً بعض قوتهم العسكرية نتيجة لاستبدال العمل الإجبارى بطبقة فلاحية حرة، قد هزموا بسبب خشونة وقوة احتمال الفلاح الرومانى.

بمجرد ان أصبحت روما قوية بما فيه الكفاية لأن تتخلص من الإيتروسكيين، تعلمت عبر هذا الإجراء أى عمل ممتاز يمكن أن تكونه الحرب. كان يمكن إحراز ثروة أكثر بما لايقاس بالحرب منها بالتجارة، مادامت الأخيرة كانت فى الغالب فى أيدي الأجانب، أو من الزراعة، التى أنتجت أرباحاً طفيفة للغاية كل عام، بسبب انشغال الفلاحين. إذا كانت الحروب ناجحة، وكانت قد شنت ضد مدن وأمم ثرية، فكثير من النهب والجزية قد تأتى. التجارة وقطع الطريق مرتبطان بوثوق منذ البداية الأولى، ولكن من المحتمل أنه لم تكن هناك مدينة أخرى قد أكدت كثيراً مرحلة قطع الطريق، أو جعلتها حتى مؤسسة قومية، إن لم يكن أساساً لعظمة المدينة، مقيمة كل المؤسسات القومية على هذا الأساس، كما فعلت روما.

بمجرد أن قهرت ونهبت المدن الإيتروسكية وجعلتها تدفع جزية لها، تحولت روما نحو هؤلاء الجيران الأغنياء فى الجنوب التى تضمنت ثروتهم النامية أيضاً فقداً لقوتهم العسكرية، لأسباب غالباً ما صرحنا بها فى هذه الصفحات، انتهاءً إلى أن الغنيمة كانت فى نفس الوقت مرغوبة أكثر وأسهل كثيراً فى أخذها. ولكن كانت هذه

الثروة تجذب فى نفس الوقت أنظار شعب فلاحي آخر، السامانيين SAMNITES، الذى كان يجب أن يهزم حتى يمكن أن تأخذ روما المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا. لقد كانت حالة قبيلة فلاحية تقاتل قبيلة فلاحية، ولكن السامانيين لم تكن لديهم مدينة كبيرة، مثل روما، فى مركزها، التى ربما وفرت تنظيماً مركزياً للقوى الفلاحية المقاتلة. من ثم خضعوا وهكذا تمهد الطريق لروما لتتهدد وتخضع المدن الثرية فى إيطاليا الجنوبية.

لم تكن هناك سوى خطوة واحدة من إيطاليا الجنوبية إلى صقلية، التى، لم تكن أقل ثروة من القسم الإغريقى من إيطاليا، التى جذبت بقوة أيضاً جيوش روما اللصوصية. ولكن فى هذا الحقل واجه الرومان عدواً خطراً، القرطاجيين. قرطاجنة (قرطاج) مدينة تجارية قوية ليست بعيدة عن تونس اليوم، أخضعت النصف الغربى من الساحل الشمالى الإفريقى، وكذلك، إسبانيا، وكانت تحاول الآن أن تفعل نفس الشيء مع صقلية تحت تأثير نفس الغريزة اللصوصية مثل روما. كانت قرطاجنة مستعمرة للفينيقيين، الذين اضطروا منذ فترة مبكرة بسبب طبيعة بلادهم أن يشتغلوا بالملاحة، وحازوا قوتهم الكبرى فى هذا المجال. اكتسبت قرطاجنة أيضاً عظمتها وثروتها بواسطة الملاحة، أنتجت قرطاجنة بحارة وليس فلاحين، وبدلاً من اقتصاد فلاحي طورت نظام اللاتيفونديا بواسطة العبيد الأسرى الرخيصين، وأيضاً بعض التعدين. لقد افترقت من ثم إلى جيش فلاحي شعبى. بمجرد أن اضطرت قرطاجنة أن تخترق خط الساحل إلى الداخل، حتى تعزز غزواتها وتطور قوة عسكرية فى البر، كان عليها أن تلجأ لاستئجار المرتزقة.

بدأ الصراع بين روما وقرطاجنة بالحروب الثلاثة المسماة البونية، فى ٢٦٤ ق.م، بالطبع كان هذا الصراع قد حسم بالفعل بهزيمة هانيبال التى أدت لنهاية الحرب البونية الثانية فى ٢٠١ ق.م. أصبحت هذه الصراعات حروباً بين جيوش المرتزقة وجيوش الفلاحين، بين قوى محترفة وشعبية. غالباً ماكان الأولون ناجحين؛ شارفت روما فى ظل هانيبال على الهزيمة ولكن جيش الميليشيا، إذ كان يدافع عن بيوته، تبين أخيراً أنه أكثر احتمالاً، وأجبر خصم روما على الركوع فى نهاية النزاع العاتى. سويت قرطاجنة بالأرض، ودمر سكانها؛ وكانت مواردها الكثيفة من اللاتيفونديا، والمناجم، والمدن المهزومة، غنيمة المنتصر.

هكذا سقط خصم روما الأشد خطراً؛ حكمت روما الآن بدون تدخل فى النصف الغربى من البحر الأبيض المتوسط، وسرعان ماكانت تحكم أيضاً النصف الشرقى، الذى كانت أممه قد تقدمت بعيداً بالفعل على الطريق القديم للتدمير، الذى يعنى استبدال العمل الإجبارى للعبيد أو الأفتنان، بعمل الفلاحين الأحرار وإفقار الفلاح

بواسطة حروب لانهاية لها، واستبدال قوى المرتزقة بالميليشيا. كانت أمم شرقي المتوسط الآن ضعيفة للغاية من وجهة نظر عسكرية حتى أنها لم تكن قادرة على إبداء أية مقاومة جدية لجيوش روما. أخضعت الأخيرة مدينة بعد أخرى، دون صعوبة، وبلداً بعد آخر، بغرض نهبها والحكم عليها بأن تدفع جزية أبدية. من هذا الوقت فصاعداً، أصبحت سيدة العالم القديم حتى نجح البرابرة التوتون في تهينة نفس المصير لروما الذي أعدته روما بالفعل للأغارقة، بالرغم من أن الأخيرين كانوا أرفع شأنًا بما لا يقاس بالنسبة لروما بقدر ما تعلق الأمر بالفن والتعليم. لم يكن الرومان أبداً أكثر من ناهبين للأغارقة، ليس فقط في الاقتصاديات والسياسة، ولكن أيضاً في الفلسفة والفن. إن أعظم مفكرى روما وشعراءها كان جميعهم تقريباً منتحلي آراء الآخرين.

إن الأرض الأغنى في العالم المعروف آنذاك، التي كانت قد راكمت الكنوز التي لاتحصى لحضارة استمرت لقرون، أو كما في حالة مصر، لآلاف السنين، تعرضت الآن لنهب وسرقة روما.

إن الإجهاد الضخم للقوى العسكرية الذى أوصل لهذه النتيجة المهيبة، كان متاحاً لروما فقط حين كانت روما ديمقراطية، مدينة كان وجودها مثار اهتمام جاد – وإن لم يكن كله بدرجة متساوية – من كل طبقات السكان. نجح المواطنون الجدد، أو العامة، فى صراع طويل وخطير، يستمر من القرن السادس حتى الرابع ق.م، فى أن ينتزعوا من المواطنين القدامى، النبلاء، امتيازاً بعد امتياز، حتى انمحت فى النهاية كل الاختلافات القانونية بين الفئتين وكان للجمعية الشعبية لكل المواطنين امتياز سن القوانين وانتخاب أعلى الرسميين، القناصل، البريتوريون، الايديليون AEDILES، الذين دخلوا لاحقاً مجلس الشيوخ بعد انتهاء مدة منصبهم؛ وكان مجلس الشيوخ الحكومة الفعلية للدولة بكاملها.

ولكن لم يحز الشعب الرومانى هكذا السيطرة على الدولة، ولكن فقط حق انتخاب الحكام. وكلما غلبت البروليتاريا الرثة على سكان المدينة كلها أصبحت هذه الديمقراطية بالفعل أداة للكسب، وسيلة لابتزاز الهبات والتسليات من المرشحين. لقد أصبحنا سلفاً ملمين بالوكلاء CLIENTES، الذين أجروا أنفسهم للسادة الأغنياء لتقديم خدمات من أى نوع. فى حالة هؤلاء الوكلاء، الذين كان لهم حق التصويت، كانت واحدة من أكثر خدماتهم أهمية هى التصويت وفقاً لرغبات حُماتهم. سيطر كل رومانى ثرى، كل عائلة ثرية، هكذا على أصوات عديدة فى الجمعية الشعبية، التى سخروها لخدمة مصالح العصبية التى انتموا إليها. احتفظت عصب قليلة من الأسر الغنية بهذه الطريقة بحكومة الدولة فى أيديها ومرة بعد مرة سوف تنجح فى تأمين

انتخاب أعضاء عائلاتها فى أعلى مناصب الدولة، ومن ثم فى النهاية إلى مجلس الشيوخ. لم تغير الديمقراطية أى شيء فى هذا النظام عدا أنها سمحت أيضاً للعائلات البربرية الثرية أن تدخل فى الدائرة المميزة، التى كانت مقصورة على النبلاء بينما بقى النظام الارستقراطي على حاله.

كان القناصل والبريتوريون بعد هذه الانتخابات، مضطرين لأن يقضوا العام الأول من نشاطهم الرسمى فى روما. تولى كل منهم فى العام الثانى إدارة ولاية وحاول فى هذا الحقل الجديد أن يسترد النفقات التى دفعها بسبب الترشيح للمنصب، وأيضاً أن يحقق بعض الربح فى الاستثمار، لأن هؤلاء الموظفين لم يتقاضوا أجوراً؛ لقد كانت المناصب “مناصب شرفية”. من ناحية أخرى، كان منظور الربح الذى يمكن أن يتحقق فى الولايات بالاغتصاب والارتشاء، وغالباً أيضاً بواسطة سرقة فاضحة، سبباً للضغط على ترشيح المرء للمنصب بشكل أشد تأكيداً انتهاءً إلى أن بز المرشحين المتعددين كل منهم الآخر فى هداياه وتسلياته للشعب.

ولكن كلما زادت الطرق المتنوعة لشراء الأصوات الانتخابية منظورات الكسب من بيع البرولتيريا الرثة امتيازات المواطنة، كلما عظم الإغراء أمام هؤلاء الفلاحين الذين حازوا حقوق المواطنين الرومان لأن يتخلوا عن شرطهم البائس، الكادح والمقهور فى الريف ويرحلوا إلى روما. زاد هذا الاتجاه بدوره عدد الغوغاء التى تملك حق الانتخاب، وأيضاً الطلبات التى تحملها المرشحين. لم يكن هناك فى عهد قيصر أقل من ٣٢٠٠٠٠ مواطن روماني فى روما كانوا يتلقون منح الحبوب من الدولة، كان عدد الأصوات الانتخابية الذى يمكن أن يشتري من ثم من المحتمل أن يصل إلى حوالى ٣٢٠٠٠٠. ربما يمكننا أن نتخيل أية كميات ضخمة كانت تستهلك فى الانتخاب.

فى عام ٥٣ ق.م، خلق شراء الأصوات الانتخابية مثل هذا الطلب على النقود، حتى أن الفائدة على رأس المال قد ارتفعت لحد بعيد لدرجة أن تلاها أزمة.

ويلاحظ مومسن أنه كان على النبالة (النبالة الساعية للمناصب) أن تدفع رغم أنها “تكلف قتال مصارعين ٧٢٠٠٠٠ سيسترسيس (حوالى ٤٠٠٠٠ جنيه إسترليني). ولكنهم كانوا سعداء بأن يدفعوا لأنهم أبعدوا هكذا كل الأشخاص الذين لم يكن لديهم كثير من النقود عن المنصب”.

بالفعل، لقد دفعوا مراراً، حيث كانت هناك انتخابات جديدة كل عام. وهم لم يدفعوا، على أية حال، إنطلاقاً من أى دافع مثالى، ولكن بسبب أنهم عرفوا أنهم كانوا

يشترون هكذا الإذن بأن ينخرطوا في نهب أكثر ربحاً للمقاطعات صانعين من ثم تجارة جيدة للغاية.

أصبحت "الديمقراطية"، أو السيطرة على سكان الإمبراطورية الرومانية بكاملها، التي تحتوى على خمسين أو ستين مليوناً من السكان، بواسطة بضع مئات من آلاف المواطنين الرومان، أصبحت هكذا واحدة من أشد الوسائل فعالية في المغالاة لأعلى درجة في نهب وتجريد الولايات، بواسطة زيادة عدد الأشخاص المشاركين في هذه العملية بكثافة. لم يفعل الحكام فقط كل مافى مقدورهم في طريق الابتزاز، "ولكن يتبنى كل منهم حشداً من "الأصدقاء" معه، ممن ساعدوه في الانتخاب، والذين يُطلقون الآن، ليسرقوا وينهبوا تحت جناحه الحامى كمكافأة.

ولكن هذا لم يكن كل شيء، فرأس المال الربوى في روما كان أيضاً قد أطلق له العنان ضد الولايات، التي أتيحت له فيها كل الفرصة لأن يطور قوته التدميرية إلى حدها الأقصى، وأن يحرز موقعاً ذا أهمية لم يتمتع به فى أى جزء آخر من العالم القديم.

د - الربا

الربا نفسه قديم للغاية، قدم التجارة تقريباً. بينما لا يمكننا تتبعه حتى العصر الحجرى، فمن المحتمل رغم ذلك أن يكون أقدم من استخدام النقود. بمجرد أن تشكل عدد من الاقتصاديات المنزلية بملكات محددة لكل عائلة، فقد كان من الممكن لعائلة ما أن تصبح أثرى من الأخريات فى الماشية، الأرض، العبيد، بينما يمكن أن تصبح العائلات الأخرى فقيرة. لقد كان من ثم طبيعياً للفلاحين أن يوجدوا فى أوضاع يكونوا فيها متورطين فى الاقتراض من فائض جار ثرى، إما حبوباً أو ماشية، وعلى المقترض أن يعد بأن يقدم بدلها بعد فترة، مع كمية إضافية، أو أن يقوم بمهمة معينة فى المقابل - وهذه هى بداية عبودية المدينين. مثل هذه التعاملات فى الربا ممكنة، وتجرى بالفعل، فى اقتصاد قائم على المنتجات الطبيعية فقط، حتى بدون استعمال النقود. إن ملكية الأراضي الكبيرة والربا، مرتبطان بوثوق منذ البداية الأولى؛ ورأس المال الربوى - يسمى اليوم "المالية العليا" - وكبار الملاك العقاريين كانوا فى أوضاع كثيرة فى أفضل حالات الوفاق. كان الملاك الكبار فى روما أيضاً مرابين منذ زمن قديم بقدر مايمكن أن نوغل فى التاريخ، و لم يكن الصراع بين النبلاء والعامّة صراعاً فقط بين الملاك العقاريين والفلاحين من أجل استخدام مشاعات الدولة وإنما أيضاً صراعاً بين المرابين والمدينين.

ولكن كانت إنتاجية العمل الفلاحي، ومن ثم الفائض الذي ينتجه، ضئيلين لدرجة أن استغلال جماهير عظيمة من الرجال كان ضرورياً من أجل تزويد المستغلين بأى ثروة ذات وزن. بينما كان الأرستقراطيون الرومان يستغلون بالربا الفلاحين فى التخوم المحيطة بروما فقط، فربما كانوا يضطهدون هؤلاء الفلاحين إلى حد بعيد دون أن يجنوا شيئاً كثيراً جداً لأنفسهم. ولكن ازدهرت أحوال المرابين الرومان بالضرورة بشكل أكثر إرضاءً وأنتجت ثروة معتبرة أكثر، حتى أنهم حصلوا تدريجياً على منفذ لكل عالم زمنهم.

لكن تضمن هذا أيضاً تقسيماً للعمل. إن أخذ فائدة ربوية من الجيران لم يكن عملاً يتطلب انتباهاً كبيراً. وكان الأرستقراطيون قادرين على أن يعنوا به دون إهمال تدبير أملاكهم أو إدارة الدولة. من ناحية أخرى، لقد كان من الصعب استغلال أسبانيا وسوريا، الغال، وشمال أفريقيا، وإدارة أقدار الدولة الرومانية الضخمة فى نفس الوقت. يبدأ الآن عمل الربا فى التميز أكثر فأكثر عن (عمل) الحكومة. بجانب النبالة الرسمية، التى كانت تسرق الولايات بصفقتها كقواد وولاة، غير مترفعة فى نفس الوقت عن أن تكسب قليلاً من النقود جانبياً، تطورت هناك الآن طبقة خاصة من الرأسماليين الربويين الذين شكلوا أيضاً تنظيمًا اجتماعيًا خاصاً، طبقة “الفرسان”. ولكن كلما أصبحت طبقة الرأسماليين أكثر عدداً، وهى التى كانت منخرطة على سبيل الحصر فى التعاملات المالية، كلما تنوعت أكثر أنماط هذه التعاملات.

كانت واحدة من الوسائل الرئيسية لنهب الولايات جباية ضرائبها. لم توجد آنذاك بيروقراطية يمكن أن تتولى جمع الضرائب، وكانت الطريقة الأكثر ملائمة لجمعها هى أن يوكل هذا الواجب بالنسبة لولاية معينة لمالى روماني، الذى يتعين عليه أن يسلم إلى الدولة القيمة الكلية للضريبة ويترك ليكافئ نفسه بقدر ما يستطيع. كان هذا نظاماً للضرائب مشابهاً لذلك الذى مازال يمارس فى كثير من مناطق الشرق مصحوباً بتلك النتائج الوبيلة، فلن يكتفى جابى الضرائب بالطبع بالكمية التى يستحقها عن عدل؛ فسكان الولايات تحت رحمته ويستنزفون.

يتصادف غالباً جداً أن مدناً معينة أو ملوكاً فرضت عليهم الجزية لا يتمكنون من أداء المبالغ التى فرضت عليهم. أظهر المالئون الرومان فى هذه الحالة استعداداً لأن يدفعوا مقدمات إليهم، مقابل فائدة بالطبع. وهكذا، على سبيل المثال، فإن الجمهورى الكبير جونيوس بروتوس قام بـ “مضاربات ممتازة بإقراض نقود لملك كابادوشيا ولمدينة سلاميس. لقد أعطى قرضاً للأخيرة بفائدة قدرها ٤٨ فى المائة” (سالف-؛- يولى، نفس المصدر، ص ٢٤) لم يكن هذا معدلاً عالياً استثنائياً للفائدة. يفيد سالف-

؛-يولى فى كتابه بأن قروضاً أعطيت لمدن بمعدلات تصل إلى ٧٥ فى المائة. ومعدل الفائدة سيكون حتى أعلى فى حالات المخاطر الاستثنائية. وهكذا، أقرض بيت التمويل الكبير لرابيريوس فى عهد قيصر ملك مصر بطلميوس المنفى كل موارده وموارد أصدقائه، بمعدل فائدة بلغ مائة فى المائة. والحقيقة أن رابيريوس قد قام باستثمار سيئ، لأن بطلميوس حين استعاد عرشه، عجز عن أن يدفع وألقى بدائنة الملحف، الذى أدعى الدولة المصرية بكاملها ملكه الخاص، فى السجن. هرب المالى إلى روما، على أية حال، وأعطاه قيصر فرصة لأن يصنع ثروة جديدة فى عقود من أجل الحرب الأفريقية.

كانت هذه العقود شكلاً آخر لكسب النقود. كانت الجزيات التى تجمع فى خزائن رومانية من الولايات الخاضعة ضخمة. ولكن الحروب التى لا تنتوقف تكلف كثيراً من النقود أيضاً، لقد أصبحت وسائل نجاح المالىون بواسطتها فى أن يصبوا فى أكياسهم التى لا قاع لها كثير من الغنيمة التى أخذت من الولايات التى لم تذهب إلى المالىين مباشرة بل سلمت إلى الدولة. لقد قاموا بتزويد الدولة بإمدادات الحرب - وهو مصدر دائم لكسب النقود، حتى يومنا هذا. ولكنهم سوف يشرعون فى ممارسة الربا على دولتهم، حين تصادف أن تورطت الأخيرة مالياً، ولم يكن ذلك أمراً غير عادى، لأنه كلما نجحت الدولة فى اجتلاب غنيمة أكثر من الولايات كلما ارتفعت عالياً ادعاءات مختلف أنواع البطانات على الدولة. كان يجب أن تقدم أحياناً كميات كبيرة للدولة، كميات أكبر مما امتلكه أى فرد. لهذا الغرض، فإن تكوين شركات المحاصة كان مفيداً للغاية. إن الربا ليس فقط الشكل الأبركر للاستغلال الرأسمالى، انه أيضاً الوظيفة الأولى لشركات المحاصة.

أسس مالىو روما شركات تماثل بنوك المحاصة عندنا، كان لديهم مديرين، وصيارفة، ووكلاء إلى آخره. تكونت فى ظل سولا SULLA شركة الأسيانى Asiani برأس مال ضخمة إلى الحد الذى استطاعت فيه الشركة أن تقرض الدولة عشرين ألف تالنت، أو خمسة وعشرين مليون دولار. زاد هذا القرض بعد إثنى عشر عاماً إلى مائة وعشرين ألف تالنت كانت تستثمر موارده أصغر فى حصص بالشركات الكبيرة انتهاءً إلى، كما يقول لنا بوليبيوس (السادس، ١٧) أن المدينة بأجمعها (روما) كانت تشارك فى كل المشاريع المالية المتنوعة التى ترأسها بعض الشركات القليلة البارزة. كانت المدخرات الأصغر لها حصتها فى مشاريع جباة "الضرائب، التى حصلت الضرائب وأجرت أراضى الدولة، وأثمرت أرباحاً ضخمة". (سالف-؛-يولى، نفس "المصدر، ص ص ٤٠، ٤١)

كل هذا يبدو حديثاً جداً بالنسبة لنا، وإنه علامة على الأقل على حقيقة أن المجتمع الرومانى فى الوقت الذى كانت تولد فيه المسيحية قد تقدم إلى عتبة الرأسمالية الحديثة، ومع ذلك فإن تأثيرات هذه الرأسمالية القديمة كانت مختلفة تماماً فى نوعها عن تأثيرات الرأسمالية الحديثة.

إن الطرق التى وصفناها هنا هى تقريباً نفس الشيء الذى نتج عن تكوين الرأسمالية الحديثة، الطرق التى شخصها "ماركس باعتبارها طرق "الترامك الأولى": مصادرة ملكية السكان الفلاحين، نهب المستعمرات، تجارة العبيد، الحروب التجارية، والديون القومية. نجد فى الأزمنة الحديثة أن هذه الطرق تنتج نفس الآثار المدمرة والمخربة التى أنتجتها فى العصور القديمة. ولكن الفرق بين العصور الحديثة والقديمة يكمن فى حقيقة أن العصور القديمة كانت قادرة على أن تطور فقط التأثيرات المدمرة للرأسمالية، بينما تبدأ الرأسمالية الحقبة الحديثة بالتدمير حتى تطور شروط إقامة أنماط إنتاج جديدة وأعلى. إن الطريقة التى تطورت بها الرأسمالية الحديثة ليست بالتأكيد أقل بربرية، وقسوة من تلك التى تابعتها الرأسمالية القديمة، ولكن تخلق الرأسمالية الحديثة على الأقل أساساً للتقدم ماوراء هذا النشاط القاسى، والمدمر، بينما الرأسمالية القديمة لم تستطع أبداً أن تتجاوز هذا الحد.

لقد رأينا سلفاً أسباب ذلك فى الفصل السابق. إن التراكمات التى صنعتها الرأسمالية الحديثة، بالنهب والاحتصاب وبأعمال العنف الأخرى، تستخدم فقط جزءاً صغيراً لأغراض الاستهلاك، وتخصصها بصفة رئيسية لإنتاج وسائل إنتاج جديدة وأرقى، وهكذا تزيد إنتاجية العمل الإنسانى. لم تجد رأسمالية العالم القديم الشروط الأولية الضرورية لهذه المهمة. كان تأثيرها على نمط الإنتاج محدوداً فى استبدال عمل الفلاحين الأحرار بعمل العبيد، الذى كان يساوي خطوة إلى الخلف من الناحية الاقتصادية فى أكثر حقول الإنتاج أهمية، ونقص فى إنتاجية العمل الاجتماعى، وإفقار للمجتمع.

مكاسب رجال المال الرومان هذه، وكذلك غنيمة القادة والرسميين الرومان، التى لم تتجه لتوظيف جديد فى الربا، بمعنى آخر فى خدمة نهب جديد، كان يجب إما أن تبدد من ناحية، فى المتع، وكذلك فى إنتاج وسائل المتع – ويجب أن نحسب ليس فقط القصور ولكن أيضاً المعابد من بين وسائل المتع هذه – أو ربما تخصص هذه المكتسبات، إذا تجاهلنا تلك التى سحبت من عمليات التعدين القليلة، لحيازة ملكية، بمعنى آخر لمصادرة ملكية الفلاحين الأحرار واستبدال العبيد بهم.

خدم نهب وتخريب المقاطعات من ثم فى أن يزود مالىي روما فقط بوسائل تتيح نقص إنتاجية العمل الاجتماعى، بسبب إنتشار العبودية، لينطلق بسرعة مما إذا كان

الحال على خلاف ذلك. لم يكن التدمير فى حقل معين يواجه بازدهار اقتصادى فى حقل آخر، كما هى الحال أحياناً على الأقل مع الرأسمالية الحديثة، ولكن عجل التدمير فى المقاطعات أيضاً تدهور روما. من ثم، وكنتيجة لسيادة روما العالمية، يبدأ الإفكار العام للعالم القديم فى التحرك بشكل أسرع بعد بداية العصر المسيحى، بخلاف ما كان قبل ذلك.

ولكن توارت فى الظل لوقت طويل أعراض الإفلاس الاقتصادى بسبب الفخامة الباهرة لوضع روما. جمعت روما فى عقود قليلة، معاً تقريباً كل الأشياء التى خلفتها قرون، وحتى آلاف السنين، من العمل الفنى المتقن، فى كل مراكز الحضارة حول البحر الأبيض المتوسط. أصبح الإفلاس السياسى للنظام أشد سرعة من إفلاسها الاقتصادى.

هـ - الاستبداد

لقد دمرت روما الحياة السياسية فى كل الأقطار التى غزتها، بكسر قدرتها على المقاومة وحرمانها من استقلالها. كانت كامل سياسة هذه الإمبراطورية الهائلة مركزة فى مدينة روما فقط. ولكن من هم الأشخاص الذين أصبحوا حملة الحياة السياسية فى تلك المدينة؟ لقد كانوا رجال مال فكروا فى مراكمة الفائدة على الفائدة فقط، وارتقوا طيبين ترنحوا من متعة إلى متعة أخرى، الذين احتقروا العمل المنتظم، وكل جهد، حتى جهد الحكم وشن الحرب؛ وأخيراً البروليتاريا الرثة، التى عاشت بواسطة بيع قوتها السياسية لمن يدفع أكثر.

وهكذا، يفيد سويتونيوس فى سيرة حياة قيصر، فيما يتعلق بهبات الأخير بعد الحروب الأهلية بمايلى:

“أعطى كل رجل من السكان، بالإضافة إلى عشرة مودى MODII من الحبوب وعشرة أرتال من الزيت، الثلاثة مائة سيسترسس التى كان قد وعد بها سابقاً، سوية مع مائة سيسترسس كفاية على الأقساط. (بمعنى آخر ٢٠ جنيه إسترليني فى وقت كان بإمكان المرء أن يعيش فيه بثلاث سنوات فى اليوم.ك) وشرع أيضاً فى دفع إيجارهم السنوى (لهؤلاء الذين يعيشون كمستأجرين فى المباني.ك)، فى روما حتى ألفى سيسترسس للعائلة (١٠٠ جنيه إسترليني)، وفى إيطاليا حتى خمسمائة سيسترسس (٢٥ جنيه إسترليني). وبالإضافة إلى ذلك أقام مأدبة (لمائتى ألف شخص، ك) ووزع اللحم مجاناً وبعد الانتصار على أسبانيا أقام أيضاً مأدبتى إفطار عامتين، لأن الأولى بدت له هزيلة للغاية ومن ثم ليست جيدة بكرمه؛ “وطبقاً لذلك رتب لإفطار ثان، بعد خمسة أيام تالية الذى كان عيداً رائعاً ” (الفصل الثامن

والعشرون) لقد "أعد ألعاباً أيضاً ذات أبهة لم يُسمع بها، يتلقى فيها ممثل واحد، ديسيموس لابيوريوس، خمسمائة ألف سيسترسس، أو ٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني مقابل عرض واحد" !

يقول سويتينيوس فيما يتعلق بأغسطس:

"غالباً ماوزع هدايا على الشعب، لم تكن دائماً بنفس القدر، أحياناً أربعمائة سيسترسس (٢٠ جنيه إسترليني) أحياناً ثلاثمائة سيسترسس (١٥ جنيه إسترليني) أحياناً مائتي وخمسين سيسترسس فقط (١٢ جنيه إسترليني) للشخص. وهو لم يغفل حتى عن الفتية الصغار، بالرغم من أنهم في توزيعات أخرى لم يتلقوا شيئاً إلا إذا كانوا فوق سن الحادية عشر. وبالمثل، في أعوام المجاعة غالباً ماوزع الحبوب على كامل السكان بسعر "زهيد للغاية، وشدد تعليماته من أجل توزيع نقود". (أوكتاف-؛-يوس، الفصل الثاني عشر)

من الطبيعي إذا سمحت البروليتاريا لنفسها بأن تباع بهذه الطريقة، بعد أن وضعت قواعد فسادها في نظام واستعرضته علناً، أن تفقد استقلالها السياسى كلية. لقد باتت الآن أداة فقط في أيدي من يدفع أكثر. أصبح الصراع من أجل السلطة في الدولة تنافساً بين عصب قليلة كانت قادرة على أن تراكم الغنيمة الأعظم والتي تمتعت بأوسع انتمان مع الماليين.

كان هذا العامل مؤكداً لحد كبير بنشوء نظام المرتزقة، الذى كان يجعل من الجيش سيد روما أكثر فأكثر. بعد أن جرى توسيع نظام المرتزقة، تدهورت البسالة الحربية لدى المواطن الرومانى - أو بالأحرى سبب تدهور بسالته زيادة تطبيق نظام المرتزقة. باتت كل عناصر السكان القادرة على الخدمة العسكرية موجودة في الجيش، وفقد السكان خارج الجيش قدرتهم القتالية وروحهم القتالية أكثر فأكثر.

كان هناك عاملان يعملان بصفة خاصة في اتجاه تدني الجيش أكثر فأكثر حتى يكون أداة طيعة في يد أى قائد عسكرى يمكن أن يُقدم له أو يَعِدْهُ بمرتبة وجزية كافيين، وبسبب كونه بات محكوماً أقل فأقل بالاعتبارات السياسية. كان العامل الأول هو العدد المتزايد لغير الرومان، من سكان الولايات، وحتى الأجانب فيه، عناصر لم يكن لها حقوق كمواطنين، عناصر كانت مُستبعدة كلياً من أى إسهام في الحياة السياسية، العامل الثانى كان النفور المتزايد من قبل الأرستقراطية محبى المتع، والمخنثين من الاشتراك في الخدمة العسكرية. لقد قدمت هذه الطبقة حتى الآن الضباط العسكريين، الذين كانوا يخلون الأرض أكثر فأكثر للضباط المحترفين؛ لم يكن الأخيرين مستقلين اقتصادياً، كما كان الأرستقراطيون، ولم يكن لديهم اهتمام

أيا كان بنزاعات الأحزاب الرومانية، التي كانت فى الواقع صراعات بين زمر الأرستقراطية المختلفة.

حيث تزايد غير الرومان فى الجيش أكثر فأكثر، بينما استمر استبدال الضباط الأرستقراطيين بالضباط المحترفين، كلما أصبح استعداد الجيش أعظم لبيع نفسه لمن يدفع أكثر وأن يجعله حاكم روما.

وهكذا وُضع الأساس للقيصرية، الشرط الذى مَكَّن أغنى رجل فى روما من أن يبتاع الجمهورية، مشترياً السلطة السياسية لنفسه، وهذا بدوره كان حافزاً يمكن أن يحث قائداً ناجحاً، له السيطرة على الجيش، لأن يسعى ليصبح أغنى رجل فى روما، الأمر الذى يمكن أن يحققه بأفضل شكل بتجريد خصومه ومصادرة ملكيتهم.

تحتوى الحياة السياسية للقرن الأخير من الجمهورية فى التحليل الأخير على لا شيء سوى الحروب الأهلية – وهو مصطلح شديد الخطأ، حيث أن المواطنين لم يكن لهم شأن بهذه الحروب. لم تكن حروب مواطنين، وإنما حروب بين ساسة فرديين، الذين كان أغلبهم ماليين جشعين وقادة بارزين فى آن معاً، ذبحوا وسرقوا بشكل متبادل كل منهم الآخر حتى نجح أغسطس أخيراً، بعد أن تغلب على كل منافسيه، فى تأسيس حكمة الفردى الدائم.

نجح قيصر إلى مدى معين بالفعل فى هذا قبل أيام أغسطس؛ كان قيصر، مغامراً أرستقراطياً غارقاً فى الديون، وقد تأمر مع اثنين من أغنى الماليين الرومان، بومبى وكراسوس، بغرض الاستيلاء على سلطة الدولة. يصف مومسن كراسوس على النحو التالى: “كانت ثروته قائمة على شراء الأرض خلال الثورة؛ ولكنه لم يحتقر أى وسيلة لكسب المال: لقد قام بعمليات بناء فى العاصمة كانت عظيمة بقدر ما كانت حكيمة، وكان مرتبطاً برجاله المعتقد الموزعين فى أكثر المشروعات تنوعاً؛ وداخل روما وخارجها سوف يسلك كمصرفي إما مباشرة أو من خلال أصدقاءه، لقد قدم نقوداً لأصدقائه فى مجلس الشيوخ وسيقوم لحسابهم، بتنفيذ الأعمال العامة أو يرشو الهيئات القضائية، أيا ما كان مطلوباً. لم يكن مرهفاً فى اختياره فى كيفية كسب النقود. وهو لن يتردد فى قبول ميراث لأن الوصية التى ورد اسمه فيها كانت تزويراً فاضحاً”.

لم يكن قيصر أفضل، لم تَبْدُ أى طريقة لكسب النقود غاية فى الوضاعة بالنسبة له. سويتونيوس، الذى اقتبسنا منه سلفاً عدة مرات، عنده ما يقوله لنا فى سيرته الذاتية عن قيصر الذى مجده مومسن فيما بعد:

“لم يظهر إيثاراً سواء كقائد أو كحاكم للدولة، لأنه كما نعلم من عدة مصادر فقد تلقى نقوداً من حلفاءنا حين كان نائب قنصل PROCONSUL فى أسبانيا، تسول منهم حتى يدفع ديونه، ونهب عدة مدن فى لويستانيا، متظاهراً بأنها كانت معادية، بالرغم من أنها امتثلت لأوامره وفتحت أبوابها عند وصوله. سرق المعابد والحرمة المقدسة، المليئة بثراء بالهبات فى بلاد الغال، لقد دمر مدناً مراراً وتكراراً بسبب غنائمها أكثر مما بسبب انتهاكاتهما. كان لديه من ثم كثير من الذهب الذى جعله يعرض ويبيع الرطل منه مقابل ثلاثة آلاف سيسترسس (١٥٠ جنيه إسترليني) فى إيطاليا وفى الولايات. سرق فى فترة قنصليته الأولى ثلاثة آلاف رطل من الذهب من الكابيتول، مستبدلاً إياها بوزن مساوٍ من النحاس المطلى. لقد باع تحالفات وممالك من أجل النقود؛ وهكذا فقد أخذ من بطلميوس (ملك مصر) لنفسه فقط ولبومبى ستة آلاف تالنت (٧٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني)“. تحمل فيما بعد أبهظ مدفوعات الحرب الأهلية، الانتصارات والمهرجانات بواسطة أشد الإبتزازات شيئاً وبسرقات المعابد. (يوليوس قيصر، الفصل ٥٤). الحرب ضد الغال، التى كانت حتى حينئذ حرة من الاضطهاد الرومانى ومن ثم لم تخضع للنهب، تولاهها بصفة رئيسية قيصر من أجل المكاسب. مكنته الغنيمة الثرية التى حصل عليها من هذا البلد أن يقف على قدميه وأن يتخاصم مع رفيقه بومبى، الذى كان قد شاركه حتى آنذاك شئون الحكومة. وقع الشريك الثالث، كراسوس فى آسيا فى حملة لصوصية ضد “البارثيين، التى “أمل أن يحصل فيها ليس فقط على كثير من الشهرة بل أيضاً على كثير من النقود”، كما يقول لنا أبيان – بنفس الطريقة التى طبقها قيصر بنجاح شديد فى بلاد الغال.

بعد موت كراسوس كان بومبى فقط مازال يقف فى طريق قيصر، كان بومبى محاطاً ببقايا الأرستقراطية التى كانت مازالت نشطة سياسياً، وتخلص يوليوس العظيم منهم فى سلسلة من الحملات التى لم تكن أيضاً غير مربحة فى غنيمتها.

“لقد حكى أنه عرض فى موكب انتصاره (فى نهاية الحرب الأهلية) ستون ألف تالنت من الفضة وكذلك ٢٨٢٢ تاجاً ذهبياً وزن ٢٤١٤ رطلاً. استخدم فى اعقاب انتصاره مباشرة هذه الكنوز لتلبية مطالب جيشه معطياً كل جندى خمسة آلاف دراخمة أتيكية (أكثر من ١٠٠٠ جنيه إسترليني) وضعف قدرها لكل ضابط غير مقلد، وللضباط الأعلى ضعف قدر الضباط غير المقلدين، وهكذا تجاوز لحد بعيد وعوده الأصلية“. لقد حكينا سلفاً، نقلاً عن سويتونيوس، الهبات التى أعطاها قيصر حينئذ لبروليتاريى روما.

منذ هذا الوقت فصاعداً لم تُجادل علناً سلطة قيصر الفردية، وكان الجمهوريون غير قادرين على إبداء احتجاجهم سوى بالاغتيال. سدد خلفاء قيصر، أنطوني وأغسطس لهم الضربة القاضية.

وهكذا أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكاً لفرد واحد، القيصر أو الإمبراطور. وتوقفت الحياة السياسية. لقد كانت إدارة هذه الأرض شأنًا خاصاً لملكها، ومثل كل الممتلكات الأخرى، مراراً ما كان يُختلف عليها بالطبع؛ هاجم قطاع الطرق، بمعنى آخر القادة الناجحون المالك الفعلي، الذي كان يُذبح في حالات عديدة من قبل حراسه الخاصين، حتى يباع العرش الخالي لمن يدفع أكثر. غير أن هذا كان تعاملًا ماليًا، ليس أسوأ من بعض مثل هذه التعاملات في نفس الفترة، وليس عملاً سياسياً. توقفت الحياة السياسية تماماً، وسرعان ما نجد، في البداية ضمن الطبقات الأدنى، وفيما بعد أيضاً في الطبقات العليا، ليس فقط لامبالاة بالدولة، وإنما حتى كراهية للدولة وأصحاب المقامات الرفيعة، لقضائهم، وجباة ضرائبهم، وجنودهم، وللأباطرة أنفسهم، الذين لم يعودوا قادرين بالفعل على حماية أحد، الذين أصبحوا سوطاً حتى بالنسبة للطبقات المالكة، وحتى يهربوا منها بحث الأخرون عن ملاذ بين البرابرة.

كانت هناك مواضع قليلة قد تبقت في الإمبراطورية الرومانية احتفظت ببقايا من الحياة السياسية بعد انتصارات قيصر، وسرعان ما أزيلت هذه البقايا أيضاً من قبل أخلاف قيصر. بقيت حياة سياسية نشطة لفترة أطول في أورشليم، المدينة الأكبر في فلسطين. كانت أكثر الجهود جدية مطلوبة لتطويق هذا المعقل الأخير للحرية السياسية في الإمبراطورية الرومانية. بعد حصار طويل وعنيد سويت مدينة أورشليم بالأرض في عام ٧٠ ب.م وأصبح الشعب اليهودي بلا مأوى.

الفصل الثالث: التيارات الفكرية فى الفترة الإمبراطورية الرومانية

أ – إضعاف الروابط الاجتماعية

لقد رأينا أن العصر الذى نشأت فيه المسيحية كان عصر تفسخ كامل للأشكال التقليدية للإنتاج والدولة. وكانت الأشكال التقليدية للفكر تبعاً لذلك تحتضر بهذا القدر أو ذاك. كان هناك بحث عام وتلمس لأنماط جديدة من الفكر. شعر الفرد بأنه كان متوحداً، لأن كامل الخلفية الاجتماعية التى امتلكها الفرد سابقاً فى جماعته أو عشيرته، والنظرات الأخلاقية التى تواصلت كانت تتحلل الآن. كانت الفردية من ثم واحدة من الملامح الأشد بروزاً لنمط الفكر الجديد. وبالطبع قد لا تتضمن الفردية أبداً انعزالاً كاملاً للفرد عن ارتباطاته الاجتماعية ؛ سوف يكون هذا من المستحيل تماماً. لا يمكن للفرد البشرى أن يوجد إلا فى المجتمع وخلال المجتمع. ولكن الفردية يمكن على الأقل أن تذهب بعيداً إلى الحد الذى تؤدي فيه بالرابطة الاجتماعية التى نما فى ظلها الفرد، والتى تبدو من ثم طبيعية وواضحة بذاتها بالنسبة إليه، إلى أن تفقد قوتها، مواجهة الفرد هكذا بمهمة أن يتخذ طريقه الآن خارج العلاقات الاجتماعية السابقة. يستطيع الفرد أن يحقق هذا فقط بواسطة الاتحاد مع أفراد آخرين ذوى مصالح ومتطلبات متشابهة، مكونين منظمة اجتماعية جديدة. سوف تتحدد طبيعة هذه التنظيمات بالطبع بالظروف القائمة وليس بواسطة نزوة الفرد المعنى. ولكن هذه المؤسسات لاتقارب الفرد فى صيغة منظمات تقليدية جاهزة الصنع، ولكنها يجب أن تُخلق بواسطته بالارتباط مع الآخرين ذوى المطامح المماثلة، الذى ربما يترافق مع أخطاء عديدة واختلافات عظيمة ممكنة فى الرأى، حتى تنبثق أخيراً منظمات جديدة من صراع الآراء والتجارب، والمنظمات الجديدة، المتوافقة مع الشروط الجديدة، سوف تستمر وتقدم أمناً ثابتاً للأجيال التالية كما فعلت المنظمات الأسبق التى تلتها. ربما يظهر فى مثل هذه الفترات الانتقالية أن المجتمع لايشترط الفرد، وإنما الفرد يشترط المجتمع، وأن الأشكال الاجتماعية، مشاكلها وطموحاتها، معتمدة كلية على إرادته.

مثل هذه الفردية، فرد باحث ومتلمس لأنماط جديدة من الفكر ومنظمات اجتماعية جديدة، هى ميزة، على سبيل المثال، لفترة الليبرالية التى تلت انحلال المنظمات الإقطاعية بدون أن تستبدلها مباشرة بمنظمات اجتماعية أخرى جديدة، حتى تطورت أخيراً المنظمات الجديدة للعمال وأصحاب الأعمال أكثر فأكثر إلى أن تكون العوامل المهيمنة فى المجتمع الرأسمالى.

القرون الأولى من العصر الإمبراطورى الرومانى شديدة الشبه بالقرن التاسع عشر فى هذا التحلل لكامل المنظمات الاجتماعية وخلق (أخرى) جديدة. ولكن تشبه هذه

الفترات أيضاً كل منها الأخرى فى حقيقة أن تفسخ العلاقات الاجتماعية القديمة انطلق فى كلا الفترتين بأشد سرعة وبأكثر مايمكن من التجسد فى المدن الكبرى، حيث أن مجمل الحياة الاجتماعية قد تحدد تدريجياً أكثر فأكثر بواسطة هذه المدن. قدمت للفلاح فى فترة قوته واكتفائه الذاتى فرصة ضئيلة للتفكير من خلال الحياة الاجتماعية لهذه الأزمنة، لأن الحياة كانت ثابتة تحديداً بالنسبة له بواسطة العرف والعادة. ولكنه كان مضطراً لأن يولى انتباهاً عظيماً للطبيعة التى كان فى حرب دائمة معها، التى قدمت له يومياً مفاجأة جديدة، التى كان يعتمد عليها بشكل كامل، والذى كان عليه أن يتغلب عليها حتى يعيش. كان السؤال عن السبب الخاص بالظواهر الطبيعية المختلفة من ثم قد فرض نفسه عليه. لقد سعى أولاً لأن يجيب عليه بسداجة شديدة بواسطة شخصية قوى طبيعية مختلفة، بافتراض وجود آلهة متعددة فعالة فى الطبيعة، ولكن بهذه الطريقة فى وضع السؤال فإن لدينا بالفعل بدايات العلوم الطبيعية، المؤسسة على نفس السؤال، سؤال سبب، أسباب كل الأشياء. بمجرد أن بدأ الإنسان فى فهم أن العلاقة بين السبب والنتيجة فى ظواهر الطبيعة هى علاقة منتظمة وضرورية، وأنها ليست معتمدة على نزوة آلهة أفراد، بات الطريق ممهداً لمعرفة حقيقية عن العلوم الطبيعية. لم يكن لهذا الإدراك أن يتحقق بالطبع بواسطة الفلاحين الذين كانوا معتمدين بشكل مطلق على الطبيعة. لقد استسلم الفلاح بدون مقاومة للقوى الطبيعية، وحيث أنه غير قادر على السيطرة عليها من خلال المعرفة، فقد مال إلى إستعطافها بواسطة الصلوات والأضاحى. إن دراسة علمية للطبيعة ممكنة فقط فى المدن، حيث أن الإنسان غير مجبول على الشعور باعتماده على الطبيعة بهذا الحد من المباشرة والقوة، انتهاء إلى أنه ربما يبدأ فى العمل كملاحظ مستقل عن الطبيعة. نشأت فى المدينة وحدها طبقة لديها وقت فراغ كاف للملاحظة، وليست خاضعة لدافع أن تستعمل وقت فراغها فى المتع الجسدية فقط، مثل الملاك العقاريون الكبار فى الريف، حيث القوة البدنية والقدرة على التحمل عنصر هام فى الإنتاج، بما يترتب على ذلك من أن وقت الفراغ والوفرة يخلق تسليات من أشد الأنواع المادية فظاظة فقط، مثل مطاردات الصيد والمآدب.

تبدأ الفلسفة الطبيعية فى المدن، ولكن نمت تدريجياً مدن عديدة لحد كبير حتى أن سكانها بدءوا فى الانقطاع عن أى علاقة مع الطبيعة، وهكذا فقدوا كل اهتمام بالموضوع. كان مجرى الأحداث يولى تدريجياً لهذه المدن القيادة أكثر فأكثر فى الحياة العقلية والاقتصادية لأقاليم كبرى. بالمثل كان نفس مجرى التطور هذا يُضعف كل الروابط الاجتماعية التى كانت حتى الآن قد ربطت الفرد بالمنظمات التقليدية وأشكال الفكر. ولكن كانت نفس العملية تشحذ التطاحنات الطبقيّة، مطلقة

صراعاً طبقياً أشد وحشية بما لا يقاس، اتخذ أحياناً حتى شكل الإطاحة بالعلاقات القائمة. لم تكن الطبيعة، لقد كان الآن المجتمع الذى كان يمد الإنسان يومياً بمفاجآت جديدة فى المدن الكبرى، مواجهاً إياه يومياً بمشاكل جديدة، لم يسمع عنها، تضطره يومياً لأن يجيب على السؤال التالى: "ماذا نفعل بعد ذلك؟"

لم يكن السؤال بالنسبة للسبب فى الطبيعة، ولكن عن ماذا ينبغى عمله فى المجتمع، ليس معرفة العلاقات الطبيعية الضرورية، ولكن الاختيار الحر الواضح لأهداف اجتماعية جديدة: هذا ما استولى على أفكار الإنسان بصفة رئيسية. مكان الفلسفة الطبيعية، لدينا الآن الأخلاق، اتخذت الأخيرة شكل البحث عن سعادة الفرد. كان هذا هو الحال بالفعل فى العالم الهيلينى بعد الحروب الفارسية. لقد رأينا سلفاً أن العالم الرومانى كان يستعير فقط من الإغريق فى الفن والعلوم. لم يحوزوا ملكية أتت كنوزها العقلية (ولا المادية) بواسطة العمل، وإنما بواسطة النهب. لقد أصبح الرومان ملمين بالفلسفة الإغريقية حينما كانت الأخيرة معنية أكثر بالفعل بالاهتمامات الأخلاقية من الاهتمام بدراسة الطبيعة. لم يول الفكر الرومانى أبداً من ثم اهتماماً كثيراً للفلسفة الطبيعية ؛ حيث شغلت الفلسفة الرومانية نفسها منذ بداياتها الأولى بالأخلاق.

اتجاهان فلسفيان كانا سائدان بصفة خاصة فى القرون الباكورة من العصر الإمبراطورى، وهما (اتجاهى) أبيقور والرواقية.

لقد دعا أبيقور الفلسفة نشاطاً يؤدي لحياة سعيدة بواسطة المفاهيم والبراهين. لقد ظن أنه يستطيع أن يحقق السعادة من خلال ملاحقة اللذة، ولكن من خلال ملاحقة اللذات العقلية الدائمة وحدها، وليس من خلال الرغبة فى المتع الحسية العرضية المغالى فيها، التى تؤدى لخسارة الصحة والثروة، ومن ثم تؤدى للتعاسة.

لقد ناسبت هذه الفلسفة تماماً استعمالات طبقة مستغلة، لم يكن لديها توظيف آخر تستثمر فيه ثروتها غير أن تستهلكها ؛ كان ما احتاجته تنظيم عقلى لحياة اللذة. ولكن قدم هذا المذهب إشباعاً ضئيلاً لذلك العدد المتزايد دائماً من الأشخاص الذين عانوا انهياراً بدنياً، وعقلياً أو مالياً، للفقير والبائس، ولم يمنح عزاءاً للمتخمين، أي لهؤلاء الذين غثوا بالفعل من المتعة. ولم يتمكن من أن يمنح السرور لهؤلاء الذين كان مازال لديهم بعض الاهتمام بالأشكال التقليدية للحياة المشاعية، والذين كانوا لا يزالوا يلاحقون أهدافاً تتجاوز حاجاتهم الشخصية الخاصة، لهؤلاء الوطنيين الذين كانوا يشهدون انحلال الدولة والمجتمع، مملوءين بحزن عاجز، ولكن غير قادرين على إعاقة العملية الجارية. بدت ملذات هذا العالم بالنسبة لكل هذه المجموعات تافهة وضحلة. لقد توجهوا نحو المذهب الرواقى الذى يمجّد الفضيلة، وليس اللذة

باعتبارها الخير الأعلى، وباعتبارها منتهى السعادة. أعلن الرواقيون أن مجرد الطيبات الخارجية، مثل الصحة، والغنى، الخ، أموراً عديمة الأهمية مثلها في ذلك مثل الشرور الخارجية.

وقد أدى هذا في النهاية بأشخاص عديدين إلى أن يبتعدوا تماماً عن هذا العالم، وأن يحتقروا الحياة، وحتى أن يرغبوا في الموت. أصبح الانتحار عادة في روما الإمبراطورية، وأصبح لبعض الوقت هو (الموضوعة) تماماً.

ولكن لوحظ أنه تطور بشكل متزامن مع الرغبة في الموت أيضاً في المجتمع الروماني رعب حقيقي من الموت. شعر المواطن بنفسه في أي من جماعات العصور القديمة الكلاسيكية بأنه جزء من كل كبير سوف يبقى بعد موته، وقد كان خالداً بالقياس إليه نفسه. سوف يستمر في الحياة في جماعته، وسوف يحمل آثار حياته، لم يكن في حاجة لخلود آخر. وفي الواقع فإننا لانجد بين الأمم القديمة، التي لم يكن خلفها سوى فترة قصيرة من التطور الثقافي، أية أفكار على الإطلاق عن حياة ما بعد الموت، أو أن فكرتها عن أنها حياة ظلال، هي فكرة أنتجت الحاجة لتفسير ظهور الموتى في الأحلام: حياة الظلال هذه كانت وجوداً جديراً بالثناء لم تراود أي شخص الرغبة فيه على الإطلاق. نحن نعرف مرثاة أخيل:

“أفضل، أن أفلح حقلي كعامل ميأومة

لرجل محتاج، ليس لديه أرض أو ممتلكات

من أن أحكم كل جموع الموتى المتلاشين!”

(الأوديسة، ١١، ٩٨٤ – ١٩٤)

نكرر، إن افتراض وجود ظلالى مابعد الموت، فرضيه ساذجة استلزمها تفسير بعض ظواهر الأحلام، وليست نتيجة حاجة حقيقية للروح.

ولكن تغيرت الأشياء حين كانت الجماعة في طور الهبوط وكان الفرد ينفصل عنها. لم يعد يمتلك الفرد الشعور بأن نشاطه سوف يبقى في الدولة، لأن موقفه تجاه الدولة كان (موقف) اللامبالاة بل وحتى العداء، ومع ذلك كانت فكرة أنه سوف ييبّد تماماً لا تحتمل بالنسبة له. نشأ هناك خوف من الموت لم يكن مثله معروفاً حتى الآن في العصور القديمة. ازدهر الجبن، وأصبح الموت صورة الرعب، بينما كان قد اعتبر سابقاً قرين النوم.

بدأت تُستشعر الحاجة أكثر فأكثر لمذهب يبقى خلود الفرد، ليس كظل متحرر من الجسد، ولكن كروح فرحه. سرعان ما لم تعد النعمة يبحث عنها في المتع الأرضية ولاحتى في الفضيلة الأرضية، وإنما في تحقيق حياة أخروية أفضل، مثلت هذه الحياة بالنسبة لها استعداداً فحسب، وجد هذا المفهوم دعماً قوياً في مذهب أفلاطون، وهذا الاتجاه هو ما اتخذته أيضاً المدرسة الرواقية.

افترض أفلاطون بالفعل وجود حياة في المستقبل، تحررت فيها، الأرواح من أجسادها، وسوف تواصل الحياة وسوف تكافئ وتعاقب على أعمالها في الأرض. يخبرنا أفلاطون في الفصل الثالث عشر من الكتاب العاشر من جمهوريته، عن البامفيلي الذي سقط في الحرب، والذي، كان على وشك أن يُحرق في اليوم الثاني عشر من موته، وقد عاد إلى الحياة فجأة مرة أخرى وأفاد بأن روحه بعد أن فارقت جسده، عاينت أماكن رائعة في شقوق عظيمة تمتد داخل السماء فوق، وتحت داخل أحشاء الأرض جلس القضاة في ذلك المكان، ليحكموا على الأرواح عند وصولها ويقودوا إلى اليمين هؤلاء الذين وجدوا صالحين إلى الجنة، حيث ساد جمال لانهاى، بينما اقتيد الطالحين إلى الشمال، أسفل شقوق الأرض إلى هوة خفية، حيث تعين عليهم أن يكفروا عشرة أضعاف عن خطاياهم. هؤلاء الذين كانوا شريرين لاسبيل إلى صلاحهم كان يمسكهم رجال غلاظ تجلوا في صورة النار، الذين غلوهم وعذبوهم. ولكن بقية هؤلاء الذين وضعوا في الهوة الخفية وكذلك هؤلاء الذين يحيون في السماء، تيسر لهم أن يحيوا حياة جديدة بعد انصرام ألف عام. وأكد البامفيلي الذي رأى كل هذا أنه قد وُجه ليخبر عنها ومن ثم فقد أعيد للحياة بمعجزة.

من ذا الذي لا يتذكر على الفور الجنة والجحيم بالمعنى المسيحي، والخراف عن اليمين والماعز على اليسار، والنار الأبدية المعدة في الجحيم (متى، الإصحاح الخامس والعشرون، ٣٣، ٤١) والموتى الذين سوف يبعثون مرة أخرى "حتى تنصرم الألف عام" (رؤيا "القديس يوحنا، ٢٠، ٥) إلى آخره؟ ومع ذلك فقد عاش أفلاطون في القرن الرابع قبل المسيح. وليس أقل مسيحية الانطباع الذي ولدته هذه الكلمات:

"الجسد عبء وعقوبة للروح ؛ إنه يقهر الروح ويبقيها أسيرة".

ليس مسيحياً من كتب هذه الكلمات، ولكن مدرس ومعلم نيرون، مضطهد المسيحيين الفيلسوف الرواقى سينيكيّا.

مشابه للغاية مقطع آخر:

“تختفى الروح بهذا الغشاء اللحمي، متقنعة، منفصلة عن ذاتها والحقيقة، وترمى في الأضاليل، إن صراع الروح بكامله هو مع اللحم الذي يقهرها. تجاهد الروح نازعة إلى هناك حيث تطلق، هناك يلزمها السلام الأبدي، حيث تحفظ ماهو نقي وصافي بعد المظاهر المشوشة والمعقدة لهذا العالم.”

نجد في مقطع آخر لسينيكاً أيضاً عدداً مذهباً من الصياغات اللغوية لجمل تتردد أيضاً في “العهد الجديد وهكذا يقول سينيكاً في إحدى المناسبات: “تلبسوا روح رجل عظيم”. يقارن برونوباور بصواب هذا التعبير بذلك الذي تتضمنه رسالة بولس إلى الرومانيين. “بل إلبسوا الرب يسوع المسيح” ١٤/١٣ الرسالة إلى الرومانيين. وفي الرسالة إلى الغلاطيين: “لأن كلكم الذين إعتدتم بالمسيح قد لبستم المسيح” (٢٧/٣).

قادت هذه المصادفات بعض الأشخاص إلى الاستنتاج بأن سينيكاً كان يستخدم مصادر مسيحية، وحتى أن سينيكاً كان مسيحياً، والأمر الأخير بمثابة نتاج للخيال المسيحي. في الواقع، كتب سينيكاً قبل أن تؤلف الأجزاء المختلفة من العهد الجديد، فإذا كانت هناك أية استعارة على الإطلاق، من ثم، فربما نفترض بالأحرى أن المسيحيين كانوا يحتذون الكتابات المنتشرة على نطاق واسع لفيلسوف عصرى في هذا الزمان. وكذلك من المعقول تماماً أن نفترض أنهم كانوا يستخدمون صياغات لغوية لجمل كانت رائجة في هذا الوقت، باستقلال كل منهم عن الآخر.

يشير بفليدرر خاصة فيما “يتعلق بتعبير لبس المسيح” إلى أنه مستعار من عبادة ميثرا MITHRA الفارسية التي كانت مفضلة للغاية في روما الإمبراطورية. وهو يخبرنا فيما يتعلق بتأثير هذه العبادة على المفاهيم المسيحية من بين أشياء أخرى مايلي:

“لقد تضمنت قرابين ميثرا المقدسة أيضاً وجبة مقدسة، خدم فيها الخبز المقدس وكأساً من الماء أو حتى النبيذ كرموز صوفية لتوزيع الحياة الأبدية على المؤمنين بميثرا. ظهر الأخيرون في مثل هذه الاحتفالات مرتدين أقنعة حيوانات مشيرين بهذه التمثلات لصفات إلههم ميثرا، لقد “تلبس” المحتفلون إلههم، الذي يعنى أنهم دخلوا في جماعة حياة معه. هذا أيضاً، مشابه للغاية لتعاليم بولس عن عشاء الرب باعتبارها “مشاركة”: في دم وجسد المسيح (كورنثوس أول، ١٠/٦) إن من عُمِد فقد “تلبس” (الغلاطيون ٢٧/٣).”

ليس سينيكاً الفيلسوف الوحيد في زمانه الذي ابتكر أو استخدم صياغات لغوية لجمل تبدو لنا مسيحية.

خاصة الأفكار التي نعالجها في هذه اللحظة، أي التي تتعلق بخلود الروح والحياة الأخرى، كانت تجد أتباعاً أكثر فأكثر في الوقت الذي نشأت فيه المسيحية. وهكذا فإن فيلون اليهودي السكندري، الذي عاش مبكراً في العصر المسيحي، ينهى كتابه الأول قصص الشريعة الرمزية بجملة: "قال هيراقليطس أيضاً، نحن نحيا موتهم (الآلهة) ومنتنا حياتهم، لأننا نحن نحيا، ماتت الروح ووضعت في صندوق الجسد كما في متراس، بينما تحيا الروح حياتها الخاصة بعد أن متنا، متحررة من الشر وجثة الحياة التي غُلت إليها".

بدأ يعتبر الاستعداد للحياة الأخرى أشد قيمة أكثر فأكثر من الصراع من أجل طيبات هذا العالم. أخذت مملكة الله مكان غنى هذا العالم. ولكن كيف نجد هذه المملكة؟ كان المواطن قد امتلك سابقاً ثلاث موجهات متميزة اعتمد عليها في سلوكه، اتخذت شكل التقاليد، والإرادة الشعبية، واحتياجات الجماعة. أصبحت هذه الآن غائبة. لقد تحلل التقليد إلى ظل خاو، لم يعد لدى الناس أى إرادة موحدة؛ أصبح المواطن الآن لامبالياً باحتياجات الجماعة. إذ كان الفرد معنياً فقط بنفسه، فقد كان الفرد عاجزاً أمام سيل الأفكار الجديدة والعلاقات الذي كان يغمر المجتمع، ويبحث عن مرساة ثابتة. عن مذاهب ومعلمين سوف يعلمونه الحقيقة وفلسفة صائبة عن الحياة دالين إياه على الطريق المستقيم إلى مملكة الله.

كما في كل الحالات التي تنشأ فيها حاجة جديدة، كان هناك أشخاص عديدين ينهضون لتلبية هذا المطلب. بدأ التبشير بالأخلاق الفردية، التي يمكن بواسطتها للفرد، دون أن يغير المجتمع أن يرفع نفسه خارج وفوق المجتمع ويصبح مواطناً جديراً بعالم أفضل.

في أى نشاط آخر يمكن للمواهب الخطابية والفلسفية أن تتخرط؟ توقف كل النشاط السياسي وقل من ثم الاهتمام بدراسة أسباب الأشياء، في العمل العلمي.

ماذا ترك لطموح الخطباء والفلاسفة، إضافة لإدارة إجراءات التقاضى لحيازة الملكية أو التبشير بمذهب احتقار الملكية، صائرين من ثم إما قضاة أو مبشرين؟ كلا هذين الحقلين على ذلك، باتا مكتظين بكثافة شديدة في الفترة الإمبراطورية، وكان الرومان في ذلك الوقت مفرطين في خطبهم التي تتعلق بتفاهة طيبات هذا العالم، وكذلك في المذكرات القانونية المبتكرة للدفاع عن هذه الطيبات. لقد أصبحت (الموضة) إلقاء خطب منورة وابتداع قواعد سلوك وحكايات مهذبة. ليست الأناجيل أيضاً شيئاً أكثر أو أقل من تصنيف لمثل هذه المجموعات من قواعد السلوك والحكايات.

ربما لانحكم بالطبع على هذا العصر ببلاغته ذات الصبغة الأخلاقية فحسب. ليس هناك شك في أن الأخلاقية الجديدة باحتقارها لهذا العالم أجابت على حاجات عقلية قوية معينة، والتي كانت قد نتجت بدورها عن ذات الشروط الاجتماعية الواقعية. ولكن في الواقع كان من المستحيل الهروب من العالم ؛ لقد أثبت العالم دائماً أنه الأقوى وهنا نشأ تناقض بين النظرية الأخلاقية، والممارسة الأخلاقية، الأمر الحتمي في أى مذهب أخلاقى بهذا الطابع.

سينيكا، الذى ذكرناه سلفاً عدة مرات، هو مثل كلاسيكى على هذا. حرر هذا الرواقى الفاجر نفسه من المشاعر الأخلاقية ضد الاشتغال بالسياسة، وعُنف بروتوس الذى انتهك، كما قال، المبادئ الأساسية للمذهب الرواقى باشتغاله بهذا النشاط. ولكن سينيكا نفسه الذى يوبخ الجمهورى بروتوس بسبب الإسهام فى الصراعات السياسية كان محرضاً على كل تصرفات أجريبيينا ونيرون الدموية ولعب دور القواد للأخير، بغرض وحيد هو أن يحتفظ بمنصبه كوكيل. أُرعد سينيكا هذا نفسه فى كتاباته ضد الثروة، والبخل، وحب الملذات، ولكن فى عام ٥٨ ب.م كان مضطراً لأن يسمع سويليوس يتهمة فى مجلس الشيوخ بأنه قد راكم ملايين بتزوير الوصايا وبالاشتغال بالربا. إستناداً إلى ديوكاسيوس، فإن انتفاضة البريتون فى ظل نيرون قد حدثت جزئياً بسبب حقيقة أن سينيكا قد “قدم لهم قرصاً قيمته عشرة مليون دينارى (2200000 DENARII جنيه إسترليني) بمعدل فائدة مرتفعة، “وفيما بعد حاول فجأة أن يقبض كل المبلغ بأكثر الطرق وحشية. مادح الفقر هذا خُلف وراءه ثروة تقدر “بثلاثمائة مليون سيسترسيس (١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني)، وهي واحدة من أعظم الثروات فى هذه الأزمنة.”

فى وجه هذا المثل الرائع عن الرياء الحقيقى، فإنه على الأغلب لبيان قاصر عن الحالة حين يتهكم الكاتب الساخر لوسيان، بعد ذلك بقرن فى مؤلفه هرموتيموس HERMOTIMUS، على فيلسوف رواقى ابتدعه يبشر باحتقار النقود والمتع، ويقدم تأكيداً بأن تعليمه يسفر عن إتزان نبيل عبر كل تقلبات الحياة، والذى يقاضى مع ذلك تلاميذه فى المحاكم إن لم يكونوا قادرين على أن يدفعوا له أجرة التعليم التى اتفق عليها، الذى يثمل فى المآدب ويصبح شديد الحمية فى الجدالات حتى أنه يلقي بكأس فضية كبيرة على رأس خصمه.

أصبح التبشير الأخلاقى هو الموضوعة فى العصر الإمبراطورى. ولكن لم يبحث الناس فقط عن التعاليم الأخلاقية التى يمكن أن تكون عوناً للنفوس الضعيفة التى لم تكن مستقلة، والتى فقدت خلفيتها مع أنشطتها العامة المشتركة، والتقاليد؛ وإنما استشعرت الحاجة أيضاً لعون شخص. نحن نقرأ بالفعل عند أبيقور: “يجب أن نبحث

لأنفسنا عن رجل نبيل وأن نجعله دائماً أمام عيوننا، نعيش وكأنه يراقبنا ونتصرف وكأنه شاهدنا". يقتبس سينيكا هذا المقطع ثم يواصل: "نحن نحتاج إلى وصى ومعلم. سوف يختفى عدد كبير من الخطايا إذا وجد شاهد بجانب الإنسان الخاطئ. يجب أن يكون للروح أحد توقرة باحترام يظهر أيضاً جوهرها الأعمق. إن مجرد فكرة هذا المساعد لها قوة مرشدة ومصوبة. "إنه الوصى، النموذج، والقاعدة، التى بدونها لا يستطيع المرء أن يصحح ما هو خاطئ".

وهكذا أصبح الناس معتادين على اختيار رجل عظيم متوفى باعتباره قديسهم الحامى. ولكن بعض الأشخاص ذهبوا بعيداً إلى حد إخضاع سلوكهم لسيطرة أشخاص مازالوا أحياء، أي لمبشرين أخلاقيين الذين تظاهروا بأنهم أرفع شأنًا، بسبب أخلاقيتهم العظيمة بالنسبة لبقية البشر. أعلنت الرواقية سلفاً بأن الفيلسوف متحرر من الخطأ والعيوب. بجانب التظاهر بالتقوى والنفاق، بدأت الآن تتطور عجرفة مرائية لمعلم الأخلاق – صفات لم تكن معروفة فى العصور القديمة الكلاسيكية، التى كانت حصاد فترة من الانحلال الاجتماعى، والتى أصبحت بالضرورة بارزة أكثر فأكثر، حيث استبدل علم الأخلاق بالعلم فى الفلسفة، بمعنى آخر، ان تقصى العالم قد حل محله صياغة مطالب على الفرد.

نشأ الآن مبشرون أخلاقيون لكل طبقة اجتماعية، مبشرون ادعوا أنهم قادرون على أن يرفعوا الإنسان لدرجة من الكمال الأخلاقى الأعظم من خلال مثال شخصياتهم المهيبة. كان الفلاسفة من مدرسة الكليبيين المعلمون الرئيسيون من هذا النوع للبروليتاريين، أخلاف الشهير ديوجين، الذى بشر فى الطرقات، وعاش على التسول، ووجد السعادة فى القذارة والاقتصاد فى الإنفاق، التى جعلت من غير الضرورى بالنسبة لهم أن يشتغلوا بأى عمل، الذى كرهوه واحتقروه باعتباره خطيئة فظيعة. يُمثل المسيح وحوارييه أحياناً كمبشرى طرق متسولين. ليس هناك مكان للعمل فى الأناجيل؛ ففى هذا تتفق جميعاً بالرغم من كل تناقضاتها.

ولكن لدى الأرستقراطيين أخلاقيتهم الشخصية الخاصة، الذى إنتمى أغلبهم للمدرسة الرواقية.

"احتفظ أغسطس، على طريقة العظماء منذ زمن السيكوبيين، بفيلسوفه الخاص قربه فى شخص آريوس، وهو رواقى من الإسكندرية، وأصبحت ليقيا أيضاً من أتباعه حتى تنال عزاءاً منه بعد موت ابنها دروسوس. أخذ أغسطس آريوس معه فى حاشيته حين دخل الإسكندرية بعد معركة أكتيوم، وقدمه إلى مواطنيه فى خطبته (وعد فيها أغسطس السكندريين بالعفو عنهم لأنهم ساندوا أنطونيوس) بوصفه أحد دوافع رأفته. خدم مرشدون روجيون مماثلون الاحتياجات الروحية للعظماء فى

قصور وبيوت أخرى. لأنهم كانوا سابقاً معلمى نظرية جديدة ماء، أصبحوا بالنسبة للرومانيين، بعد الحروب الأهلية، مرشدين روحيين عمليين، موجهين عقليين، معزين فى أحوال سوء الحظ، وكهنة اعتراف. سوف يرافقون ضحايا النزوة الإمبراطورية إلى حتفهم ويقدمون إليهم الخدمات الكهنوتية الأخيرة. كانوس يوليوس، الذى تلقى الحكم بإعدامه من الإمبراطور كاليجولا بتعبير من الإمتنان، والذى مات فى هدوء ورباطة جأش، كان يرافقه فى رحلته الأخيرة "فيلسوفه". أدخل تراسيا صهره هلف-؛-يديوس والكلبي ديمتريوس، والأخير عملياً كاهنه المنزلى إلى غرفته حيث قام بقطع شرايينه، وفى عذاب موته البطئ احتفظ بعينه مثبتتين عليه (برونوباور، CHRISTUS UND DIE CÄ;-SAREN ص ص ٢٢، ٢٣).

وهكذا، نجد حتى قبل نشأة المسيحية، أب الاعتراف يدخل إلى المشهد، وبسبب قوة الظروف الجديدة، وليس بسبب تعاليم أى شخص فرد تنشأ قوة تاريخية جديدة فى أقطار أوروبا، حكم كهنوتى. مما لا ريب فيه، كان هناك كهنة بين الإغريق والرومان لوقت طويل، ولكنهم كانوا ذوى شأن ضئيل للغاية فى الدولة. ليس حتى العصر الإمبراطورى إلى أن نبدأ فى أن نجد الأوضاع فى بلدان أوربا ناضجة للحكم الكهنوتى، الذى كان قد وجد قبلاً فى العصور القديمة البكرة فى بلدان عديدة فى الشرق. إننا نجد الآن حتى فى الغرب الشروط الأولية الضرورية لكهنوت، ل فئة كهنوتية كحكام على البشر، التى بدأت بالفعل من خلال التظاهر بالتقوى وغطرسة عديد من أعضائها فى تطوير السمات المميزة للكهانة، التى، تسببت فى كل العصور حتى اليوم، فى أن تكرهها العناصر النشيطة فى المجتمع التى ليست فى حاجة إلى وصاية.

لقد أعلن أفلاطون قبلاً أن الدولة لن تحكم بشكل صحيح حتى يسيطر عليها الفلاسفة ولا يبقى لدى المواطنين الباقين أى شيء يقولونه. إن حلمه قد تحقق الآن بطريقه لم تكن بالطبع، لتروقه. ولكن هؤلاء المبشرين الأخلاقيين وآباء الاعتراف لم يكونوا كافين بأية حال للجيل الذى أضعف وعاش آنذاك. كانت الدولة تتحرك بشكل لايقاوم نحو الدمار. وكان صوت طرُق البرابرة على أبواب الإمبراطورية أعلى فأعلى، التى كان يتمزق لحمها غالباً بسبب الخلافات الدموية لقاداتها. تلاحق تزايد فقر الجماهير، وتناقص السكان. كان المجتمع الرومانى قد حُمِل به وجهاً لوجه مع نهايته، ولكن هذا الجيل كان أيضاً فاسداً للغاية، ضعيفاً للغاية فى البدن والروح، غاية فى الجبن، غاية فى ضعف الشخصية، فى غاية التغاير تماماً مع ذاته وبيئته ليكون بمقدوره أن يقوم بمحاولة فعالة ليحرر نفسه من هذه الأوضاع غير المحتملة.

لقد فقد الإيمان بنفسه، والسند الوحيد الذى حفظه من اليأس الكامل كان امل المساعدة من بعض القوى الأعلى، من مخلص ما.

لقد اعتبروا القياصرة أولاً هذا المخلص. كانت هناك فى أيام أغسطس نبوءة متداولة من الكتب السيبلية، تعد بمخلص فى المستقبل القريب اعتبر أغسطس كأمرير للسلام قائد الإمبراطورية غير المنظمة بعد الحرب قائدها، نحو حقبة جديدة من الرخاء والإزدهار، وب"السلام على الأرض للبشر نوى النية الطيبة".

ولكن لم يأت القياصرة لا بالسلام الدائم ولا بالتقدم الاقتصادى أو الأخلاقى، بالرغم من كل الثقة التى وضعت فى قوتهم الإلهية، مع ذلك كانت هذه الثقة عظيمة بالفعل.

لقد وضعوا بالفعل فى مصاف الآلهة، قبل أن ينشأ مذهب تحول الإله إلى إنسان، كانت فكرة تحول الإنسان إلى إله قد قبلت، بالرغم من الصعوبة الأكثر بوضوح لهذا المنحى الأخير. حيث قضى على كل الحياة السياسية، فإن سيد الدولة يرتفع بغاية الجلالة فوق كتلة السكان حتى أنه يجب بالفعل أن يبهرهم باعتباره الأسمى، مادام يبدو فقط وكأنه يوحد فى نفسه كل قوة وسلطة المجتمع ويوجهها وفق إرادته. من ناحية أخرى، كان الآلهة متصورين بطريقة غاية فى البشرية فى العصور القديمة. لم يكن الانتقال من إنسان أعلى إلى إله، من ثم أمراً غاية فى الصعوبة.

بدأ الأغارقة المتفسخين من آسيا ومصر قبل عدة قرون من عصرنا فى أن يعتبروا مستبديهم كآلهة أو من نسل الآلهة؛ لقد وقروا حتى فلاسفتهم باعتبارهم كذلك. كانت قد ظهرت فى حياة أفلاطون بالفعل الخرافة التى ذكرت فى خطبة الجنازة التى ألقاها ابن أخيه سبسيوس، بأن أمه بيريكوتين قد حملت به من أبولو وليس من زوجها. حين أصبحت الممالك الهيلينية ولايات لروما، حولوا عبادتهم الإلهية من ملوكهم وفلاسفتهم إلى حكامهم الرومان.

ولكن كان يوليوس قيصر أول رجل جرؤ أن يطلب من الرومان ماقدمه الإغريق الجبناء له: أن يعبد كإله. لقد تبجح بأصله الإلهى؛ ولم تكن جدته الأعلى شخصاً أقل من الإلهة فينوس، كما أوضح فرجيل، شاعر قصر أغسطس ابن أخ قيصر، فيما بعد بالتفصيل فى ملحمة الطويلة الإنيايد.

حين عاد قيصر إلى روما من الحرب، كمنتصر ظافر، فقد اتخذ قراراً فى روما "بإقامة عدد من المعابد له مثله كالاله، مشتملاً على واحد مكرس له ولإلهه الرحمة، الذى مثل فيه وهو يقبض على يد هذه الإلهة" جرت بهذه الحيلة البارعة محاولة مناشدة رحمة المنتصر. بعد " "موته فإن "يوليوس الإلهى" كان قد أدخل شكلياً بقرار من الشعب ومجلس شيوخ روما إلى كوكبة الآلهة الرومانية. وقد تم هذا، كما

يقول سويتونيوس، "ليس اصطناعاً فقط، استناداً إلى قرار، وإنما بسبب القناعة الداخلية للشعب".

لأن المُذنب لم يظهر خلال الألعاب التي أعدها خَلَفَه أغسطس للشعب الأول بعد يوليوس الذي أصبح إلهاً لسبعة أيام متتالية، إلى أن ظهر حوالى الساعة الحادية عشر (بين الساعة الخامسة والسادسة بعد الظهر) ؟ فقد اعتقدوا أن هذه كانت روح قيصر التي صعدت نحو السماء. ومن ثم فما زال يصور ونجمه فوق رأسه". (الفصل ٨٩). ألا يذكر هذا بالنجمة التي أبانت الوهية المسيح الطفل لحكام الشرق ؟

لقد اعتبر بديهيًا منذ زمن أغسطس أن لكل إمبراطور أن ينعم بالألوهية بعد مماته. وقد أعطى في القسم الشرقي من الإمبراطورية الاسم الإغريقي SOTER، يعنى المخلص.

ولكن هذه التطويبات (المؤلهة) لم تكن قاصرة على الأباطرة الراحلين، ولكنها منحت أيضاً لمعارفهم والأثيرين لديهم. وقع هادريان "في حب شاب إغريقي وسيم، أنطينوس، الذى "أصبح بكل الطرق الأثير عند الإمبراطور"، وكما يعبر هيرتزبرج عن ذلك بلطف فى مؤلفه GESCHICHTE DES RÖ-;-MISCHEN KAISERREICHS (ص ٣٦٩).

بعد أن غرق عشيقه فى النيل، وضعه هادريان على الفور، فى مصاف الآلهة، مكافأة على خدماته البارعة، وبنى مدينة فخمة لاتبعد عن موقع الحادث، أسماها أنطينوبوليس، وفى هذه المدينة معبد عظيم لقيده الفريد. انتشرت عبادة هذا الشاب بسرعة عبر الإمبراطورية ؛ فى أثينا كانت تعد الألعاب المهرجانية والقرايين على شرفه. ولكن يروى سويتونيوس فيما يتعلق بأغسطس: "بالرغم من أنه عرف أن المعابد كانت "تخصص حتى لنواب القناصل PROCONSULL (الحكام) فهو لم يقبل بالرغم من ذلك هذا الشرف فى أية ولاية "إذا لم يكن المعبد مخصصاً له ولروما معاً. ورفض دائماً داخل روما على نحو مشدد هذا الشرف". (الفصل ٥٢)

ولكن أغسطس كان متواضعاً مقارنة بغيره. الإمبراطور الثالث من السلالة الجوليانية، جايوس، الملقب كاليجولا (الحذاء الصغير) جعل نفسه يُعبد فى روما حينما كان حياً، ليس فقط كشبه إله، وإنما كإله كامل، وقد شعر بنفسه أنه كذلك. قال ذات مرة "حتى مثل هؤلاء، ان من ينبغى أن يرعى الخراف والخنازير، ليسوا "خرافا ولاخنازيرا ولكنهم ذوى طبيعة أسمى، هكذا أيضاً هؤلاء الذين وضعوا كحكام فوق البشر ليسوا بشراً "كالآخرين، وإنما آلهة". وفى الحقيقة فإن الطبيعة

الخروفية للبشر هي التى تنتج ألوهية حكامهم. تطورت هذه الصفة شبه الخروفية بشكل غاية فى القوة فى الفترة الإمبراطورية ومن ثم كانت العبادة الإلهية للأباطرة والأثريين لديهم تؤخذ بجدية مثلها فى ذلك مثلما يأخذ بعض الأشخاص اليوم هدية قطعة من شريط لثقوب أزرارهم، ناسبين تأثيرات عجائبية لمثل هذه الهدية. تضمنت هذه العبادة الإلهية بالطبع قدراً لابأس به من الخنوع؛ فى هذا الصدد لم يجر التفوق على العصر الإمبراطورى حتى هذا اليوم، وهذا يعنى شيئاً كبيراً. ولكن بالإضافة للخنوع، لعبت السذاجة أيضاً دوراً كبيراً.

ب - السذاجة

لقد كانت السذاجة أيضاً حصداً للظروف الجديدة. اضطر الإنسان، منذ بداياته الأولى، إلى أن يلاحظ الطبيعة عن قرب، وأن يتفادى أن تخدعه أى من ظواهرها وأن يرصد بوضوح عدداً من علاقات السبب والنتيجة. إن كل وجوده يعتمد على هذه القدرة؛ وحين لاينجح، غالباً مايؤدى هذا إلى دماره.

إن كامل سلوك الإنسان مؤسس على التجربة وهى أن أسباباً معينة محددة تعقبها نتائج معينة محدده، وأن الحجر الذى يلقى عليه إنسان سوف يقتل الطائر حين يرتطم به، وأن لحم هذا الطائر سوف يشبع جوعه، وأن قطعتان من الخشب تحكان ببعضهما سوف تنتجان ناراً، وأن النار تعطى الدفء، بينما يُستهلك الخشب أيضاً.

سوف يحكم الإنسان على أحداث طبيعية أخرى على أساس سلوكه الخاص كما تحدد بمثل هذه التجارب، حيث أن هذه الأحداث غير شخصية بهذا القدر أو ذاك فهو يرى فيها نتائج أعمال شخصيات مفردة، منحت قوى مافوق بشرية، الآلهة. الأخيرون ليسوا فى البداية صانعى معجزات، بل منتجين لمجرى الأحداث العادى الطبيعى، لهبوب الرياح، لاصطخاب البحر، القوى المدمرة للبرق، وايضاً لأفكار البشر، الحكيمة وكذلك الغيبة. ومن المعروف جيداً ان الآلهة تجعل من سوف تدمرهم عمياناً. يستمر إحداث هذه النتائج فى استمرار الوظيفة الرئيسية للآلهة فى الديانة الطبيعية البدائية.

إن سحر هذه الديانة هو فى طبيعيتها، فى ملاحظتها الحادة للأشخاص والأشياء، التى تجعل حتى هذا اليوم القصائد الهوميرية، على سبيل المثال، أعمالاً للفن لم تبرز.

هذه الملاحظة الحادة والتقصى الدائم عن مبعث، عن أسباب الأشياء فى العالم الخارجى، أصبحت أكثر رهافة مع تطور المدن وتلك الفلسفة الطبيعية فى المدن، كما رأينا. أصبح الملاحظون الحضريين قادرين الآن على اكتشاف ظواهر غير شخصية فى الطبيعة، غاية فى البساطة حقاً، ولكن بمثل هذا الانتظام الصارم حتى

باتت سهلة الإدراك كعلاقات ضرورية، مع تجاوز عالم النزوة المرتبط بمفهوم الآلهة الشخصية. لقد كانت حركة النجوم بصفة خاصة هي التي دعت لنشوء مفهوم القانون والضرورة في الطبيعة. يبدأ العلم الطبيعي مع علم الفلك. طبقت هذه الأفكار آنئذ على بقية الطبيعة ؛ يبدأ في كل مكان بحث عن العلاقات الضرورية للقانون. إن التكرار المنتظم لتجربة معينة هو أساس هذا النشاط العقلي.

ولكن هذا الظرف يتغير، حينما ينتكس، استجابة للأسباب التي أشير إليها سلفاً، الاهتمام بالبحث العلمي في الطبيعة ويحل محله الاهتمام الأخلاقي. لم تعد الروح الإنسانية مشغولة بمثل تلك الحركات البسيطة كمجرات النجوم، على سبيل المثال، التي تقدم نقطة انطلاق سهلة، إنها معنية بشكل حصري بذاتها، بأكثر الظواهر تعقيداً، بأكثرها تغيراً، أكثرها استعصاء على الإمساك، ظاهرة تستعصى على الدراسة العلمية أطول من غيرها. أضف إلى ذلك، لم تعد الأخلاق تتضمن معرفة بما هو كائن وبما كان، بما هو حاضر في التجربة، وعادة في تجربة متكررة بانتظام ؛ تنشغل الأخلاق نفسها بالخطط والالتزامات في المستقبل، ومع ذلك فهي خارج التجربة كلية، متضمنة من ثم مجالاً من الإرادة الحرة المطلقة التي تقع أمامنا. في هذا المجال الرغبة والحلم لهما اللعب الأكثر حرية، ربما يمرح الخيال ذاته مطلق العنان ويقف فوق كل حواجز التجربة والنقد. يلاحظ ليكي بصواب في مؤلفه تاريخ الروح العقلانية: "أن فلسفة أفلاطون، بواسطة تعظيمها لحد كبير مجال الروحي، فعلت الكثير لتعزيز العقيدة ؛ وإننا نجد، سواء قبل أو بعد العصر المسيحي، أنه حيثما كان نجم الفلسفة أخذاً في الصعود رافقها ميل إلى السحر".

بالمثل، تحرم الحياة في المدن الكبيرة سكانها، العنصر العقلي المهيمن الآن بين كل السكان، من الاتصال المباشر بالطبيعة، تحررهم من كل من ضرورة وإمكانية ملاحظة وفهم الطبيعة. بدأ تذبذب مفهوم ماهو طبيعي وماهو ممكن، يفقد السكان معيارهم لصالح لامعقولية المستحيل، غير الطبيعي، مافوق الطبيعي.

كلما زاد شعور الفرد بعجزه، كلما بحث بجبن أكثر عن دعم حازم من أحد الشخصيات ظاهرة التفوق عن المتوسط العادي، وكلما أصبح الوضع مؤسماً أكثر كلما كان هناك احتياج أكثر لمعجزة لإنقاذه، كلما كان الأكثر رجحاناً أنه سيعزو للشخص الذي ربط نفسه به، كمنقذ، كمخلص، القيام بالمعجزات. في الواقع فإنه سوف يطلب هذه المعجزات كاختبار للبرهنة على أن مخلصه يملك بالفعل القدرة على إنقاذه. ربما يلعب تذكر الخرافات الإلهية من فترة أبكر دوراً أيضاً، فكثير منها جسّد دوافع مستعارة من مثل هذه الخرافات في الأساطير الجديدة. ولكن الأخيرة مختلفة تماماً عن الأولى. لقد نسبت القوى مافوق الإنسانية للآلهة القديمة حتى تقدم

تفسيراً للأحداث الفعلية التي كانت قد لوحظت بدقة وصواب. نسبت الآن القوى مافوق الإنسانية إلى البشر، حتى تجعلهم قادرين على أن ينتجوا آثاراً لم يلاحظها أحد حتى الآن، والتي كانت مستحيلة كلياً. ربما تكون مثل هذه الظواهر العجيبة قد تطورت من قبل خيال شديد الفعالية من الخرافات القديمة عن الآلهة، حتى في أشد الأزمنة قدماً ؛ ولكن الخرافات القديمة ليست مؤسسة على مثل هذه الأحداث العجائبية. تتضمن المعجزة نقطة انطلاق الأشكال الجديدة للأسطورة.

واحدة من أكثر النقاط التي توافقت فيها الخرافات القديمة والتالية كانت ميلاد البطل من إله. أحب البشر في الأزمنة البكرة أن يرفعوا من فخامة أسلافهم، أن يمثلوا الإنسان الذي أخذ جنسهم أصله منه (ليظهره في منتهى الفخامة) باعتباره إنساناً أعلى، نصف إله. وفقاً لنمط التفكير الذي كان رائجاً عندئذ، الذي بحث عن إله خلف كل الأشياء، كان يمكن بالطبع الحصول على القدرة الضرورية من إله. مادام هؤلاء الآلهة، بالرغم من كل صفاتهم مافوق الإنسانية، كانوا يُتصورون بطريقة غاية في الإنسانية، بعواطف غاية في الإنسانية، فقد كان من الطبيعي أن يُفترض أن أم البطل السلفية قد أثارت عاطفة رقيقة في إله، كانت ثمرته هذا البطل الشجاع.

وبالمثل، تتضمن الخرافات التالية أيضاً مخلصين للعالم من أمهات فانيات، ولكن من آباء إلهيين. وهكذا، يروى لنا سوتينيوس:

“قرأت في كتاب أسكليبيادس المندسى فيما يتعلق بالآلهة، أن أتيا، أم أغسطس، قد ذهبت مرة في منتصف الليل إلى قداس ديني على شرف الإله أبولو، وقد غفت في محفتها حينما كانت تنتظر النسوة الأخريات، فجأة لحقها ثعبان في المضجع، ثم سرعان ما تركها بعد ذلك، حين استيقظت خالجهما نفس الشعور الذي يراودها حين يباشرها زوجها ومن ثم طهرت نفسها، وظهرت مباشرة بقعة على جسدها، على شكل ثعبان، كان متعذراً إزالتها، ودعتها من ذلك الحين فصاعداً ألا تظهر في الحمامات العامة. ولد أغسطس في الشهر العاشر التالي، حيث إعتبر ابناً لأبولو.” (أوكتافيوس، الفصل XCIV)

بدأت علاقة غرامية مع إله في هذا الوقت للسيدات الرومانيات ليست ممكنة فحسب، وإنما أيضاً (أمراً) متميزاً تماماً. يروى يوسيفوس قصه جميلة في هذا الصدد. عاشت في روما سيدة اسمها باولينا في زمن طيباريوس، وكان جمالها عظيماً كطهارتها. وقع في حبها على نحو قاتل فارس ثرى: ديسيوس مندوس وقدم لها مائتي ألف دراهمة مقابل ليلة واحدة، ولكنها رفضت. ولكن أمة معتقة استطاعت مساعدته، فقد علمت أن باولينا الجميلة كانت عابدة متعصبة للإلهة إيزيس، وإستناداً على ذلك وضعت خطتها. لقد رشت كهنة هذه الإلهة بأن “دفعت لهم أربعين ألف

دراخمة لتجعلهم يخبرون باولينا أن الإله أنوبيس قد رغب فيها. "كانت هذه "السيدة مسرورة بل وتباهت أمام صديقاتها بالشرف الذى منحه أنوبيس إياها. أخبرت زوجها أيضاً بأن أنوبيس قد دعاها لأن تتعشى معه وتعاشره. وافق الزوج بسرور، عالماً بفضيلة زوجته. وعلى ذلك، ذهبت إلى المعبد، وبعد أن تعشت معه، حان وقت النوم، أطفأ الكاهن كل الأنوار وأغلق الباب. مندوس، الذى كان قد اختفى قبلاً فى المعبد، لحق بها الآن ولم ينتظر دعوة. لقد كان له ماشاء معها طوال الليل، لأنها ظنت أنه إله. بعد أن أشبع شهوته، غادر فى الصباح، قبل أن يدخل الكهنة المعبد، وعادت باولينا إلى زوجها، وأخبرته أن الإله أنوبيس كان معها وكذلك تباهت بذلك أمام صديقاتها".

ولكن الفارس النبيل ديسيوس مندوس ذهب بوقاحته إلى حد توبيخ محبوبته بعدها بعدة أيام، حين قابلها فى الطريق، لأنها سلمت له نفسها مقابل لاشيء، السيدة الورعة التى تحررت الآن من الوهم كانت ساخطة بالطبع لأقصى حد، اتجهت مباشرة إلى طيباريوس ونجحت فى إقناعه بصلب كهنة إيزيس وتدمير معبدهم، واختفى مندوس.

تعتبر هذه القصة القصيرة الأكثر تسلية بسبب حقيقة أنها تلى مباشرة المقطع الذى ذكرناه فى البداية، الذى أشيد فيه بحماس بمدائح المسيح العجائبي. لم يُخفق تجاور هذين المقطعين فى جذب انتباه المعلقين الورعين منذ وقت مبكر؛ فقد رأوا رابطة بين المسيح ومغامرة السيدة باولينا، مستشعرين فيها قذفاً مقنعاً من اليهودى الخبيث يوسيفوس فى عذرية مريم وسذاجة خطيبها يوسف، قذفاً سيتوافق بصعوبة بالطبع مع الاعتراف بمعجزات المسيح التى حواها المقطع التالى مباشرة. ولكن حيث ان يوسيفوس لايعرف بالفعل شيئاً عن هذه المعجزات، وحيث أن المقطع الذى يتعلق بها هو إدراج مسيحي متأخر، كما يعرف القارئ الآن، فإن هذا التعريض بالعذراء المقدسة وخطيبها الخاضع بإذعان غير مقصود كلياً. إنه يبرهن فقط على غباء أحد المزيفين المسيحيين، الذى اختار تحديداً هذا الموضع باعتباره قرين الجزء الأكثر مناسبة لشهادته فيما يتعلق بابن الرب.

أن تكون ابن الرب كان جزءاً من شئون المخلص سواء كان قيصر أو واعظاً متجولاً. ولكن لم يكن أيضاً أقل ضرورة للقيام بالمعجزات، التى كانت فى كلتا الحالتين قد اخترعت نفس الخطوط.

حتى تاسيت، الذى لم يكن ميالاً إلى المبالغة على الإطلاق، يروى (تواريخ، المجلد الرابع، الفصل ٨١) فيما يتعلق بف-؛-سباسيان، أن الأخير قد صنع كثيراً من المعجزات فى الإسكندرية، مبرهنناً على قصد السماء الطيب نحو الإمبراطور.

وهكذا فقد بلل عيني رجل أعمى باللعب فجعله يرى. وبالمثل، فقد خطا على يد مفلوجة لآخر وهكذا شفاها.

تحولت القدرة على القيام بمثل هذه المعجزات فيما بعد من الأباطرة الوثنيين إلى الملوك المسيحيين. إمتلك ملوك فرنسا الهبة المتميزة بكونهم قادرين على شفاء داء الملك (SCROFULA) وتضخم الغدة الدرقية في حفلة تتويجهم بلمسه فحسب. أنجزت هذه المعجزة كما ينبغي متأخراً في ١٨٢٥، في حفل تتويج شارل العاشر، آخر (سلالة) البوربون الذي يحتل العرش الفرنسي.

روي عن قدرة على الشفاء مماثلة قام بها يسوع بالطبع أكثر من مرة. يفترض الورع مريث-؛-ال أن معجزة ث-؛-سباسيان قد انجزت وفق النموذج المسيحي - وجهة نظر لا تبدو جديرة بالتصديق حين نأخذ في الاعتبار كيف كانت المسيحية غير معروفة ولا أهمية لها، في زمن ث-؛-سباسيان. يعلن برونو باور من ناحية أخرى، في "كتابه المسيح والقياصرة: "سوف أسعد اللاهوتيين المثقفين في العصر الحاضر، بتأكيدى أن المؤلف التالي "للإنجيل الرابع، والتالي أيضاً، محرر الإنجيل الأولى الذي تضمنته طبعة القديس مرقس، إستعاراً استعمال اللعاب في العلاجات العجائبية للمسيح من مؤلف تاسيت هذا". (يوحنا، ٩، ٦ ؛ مرقس ٧، ٣٣ ؛ ٨، ٣٣)

ولكن ليس من الضروري في رأينا أن نفترض حتى الاستعارة. كل حقبة تعتقد في المعجزات لها أيضاً أفكارها النوعية عن كيفية إنتاجها. افترضوا في العصور الوسطى المتأخرة بصفة عامة أن ميثاقاً مع الشيطان كان ينبغي أن يوقع بدم دافئ؛ وربما يستخدم كاتبين هذه المعالجة بنفس الطريقة في قصصهما، بدون أن يكون الواحد بالضرورة قد استعارها من الآخر، بالمثل، في أيام ث-؛-سباسيان، وفيما بعد، ربما كان اللعاب قد إعتبر مادة ملائمة للاستعمال في العلاجات العجائبية، إنتهاءً إلى انه كان طبيعياً ليس فقط للراوى الرزين عن المخلص الدنيوى على عرش القياصرة أن ينسب الشفاء بهذه الطريقة للشخص حتى يمجد، وإنما أيضاً للرواى الأكثر شطحاً عن المخلص على عرش المملكة الألفية ؛ ولايحتاج أى مؤلف لأن يستعير من الآخر. بالتأكيد، لم يخترع تاسيت هذا العلاج، ولكنه وجد الخرافة في التداول العام.

لم يكن القياصرة فقط هم من قاموا بالمعجزات عندئذ، ولكن أيضاً كثرة عظيمة من معاصريهم.

كانت حكايات المعجزات شديدة الشيوع آنذ حتى أنها كفت عن أن تلقى أى انتباه. لايعرض حتى رواة الأناجيل معجزات وآيات يسوع باعتبارها تنتج الانطباع العميق الذى يجب، بموقفنا الحديث، أن نتوقع أن تنتج. حتى بعد الإطعام العجائبي للخمسة آلاف، يبقى أتباع المسيح ميالين إلى الشك. أضف إلى ذلك، ليس فقط يسوع ولكن أيضاً الرسل والأتباع، قاموا بمعجزات كثيرة. كان الناس فى الواقع شديدي السذاجة، حتى أنه لم يخطر أبداً للمسيحيين أن تراودهم الشكوك بالنسبة للمعجزات المتأتية عن أشخاص اعتبروهم محتالين. لقد هربوا من هذه الصعوبة بواسطة الحيلة البسيطة بعزو مثل هذه المعجزات لقوة الشيطان والأرواح الشريرة.

لقد نبتت المعجزات كالفطر، أثمرها كل مؤسس لطائفة دينية أو مدرسة فلسفية باعتبارها خطاب توصيته. لدينا، على سبيل المثال، نموذج الفيثاغورثيين الجدد، أبولونيوس من تيانا، وهو معاصر لنيرون.

بالطبع حتى مولده كان عجائبياً. حين كانت أمه حبلى فإن الإله بروتئوس، الإله الحكيم غير المفهوم من أحد، ظهر لها، ولكنها سألته بلاخوف أى طفل ينبغى عليها أن تحمل. وقد أجابها: "أنا". ترعرع "أبولونيوس الفتى، أعجوبة الحكمة، مبشراً بحياة أخلاقية طاهرة، يوزع ثروته على أصدقاءه وأقاربه الفقراء، ويسافر حول العالم كفيلسوف متسول، ولكنه أكثر تأثيراً بمعجزاته منه بتقثيره وأخلاقه. والمعجزات لها شبه يلفت النظر مع تلك الخاصة بالمسيح ؛ وهكذا فقد أورد لنا مثلاً من زمن إقامته فى روما:

"ماتت عذراء فى يوم زفافها، أو على الأقل فقد اعتبرت متوفاة. تبع العريس نعشها، نائحاً، وناحت روما معه، لأن الفتاة كانت من عائلة غاية الأرستقراطية. الآن حين قابل أبولونيوس الموكب قال: "ضعوا النعش، سوف أكفكف دموعكم على هذه الفتاة؛ حين سأل عن اسمها اعتقد الجمع أنه نوى أن يلقى واحدة من الخطب الجنائزية المعتادة، ولكنه لمس الفتاة الميتة، وتمتم ببضع كلمات غير مفهومة وأيقظها من غشيتها. ولكنها رفعت صوتها وعادت إلى منزل أبيها".

وفقاً للحكاية الخرافية فإن أبولونيوس يعارض بشجاعة الطاغيتين نيرون ودوميتيان، فيسجنانه، وينجح فى تحرير نفسه من أغلاله دون صعوبة، ولكنه لايفر، منتظراً محاكمته، فى السجن؛ ويلقى فى المحكمة خطبة مطولة فى دفاعة عن نفسه، وعندئذ، قبل أن ينطق بالحكم، يختفى بغموض من قاعة المحكمة فى روما، وفجأة يعلن ظهوره بعد بضع ساعات تاليه فى ديكارخيا، بالقرب من نابولى، حيث عززته الآلهة بسرعة قطار سريع.

يمتلك أبولونيوس بدرجة عالية هبة التنبؤ الذى كان أمراً لازماً لمهام المخلص، وكذلك القدرة على رؤية الأشياء التى تجرى فى أجزاء أخرى من العالم. حين قتل دوميتيان فى قصره بروما، شاهد أبولونيوس وهو فى أفسس الفعل بوضوح كما لو كان فى ذات الموضع مطلعاً الإفسوسيين عليه مباشرة. هذا عمل فذ لإبراق لاسلكى، وماركونى هاو رخيص مقارنة به. وقد انتهى بالاختفاء فى معبد فتحت أبوابه لاستقباله، وأغلقت خلفه "سمعوا من الداخل اغانى العذارى التى بدت وكأنها تدعوه لأن يصعد نحو السماء، بالكلمات: "أخرج من ظلمة الأرض، وأدخل فى نور السماء، تعال".

لم يوجد أبداً جسد أبولونيوس. لقد أصبح من ثم جلياً أن هذا المخلص أيضاً قد صعد إلى السماء.

نشأت منافسة حادة بين المعجزات التى آمن بها أتباع المسيحية وتلك التى قام بها أبولونيوس. فى ظل ديوكليان، كتب أحد الحكام المتأخرين، واسمه هيروكليس، كتاباً ضد المسيحيين، أشار فيه إلى أن معجزات المسيح ليست شيئاً حين تقارن (بمعجزات) أبولونيوس بالإضافة إلى أنهما ليسا ذوى قوة متساوية فى الشهادة عليهما. إيوسيبس من قيصرية كتب رداً على هذا الكتاب، لم يعبر فيه عن أقل شك فى واقعية معجزات أبولونيوس، ولكن حاول أن يقلل من شأنها فحسب بوصفها ليست أعمالاً إلهية، وإنما أعمال سحر، عمل أرواح الظلام.

بمعنى آخر، حتى حين أصبح ضرورياً معارضة المعجزات، لم يفكر أحد فى الشك فيها. وقد نشأت هذه السذاجة مع التفسخ المتزايد للمجتمع، مع التدهور فى روح البحث العلمى والانتشار الوافر للتبشير الأخلاقى. ورافق تزايد السذاجة حب متزايد للمعجزات. تكف الأحاسيس عن إنتاج أثر حين تتكرر مراراً. يجب أن يستعمل مثير أقوى فأقوى من أجل خلق تأثير. رأينا فى فصلنا الأول كيف تنطبق هذه القاعدة على الأناجيل، حتى أنه يمكننا تعقبها تحديداً فى نموذج الإقامة من بين الأموات، وهى أبسط فى الأناجيل الأقدم منها فى (الأناجيل) التالية. إن أحدث إنجيل، أي إنجيل القديس يوحنا، يضيف إلى المعجزات الأقدم التى رويت من الأناجيل الأبرك، الإنتاج العجائبي للخمر فى عرس قانا، ويذهب يوحنا بعيداً إلى حد القول بأن رجلاً مريضاً شفاه يسوع قد كان مريضاً لمدة ثمانية وثلاثون عاماً، بينما رجل أعمى كان قد ولد كذلك جعله بصيراً، بمعنى آخر، يجعلون المعجزات خارقة أكثر عند كل مرحلة.

نقرأ فى الكتاب الثانى لموسى، ١٧، ١-٦، قصه أن موسى أخرج الماء من صخرة فى الصحراء حتى يروى الإسرائيليين العطشى. لم تكن هذه بالمعجزة الكافية فى

الفترة المسيحية حيث نعلم من الرسالة الأولى للرسول بولس إلى الكورنثيين (١٠، ٤) أن الصخرة التي استقى منها اليهود قد سافرت في الصحراء معهم حتى لا ينقصهم الماء أبداً - صخرة متدفقة رحالة.

هذه المعجزات التي تظهر فيما يسمى "أعمال الرسول بولس" فجأة بصفة خاصة في مباراة المعجزات التي جرت مع الساحر سيمون، حيث يستعيد الرسول الحياة لسمة رنجة مملحة.

من ناحية أخرى، اعتُبرت أحداث طبيعية تماماً معجزات في عيون أناس هذه الأيام، وأدلة على التدخل التحكيمي للرب في مجرى الطبيعة، ليس فقط الشفاء والموت، الانتصارات والهزائم، ولكن التسلية اليومية مثل المراهانات. "كانت تنبأ في سباق خيول في غرة خيول مسيحي ورع، ووثني تقى" هزم المسيح مارناس" وأدى ذلك بالوثنيين أن يتعمدوا".

ولكن الحدث الطبيعي الذي فسر كمعجزة لم يكن موضع تفسير واحد فقط.

"خلال الحرب ضد الكادي (4-173) (QUADI) في حكم ماركوس أوريليوس، وجد الجيش الروماني، الذي أنهك بسبب حرارة الشمس المحرقة، نفسه محاطاً بقوة أعتى، هددته بالإبادة، عندئذ تجمعت فجأة سحب كثيفة معاً، وسقط المطر مدراراً، وسببت عاصفة مخرقة دماراً واضطراباً في صفوف العدو؛ أنقذ الرومان وأحرزوا النصر. لقد كان أثر هذا الحدث غامراً: وفقاً لعادة هذا الزمن فقد تم تخليده بتمثيل تصويري، واعتبر بصفة عامة معجزة، استمرت ذكره حتى آخر أيام العصور القديمة، ولقرون تالية كان يستشهد به المسيحيين والوثنيين كدليل على حقيقة إيمانهم الخاص. يبدو أن الخلاص العجائبي للجيش قد عُزى بصفة عامة لصلوات الإمبراطور إلى جوبيتر؛ وأكد آخرون، على أية حال، أنه كان راجعاً بالفعل إلى فن ساحر مصري يدعى أرنوبيس، عضو في حاشيته وقد أسقط المطر من السماء بدعائه للآلهة خاصة الإله هرمس. ولكن وفقاً لتقويم مسيحي معاصر، فإن المعجزة صنعتها صلوات الجنود المسيحيين من اللواء الثاني عشر (MELITENIAN). يشير ترتليان أيضاً (١٩٧) "إلى الطبعة المسيحية كما هو معروف، ويلجأ لخطاب ماركوس أوريليوس دعماً له".

اتخذ الاشتياق للمعجزات، والسذاجة العامة درجات أعظم فأعظم، حتى مارس الرهبان أخيراً في فترة الانحطاط الأعظم في القرنين الرابع والخامس، معجزات حين تقارن (بمعجزات) يسوع كما روى عنها الإنجيل، تبدو غير مؤثرة لأبعد حد.

“كان جيلاً مؤمناً يقتنع بسهولة بأن أقل نزوة لراهب مصرى أو سورى كانت كافية لأن تُعوق قوانين الكون. لقد اعتاد المُفضّلين من السماء أن يشفوا الأمراض المتأصلة بلمسة، بكلمة، أو برسالة من بعيد؛ وأن يطردوا أشد الشياطين عناداً من النفوس أو الأجسام، التى مسوها. لقد خاطبوا بالمثل بغير كلفه وأمروا بغطرسة، أسود وأفاعى الصحراء، نفخ الحياة النباتية فى جذع جاف، إيقاف الحديد على سطح الماء ؛ تمرير النيل على ظهر تمساح، وأنعشوا أنفسهم فى أتون نارى”.

صور شلوسر تشخيصاً ممتازاً للموقف العقلى لأفلوطين الفيلسوف الأفلاطونى الجديد الأكثر شهرة فى القرن الثالث من عصرنا، فى الوقت الذى ظهرت فيه المسيحية، فى مؤلفه تاريخ العالم.

“كان أفلوطين الذى ولد عام ٢٠٥ فى ليكوبوليس بمصر، والذى توفى عام ٢٧٠ فى كامبانيا تلميذاً مجتهداً لأمونيوس، لمدة إحدى عشر عاماً، ولكنه استغرق بعمق شديد فى التفكير حول موضوع الطبيعة الإلهية والبشرية، ولأنه، لم يكن راضياً عن التعاليم الصوفية المصرية – الإغريقية لأسلافه ومعلمه، فقد توجه أيضاً للحكمة الفارسية والهندية، وارتبط بجيش جورديانوس الأصغر وذهب إلى فارس معه ذهب أفلوطين فيما بعد إلى روما حيث وجد الاتجاه المهيمن ينحو نحو الصوفية الشرقية موافقاً لغرضه غاية الموافقة، ولعب دور النبى لمدة خمسة وعشرين عاماً، نظر إليه الإمبراطور جالينوس وزوجته بتبجيل خرافى، حتى قبل وفاته بوقت قصير، حتى قيل إنه كانت لديهما النية فى تأسيس دولة فلسفية فى إحدى مدن إيطاليا، تُحكم وفقاً لمبادئ أفلوطين. كانت عظيمة كذلك الاستجابة التى تلقاها أفلوطين من أكثر عائلات المواطنين الرومان احتراماً، وأصبح بعض من أكثر الرجال برزوا فى المدينة أكثر أبطاله تحمساً وتلقوا تعاليمه وكأنها رسالة من السماء”.

إن الضعف الروحى والأخلاقى للعالم الرومانى والاتجاه السائد عموماً باتجاه النشوة الهيستيرية، نحو الأخلاق الرهبانية وتجاه الصفات مافوق الطبيعية والنبوئية، لم يعبر عنها فى أى مكان بهذا الوضوح كما فى الانطباع الذى خلقة أفلوطين والاحترام الذى تلقاه مذهبه، لسبب خاص جداً وهو أنه كان مبهماً.

“كانت هذه الوسائل التى إستخدمها أفلوطين وتلاميذه لنشر الفلسفة الجديدة مماثلة لتلك التى استخدمت فى نهاية القرن الثامن عشر من قبل ميسمر وكاليجوسترو فى فرنسا لتصوير النبالة المتدهورة، وبواسطة الروزيكروسيين، ساحرى الأزواج وأمثالهم فى ألمانيا لتصوير ملك بروسى ورع. مارس أفلوطين السحر واستدعى الأرواح للظهور أمامه، وانحط حين كان يسأل من قبل معارفه حتى القيام بالنشاط

الذى مارسه فى بلاده فئة من الأشخاص المحتقرين فقط وهو كشف المذنبين فى سرقات صغيرة.

كان يعبر عن كتابات أفلوطين أيضاً بالطريقة النبوية، لأنه وفقاً لشهادة أكثر تلاميذه شهرة كان يُدون إلهاماته المزعومة دون أن يتفضل أبداً بالنظر إليها ثانية، أو حتى يصحح اللغة. لم تكتب روائع الإغريق القدامى أبداً هكذا ! حتى أكثر قواعد التفكير أولية، التى اعتدنا على تسميتها "المنهج"، مفتقرة فى كل من الكتابات والأطروحات الشفوية لهذا الرجل، الذى طلب من كل من يُقبل على تحصيل معرفة فلسفية الانسلاخ عن طبيعته الخاصة أو الخروج عن الحالة الطبيعية للفكر والشعور، باعتبار ذلك شرطه الأول.

من أجل نقل فكرة عن طبيعة تعاليمه وعن الأثر الذى أنتجته، نحتاج فقط إلى أن نقدم مادة قليلة تتعلق بمضامين كتاباته. يعتبر العيش مع البشر وبين البشر أمراً أثمياً وغير طبيعى، بينما الحكمة الحقيقية والنعيم يكمنان، وفقاً له، فى الانفصال الكامل عن عالم الأحاسيس، فى التأمل وفى السكينة وفى العزلة الموحشة لروح المرء الخاصة، والتركيز على الأشياء الأعلى هذه النظرية عن الحياة التى تقوض كل فعالية، وتتبدد فى وجه كل تجربة وكل العلاقات الإنسانية، والتى دافعت إضافة إلى ذلك بأشد احتقار ضد هؤلاء الذين لهم وجهات نظر مختلفة، مترافقة مع مفهوم نظرى خالص عن الطبيعة وقوانينها، قائم فقط على أهواء عقلية غاية فى الخفة. لقد أسس أرسطو أفكاره عن الطبيعة على التجربة، والملاحظة والرياضيات؛ ليس هناك أثراً لذلك عند أفلوطين. اعتبر أفلوطين نفسه فيلسوفاً أناره الله ؛ وأعتقد من ثم أن كل معرفته كانت تتأتى من مصدر داخلى للإلهام، وأنه لم يكن محتاجاً لأن يرتقى درجاً حتى يحرز معرفة، لأن أجنته حملته فوق الأرض وعبر كل عوالم الفضاء.

كان لدى أفلوطين ثلاثة تلاميذ وضعوا فى شكل يُحتمل الكلمات التى ألقاها فى شكل نبوءات، والذين نشروا تعاليمه باعتبارهم رسله: هيرينيوس، أميليوس، وفورفوريوس. كان الثلاثة جميعهم موهوبين تماماً، ويذكر لونجينوس الأخيرين باعتبارهما الفيلسوفين الوحيدين فى زمنهما التى كانت كتاباتهما مقروءة، بالرغم من أن لونجينوس كان شديد العدواة فى معظم الأمور لأى فلسفة أدارت ظهرها للحياة والعقل السليم.

ولكننا يمكن أن نحكم بأفضل شكل على كيف كان حبهم للحقيقة متدنياً من خلال سيرة أفلوطين التى كتبها فورفوريوس. يروى فورفوريوس أسخف القصص عن سيده ومعلمه، وحيث أن فورفوريوس يراوده إحساس عظيم بتصديقها هو نفسه،

فلا بد أنه قد إصطنعها قصداً وعن معرفة من أجل رفع رصيد أفلوطين من المآثورات النبوية (ORACULAR DICTA) ”.

ج – اللجوء إلى الكذب

النفاق مكمل ضرورى للسذاجة وحب المعجزات. أوردنا حتى هذا الحد الأمثلة التى حكى فيها الرواة معجزات تتعلق بالموتى فحسب، ولكن لم يكن هناك افتقار للأشخاص الذين رويوا أعظم الأعاجيب فيما يتعلق بأنفسهم، مثل أبيون السكندري، معذب اليهود، “”ثرثار العالم” (CYMBALUM MUNDI)، مثلما سماه الإمبراطور طيباريوس، وهو رجل ملئ بالكلمات الكبيرة وأكاذيب أكبر بعد. بأكثر المعارف المضمونة لانهائية وإيمان غير محدود بنفسه، إن لم يكن عالماً بالرجال، فعلى أى حال بعدم جدارتهم، معلم المقالات المشهور وكذلك فن التضليل مستعد للعمل، بارع، صفيق، ومخلص بغير شروط.

كان الرجال الذين يتسمون بهذا الطابع عادة مخلصين – أى ذليلين. تميز هذا الوغد المخلص بوقاحة أن يستحضر روح هوميروس من العالم السفلى ليستجوبه فيما يخص محل ميلاده. وقد أكد حتى أن روح الشاعر قد ظهرت له وأجابت على سؤاله، ولكنه تعهد لها أن يبقى سراً!

كان الإسكندر الأبونوتيخوس محتالاً أشنع (ولد حوالى ١٠٥ ب.م، ومات حوالى ١٧٥ ب.م) الذى مارس السحر بأفظ الوسائل، وعلى سبيل المثال، ذبح حيوانات وجوّف صور الآلهة، التى أخفى فيها آدميين. استنزل هذا الرجل وحياً يقدم معلومات مقابل أتعاب، ويقدر لوسيان دخل هذا العمل بحوالى ١٥٠٠٠ جنيه إسترليني فى العام. لقد نجح حتى فى أن يمارس نفوذاً من خلال المستشار روتيليانوس على الإمبراطور “الفلسفى” ماركوس أوريليوس. مات الوغد غنياً مليئاً بالجوائز، ونصب تمثال لذكراه حتى قيل أنه أطلق نبوءات بعد وفاته. وقد كانت هناك خدعة محكمة أخرى تتمثل فيما يلى:

“يروى ديوكاسيوس أنه فى العام ٢٢ ظهرت روح، أسمت نفسها (روح) الإسكندر الأكبر، تشابهت معه تماماً فى الشكل والملامح. وارتدت لباساً ممثلاً، مشيت مع حاشية مكونة من ٤٠٠ شخص تزيت مثل كاهنات باخوس، من الدانوب إلى البوسفور BOSPORUS، حيث اختفت: ولم يغامر أى موظف رسمى بإيقافها، ولكن على العكس قدم لها المأوى والطعام فى كل مكان على حساب النفقة العامة”.

أبطال البعد الرابع لدينا والأكثر مادية مثل كابتن كوبينيك يجب أن يستحووا خزيًا حين يفكرون فى مثل هذه الإنجازات.

لم ينخرط المحتالون والدجالون فقط فى ممارسة كذب واع وخداع، وإنما حتى مفكرين جادين، وأشخاص آخريـن كان قصدهم طيباً، قد استخدموه مراراً.

لم يتسم الأدب التاريخى للعصور القديمة أبداً بإفراطه فى صرامة المنهج النقدى، فلم يكن علماً بالمعنى الأضيق للكلمة بعد، ولم يكن مُستخدماً بعد لبحث قوانين تطور المجتمع، وإنما لأغراض تربوية وسياسية. كان موضوعه تنوير القارئ أو إثبات صواب الاتجاهات السياسية التى حبـّـذاها المؤرخ. يجب أن تصنع أعمال أسلافهم العظيمة لترتقى بعقول الأجيال المقبلة وأن تلهمها لإنجاز أعمال مماثلة – جعل هذا كتابة التاريخ مجرد صدى نثرى للملحمة البطولية.

ولكن وجب أيضاً أن تتعلم الأجيال المقبلة من تجارب أسلافها وما تعين عليهم أن يفعلونه أولاً يفعلونه. من السهل أن نفهم أن كثيراً من المؤرخين، خاصة حين كان غرض التنوير والإلهام هو (الغرض) الرئيسى، لم يكونوا شديدي الرهافة فى اختيار ونقد مصادرهم، وربما يكون المؤرخ قد سمح لنفسه حتى، فى صالح تأثيره الفنى، أن يملأ الفجوات فى حكايته بمساعدة الخيال. كل مؤرخ اعتبر أن امتيازه بصفة خاصة هو أن ينفخ بحرية الخطب التى جعل شخصياته تلقوها. ولكن المؤرخين القدماء عانوا حتى لا يكونوا مضللين بوعى وبقصديـة فى تصويرهم فعالية الشخصيات التى تناولوها. كان عليهم أن يكونوا أكثر عناية فى تجنب هذا الخطأ ماداموا كانوا يتناولون نشاطاً سياسياً عاماً، الأمر الذى جعل سجلاتهم خاضعة لفحص دقيق.

ولكن مع تدهور المجتمع القديم، تغيرت مهمة كاتب التاريخ القديم. كف الناس عن طلب تعليمات سياسية، لأن السياسة قد أصبحت لأهمية لها أكثر فأكثر وزادت تنفيراً لهم. ولم يستمروا فى تطلب أمثله عن الشجاعة الرجولية، والتفانى للوطن، كان ما أرادوه التسلية، ومثيرات جديدة لأعصابهم المنهكة، ثرثرة وأحاسيس، معجزات. إن عدم دقة طفيفة بهذا القدر أو ذاك لم تكن تهم القارئ. أضف إلى ذلك أصبح فحص الوقائع المسجلة أكثر صعوبة، لأن المصائر الخاصة كانت الآن فى طليعة اهتمام القارئ، أى الأحداث التى لم تجر فى ضوء العلنية التامة. انتهى التاريخ الأدبى نفسه أكثر فأكثر، من ناحية إلى أن يكون حكايات للفضائح، ومن ناحية أخرى إلى مبالغات فظيعة من نمط مبالغات البطل الروائى منشوسن (MUNCHAUSEN TYPE).

أصبح هذا الاتجاه الجديد ظاهراً فى الأدب الإغريقى حوالى زمن الإسكندر الأكبر، حيث كتب فيما يتعلق بأعمال الإسكندر أحد رجال حاشية الإسكندر أونيسكرييتوس كتاباً يحفل ببساطة بالأكاذيب والمبالغات. ولكن هناك خطوة واحدة فقط تفصل بين

الكذب والتزوير. أنجز هذه الخطوة إيمروس، الذى أحضر إلى الوطن فى القرن الثالث كتابات من الهند، زعم أنها عتيقة، ولكن كان الرجل الطيب قد اصطنعها بنفسه.

ولكن لم تكن هذه الطريقة الممتازة قاصرة على التاريخ الأدبى فقط. لقد رأينا كيف أن الاهتمام بأشياء هذا العالم كان يخبوا تدريجياً بين دارسى الفلسفة، بينما أصبح (الاهتمام) بالعالم الآخر أقوى. ولكن كيف يمكن لفيلسوف أن يقتنع تلامذته أن أفكاره عن الحياة الأخرى كانت أكثر من مجرد خيالات ؟ كانت أبسط وسائل إنتاج مثل هذا الاعتقاد بالطبع إختراع شاهد يعرض باعتباره قد عاد من المكان "الذى لايعود من عالمه راحل" ويروي وضعه العام. حتى أفلاطون لم يترفع عن استخدام مثل هذه الحيلة كما رأينا فى حالة البامفيلى الممتاز الذى ذكرناه سلفاً.

أضف إلى ذلك تضمن الاهتمام المتناقص بالعلوم الطبيعية واستبدالها بالتأمل فى الأخلاق أيضاً هجر الروح النقدية التى تهدف إلى اختبار صحة كل قضية بواسطة التجربة الفعلية وإضعاف متزايد للقدرة الثقافية للأفراد المتنوعين، مؤدية هكذا لظهور رغبة متزايدة فى إيجاد دعم فى شخص رجل عظيم ما. لقد تأثر البشر الآن ليس بالبراهين الفعلية وإنما بالحجج/ بالثقات AUTHORITIES، ومن أراد أن يمارس تأثيراً عليهم كان لابد وأن ينظر إليه بوصفه مؤيداً من الحجج الضرورية. فإذا لم يقدم هؤلاء الحجج المقاطع المطلوبة فكان من الضروري تشذيبها قليلاً، أو خلق حجج المرء اجتزاءً. لقد أتاحت لنا الفرصة لأن نلاحظ حججاً من هذا النوع فى حالتى دانيال وفيثاغورث. كان يسوع حجة كهذه، وكذلك رسله، وموسى، والسيليبات SIBYLS.

لم يتحمل الكاتب دائماً مشقة أن يكتب كتاباً كاملاً تحت اسم مزيف، غالباً ماكان يكتفيه إدراج جملة واحدة فى مؤلف أصلى مكتوب من قبل حجة معترف بها، جاعلاً هذه الجملة تعبر عن عقائد الكاتب الخاصة، ومن ثم مخضعاً هذا الحجة لجداله. لقد تم هذا بشكل أسهل استناداً إلى حقيقة أن الطباعة لم تكن قد اخترعت بعد. لقد جرى تداول الكتاب فقط فى نسخ مكتوبة، خطها صاحبها، أو كتبها عبد، إذا كان مالكةا ثرياً بما يكفى ليقوم أود عبد لتحقيق هذا الغرض. إضافة إلى ذلك، كان هناك ناشرين جعلوا عبيدهم ينسخون الكتب، التى كانت تباع عندئذ بربح كبير. لقد كان غاية فى السهولة أن تحذف فى هذه النسخ جملة تبدو غير ملائمة، أو إدخال أخرى طرأت حاجة إليها، خاصة إذا كان المؤلف قد مات، الذى جعل احتمال بروز احتجاج، فى هذه الأيام اللامبالية والسادجة، أمراً بعيداً. سوف يحرص النساخون اللاحقون على حفظ هذا التزييف للأجيال اللاحقة.

وجد المسيحيون منهج هذا الإجراء أسهل مقارنة بما فعل المؤرخون الآخرون. أيا ماكانت هوية أول معلمى ومنظمى المجمع المسيحية، فمن المؤكد أنهم ظهروا من أدنى فئات السكان، حتى أنهم لم يتمكنوا من الكتابة ولم يتركوا سجلات مكتوبة. كانت مذاهبهم فى البداية منتشرة شفهيًا. إذا كان أى من أتباعهم قد توسل بحجة المعلمين الأوائل للمجمع، فى أى مناقشة أثيرت، فقد كان من الصعب مناقضته، إذا لم ينتهك التقليد بفظاظة. سرعان ماكانت أكثر الطبقات تنوعاً من كلمات "السيد" ورسله بالضرورة فى التداول. وبالنظر إلى حالة النزاع المحتدم، التى سادت المجمع المسيحية فى البداية، قدمت هذه الطبقات المتنوعة فى البداية ليس بغرض تسجيل تاريخى موضوعى، وانما لاستعمالها فى الجدل، حيث سجلت لاحقاً وجمعت فى الأناجيل. كان النساخون والمحررون اللاحقين مدفوعين بصفة رئيسية أيضاً بالأهداف الجدالية، التى دعتهم إلى استبعاد جملة غير ملائمة هنا وإدخال أخرى محلها حتى يكونوا قادرين على استخدام كامل السجل كبرهان على حقيقة أن المسيح أو رسله قد أيدوا وجهة نظر أو أخرى. نواجه هذا المنحى الجدالى عند كل خطوة فى تفحص الأناجيل.

وسرعان، ما لم يعد المسيحيون يرضون بتكليف وتزوير كتاباتهم المقدسة بهذه الطريقة، كلما تطلبت حاجتهم. كانت هذه الطريقة ملائمة للغاية حتى يمتنع تطبيقها على آخرين أيضاً، على مؤلفين "وثنيين"، بمجرد أن كان هناك عدد كاف من الأشخاص المتعلمين بين المسيحيين ليعطوا بعض الوزن للكتاب البارزين خارج العالم المسيحى، حين كان هناك عدد كاف من مثل هؤلاء الأشخاص، أصبح مما له قيمة أن تكون هناك نسخ خاصة مصطنعة معدة لهم، وقد حيوها برضى منهم وجرى تداولها أكثر. وقد حفظت عديد من هذه التزويرات حتى يومنا هذا.

لقد ذكرنا قبلاً تزيفاً كهذا، أى شهادة يوسيفوس عن يسوع. الكاتب التالى، مع تاسيت، الذى يتحدث عن المسيحيين كمعاصر لهم، هو بلىنى الأصغر، الذى كتب خطاباً يتعلق بهم إلى تراجان، فى الوقت الذى كان فيه بلىنى (بروبريتور PROPRAETOR) فى بيشينيا (من المحتمل ١١١ - ١١٣ م)، الذى حفظ فى مجموعة خطابه. يطلب بلىنى فى هذا الخطاب تعليمات عما ينبغى أن يفعله مع المسيحيين فى ولايته، فيما يتعلق بهم فلا يعرف عنهم خبراً سيئاً، ولكنهم يتسببون فى أن تكون كل المعابد خاوية. لاتنسجم وجهة النظر هذه عن براءة المسيحيين تماماً مع رأى صديق بلىنى تاسيت، الذى يؤكد على "كراهيتهم لكل الجنس البشرى". إنه لمن المصدم لنا بنفس القدر أن نعلم أن المسيحية كانت شديدة الانتشار بالفعل فى بيشينيا فى ظل تراجان، إلى الحد الذى تسببت فيه فى جعل المعابد خاوية، التى كانت لزمن طويل مهجورة بالفعل، والتى أهملت "احتفالاتها

لزم من طويل، والتي نادراً ما وجدت حيواناتها الأضحوية شاريًا". كان علينا أن نميل لافتراض أن مثل هذه الأوضاع سوف تكون قد أثارت قدراً من الانتباه يماثل الانتباه الذي يمكن أن يولى الآن لواقعة، إذا ما صادف وأن حدث أن الأصوات الإشتراكية وحدها هي التي قامت بالتصويت في برلين. كان سيكون هناك اضطراب كبير بالفعل. ولكن بلينى لا يسمع عن وجود المسيحيين حتى يتهمهم أحد. لهذا ولأسباب أخرى نفترض أن هذا الخطاب هو تزييف مسيحي. إفتراض سملر قبلاً مبكراً في عام ١٧٨٨، أن هذا الخطاب الخاص ببلينى بكامله قد اصطنعه مسيحي في تاريخ لاحق، لتعظيم المسيحية. ولكن برونو باور يرى بأن هذا الخطاب قد كتب حقاً من قبل بلينى، ولم يكن أصلاً على الإطلاق مادحاً للمسيحيين، ومن ثم فقد "جرى تضبيبته" من قبل ناسخ مسيحي لاحق.

أصبحت التزييفات أكثر وقاحة حين أغرق البرابرة التيوتون الإمبراطورية الرومانية في فترة الهجرات العظيمة. كان السادة الجدد للعالم فلاحين بسطاء مليئين بمكر الفلاح لاشك، ورزنيين ومحنكين بما يكفي بصدد الأشياء التي لم تكن غاية في العمق بالنسبة لهم. كانوا مع كل بساطتهم أقل تعطشاً للمعجزات وأقل سذاجة من ورثة الحضارة القديمة، ولكن لم يعرفوا شيئاً عن القراءة والكتابة. أصبحت هذه الفنون ميزة الكهنوت المسيحي، الذي بات الآن الفئة المثقفة الوحيدة. لم يعد الكهنوت بحاجة إلى الخوف من أن تواجهه تزييفاته في صالح الكنيسة النقد، وهكذا تعددت هذه التزييفات على نحو أشد تكاثراً مما كانت من قبل، ولم تعد بعد مقصورة، كما كان الأمر قبلاً، على أمور المذهب، لم تعد تخدم فقط في مناقشة الجدالات النظرية، الفنية أو التنظيمية، وإنما أصبحت الآن وسائل حيازة الملكية، أو تبرر شرعاً استيلاءً ناجزاً على الملكية. كانت أكثر هذه التزييفات فظافة بالتأكيد هي هبات قنسطنطين ومراسيم إيزيودور، التي اصطنع كليهما في القرن الثامن. في الوثيقة الأولى، يسلم قنسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ ب.م) إلى البابوات السلطان غير المحدود والأبدى على روما، وإيطاليا وكل الولايات حتى الغرب. مراسيم إيزيودور هي مجموعة من القوانين الكنسية جمعت ظاهرياً من قبل الأسقف الإسباني إيزيودورس في بداية القرن السابع، حيث يعلن فيها السلطة المنفردة للبابا في الكنيسة.

ليس هذا القدر العظيم من التزييفات أقل الأسباب أهمية في جعل تاريخ أصل المسيحية شديد الغموض حتى اليوم. ليس من الصعب كشف كثير من هذه التزييفات، وقد عرض الكثير في القرون الماضية، على سبيل المثال، كشف لورنتيوس قالاً في ١٤٤٠ أن هبات قنسطنطين كانت تزييفاً ولكن ليس سهلاً بنفس

القدر كشف وجود ذرة حقيقة فى واحد من هذه التزويرات، وأن تثبت حد هذه الحقيقة.

إن الصورة التى نسجلها ليست مفرحة: انحلال عام فى كل اتجاه، اقتصادى، سياسى، وايضاً علمى وأخلاقى. اعتبر الرومان والإغريق القدامى التطور الكامل والمتناسق للرجولة بأفضل معنى لهذه الكلمة فضيلة. لقد دلت الفضيلة و ARETE على الشجاعة والقدرة على الاحتمال، وكذلك أيضاً الكبرياء الرجولى، التضحية والتفانى غير الأنانى للصالح العام. ولكن حيث غرق المجتمع على نحو أعمق فى العبودية، أصبح الخضوع هو الفضيلة العليا، ومنه اشتقت كل الصفات النبيلة التى كرسنا لها اهتمامنا: كراهة الصالح العام والتركيز على المصالح الفردية، الجبن والافتقار للثقة بالنفس، التطلع إلى الانعتاق بواسطة إمبراطور أو اله، ليس بقوة المرء الخاصة أو بقوة طبقة المرء؛ الحط من الذات أمام القوى، الصفاقة المتزمتة تجاه التابعين؛ عدم اهتمام لامبالي واشمئزاز من الحياة، الإذعان للإشفاق كشعور، للأعاجيب، هيستيريا ونشوة، مقترنة بالنفاق، الكذب والتزييف. هذه هى الصورة التى يزودنا بها العصر الإمبراطورى، وآثاره تنعكس فى نتاج هذا العصر، أي المسيحية.

د - النزعة الإنسانية

ولكن أبطال المسيحية سوف يقولون إن هذه الصورة أحادية الجانب ومن ثم غير حقيقية. يجب أن نعترف بأن المسيحيين كانوا بشراً فحسب، ولم يستطيعوا أن يحصنوا أنفسهم كلية ضد التأثيرات المَحْطَة لبيئتهم، ولكن هذا جانب واحد فقط من المسيحية. من ناحية أخرى، يجب أن نلاحظ أيضاً ترويج أخلاقية أرفع كثيراً من أخلاقية العصور القديمة، إنسانية متسامية، رحمة لانهائية، تجاه أى شيء يحمل شكلاً إنسانياً، تجاه الأدياء وعلية القوم، الغرباء ورفاق العشيرة، العدو وكذلك الصديق، حتى أنها تبشر بأخوة كل الطبقات والأجناس. يُقال إنه لاينبغى لهذه التعاليم أن تفسر على أساس الأزمنة التى نشأت فيها المسيحية، فمما هو جدير بالملاحظة أكثر انها كانت تُعَلِّم فى فترة أشد عمقاً فى فسادها الأخلاقى، يخذلنا التفسير المادى للتاريخ هنا؛ فنحن نتعامل مع ظاهرة يمكن أن تفسر فقط بسمو الفردية المستقلة تماماً عن شرط الزمان والمكان، إله - إنسان، أو إذا استخدمنا مصطلحاً رائجاً، إنسان أعلى (سوبرمان).

هذه هى الكيفية التى يضعها بها "مثاليونا".

ولكن ماهى الحقائق؟ دعنا نعتبر أولاً الإحسان نحو الفقير، والإنسانية نحو العبيد؛ هل توجد هاتان الظاهرتان بالفعل فى المسيحية فقط؟ من الحقيقى أننا لانجد كثيراً من الإحسان فى العصور القديمة الكلاسيكية، وليس عسياً أن نجد السبب، فالإحسان يتضمن وجود الفقر على نطاق واسع. كانت الحياة الثقافية فى العصور القديمة متجذرة بعمق فى شروط شيوعية، وفى ملكية عامة لأراضى العشيرة، الخاصة بالجماعة، للاقتصاد المنزلى، التى أعطت أعضائها حقاً فى منتجاتها العامة، ووسائل إنتاجها. ونادراً ما كان إعطاء الصدقة ضرورياً.

لا يجب أن يخلط القارئ بين كرم الضيافة والإحسان. كان كرم الضيافة ملمحاً عاماً جداً فى الأزمنة القديمة ؛ ولكنه علاقة بين متساوين، بينما تضمن الإحسان عدم مساواة اجتماعية، يُبهج كرم الضيافة كلا من الضيف والمضيف، ولكن الإحسان يرفع من يعطى ويحط ويضع من يتلقى.

تكون للمدن الكبيرة فى مجرى الأحداث جمهوراً بروليتارياً، كما رأينا. ولكن هذه البروليتاريا إما امتلكت أو حققت السلطة السياسية، واستغلت الأخيرة حتى تنتزع نصيباً لنفسها فى المواد الغذائية التى كانت تفيض بها مخازن الأثرياء والدولة كنتاج لعمل العبيد واستغلال الولايات. بفضل الديمقراطية وسلطتها السياسية، لم يحتاج هؤلاء البروليتاريين أبداً إلى إحسان. يتضمن الإحسان ليس فقط بؤساً عظيماً عند الجماهير، وانما أيضاً بروليتارياً بدون حقوق سياسية وأجهزة، وهى أوضاع لم تحدث على نطاق واسع قبل العصر الإمبراطورى. ليس من المدهش أن تبدأ فكرة الإحسان آنئذ فقط فى أن تسود المجتمع الرومانى. ولكنها لم تكن نتيجة للأخلاقية مافوق البشرية للمسيحية.

اعتبر القياصرة فى الأيام الأولى من حكمهم، أنه مازال من المنصوح به أن يشتروا بواسطة الخبز والألعاب ليس الجيش فحسب، وانما أيضاً بروليتاريا العاصمة. كان نيرون ناجحاً للغاية فى هذه الممارسة. استخدمت هذه الطريقة فى كثير من مدن الولايات الكبيرة أيضاً حتى تهدئ الفئة الأدنى من السكان.

ولكن لم يستمر هذا الإجراء طويلاً. أجبر إفقار المجتمع المتزايد على تخفيض النفقات القومية، الذى كان من الطبيعى أن يطبقه القياصرة أولاً على البروليتاريا، التى لم يعودوا يخشونها. من المحتمل أن الرغبة فى علاج النقص المتزايد فى قوة العمل قد قلل أيضاً كرمهم نحو البروليتاريا. إذا لم تكن هناك هبات محاصيل، كان على البروليتاريين القادرين على العمل البدنى أن يبحثوا عن عمل، وربما يرتبطون بكبار الملاك العقاريين باعتبارهم مستوطنين COLONI أو مستأجرين. وقد تسبب هذا النقص فى العمل الكافى تحديداً فى نشوء أشكال جديدة من الهبات العامة.

تتحلل في العصر الإمبراطوري، كل المنظمات الاجتماعية القديمة، ليس فقط العشائر، وانما أيضاً الاقتصاد المنزلي للعائلات الأكبر. وكل إنسان يفكر في نفسه فقط، تحللت الروابط العائلية وكذلك الروابط السياسية، يصبح استعداد المرء للتضحية من أجل قريبه خامداً، مثله في ذلك مثل التفاني من أجل الجماعة أو الدولة ايضاً. عانى الأطفال اليتامى بصفة خاصة من هذا الوضع. أن يكونوا بلا والدين جعلهم الآن بلا دفاع، لم يكن هناك أحد ليعتنى بهم. تزايد عدد الاطفال الذين ليس لهم أقارب يعولونهم لحد أبعد بواسطة حقيقة أن العوز العام وتدنى روح التضحية كانت تؤدي بعدد متزايد من الأشخاص لأن يتجنبوا الأعباء العائلية. حقق البعض هذا بعدم الزواج، باللجوء إلى الدعارة فقط، كانت دعارة الذكور، بالمناسبة في وضع مزدهر، آخرون، بالرغم من أنهم متزوجون، سعوا لتجنب إنجاب الاطفال، كل من هاتين الممارستين أسهم بالطبع في انقاص سكان البلد وإنتاج نقص العمال، ومن ثم زيادة الفقر العام. وجد كثير من الأشخاص ممن لديهم اطفال أن الأكثر ملائمة هو أن يتخلصوا منهم بهجرهم. اتخذت هذه الممارسة الممتازة نسباً ضخمة؛ لم يكن للمنع أى فائدة حيث أصبحت مسألتان ملحتان أكثر إلحاحاً: العناية بالاطفال الذين لايعولهم الأقارب، والعناية باطفال الفقراء، الذين مازالوا يعيشون مع والديهم؛ هاتين المسألتين لقيتا بالضرورة كثيراً من الاهتمام من المسيحيين الأوائل. كان الأخيرون معنيون دوماً بمسألة إعالة اليتامى. لم تكن الشفقة فقط، وانما أيضاً الحاجة لقوة العمل والجنود، هي التي قادت إلى جهد لتأمين تربية اليتامى، واللقطاء، وأطفال البروليتاريين.

نجد بالفعل في ظل أغسطس جهوداً بذلت في هذا الاتجاه ؛ بدأت في القرن الثاني من عصرنا في اتخاذ شكل عملي. كان الإمبراطوران نرقس-؛-ا وتراجان أول من أسس مثل هذه المؤسسات في الولايات الإيطالية، بجعل الدولة تشتري عدداً من الأملاك العقارية ثم توجرها من الباطن، أو أن تحولها إلى رهونات. كانت تستخدم غلة الإيجار أو الفائدة على الرهونات في تدريب الأطفال الفقراء، خاصة اليتامى. وسع هادريان، مباشرة بعد تسنمه (السلطة)، هذه المؤسسة، التي خطط لها في ظل تراجان لحوالي ٥٠٠٠ طفل وطورها الأباطرة اللاحقين لمدى أبعد، ولكن هذا الإحسان القومي كان مترافقاً أيضاً مع إحسان مشاعي، سبقه الإحسان الخاص. إن أقدم مؤسسة إيواء خاصة لدينا معلومات عنها يعود تاريخها إلى زمن أغسطس. سلم هلفيوس باسيلا، الذي شغل منصب البريتورية، ٢٢٠٠٠ جنيه إسترليني لمواطني أتينيا في لاتيوم لإمداد عدد من الأطفال بالحبوب، ولسوء الحظ لم يذكر العدد.

فيما بعد، في ظل تراجان، يرد ذكر عديد من مثل هذه المؤسسات. وهبت سيدة غنية، وهي كالياً ماكرينا، من تراسينا، في وفاة ابنها مليون سيسترسس (أكثر من ٥٠٠٠٠ جنيه إسترليني)، كانت الفائدة التي تأتت منها تعول ١٠٠ فتى وفتاة؛ وأسس بلينى الأصغر مؤسسة إيواء عام ٩٧ في مسقط رأسه كوموم (الآن كومو)، كانت تتلقى الدخل السنوى لأملك عقارية تقدر بـ ٥٠٠٠٠٠٠ سيسترسس، خصصها لإطعام الأطفال الفقراء. وقد أسس أيضاً مدارس، ومكتبات الخ.

لم تنجح هذه المؤسسات بالطبع في أن تواجه أثر نقص سكان الإمبراطورية، لأن نقص السكان هذا كان راجعاً لأسباب تقع في أعماق الشروط الاقتصادية؛ ومن ثم تزايدت حيث تقدم الانحلال الاقتصادي. تقدم الإفقار العام إلى حد استهلاك الموارد الضرورية للاستمرار في عمل رفاهية الأطفال هذا، أفلس الفقر ليس فقط مؤسسات التغذية، وإنما الدولة ذاتها.

فيما يتعلق بتطور مؤسسات التغذية نعرف من مولر أن:

“ربما يمكن تتبع حياتها لحوالى ١٨٠ عاماً تقريباً. حَسَنَ هادريان حصص الأطفال. وخصص أنطونيوس بيوس كميات جديدة لهذا الغرض. عام ١٤٥ ب.م نصب فتية وبنات كوبرا مونتانو، مدينة في بيسيتيم، الذين كانوا المستفيدين منه، نقشاً على ضريحه (تعبيراً عن) الامتنان، كما فعل هؤلاء من سستينم من أومبريا عام ١٦١. يشهد إهداءاً مماثلاً في فيكوليا في لاتيوم على الأنشطة المماثلة لماركوس أوريليوس. يبدو أن المؤسسة الأخيرة قد وصلت ذروتها مبكراً في حكم هذا الإمبراطور، منذ آنذاك فصاعداً كان الانحلال العام للإمبراطورية متوازياً مع تاريخ المؤسسة، يبدو أن ماركوس أوريليوس بسبب الارتباطات التي كانت تسببها له الحرب دائماً، والتي اضطرتته حتى لأن يبيع بالمزاد مجوهرات التاج، الصولجان، وأشياء ثمينة أخرى امتلكتها السلالة الإمبراطورية، قد ذهب بعيداً إلى حد مصادرة الأموال الموقوفة على هذه المؤسسة وضمان دفع الفائدة من خزانة الدولة. كانت الخزانة في ظل كومودس غير قادرة لمدة تسع سنوات على أن تقوم بهذا الالتزام، وبرتيناكس، غير قادر على دفع الديون المستحقة، وامتنع عن دفعها. ولكن يبدو أن ثروات المؤسسة تحسنت فيما بعد. مازال يذكر موظف رسمى راعياً لها في القرن الثالث؛ ولكن انتهى وجودها حوالى هذا الوقت. حيث لانسمع عنها بعد في ظل قنسطنطين”.

ربما أباد الفقر المتزايد المؤسسات الخيرية، ولكنه لم يستطيع أن يدمر مفهوم الإحسان، الذى أصبح بالضرورة أقوى فأقوى بالنظر إلى البؤس المتزايد. ولكن ليست هذه ميزة للمسيحية فقط على الإطلاق، فالمسيحية تشارك فيها حقبتها، التى

لجأت إليها ليس بسبب السمو الأخلاقي لهذه الأزمنة، ولكن بسبب انحلالها الاقتصادي.

إن التقدير والإعجاب الذي حظى به الإحسان أنتج أيضاً صفة أخرى أقل لطفاً: وهي التباهي بالصدقة التي أعطاها المرء. بلينى، الذى ذكرناه سلفاً، هو مثل جيد على ذلك. كل معلوماتنا عن هذه المؤسسة الخيرية مأخوذة منه فقط: فقد وصفها بتفصيل كبير فى كتب قصد نشرها. حين ننظر إلى بلينى يرمى عواطفه السامية ويظهر إعجاباً لحد له بنبل شخصيته، يبدو لنا أن هذا علامة أقل على العظمة الأخلاقية لـ "العصر الذهبى" للإمبراطورية الرومانية، عن أكثر فترات سعادته، كما أسماها جريجورث-؛-يوس وأغلب زملاءه. وهي تنبئ عن التفاهة السخيفة للعصر، نسخة لامعة من العجرفة الكهنوتية ونفاقها الورع.

إن أقسى استهجان صرح به ضد بلينى، بقدر مانعرف، هو (استهجان) نيبور الذى اتهمه بـ "التفاهة الصبيانية" و "التواضع غير الأمين".

كما فى حالة الإحسان، فقد قيل لنا أن المعاملة الإنسانية للعبيد خاصة بالمسيحية. يجب أن نشير أولاً وقبل كل شيء أن المسيحية، على الأقل فى الشكل الذى أصبحت فى ظله ديانة دولة، لم تأخذ على عاتقها أبداً أن تكافح العبودية كمبدأ. إنها لم تمارس تأثيراً أبداً باتجاه إلغاء العبودية. إذا كان استغلال العبيد لأغراض الربح قد توقف فى زمن المسيحية، فأسباب هذا ليس لها صلة على الإطلاق بالمفاهيم الدينية. لقد كان لدينا قبلاً الفرصة لأن نلاحظ هذه الأسباب: كان تدهور روما العسكرية يقطع إمدادات العبيد الرخيصة جاعلاً هكذا استغلال العبيد غير مربح! ولكن من ناحية أخرى استمر الاحتفاظ بعبيد الترف يمارس حتى فترة طويلة بعد الإمبراطورية الرومانية، فى الواقع، نشأت هناك بالمثل مع المسيحية، فى العالم الرومانى تنويعاً جديدة من العبيد الخصيان، الذين لعبوا دوراً هاماً خاصة فى ظل الأباطرة المسيحيين، بدءاً من قنسطنطين. لقد وجدوا بالفعل، على أية حال، فى بلاط كلوديوس، أب نيرون.

ولكن لم يفكر أبداً البروليتاريون الأحرار أنفسهم فى التخلص من العبودية. لقد سعوا لتحسين وضعهم بزيادة استنزافهم للأغنياء وللدولة دون أن يقوموا بأى عمل هم أنفسهم، الذى كان مستحيلاً إلا على أساس استغلال العبيد.

إنها حقيقة مثيرة للاهتمام أنه فى دولة المستقبل الشيوعية التى يسخر منها أرستوفانز فى مسرحيته نساء فى البرلمان EKKLESIAZUSOE، تستمر العبودية فى البقاء. ويتوقف الاختلاف بين هؤلاء الذين لديهم ممتلكات والذين ليس لديهم،

ولكن فقط فى حالة الأحرار، كل شيء يصبح ملكاً عاماً لهم، بمن فيهم العبيد، الذين يستمرون فى مهمة الإنتاج. قصد أريستوفانز هذا بوصفه مزحة بالطبع، ولكنها على اتفاق تام مع الفكر القديم.

نحن نجد موقفاً مشابهاً جرى التعبير عنه فى كراس يتعلق بمصادر الازدهار الأتيكى العام، كُتب فى القرن الرابع بعد الميلاد، الذى يلفت إليه بولمان الانتباه فى تاريخه، الذى اقتبسناه سلفاً فى هذا المؤلف.

يتطلب هذا الجدل، كما يطرحه بولمان، "توسيعاً ضخماً لاقتصاد الدولة العام لأغراض المواصلات والإنتاج" وبصفة خاصة، أن تشتري الدولة العبيد لتشغيل مناجم الفضة. إن عدد عبيد الدولة هؤلاء يجب أن يزداد حتى يكون هناك فى النهاية ثلاثة عبيد لكل مواطن. ستكون الدولة عندئذ فى وضع تمنح فيه كل مواطن من مواطنيها الحد الأدنى على الأقل من راحة العيش".

يعلن البرفسور بولمان أن هذا الاقتراح الرائع هو سمة مميزة لـ "الراييكالية الجماعية" و "الاشتراكية الديمقراطية"، التى تهدف لتأمين كل وسائل الإنتاج لصالح البروليتاريا. فى الحقيقة إنها سمة مميزة للموقف الخاص بالبروليتاريا القديمة، ومصالحتها فى الاحتفاظ بالعبودية، ولكن فهم بولمان لهذا المطلب هو سمة مميزة لضيق أفق العلم البورجوازي، الذى يعتبر كل تأمين للملكية، حتى ملكية البشر، كمثل على "الجماعية"، وكل إجراء اتخذ فى صالح البروليتاريا كمثل على "الاشتراكية الديمقراطية"، بغض النظر عما إذا كانت هذه البروليتاريا تعد مُستغلة أم مُستغلة.

توجد علامة على حقيقة أن البروليتاريين كانوا متهمين بالحفاظ على العبودية فى واقعة أنه حتى الممارسة الثورية للبروليتاريين الرومان لم تعارض أبداً من حيث المبدأ ملكية البشر. العبيد، بدورهم، مستعدون أحياناً لأن يُستخدموا فى إخماد انتفاضة بروليتارية. وجه العبيد الذين قادهم الأرسقراطيون الضربة القاضية إلى الحركة البروليتارية فى ظل كايوس جراكسوس. بعد خمسين عاماً، ضرب البروليتاريون الرومان الذين قادهم ماركوس كراسوس العبيد المتمردين بقيادة سبارتاكوس.

الطريقة التى كان يعامل بها العبيد تقف بمعزل تام عن فكرة إزالة عامة للعبودية التى لم يأخذها أحد بجدية. وهنا يجب أن نعترف أن تحسناً عظيماً فى النظرات المتعلقة بالعبودية، واعترافاً بالحقوق الإنسانية للعبيد، تظهر بالفعل بوضوح فى المسيحية، التى تتعارض بحدّة مع الموقف البائس للعبيد فى بداية الفترة

الإمبراطورية، حين كانت حياة وأوصال عبد، كما رأينا، خاضعة لكل نزوة تصدر عن سيده، الذى غالباً ما استغل هذا الامتياز بأقسى شكل.

عارضت المسيحية بحدة، بالفعل، هذه الطريقة فى النظر إلى العبيد. ولكن هذا لا يساوي القول بأن المسيحية كانت هكذا تتعارض مع روح زمنها، وأنها وقفت وحدها هذا الموقف من العبيد.

ماهى الطبقة التى ادعت أن لها حق إساءة المعاملة الذى لاحدود له وإعدام العبيد ؟ بالطبع كانت طبقة الملاك العقاريين الأثرياء، وخاصة الأرستقراطية.

ولكن الديمقراطية، الطبقات الدنيا التى ليس لها نفسها عبيد، لم تكن مهمة كثيراً بامتياز إساءة معاملة العبيد مثلما كان ملاك العبيد الكبار. مما لا ريب فيه، مادامت طبقة الفلاحين الصغار، هى نفسها مالكة للعبيد، أو على الأقل تقاليد هذه الطبقة، التى سادت وسط الشعب الرومانى، فإن الأخيرة لم تشعر بأنها محمولة على الدفاع عن العبيد.

ولكن تغييراً فى الشعور كان يختمر ببطء، ليس كنتيجة لتعليم أخلاقى محسن، ولكن كنتيجة للتكوين المتغير للبروليتاريا الرومانية، كان يوجد الرومان الأحرار، خاصة الفلاحين الصغار، أقل فأقل بين الناس، بينما كان عدد العبيد المعتقد المشاركين أيضاً فى حقوق المواطنين الرومان، يتزايد بضخامة، وكان أغلبية سكان روما فى ظل الفترة الإمبراطورية من الطبقة الأخيرة. جرى تحرير العبيد لأسباب عديدة. كثير من الرجال الذين لم يكن لديهم أطفال، غالباً ما كان هذا هو الحال، بسبب رغبتهم فى التهرب من أعباء الزواج والذرية، كانوا مقتنعين، بسبب النزوة أو الطيبة بأن يشترطوا فى وصيتهم تحرير عبيدهم بعد وفاتهم. كان آخرون أحياناً يحررون عبداً أثناء حياتهم، كمكافأة على خدمات خاصة أو بسبب الزهو، لأن من استطاع تحرير عبيد كثيرين انتهى إلى أن يعتبر رجلاً غنياً. آخرون حرروا عبيدهم بسبب حسابات سياسية، حيث يبقى المعتقد عادة معتمداً على سيده، كتابعه، بالرغم من كل حقوقه السياسية. زاد العبد من ثم، النفوذ السياسى لسيده. سُمح للعبيد أيضاً بأن يدخروا نقوداً وأن يشتروا حريتهم بمدخراتهم، وكثير من الأسياد كانوا يجرون بنشاط صفقة غاية فى الجودة، حين يشتري عبد، بعد أن يكون قد اشتغل حتى بات هيكلًا عظمياً، حريته لقاء ثمن يسمح لسيده أن يشتري (عبداً) جديداً، مازالت قوته فنية بعد.

تزايد مع زيادة عدد العبيد فى السكان، عدد المعتقدين أيضاً. كانت البروليتاريا الحرة، على أية حال، تجند أكثر فأكثر من طبقة العبيد، وليس من الفلاحين. ولكن كانت

هذه البروليتاريا أيضاً معارضة سياسياً للأرستقراطية مالكة العبيد وحاولت أن تنتزع منها حقوقاً سياسية وسلطات، الذى عنى إمكانية إحراز كسب اقتصادى جذاب. ليس هناك من ثم سبب يدعو للدهشة أن نجد تعاطفاً ملموساً مع العبيد وسط الديمقراطية الرومانية تماماً فى الوقت الذى وصلت فيه تجاوزات ملاك العبيد نحو جياذ عملهم البشرية ذروتها.

ولكن يجب أن يؤخذ عامل آخر فى الاعتبار أيضاً.

حين حاز القياصرة السلطة، فإن اقتصادهم المنزلى، كان يدار من قبل عبيد ومعتقين، مثل (الاقتصاد المنزلى) لأى رومانى مبرز. مع ورغم انحطاط الرومان، فإن مواطناً حراً سوف يعتبر أنه مما لا يليق بكرامته أن يرضى بالقيام بخدمات شخصية حتى للأكثر نفوذاً من بين مواطنيه. أصبح الاقتصاد المنزلى للقياصرة الآن البلاط الإمبراطورى، وأصبح خدمهم المنزليين الحاشية الإمبراطورية. تطورت آلية جديدة لإدارة الدولة من بينهم، بالإضافة إلى طاقم الموظفين الموروثة عن الجمهورية. و عهد للآلية الأسبق بالشئون الفعلية للدولة أكثر فأكثر، وحكمت الدولة بينما أصبحت المناصب التى خلفت عن الفترة الجمهورية ألقاباً خاوية أكثر فأكثر، ربما مرضية للزهو الشخصى، لكنها لم تتضمن سلطة حقيقية.

أصبح العبيد والمعتقون فى البلاط الإمبراطورى حكام العالم، ومن خلال اختلاساتهم، ابتزازاتهم ورشاويهم، أكثر مستغليه نجاحاً. يصف فريدلندر هذا الوضع بشكل ممتاز فى كتابه الشهير، الحياة الرومانية وآداب وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكورة، الذى إقتبسنا منه أكثر من مرة. "كانت الثروة التى هبطت عليهم بسبب مركزهم المتميز مصدراً رئيسياً لقوتهم. حين أصبح غنى المعتقين مضرب الأمثال لم يكن هناك بالتأكيد كثير من الأشخاص يمكن أن يقارنوا وقتها بهؤلاء الخدم الإمبراطوريين. كان لدى نارسيسوس ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ستترسس (٢١ مليون جنيه إسترليني)، أعظم ثروة معروفة للعالم القديم، پالاس ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ستترسس (١٦ مليون جنيه إسترليني). كاليستوس، إيبافروديتوس، دوريفورس وآخرون كان لديهم بالكاد كنوز أقل حجماً. حين شكوا الإمبراطور كلوديوس ذات مرة من الحالة المتدنية للمالية الإمبراطورية اعتبرت الثروات الرومانية بأنه سوف يغتنى إذا ما ارتضاه عبديه المعتقين (نارسيسوس وپالاس) كشرىك ثالث".

فى الواقع، وجد عدة أباطرة مصدراً ممتازاً للدخل فى ممارسة إجبار العبيد الأغنياء والمعتقين على إشراكهم فى متحصلات اختلاساتهم وابتزازاتهم.

“فاق المعتقون الإمبراطوريون بسبب امتلاكهم لمثل هذه الثروة الضخمة، الأرستقراطية الرومانية فى الترف والفخامة. كانت قصورهم هى الأكثر عظمة فى روما. كان (قصر) خصى كلوديوس بوسيدوس أكثر تألقاً من الكابيتول، وفقاً لجوف-؛-ينال، وزينته أندر وفيه أعلى الأشياء التى يمكن أن تكشف عنها الأرض فى إسراف وفير ولكن المعتقين الإمبراطوريين زينوا روما أيضاً والمدن الأخرى فى المملكة بهياكل فخمة ومفيدة. كليندر، معتق كومودوس القوى، وظف قسماً من ثروته الضخمة فى إنشاء المنازل، والحمامات، ومؤسسات أخرى مفيدة للأفراد وكذلك لمدن بكاملها.”

هذا الازدهار المفاجئ للعبيد الكثيرين والعبيد السابقين كان الأكثر لافتاً للنظر حين يقارن مع التدهور المالى المترامن للأرستقراطية المالكة للارض. إن لذلك شبهاً اليوم فى ظهور الأرستقراطية المالية اليهودية. وتاماً مثل الأرستقراطيين المفلسين بالمولد فى الوقت الحاضر، الذين يكرهون ويحتقرون فى أعماق قلوبهم اليهود الأغنياء، ولكن يتملقونهم حين يحتاجون اليهم، هكذا كانت أيضاً معاملة العبيد الإمبراطوريين والمعتقين.

“سوف تبرز الأرستقراطية الأعلى فى روما كل منها الآخر فى جهودها لتحسن وفادة خدم الإمبراطور الأقوياء، لايهم كيف احتقرت ومقتت بإخلاص هذه الذرية من العائلات القديمة الشهيرة هؤلاء الأشخاص ذوى الأصل المكروه الذين وسما بميسم العبودية الذى لايمحى، والذين كانوا قانوناً فى أكثر من جانب فى موقع أدنى من المتسول الحر.”

كان وضع الخدم الإمبراطوريين متواضعاً جداً من الناحية الاجتماعية، خاضع لوضع أصحاب المقامات رفيعى المولد.

“لكن فى الواقع كانت العلاقة مختلفة تماماً، فى الحقيقة غالباً ما كانت على العكس تماماً. و”العبيد” المحتقرون بلاحدود شعروا برضى لأن الأحرار النبلاء قد أعجبوا بهم وحسدوهم، وأن أكثر العائلات الرومانية بروزا قد وضعت من نفسها بشدة أمامهم؛ قلة هى التى جرأت على أن تعاملهم كخدم. ابتكر تملق فظ شجرة عائلة لپالاس تتبعته أصله حتى ملك أركاديا الذى يحمل نفس الاسم، وأقترح سليل آل سكيبيوس تصويته بالشكر فى مجلس الشيوخ لأن هذا السليل لببت ملكى قد أخضع نبالته القديمة لصالح الدولة وتنازل ليصبح خادماً للأمير. وفقاً لاقتراح أحد القناصل (فى عام ٥٢ ب.م) قدم له صولجان البريتورية وحافطة نقود ضخمة (١٥٠٠٠٠٠٠ سيسترسس) “قبل پالاس الأولى فقط.

تبنى مجلس الشيوخ بعد هذا قراراً بشكر بالاس “عرض هذا القرار علناً على لوحة برونزية بجانب تمثال يوليوس قيصر فى درع كامل، وجرى تمجيد مالك ال ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ سيسترسس” كنموذج للإيثار الصارم. ل. ف-؛-يتيليوس، وهو أب إمبراطور بنفس الاسم، كان رجل فى منصب رفيع، بالرغم من أن ولعه بالندالة قد أثار تعليقاً حتى فى هذه الأيام، فقد عبد بين آلهته المنزلية صوراً ذهبية لبالاس ونارسيسوس

“ولكن لا يمكن لشيء أن يشي هكذا بمركز هؤلاء العبيد السابقين أكثر من حقيقة أنه قد سُمح لهم أن يتزوجوا من بنات العائلات الأرستقراطية، بما فيها هؤلاء الذين يرتبطون بالبيت الملكى، فى الوقت الذى كان فيه كبرياء النبالة فى نسبها القديم وفى سلسلة طويلة لامعة من الأسلاف عظيماً للغاية”.

تدنى المواطنون الرومان، سادة العالم من ثم لأن يصبحوا محكومين بواسطة هؤلاء الذين كانوا أو لا زالوا عبيداً، وأن يحنوا رؤوسهم أمامهم.

من الواضح كيف كان عظيماً رد فعل هذا الوضع على وجهات النظر الجارية فى هذا الوقت. ربما كره الأرستقراطيون العبيد أكثر، لأنهم كانوا مضطرين لأن يذعنوا لهم أكثر، بينما كانت الكتل الشعبية قد أغريت باحترام العبيد، وبدأ العبيد أنفسهم يشعرون بالبهجة.

من ناحية أخرى، ظهرت القيصرية فى الصراع الذى كانت تشنه الديمقراطية، التى تتشكل هى نفسها فى قسمها الأعظم من العبيد، ضد الأرستقراطية مالكى العبيد الكبار. الأخيرون ليس فى غاية السهولة شراءهم مثل الجماهير المفلسة من الشعب، كانوا المنافس الوحيد الخطير الذى كان على القياصرة الطالعون أن يواجهونهم فى الكفاح من أجل سلطة الدولة، وكان كبار ملاك العبيد المعارضة الجمهورية، فى المملكة الإمبراطورية، إذا كان لنا أن نتحدث عن معارضة كهذه على الإطلاق. ولكن العبيد والمعتقين كانوا أكثر مؤيدى الإمبراطورية إخلاصاً.

أنتجت كل هذه التأثيرات بالضرورة موقفاً ودياً لهذا الحد أوداك تجاه العبيد، ليس فقط داخل البروليتاريا، ولكن أيضاً فى البلاط الإمبراطورى، وفى الدوائر التى تبعت البلاط، لقد عبر عن هذا الموقف فلاسفة البلاط على نحو غاية فى التشديد وكذلك مبشرى الطرقات البروليتاريين.

لن نورد أية مقتبسات طويلة تعبر عن مثل هذه الآراء، ولكننا سوف نروى ببساطة حادثة شديدة التميز: عن رحمة الطاغية نيرون بالعبيد والمعتقين. كان نيرون دائماً فى نزاع مع مجلس الشيوخ الأرستقراطى، الذى، كان مذعناً للغاية تجاه الأفراد

المعتقين الأقوياء، بينما تطلب دائماً مع ذلك اتخاذ أقصى الإجراءات بشأن العبيد والمعتقين بصفة عامة. وهكذا فإن مجلس الشيوخ فى عام ٥٦ ب.م طلب أن يكسر "جشع" المعتقين بمنح ملاك العبيد السابقين الحق فى حرمانهم من حريتهم إذا ماتصرف هؤلاء المعتقين "بوقاحة"، أى، ليس بخنوع كاف، تجاه هؤلاء الملاك السابقين. عارض نيرون هذا الاقتراح على نحو مشدد. أشار كيف كان ربيعاً الآن الوضع الذى أحرزه المعتقون، كثير من الفرسان وحتى أعضاء مجلس الشيوخ قد أتوا من بين صفوفهم، ودَّكر بالمبدأ الرومانى القديم بأنه أيا ماكان الاختلاف بين طبقات الشعب المتباينة، إلا أن الحرية ينبغى أن تبقى الملكية العامة للجميع. اقترح نيرون اقتراحاً بديلاً وهو ألا تقلص حقوق المعتقين، وأجبر مجلس الشيوخ الجبان على أن يوافق على اقتراحه.

أصبح الوضع فى العام ٦١ منطوياً أكثر على المخاطرة. فقد قُتل بيدانيوس سيكوندوس، والى المدينة، من قبل أحد عبيده. كان هذا الفعل يستلزم وفقاً للقانون الأرستقراطى القديم، عقوبة فى شكل إعدام كل العبيد الحاضرين فى المنزل وقت القتل، فى هذه الحالة، ليس أقل من ٤٠٠ شخص، بمن فيهم النساء والاطفال. ولكن كان الرأى العام يميل لإجراء أكثر ليناً. كانت جماهير الشعب منحازة فى صالح العبيد، لقد بدا أن مجلس الشيوخ نفسه سوف ينجرِف بالمزاج العام. عندئذ وقف كايوس كاسيوس، وهو قائد معارضة جمهورى فى مجلس الشيوخ، سليل أحد قتلة قيصر، وقف خطيباً، وحذر مجلس الشيوخ فى خطبة نارية ألا يرهَب، وألا يدع مجالاً للرحمة. حيث لايمكن لحتالة البشرية أن تكبح إلا بالخوف. كانت خطبة المحرض هذه فعالة للغاية. لم يناقضه أحد فى مجلس الشيوخ، حتى نيرون اضطر أن يذعن، معتبراً أنه من الأحكم مسالمتة. أعدم كل العبيد. ولكن حين تجرأ الأرستقراطيون الجمهوريون بهذا الانتصار، وقدموا اقتراحاً إضافياً فى مجلس الشيوخ وهو أن يُرحلوا من إيطاليا كل المعتقين الذين عاشوا (فى أى وقت) تحت نفس السقف مع العبيد المدانين، نهض نيرون من مقعده وأعلن أنه بالرغم أن الرحمة والشفقة ربما لا يكون مسموحاً لها بأن تفل القانون القديم، فلا يجب أن يكون الأخير، على أى حال، مُشدداً؛ وأدى هذا لهزيمة الاقتراح.

ذهب نيرون إلى حد أن يعين قاضياً، استناداً إلى سينكا حتى يتقصى عن سوء معاملة العبيد من قبل أسيادهم وأن يفرض حدوداً على قسوة ونزوة السادة وكذلك على شحهم فى تقديم مايؤكل. أنقص نفس الإمبراطور عدد مصارعات المجالدة، وأصر فى بعض الأحيان، استناداً إلى سوتينيوس، ألا يذبح أحد من المشاركين، ولاحتى المجرمين المحكوم عليهم.

لدينا رواية مماثلة تتعلق بطيباريوس. تبين الحقائق التي أوردناها عاليه بوضوح كيف يكون عقيماً تسجيل التاريخ بتلويحه أخلاقياً أو سياسياً، الذي يعتبر مهمته قياس رجال الماضي بالمعايير الأخلاقية والسياسية لأيامنا. يمنح نيرون، قاتل أمه وزوجته، بتساهل حياتهما للعبيد والمجرمين. بينما يضع الطاغية الحرية تحت حمايته حين تهدد من جانب الجمهوريين، ويمارس المختل الشهواني فضائل الإنسانية والإحسان نحو القديسين وشهداء المسيحية، ويطعم الجائع، ويعطى الشراب للظمان، ويكسو العارى – دع القارئ يتذكر كرمه الأميري إزاء البروليتاريا الرومانية – ويناصر قضية الفقير والبائس؛ تسخر هذه الشخصية التاريخية من أى محاولة لتقويمها بالمعايير الأخلاقية. ولكن بالرغم من أنه ربما يكون صعباً وغيبياً أن نحاول التحقق مما إذا كان نيرون فى قرارة نفسه رجلاً طيباً أم وغداً، أو كليهما، كما يفترض عامة اليوم، فإنه من السهل مع ذلك فهم نيرون وأفعاله، تلك التى ننظر إليها بعين العطف وكذلك تلك التى تنفرنا، إذ ننطلق من وجهة نظر عصره ومركزه الاجتماعى.

الرحمة التى أظهرها البلاط الإمبراطورى، وكذلك البروليتاريا، نحو العبيد، لابد وأنها تقوت بشدة بسبب حقيقة أن العبد كف عن أن يكون سلعة رخيصة. من ناحية، مرحلة عمل العبد التى أنتجت دائماً أكثر القساوات فظاعة، أى، استغلالاً من أجل الربح، قد بلغت نهايتها. بقى هناك فقط عبيد الترف الذين بسبب طبيعة عملهم ذاته تلقوا معاملة أفضل. أصبح العبيد نسبياً عنصراً أكثر أهمية بمجرد أن أصبح العبيد أندر وأعلى، كلما أصبحت الخسارة التى يسببها موت العبد فى غير الأوان أعظم، وكلما أصبح من الصعب استبدال العبد.

أخيراً، كانت هناك تأثيرات أخرى تعمل فى نفس الاتجاه: النفور المتزايد من الخدمة العسكرية، الذى كان يدعو عدداً متزايداً من ساكنى المدينة لأن يتراجع عن إراقة الدماء؛ وايضاً نظرية الأممية، التى علّمت أن كل إنسان يجب أن يقدر دون نظر لأصله، وهكذا تزيل الاختلافات القومية والتعارضات.

هـ – الأممية

لقد أشرنا سلفاً إلى كيف كان عظيماً تطور المواصلات العالمية فى العصر الإمبراطورى. وَحَدَّ نظام من الطرق الممتازة روما بالولايات والأخيرة فيما بينها. كانت المواصلات التجارية بينها بصفة خاصة قد حفزها السلام داخل الامبراطوية الذى أعقب الحروب الأبدية بين المدن والدول المختلفة، والحروب الأهلية التالية التى حفلت بها القرون القليلة الأخيرة من تاريخ الجمهورية. بفضل هذا الوضع، كانت القوة البحرية القومية فى العصر الإمبراطورى متاحة تماماً لمكافحة

القرصنة، لم تغب الأخيرة، كلية أبدأ من البحر الأبيض المتوسط قبل هذا، لكنها توقفت الآن. باتت المقاييس والأوزان والنقود الآن متماثلة في كامل الإمبراطورية، ساعدت كل هذه العناصر بقدر عظيم في التعامل بين أقسامها المتنوعة.

كان هذا التعامل بشكل جلى شخصياً في طابعه. كانت الاتصالات البريدية عندئذ، على الأقل بقدر ما يخص الأمر الخطابات الخاصة، قد تطورت بشكل طفيف، أى أحد كان لديه عمل يؤديه في الخارج وجد نفسه مضطراً لأن يدير هذا العمل شخصياً بالسفر إلى الموقع، غالباً أكثر مما هو الحال الآن.

وهكذا فإن الشعوب التي كانت تسكن حول البحر الأبيض المتوسط قد جُمعت أكثر عن قرب معاً وسويت خصائصها المحلية أكثر فأكثر. مما لاريب فيه، لم تتقدم الإمبراطورية بكاملها إلى الحد الذي كونت فيه كتله متماثلة معاً. لقد كان من الممكن دائماً تمييز شقين، الغربى، الذى تحدث اللاتينية، وتأثر بالرومنة، والشرقى، الذى تحدث الإغريقية وتأثر بالهيلينية، وحين قضى على سلطة وحكم العالم من روما وتقاليدها، حين لم تعد روما عاصمة الإمبراطورية، فإن هذين القسمين انفصلا بكل من المعنى السياسى وكذلك الدينى.

ولكن لم تكن هناك بعد فى الأيام الباكورة من العصر الإمبراطورى إمكانية هجوم خطير على وحدة الإمبراطورية. كانت هذه هى اللحظة التي كان فيها التمييز بين الأمم الخاضعة والمدينة المهيمنة يختفى. بمجرد أن فقدت روما قوتها، بدأ القياصرة فى عدم اعتبار أنفسهم بعد حكاماً للإمبراطورية بكاملها، كسادة روما والولايات، كسادة للولايات باسم روما. أطعمت روما – كلاً من الارستقراطية والشعب – بواسطة الولايات، ولكنها لم تعد قادرة على أن تنتج من مصادرها الخاصة جنوداً كافين وموظفين رسميين للسيطرة على الولايات، لم تعد روما الآن عنصر قوة فى إمبراطورية القياصرة، وإنما عنصر ضعف. ما أخذته روما من الولايات لم يذهب للقيصرة، ولم يكن هناك مكسب مكافئ للأخيرين. لقد أكره الأباطرة من ثم بسبب مصلحتهم الخاصة على أن يعارضوا وفى النهاية يقضوا على مركز روما المتميز فى الإمبراطورية.

كان حق المواطنة الرومانية يمنح بكرم الآن لسكان الولايات. ونجد الأخيرين يدخلون مجلس الشيوخ ويحتلون مناصب عليا. كان القياصرة أول من وضع فى التطبيق العملى مبدأ مساواة كل البشر دون اعتبار لأصلهم: كان كل البشر خاضعين لهم بشكل متساو ولقوا تقديرأ منهم فقط حسب فائدتهم، بغض النظر عن الشخص، وما إذا كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ أو عبيد، روماناء، سوريين، أو غاليين. حوالى بداية القرن الثالث، تقدم تلاحم وتسوية الأجناس إلى حد أن كراكلا استطاع

تحمل منح حقوق المواطنة الرومانية، لكل سكان الولايات، وهكذا فى آن معاً مزياً كل الاختلافات بين الحكام السابقين والمحكومين، توقفت كل هذه الاختلافات فى الحقيقة منذ وقت طويل عن الوجود. لقد كان واحد من أكثر الأباطرة بؤساً هو الذى عبر بوضوح هكذا عن واحدة من أكثر أفكار هذه الحقبة سموا، فكرة تدعى المسيحية أنها خاصة بها، والسبب الذى حرك الطاغية لاتخاذ هذا القرار – كان (سبياً) بائساً – وهو العوز الاقتصادى.

كان المواطنون الرومان معفين من الضرائب من الوقت الذى كانت الغنيمة قد بدأت فيه تتدفق بوفرة من الولايات المهزومة. “أتى إميلوس باولوس ومعه، ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ سيسترسس من الغنيمة المقدونية، للخزانة بعد أن هزم بيرسيوس. لم يدفع الرومان ضرائب منذ هذا الوقت فصاعداً“. ولكن بدءاً بعهد أغسطس، جعل العوز المالى المتزايد من الضرورى تدريجياً إعادة فرض الضرائب فى شكل أعباء جديدة حتى على المواطنين الرومان. جعل “إصلاح” كراكلا الآن سكان الولايات مواطنين رومان، حتى يضطروهم لدفع الضرائب كمواطنين رومان بالإضافة إلى ضرائبهم الاعتيادية، وقد ضوعفت الأولى بشكل متزامن من قبل هذا العبرى المالى الإمبراطورى. الجانب الآخر من القصة هو أنه زاد من ميزانية الجيش ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني ولسنا مندهشين من أن “إصلاحه المالى” كان ذو فائدة ضئيلة، وأنه كان عليه أن يلجأ لطرق أخرى، كانت أكثرها وقاحة التضخم وتزييف النقود.

كان التفسخ العام مواتياً من جانب آخر بالنسبة لانتشار الأفكار الأممية واختفاء التحيزات القومية.

إن نقص السكان والفساد فى روما، انطلق بسرعة شديدة مع الرومان، إذ بعد أن كفوا عن تقديم جنود، سرعان ما توقفوا أيضاً عن أن ينتجوا موظفين رسميين ملائمين. نستطيع أن نتعقب هذا النقص حتى فى الأباطرة. كان الأباطرة الأوائل مازالوا من نسل عائلات روما الأرستقراطية القديمة، من عشيرتى جوليان وكلوديان. ولكن الإمبراطور الثالث من سلالة جوليان، كاليجولا، كان مجنوناً. ونبيرون علامة على الافلاس الكامل لقدرة الأرستقراطية الرومانية على الحكم. خلف نيرون جالبا، كان أيضاً من عائلة رومانية عامية، ولكن تلاه أوتو من عائلة إتروسكانية مبرزة، وف-؛-يتيليوس، عامى من أبوليا. أخيراً، ف-؛-سباسيان، الذى أسس السلالة، كان عامياً من أصل سابيني. ولكن العامة الإيطاليين ITALICS سرعان ماتبين أنهم فاسدين وغير أكفاء للحكم مثلما كان الأرستقراطيون الرومان تماماً، ودومتيان البائس، ابن فسباسيان، قد خلفه بعد حكم نيرفا القيصر الإسباني

تراجان. يبدأ مع الأخير حكم الأباطرة الإسبان، الذى استمر لقرن تقريباً، حتى دللوا هم أيضاً على الإفلاس السياسى، فى شخص كومودوس.

أسس سيپتيموس سيفيروس، بعد إنهاء الخط الإسبانى سلالة أفروسورية. فوراً عقب قتل الإسكندر سيفيروس الإمبراطور الأخير فى هذا الخط، ذهب التاج إلى ثراسيانى، من أصل قوطى، وقدم الى، ماكسميين، من قبل الفيالق (الرومانية)، نذير بالزمن الذى سوف يحكم فيه القوط فى روما. هوجمت الولايات أكثر فأكثر بالعملية العامة للانحلال، وأصبح من الضرورى أكثر فأكثر تنشيطها بالبرابرة، أى الدم غير الرومانى، حتى ينفخوا حياة جديدة فى الإمبراطورية المحتضرة، وكان يجب البحث الآن عن الجنود أبعد فأبعد عن المراكز الأساسية للحضارة، ليس الجنود فحسب، بل حتى الأباطرة.

لقد رأينا أنفاً العبيد يحكمون بوصفهم حاشية الرجال الأحرار، ونحن نرى الآن الولاياتيون PROVINCIALS، حتى البرابرة الذين وضعوا على العرش كأباطرة، يحكمون باعتبارهم كائنات لها حق العبادة الإلهية. اختفى كل التحيز العرقى والطبقى للعصور القديمة الوثنية بالضرورة، واتجه شعور بالمساواة يتأكد أكثر فأكثر.

برهنت كثير من العقول على هذا الموقف فى مرحلة مبكرة، قبل أن تجعله الظروف الموصوفة آنفاً ظاهرة متكررة. وهكذا يكتب شيشرون بالفعل (DE OFFICIIS، 3، 6):

“إن من يدافع عن أننا يجب أن نقدر مواطنينا، والا نقدر الغرباء، ينتهك الروابط العالمية للجنس البشرى، وهكذا يلغى جوهرياً الإحسان، والكرم، والعطف والعدالة”. يخطط مؤرخونا الأيديولوجيون هنا مرة أخرى السبب بالنتيجة ويحاولون أن يستخدموا مثل هذه الجمل (التي يجدها “الورع” فى الأناجيل، و”المستنير” فى الفلسفات الوثنية) كأسباب لتفسير ترقيق العادات وتوسيع مفهوم الأمة ليشمل كل البشرية. الصعوبة الوحيدة هى أنهم يواجهون بحقيقة أن النفوس النبيلة والسامية التى يزعمون أنها أحدثت هذه الثورة فى عقول البشر قد ترأسها مجرمون وشهوانيون مثل طيباريوس، نيرون، كراكلا، وكذلك كوكبة من الفلاسفة العصريين المسرفين فى الأناقة والمحتالين، مثل سينيكا، بلىنى الأصغر، أبولونيوس من تيرانا، وأفلوطين.

لا بد وأن نشير على نحو عابر، إلى أن المسيحيون الأرستقراطيون، لم يجدوا من العسير أن يتكيفوا مع مجتمع عصبة النبلاء هذه، ودعنا نقدم مثلاً واحداً فقط على

ذلك. من بين المحظيات من الأناث والذكور الذين احتفظ بهم الإمبراطور كومودوس (٢٩١-٠٨١ ب.م) - دُكر حريم مؤلف من ٣٠٠ فتى و ٣٠٠ فتاة - كان شرف احتلال المكانة الأولى لمارسيا، وهي مسيحية ورعة، ابنة بالمعمودية لهاكينيثوس، كاهنة المجمع المسيحي في روما. لقد كان نفوذها عظيماً إلى حد أنها أمنت تحرير عدد من المسيحيين المرحلين. ولكنها أخيراً وجدت عشيقها الإمبراطور مثيراً للغثيان إلى حد ما، وربما خافت من أن تعطشه للدماء قد يكلفها حياتها. باختصار، اشتركت في المؤامرة ضد حياة الإمبراطور وأخذت على عاتقها أن تنفذ الاغتيال. في ليلة ٣١ ديسمبر ١٩٢، أعطت هذه السيدة المسيحية الورعة عشيقها الذي لم تراوده الشكوك قدحاً من السم، وحيث لم يسر مفعولة بسرعة كافية، خُنق الإمبراطور، الذي لم يكن واعياً بالفعل.

مميزة بنفس القدر قصة كاليستوس، الذي حظى بحماية مارسينا.

“كان لدى كاليستوس هدايا خاصة للعمل المالي في سنواته الباكورة، وقد احتفظ ببنك. كان في البداية عبداً لمسيحي مبرز، الذي أعطاه قدراً معتبراً من المال ليقرضه بفائدة. واستناداً على قوة متانة مركز سيده حصل على نقود الآرامل وآخرين، وشارف أخيراً حافة الإفلاس، وسأله سيده عندئذ عن الحساب. فهرب، ولكنه أسر، وأرسله السيد إلى طاحون التعذيب. إذ حصل على حريته من خلال توسلات إخوته المسيحيين، أرسله الوالي عندئذ إلى المناجم السردينية، ونال عطف مارسيا، أكثر عشيقات الإمبراطور كومودوس قوة. فأطلق سراحه بناء على طلبها، وعين بعدها بوقت قصير أسقفاً لروما.

يعتبر خالتوف من الممكن أن الروايتين الواردتين في الأناجيل التي تتعلق بالقهرمان الكافر الذي “يصنع أصدقاء بمال الظلم”. (لوقا ١٦١ -، ١ - ٩) والمرأة الخاطية، التي غفرت خطاياها، “الكثيرة لأنها أحببت كثيراً” (لوقا ٧، ٣٦ - ٤٨). قد ضمنت في الأناجيل حتى تقدم تفسيراً إلهياً وقراراً للشخصيتين المشكوك فيهما لمارسيا وكاليستوس، اللذين كانا شديدي البروز في المجمع المسيحي في روما. قد يخدم هذا أيضاً كإسهام في تاريخ أصل الأناجيل.

لم يكن كاليستوس الأسقف والبابا الأخير الذي يدين بمنصبه لعشيقته، ولم يكن قتل كومودوس آخر عمل للعنف المسيحي: بدأ التعطش للدماء وقسوة كثير من الباباوات والأباطرة، من أزمنة قنسطنطين المقدس، وهي معروفة جيداً حتى تستلزم ذكرها.

“ترقيق وترفع آداب السلوك” الذي رافق إدخال المسيحية كان من ثم إلى حد ما ذو طبيعة خصوصية. ولفهم حدوده وتناقضاته، فمن الضروري أن ندرس جذوره

الاقتصادية، حيث لن تفسره المذاهب الأخلاقية الرفيعة لهذه الأزمنة. ويصدق نفس القول على أممية تلك الأيام.

و- الاتجاه إلى الدين

مواصلات بامتداد العالم وعملية تسوية سياسية كانتا سببان قويان في تزايد الأممية، ولم تكن هذه الزيادة لتصل النسب التي بلغت، إذا لم تكن بسبب انحلال كل هذه الروابط التي لحمت الجماعات القديمة، وعزلت في آن معاً كل منها عن الأخرى. التنظيمات التي حددت كامل حياة الفرد في العصور القديمة، وزودته بدعم وإرشاد فقدت كثيراً من مغزاها وقوتها في الفترة الإمبراطورية. ولا ينطبق هذا فقط على تلك التنظيمات التي أسست على روابط الدم، مثل أخوية العشائر، متضمنة حتى الأسرة، وإنما أيضاً على تلك المؤسسة على الوحدة الإقليمية، على إقامة مشتركة في نفس الموطن، كما في حالة العشيرة والجماعة. نتج هذا، كما رأينا، عن سعي عام، من جانب الأشخاص الذين فقدوا هكذا دعمهم الأخلاقي، من أجل نماذج وقادة، بل وحتى مخلصين، ولكنه حث البشر أيضاً على السعي إلى تأسيس تنظيمات اجتماعية جديدة، تلبي على نحو أفضل الحاجات الجديدة أكثر مما فعلت الأشكال التقليدية، التي أصبحت مجرد عبء أكثر فأكثر.

نجد بالفعل اتجاهاً عاماً قرب نهاية الجمهورية نحو تشكيل النوادي والجمعيات، خاصة لأغراض سياسية، ولكن أيضاً لأغراض تقديم مساعدة خيرية. لقد حلت هذه من قبل القياصرة، لأن الاستبداد لا يخشى شيئاً بقدر ما يخشى التنظيمات الاجتماعية. تكون قوة الاستبداد أعظم حين تمثل سلطة الدولة التنظيم الاجتماعي الوحيد، بينما يواجه مواطني الدولة تلك السلطة كأفراد مبعثرين فقط.

“يروى لنا سويتينيوس (القيصر، الفصل ٤٢) أن قيصر بالفعل “حل كافة الجمعيات سوى التي كانت غاية في القدم بينما يقول عن أغسطس:

“نظمت كثير من الأحزاب فرَقاً PLURIMOE FACTIONES تحت اسم كوليجيوم* لممارسة كل الفطاعات الممكنة حل هذه الكوليجيومات باستثناء تلك التي كانت غاية في القدم ومعترف بها قانوناً”.

يجد مومسن هذه التدابير جديرة بالثناء تماماً. لاشك، لأن المحتال البارع وعديم الضمير قيصر يبدو له كرجل دولة حقيقي “خدم الشعب ليس من أجل مكافأة، ليس حتى مكافأة لحبه” ولكن “من أجل نعمة الرفاهية، وفوق كل شيء للتصريح بإنقاذ وتجديد أمته”. لفهم هذا التقويم لقيصر، يجب أن يتذكر القارئ أن مؤلف مومسن ظهر في الأعوام التي تلت مباشرة معركة يونيو (ظهرت الطبعة الأولى في ١٨٥٤)

حين كان الليبراليون يمجدون نابليون الثالث، وخصوصاً الألمان، باعتباره منقذ المجتمع، حيث جعل نابليون نمطاً معيناً من عبادة القيصر عصرية.

بعد توقف النشاط السياسى (ونشاط) الجمعيات السياسية، تحول هؤلاء الذين يرغبون فى التواصل الاجتماعى إلى جمعيات أكثر براءة، خاصة الجمعيات المهنية والجمعيات الخيرية لإعانات المرضى والمتوفين، ومساعدة الفقراء، جمعيات (إطفاء) الحريق الطوعية، ولكن نمت أيضاً هيئات تزجية أوقات الفراغ، المطاعم، الجمعيات الأدبية، وماشابه، مثل نبات الفطر. ولكن القياصرة كانوا شاكين جداً لحد أنهم لم يحتملوا حتى هذه التنظيمات، لأن الأخيرة ربما تخدم كقناع لجمعيات أخطر نشاطاً.

ربما مانزال نقرأ فى المراسلات بين بلينى وتراجان رسائل يتحدث فيها بلينى عن حريق هائل دمر نقوديميا ويوصى بالتصريح بتأسيس جمعية حريق طوعية COLLEGIUM FABRORUM لا يزيد عددها عن ١٥٠ رجل، حيث يمكن إبقاء مثل هذا العدد بسهولة تحت المراقبة. ولكن تراجان وجد حتى هذا القرار خطراً ورفض التصريح الذى طلب.

تبين لنا رسائل تالية (رقم ١١٧ ورقم ١١٨) أنه حتى تجمعات الأشخاص فى مناسبات الزواج أو الاحتفالات الأخرى للأغنياء، التى كانت توزع فيها النقود، بدت لبلينى وتراجان بوصفها خطراً على الدولة.

ولكن مؤرخينا يمجدون تراجان باعتباره واحداً من أفضل الأباطرة.

وجدت غريزة التنظيم نفسها مضطرة تحت هذه الظروف إلى أن تنخرط فى نشاط سرى. عنى اكتشاف ذلك، على أية حال، عقوبة إعدام للمشاركين. من الواضح أن مجرد التسليلات أو حتى الميزات التى تصبح حقاً للفرد فقط، رغم انها قد تضمن تحسيناً فى وضعه الشخصى، لايمكن أن تكون قوية بما يكفى حتى تحمل أى إنسان على أن يخاطر بعنقه. يمكن لمثل هذه التنظيمات أن تحافظ على نفسها وكذلك على هدفها بشئ يتعالى على مجرد الميزة الشخصية، وهو ما سوف يبقى حتى إذا هلك الفرد، غير أن مثل هذه التنظيمات يمكن أن تكتسب قوة فقط، إذا كان هذا الهدف يتوافق مع مصلحة اجتماعية وحاجة قوية ومقدرة بشكل شامل، مصلحة طبقية أو مصلحة عامة، مصلحة تشعر بها على نحو أكثر عمقاً جماهير كبرى، ومن ثم قدرة على حفز أكثر أعضائها حيوية وإيثاراً على المخاطرة بحياتهم حتى يلبوا متطلباتها. بمعنى آخر، فقط مثل هذه التنظيمات يمكن أن تحافظ على نفسها فى الفترة الإمبراطورية لأنها تابعت موضوعاً اجتماعياً بعيد المنال، مثلاً أعلى. ليس مجرد

الكفاح من أجل مميزات عملية، أو من أجل الحفاظ على المصالح العرضية، هو الذي يعطى الحياة والقوة لأى تنظيم، وإنما الحماس الأكثر ثورية أو مثالية.

ليس هناك ما يجمع هذه المثالية مع المثالية الفلسفية. قد تكون متابعة الأهداف الاجتماعية الكبرى نتاج فلسفة مادية أيضاً، وفى الحقيقة فإن الطريقة المادية، التي تؤسس نفسها على التجربة، وعلى دراسة العلاقات الضرورية للسبب والنتيجة فى تجاربنا، قد تؤدي لاقتراح أهداف اجتماعية كبرى خالية من الأوهام. ولكن كانت كل المتطلبات الضرورية لوجود هذه الطريقة مفتقدة فى الفترة الإمبراطورية. أمكن للفرد أن يتجاوز نفسه فقط بواسطة صوفية خاضعة لسلطان القيم الأخلاقية، وهكذا تتحقق رؤية الأهداف التي تتعالى على الصالح الشخصى والعرضى، بمعنى آخر بواسطة هذا النمط من التفكير الذي يعرف باعتباره دينياً فقط. بقيت فقط الجمعيات الدينية فى الفترة الإمبراطورية. ولكن سيكون لدينا فهم خاطئ لها إذا ما كان شكلها الدينى، وصوفيتها الخاضعة لسلطان القيم الأخلاقية، جعلنا نغفل المضمون الاجتماعى الكامن فى كل هذه التنظيمات، الذي أعطاها قوتها: التوق لإيقاف الظروف المحزنة القائمة، التطلع لأشكال اجتماعية أعلى، ومن أجل تعاون أوثق وعون متبادل لهؤلاء الأفراد الكثيرين الآن بلا مأوى عقلى، الذين استنبطوا شجاعة جديدة ومرحاً من التجمع معاً من أجل إنجازات عليا.

ولكن تضمنت هذه التنظيمات الدينية خطأ جديداً للإنقسام فى المجتمع، فى ذات اللحظة التي كان يتوسع فيها مفهوم القومية، على الأقل بقدر ما تعلق الأمر ببلدان البحر الأبيض المتوسط، نحو ذلك الذي يخص الإنسانية. لم تضعف التنظيمات الاقتصادية البحتة التي هدفت لمساعدة الفرد فقط فى جانب أو آخر، من ارتباط الفرد بالمجتمع القائم ولم تعطه اهتماماً جديداً بالحياة. ولكن كان الأمر مختلفاً مع الجمعيات الدينية، التي تابعت مثلاً اجتماعياً أعلى تحت زى دينى. كان هذا المثال متعارضاً تماماً مع النظام القائم للمجتمع، ليس فى مسألة واحدة فقط، ولكن فى كل الجوانب الممكنة. تحدث المدافعون عن هذا المثال نفس اللغة مثل بينتهم، ومع ذلك لم يفهموا من قبلهم، وفى كل خطوة واجه العالمين، القديم والجديد، كل منهما الآخر بطريقة عدائية، بالرغم من أن كليهما عاش على نفس الأرض. وهكذا نشأت معارضة جديدة بين البشر. فى ذات اللحظة التي بدأ فيها الغالى والسورى، الرومانى والمصرى، الإسبانى والإغريقى، يفقد فيها هويته القومية، ظهر هناك الاختلاف الكبير بين المؤمنين وغير المؤمنين – القديسون والخطاة، المسيحيون والوثنيون، الذى سرعان ما قسم العالم كما لو كان بهادية.

كلما أصبح هذا التضاد أحدًا، كلما بات الصراع أكثر تشديداً، وتزايد أيضاً عدم التسامح والتعصب، وهو ملازم ضرورى لأى صراع مؤلفاً مثل الصراع نفسه، عنصراً ضرورياً للتقدم والتطور، إذا أعطى قوة وحيوية لقوى التقدم. ولكن دع القارئ يلاحظ أننا نستعمل كلمة "عدم التسامح" ليس باعتبارها تعنى قمعاً قهرياً لكل الآراء غير الملائمة، ولكن رفضاً حيويًا ونقدًا لكل وجهات النظر المختلفة، مصحوبة بدفاع حيوى عن وجهات نظر المرء الخاصة. يمكن للجبن والتراخي فقط أن "يتسامح" بهذا المعنى، حيث تكون مسائل الحياة العظمى والشاملة على المحك.

مما لا ريب فيه، فإن هذه المصالح تخضع لتغير دائم، فمسألة حياة أو موت أمس، ربما تكون اليوم مسألة لأهمية لها، من الصعب أن تكون جديرة بالقتال من أجلها. من ثم فإن دفاعاً تعصبياً عن مثل هذه النقطة كان مازال ضرورة أمس ربما يكون اليوم مناسبة لطاقة مُبددة، وعلى ذلك له تأثيرات غاية فى سوء الحظ.

وهكذا فإن عدم التسامح الدينى والتعصب الدينى لكثير من الطوائف المسيحية التى كانت تحرز قوة فى هذا الوقت شكّل واحداً من القوى التى سرّعت التطور الاجتماعى، مادامت الأهداف الاجتماعية كانت فى متناول الجماهير حين ترتدى رداء دينياً فقط، بمعنى آخر، من العصر الإمبراطورى حتى عصر الإصلاح. ولكن هذه الصفات أصبحت رجعية، وشكلت وسائل لإعاقة التقدم، حين أبطلت مناهج العلم الحديث نمط التفكير الدينى، انتهينا إلى أن من يتعلق به هي الطبقات والفئات المتخلفة من السكان أو الأقاليم المتخلفة فقط، وربما لا يستمر بأى طريقة فى أن يخدم كغلاف لأهداف اجتماعية جديدة.

كان عدم التسامح الدينى سمة جديدة تماماً فى نمط تفكير المجتمع القديم. وأياً ما كان عدم تسامح الأخير من وجهة نظر قومية، حيث قليلاً ما كان يحترم الغرباء، فضلاً عن الأجانب الذين استعبدتهم أو قتلهم، بالرغم من أنهم ربما لم يقاتلوا كجنود، فإن المجتمع القديم مع ذلك لم يحلم باحتقار أحد بسبب قناعاته الدينية. هذه الحالات التى ربما تعد اضطهاداً دينياً، مثل، محاكمة سقراط على سبيل المثال، يمكن أن تفسر كنتيجة للاتهامات السياسية التى لم تكن دينية فى طابعها.

كان النمط الجديد فى التفكير الناشئ فى العصر الإمبراطورى أول من حمل معه عدم التسامح الدينى، وقد فعل ذلك على كلا الجانبين، المسيحى وكذلك الوثنى، على الجانب الوثنى، لم يتضمن عدم التسامح كل الديانات الأجنبية بالطبع، ولكن فقط تلك التى كانت تبشر بمثال اجتماعى جديد تحت غطاء دينى، مثال، يتعارض على نحو مطلق مع نظام المجتمع القائم.

استبقى الوثنيون في كل الحالات الأخرى، التسامح الدينى الذى مارسوه سابقاً، فى الواقع، لقد كان تحديداً فى هذه الأزمنة الإمبراطورية من الاتصال الدولى أن تأسست أممية معينة للعبادات، حيث أخذ التجار الأجانب والرحالة الآخرين دائماً ألتههم معهم أينما ذهبوا، وكانت الآلهة الغربية عندئذ تقدر عالياً أكثر من الآلهة المحلية، لأن الأخيرة لم تكن ذات نفع كبير، لأنها أظهرت عجزها. قاد نفس شعور اليأس الذى نتج عن التفسخ العام أيضاً إلى فقدان الإيمان فى الآلهة القديمة دافعاً كثيراً من النفوس الاشجع والأكثر استقلالاً أن تتجه إلى الإلحاد والشكية، نحو شكوك فى كل إله، وحتى فى كل فلسفة بينما توجهت العناصر الأكثر جبناً، وضعفاً، على أية حال، للبحث عن مخلص جديد، الذى يمكن أن تجد فيه دعماً وأملاً كما رأينا. ظن كثيرون أنهم وجدوا هذه الصفة فى القياصرة، الذين جُعلوا آلهة. ظن آخرون أنه من الأحكم التوجه نحو الآلهة التى وقُرت لزمان طويل باعتبارها كذلك، ولكنها لم تجرب بعد فى بلدها المختار. كانت النتيجة أن الديانات الأجنبية أصبحت شعبية.

فى هذه المنافسة الدولية بين الآلهة، على أى حال، هزم الشرق الغرب، جزئياً بسبب أن الديانات الشرقية كانت أقل سذاجة، وأكثر تشبعاً بالفلسفة الغنية للمدن الكبرى، لأسباب سوف نعلمها فيما بعد، ولكن جزئياً أيضاً بسبب أن الشرق كان يهزم الغرب فى المجال الصناعى.

كانت حضارة الشرق القديم أرفع جداً من حضارة الغرب عندما نهبها أولاً المقدونيون وفيما بعد الرومان. ربما يظن القارئ أن التسوية الدولية التى كانت قد بدأت آنئذ قد انطوت أيضاً على مساواة صناعية، رافعة الغرب بالضرورة لمستوى الشرق، ولكن العكس هو ما نتج بالفعل. لقد رأينا أنه بدء من نقطة معينة هناك عملية عامة من التفسخ فى العالم القديم، عاقبة جزئياً لهيمنة العمل الإجبارى على العمل الحر، وجزئياً لنهب الولايات من قبل رأس المال الربوى. ولكن ينطلق هذا الانحلال على نحو أكثر سرعة فى الغرب منه فى الشرق، انتهاءً إلى نتيجة أن رقى الأخير الثقافى لقرون عديدة، بدءاً من القرن الثانى من عصرنا، وحتى حوالى ١٠٠٠ ب.م لا يتناقص بل يتزايد. يجرى الفقر، البربرية، نقص السكان بخطوات أسرع فى الغرب منها فى الشرق.

يوجد سبب هذه الظاهرة فوق كل شيء فى الرقى الصناعى للشرق والزيادة الدائمة لاستغلال الطبقات العاملة عبر الإمبراطورية. تدفقت الأرباح الفائضة التى أنتجتها الأخيرة فى قسمها الاعظم إلى روما، مرتكز كل المستغلين الكبار، من كل الولايات الرومانية. ولكن من كل الفائض الذى تراكم فى روما، الذى اتخذ شكل نقود، تدفق

نصيب الأسد إلى الشرق. لأن الشرق فقط هو الذى أنتج كل مواد الترف المرغوبة من المستغلين الكبار. لقد كان الشرق هو من قدم الترف، والعبيد، وأيضاً المنتجات الصناعية، مثل الزجاج والأرجوان فى فينيقيا، الكتان والملابس المطرزة فى مصر، الأصواف الجيدة والجلود فى آسيا الصغرى، السجاد فى بابل. وكانت الخصوبة المتناقصة لإيطاليا تجعل مصر مخزن حبوب روما، لأنه، بفضل فيضانات النهر، الذى غطى تربة مصر بطمي خصب جديد كل عام، كانت زراعة وادى النيل لا تنتضب.

مما لا ريب فيه، أن كثيراً مما قدمه الشرق كان يؤخذ بالقوة فى شكل ضرائب وفوائد ربوية، ولكن بقيت كمية معتبرة وجب أن يدفع مقابلها بثمار الاستغلال فى الغرب، الذى كان يتزايد فقره.

كانت المواصلات مع الشرق قد بدأت تتوسع ماوراء حدود الإمبراطورية. أصبحت الإسكندرية ثرية، ليس فقط من خلال بيع المنتجات الصناعية المصرية ولكن أيضاً بلعب دور الوسيط فى التجارة مع الجزيرة العربية والهند، بينما بدأ طريق تجارى إلى الصين من سينوب SINOPE على البحر الأسود. قدر بلىنى فى مؤلفه التاريخ الطبيعى أن حوالى ١٠٠٠٠٠٠٠٠ سيسترسس (أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني) كانت تنتزع من الإمبراطورية سنوياً لدفع ثمن الحرير الصينى، الجواهر الهندية والتوابل العربية، دون عوض ذو قيمة فى شكل سلع، وأيضاً دون إجبار الاراضى الأجنبية بأى طريقة على أن تدفع جزية أو فائدة. كان ينبغى أن تدفع كل الكمية بالمعدن الثمين.

ولكن مع البضاعة الشرقية، جاء التجار الشرقيون أيضاً إلى الغرب، أحضروا أشكال عبادتهم معهم. كانت هذه تلبي تماماً احتياجات الغرب، بسبب حقيقة أن شروطاً اجتماعية مماثلة قد وجدت سلفاً فى الشرق، بالرغم من أنها قد لا تكون قد تطورت بمثل تلك النسب الكارثية التى كانت قد بلغت الآن عبر الإمبراطورية الرومانية. إن فكرة الخلاص بواسطة إله جرت حيازة نعمة الطيبة بواسطة التخلي عن المسرات الارضية كانت خصوصية بالنسبة لمعظم هذه العبادات التى انتشرت بسرعة الآن خلال الإمبراطورية، خاصة بالنسبة للعبادة المصرية لإيزيس، والعبادة الفارسية لميثرا.

“إيزيس بصفة خاصة، التى بدأت عبادتها فى روما فى زمن سولا، ونالت عطفًا إمبراطورياً فى ظل ث-؛-سباسيان، كانت تنتشر الآن إلى أقصى نقطة غرباً، وحازت تدريجياً مغزى ضخماً كلى الانتشار، أولاً كإلهة للشفاء، خاصة بالمعنى البدنى الضيق كانت عبادتها حافلة بالمواكب العظيمة، وأيضاً بالضرب، التكفير،

والالتزام الصارم، خاصة في الأسرار. لقد كان تحديداً التوق الدينى، الأمل في اغتفار الخطايا، الرغبة في الكفارات القاسية والأمل في الحصول على خلود مقدس بالخضوع الكامل لإله، هي التي شجعت انتشار مثل هذه العبادات الغريبة في الأولمب الإغريقى أو الرومانى، الذى كان سابقاً غير مبال بالأحرى بمثل هذه الاحتفالات الغامضة، والنشوات المبهجة، والممارسات السحرية، نكران الذات، خضوع لا حدود له لإله، نكران زهدى للذات والتكفير كشرط للتطهر والقداسة. كانت مازالت العبادة السرية لميثرا أكثر قوة، التي انتشرت بصفة خاصة بواسطة الجنود، والتي ادعت أيضاً تحقيق الخلاص والأبدية ؛ أصبحت هذه العبادة معروفة أولاً في زمن طيباريوس".

أصبحت نظرات الهند الشرقية رائجة أيضاً في الإمبراطورية الرومانية، على سبيل المثال، أبولونيوس من تيانا، الذى كانت لدينا فرصة ذكره آنفاً، قام برحلة خاصة إلى الهند لدراسة المذاهب الفلسفية والدينية المتداولة في ذلك البلد. لقد سمعنا أيضاً فيما يتعلق بأفلوطين أنه قد رحل إلى فارس حتى يصبح ملماً على نحو أفضل بالحكمة الفارسية والهندية.

لم تخفق كل هذه النظرات والعبادات في أن تترك أثراً بين المسيحيين الذين كانوا يجاهدون من أجل الخلاص والتسامى؛ لقد كانت واحدة من أكثر التأثيرات قوة على عبادة وخرافات المسيحية.

"إيسيببوس، أب الكنيسة، عامل هذه العبادة المصرية باحتقار باعتبارها "حكمة الجعارين"، مع أن أسطورة العذراء مريم هي مجرد صدى لأساطير نشأت على ضفاف النيل.

"كان أوزيريس يمثل على الأرض بالعجل أبيس، كما حملت أم أوزيريس به بدون تدخل إله، فقد كان ضرورياً أيضاً لممثله على الأرض أن يحمل به بواسطة بقرة عذراء دون مساعدة ثور. يخبرنا هيرودوت أن أم أبيس قد خصبت بواسطة شعاع شمس، بينما وفقاً لبلوتارخ فقد حملت من شعاع القمر".

"مثل أبيس، لم يكن ليسوع أب، فقد حُمل به بواسطة شعاع ضوء من السماء، كان أبيس عجلاً، ولكنه مَثَلُ إلهاء، وكان يسوع إلهاء مَثَلُ بِحَمَلٍ، غير أن أوزيريس نفسه كان يمثل أيضاً باعتبار أن "له رأس كبش".

في الواقع لاحظ معلق ساخر SCOFFER، ربما في القرن الثالث، حينما كانت المسيحية قوية تماماً بالفعل، بأنه لم يكن هناك اختلاف عظيم جداً في مصر بين المسيحيين والوثنيين: "هؤلاء الذين عبدوا سرايبس في مصر هم أيضاً مسيحيون،

وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم أساقفة مسيحيين هم أيضاً عبدة سرايبس ؛ كل حبر عظيم من اليهود، كل سامري، كل كاهن مسيحي في مصر، كان في نفس الوقت ساحراً، نبياً، دجالاً (ALIPTES). حتى عندما يأتى البطريك إلى مصر، يريده البعض أن يصلى لسرايبس بينما يريده البعض الآخر أن يصلى للمسيح .“

أضف إلى ذلك، فإن قصة ميلاد المسيح، كما توجد في إنجيل لوقا لها ملامح بوذية معينة.

يشير بفليدرر أنه لم يكن لمؤلف الإنجيل أن يخترع هذه الحكاية من لا شيء، رغم أنها ربما غير تاريخية، فلا بد وأنه أخذها من خرافات “وصلت لعلمه بطريقة ما”، يحتمل من خرافات قديمة كانت شائعة عند كل الشعوب الغرب آسيوية. لأننا نجد نفس الخرافات في بعض الأحيان مع تماثل نفس العلامات المميزة بشكل لافت للنظر، في قصة طفولة الهندي الشرقي المخلص بوذا (الذى عاش في القرن الخامس ق.م، ك) وقد ولد هو أيضاً بطريقة عجائبية من العذراء الملكة مايا الذى اخترق بوذا جسدها الطاهر بصفته ضوء من السماء. تظهر في ميلاده أيضاً، الأرواح السماوية وتترنم بأغنية التمجيد هذه: “بطل رائع، بطل لا يضاهاى قد ولد. هبة للعالم، ملئ بالرحمة، انشروا اليوم خيريتكم على كل أشياء الفضاء الكونى! دعوا الفرح والرضى يغمران كل الكائنات، حتى تصبح ساكنة، سادة أنفسها وسعيدة”. بوذا أيضاً أحضرته أمه عندئذ إلى المعبد حتى تقوم بالعادات الشرعية، هناك وجده الناسك العجوز أسيتا، الذى حثه هاتف على أن ينزل من الهيمالايا؛ ونبوءات أسيتا بأن هذا الطفل سوف يصبح بوذا، المخلص من جميع الشرور، مرشداً للحرية والنور والأبدية وأخيراً لدينا تقييم موجز عن كيف يتنامى الطفل الملكى يومياً فى الكمال العقلى والقوة الجسدية والجمال – وهو الذى قيل تحديداً عن الطفل يسوع فى إنجيل لوقا الإصحاح الثانى، ٤٠، ٥٢.”

“رويت أيضاً أمثلة عن الحكمة الباكورة للجواتاما فى طور نموه، من بين قصص أخرى، فقد قيل أنه أثناء احتفال لشعبه، فقد الصبى، وبعد بحث متلهف، وجد بجانب أبيه فى حلقة الرجال المقدسين المستغرقين فى تأمل ورع، وإذ ذاك “حث أباه المندهش أن يسعى وراء أشياء أعلى”.

يشير بفليدرر فى الكتاب المذكور آنفاً، لعناصر إضافية أخذتها المسيحية من أشكال العبادة الأخرى؛ على سبيل المثال، من عبادة ميثرا. لقد اقتبسنا سلفاً إشارة بفليدرر السابقة للعشاء الربانى، الذى كان واحداً من أسرار ميثرا المقدسة (ص ١٥٨). من المحتمل أن تكون هناك عناصر وثنية أيضاً فى مذهب البعث.

“ربما كان بولس متأثراً بالفكرة الشعبية عن الإله الذى يموت ويعود إلى الحياة، التى هيمنت فى ذلك الوقت فى عبادات أدونيس، أتيس وأوزوريس فى آسيا الدنيا (HITHER) (بأسماء وعادات مختلفة، متشابهة كثيراً فى كل مكان). فى أنطاكية، العاصمة السورية، التى كان بولس نشطاً فيها لفترة يعتد بها، حدث الاحتفال الرئيسى بعيد – أدونيس فى الربيع ؛ فى أول يوم (فى احتفال أوزيريس كان اليوم الثالث بعد الوفاة، بينما فى احتفال أتيس كان فى اليوم الرابع)، كان يحتفل بموت أدونيس “الإله”، بينما فى “اليوم التالى، وسط أناشيد الرثاء العنيفة التى كانت تغنيها النساء، مثلوا دفن جثته (بواسطة صورة)، أما فى اليوم الذى يعقبه، فيجرى الإعلان عن أن الإله يحيا وجعل (صورته) تطير فى الهواء” إلخ.

ولكن بفليدرر يشير بصواب إلى أن المسيحية لم تتبنَ هذه العناصر الوثنية فحسب، ولكنها كيفتها لتناسب منظومة اعتقادها الموحدة. لأن المسيحية لم تكن تمنح ملاذاً للآلهة الغريبة بدون تحويلها، وقد كان توحيدها وحده كافياً ليمنع مثل هذا الإجراء.

ز – التوحيد

ولكن حتى التوحيد، الإيمان بإله واحد، لم يكن مميزاً للمسيحية فقط. فى هذه الحالة أيضاً لدينا فرصة لأن نكشف الجذور الاقتصادية التى أسست عليها الفكرة. لقد رأينا سلفاً كيف أصبح سكان المدن الكبرى غرباء عن الطبيعة، وكيف أن كل التنظيمات التقليدية التى منحت سابقاً، دعماً أخلاقياً ثابتاً للفرد، قد تحللت ؛ وأخيراً، كيف أن انهماكهم بالذات أصبح المهمة الرئيسية للفلسفة، التى اتخذت تدريجياً موقفاً جديداً فتحوّلت من بحث العالم الخارجى إلى إطالة التفكير فى مشاعر الفرد واحتياجاته الذاتية.

خدم الآلهة أولاً كتفسير لعمليات الطبيعة التى لم تكن ارتباطاتها السببية قد فهمت بعد. كانت هذه العمليات غاية فى التعدد ومن أشد الأنواع تبايناً، لقد تطلبت من ثم لتفسيرها خلق أكثر أنماط الآلهة تنوعاً واختلافاً، رهيباً ومبهجاً، وحشية ورقيقة، ذكراً وانثى. عندئذ، مع التقدم فى معرفة العلاقات السببية فى الطبيعة، أصبحت الآلهة الفردية غير ضرورية أكثر فأكثر، ولكن فى مجرى آلاف الأعوام تجذرت بغاية الرسوخ فى فكر الإنسان، وأصبحت مرتبطة غاية الارتباط باهتماماته اليومية، بينما لم تكن الطبيعة بأى حال كاملة تماماً حتى تزيل الإيمان بالآلهة كلية. وجد الآلهة أنفسهم الآن مبعدين من مجال للفعالية بعد آخر، من كونهم رفقاء دائمين للإنسان، أصبحوا الآن ظواهر عجائبية غير عادية، إذ كانوا ذات مرة سكاناً فى الأرض، فقد نسبوا الآن لنطاقات فوق الأرض، فى السماء، بعد أن كانوا نشيطين،

عاملين ذوى طاقة ومحاربين، وأبقوا العالم فى حالة اضطراب بلا كلل، أصبحوا الآن مُراقبين، مُتأملين للمشهد الكونى.

من المحتمل أن التقدم فى العلم الطبيعى كان سيزيلها فى النهاية جميعاً، إذا لم يكن نشوء المدن الكبيرة والتدهور الاقتصادى الذى وصفناه سابقاً لم يثمر غربة عن الطبيعة وتسبب فى أن تكون طبيعة الفكر مشغولة بصفة رئيسية بدراسة الروح بواسطة الروح، بمعنى آخر، ليس بواسطة دراسة علمية لجملة كل الظواهر العقلية التى خُبرت، ولكن بدراسة أصبحت فيها روح الفرد مصدر كل الحكمة فيما يخص ذاتها، وجعلوا هذه الحكمة بدورها المفتاح لكل حكمة العالم. ولكن مع أن مشاعر واحتياجات النفس قد تتعدد، فقد افترض أن النفس ذاتها وحدة غير منقسمة، وقد جرى تصور نفوس الآخرين بوصفها من نفس النسيج تماماً كنفس الفرد المدرك.

أي موقف علمى كان سيخلص إلى الاستنتاج بخضوع كل العمليات العقلية الضرورى لقوانين موحدة. ولكن فى الوقت الذى بدأت فيه الدعامات الاخلاقية تتحلل تماماً، انتهاءً إلى فقد الإنسان خلفيته السابقة وبدا وقتها أن الإنسان يملك حرية الارادة، بدت عندئذ طبيعة الروح المتماثلة فى كل البشر قابلة فقط لتفسير أن هذه الروح كانت فى كل مكان، جزءاً من نفس الروح، من روح مفردة كان فيضها وتشابها يؤلف الروح الغامضة والمتماثلة فى كل الأفراد. كانت هذه الروح الكونية أيضاً لاحيز لها مثل روح الفرد. ولكن هذه الروح كانت تُتصور باعتبارها حاضرة وفعالة فى كل الاشخاص، بمعنى آخر، باعتبارها كلية الوجود وكلية العلم، ولا يمكن أن تخفى عنها أشد الأفكار سرية. الانتباه الأعظم الذى أوليَ للاهتمام الأخلاقى، باعتباره معارضاً للاهتمام بالطبيعة، الذى أدى لظهور الادعاء بهذه الروح الكونية، أضفى أيضاً طابعاً اخلاقياً على الروح الكونية. انتهت الأخيرة إلى تجسيد كل الأفكار الأخلاقية التى كانت تشغل عقول البشر حينئذ. ولكن من أجل امتلاك هذه الحالة، كان على الروح أن تنفصل عن الطبيعة الجسدية الكامنة فى روح الإنسان معممة اخلاقيتها. وهكذا لدينا تطور إله جديد. هذا الإله كان بالضرورة وحدة مفردة، تتصل بوحدة روح الفرد، باعتبارها معارضة للطبيعة المتعددة لآلهة العصور القديمة، التى تتصل بتعدد العمليات الطبيعية التى تجرى حولنا، وهذا الإله الجديد المفرد وقف ماوراء الطبيعة وفوق الطبيعة، لقد وجد قبل الطبيعة، التى كانت إحدى مخلوقاته، بالتعارض مع الآلهة القديمة التى كانت جزءاً من الطبيعة ولم تكسب أية سمو على الطبيعة.

ولكن بينما كانت الاهتمامات الروحية الجديدة للبشر نفسية واخلاقية محضة فى طابعها، لم يستطيعوا أن يهتموا بالطبيعة تماماً. وحيث أن العلوم الطبيعية كانت

تهمل، فقد أصبح مرة أخرى مألوفاً أكثر افتراض تدخل عناصر شخصية مافوق إنسانية من أجل تفسير الأحداث الطبيعية. لم تعد بعد الموجودات العليا التي كانت تمثل الآن باعتبارها تتدخل في العملية الكونية آلهة ذات سيادة، كما كانت ذات مرة، ولكنها باتت خاضعة للروح الكونية مثلما كانت الطبيعة خاضعة لله، والجسد للروح، وفقاً لمفهوم تلك الأيام. لقد كانت مخلوقات وقفت في مكان ما بين الله والبشر.

تدعمت هذه النظرة للأشياء لمدى أبعد بمجرى الأحداث في المجال السياسي. فتدمير جمهورية الآلهة في السماء سار يداً بيد مع سقوط الجمهورية في روما. أصبح الله قيصرًا للآخرة كلى القدرة، ومثل قيصر كان له بلاطه، القديسين والملائكة، وكانت معارضته الجمهورية الشيطان وجموعه.

أخيراً ذهب المسيحيون إلى حد تقسيم بيروقراطية الله السماوية، الملائكة، وفقاً للرتبة، إلى فئات تتوافق مع التقسيمات التي عملها القياصرة بين بيروقراطيتهم الأرضية، وبدا الملائكة معرضون لنفس الزهو بالمكانة مثل الموظفين الرسميين لدى الإمبراطور.

بدءً بقنسطنطين، كانت الحاشية وموظفي الدولة الرسميين مقسمين إلى عدد من المراتب، التي كان لكل منها حق استخدام لقب معين. ونجد الألقاب التالية: ١- GLORIOSI، أى الممجدون للغاية، الذين كانوا القناصلة؛ ٢- NOBILISSIMI، أو الأكثر نبلاً، هؤلاء كانوا أمراء بالدم، ٣- PATRICII، النبلاء. بالإضافة إلى مراتب النبالة هذه كانت هناك أيضاً مراتب بين البيروقراطية العليا؛ ٤- ILLUSTRES، أو اللامعين؛ ٥- SPECTABILES، أو المحترمين؛ ٦- CLARISSIMI، أو المشهورين؛ وتحت هؤلاء لدينا: ٧- PERFECTISSIMI، أو الأكثر كمالاً؛ ٨- EGREGII، أو المبرزين؛ ٩- COMITES، أو المستشارين الخصوصيين.

إن لاهوتيينا سوف يؤيدوننى حين أقول إن البلاط السماوى منظم تماماً بنفس الطريقة.

وهكذا على سبيل المثال، فإن معجم الكنيسة للاهوت الكاثوليكي (الذى أصدره ف-؛- يتسر وف-؛-لته، فريبورج فى برايسجاو، ١٨٩٤) يذكر فى مقالته "الملاك" العدد الضخم للملائكة ويواصل القول:

"اتباعاً لسابقة القديس أمبروزيوس، اعتقد كثير من المعلمين أن النسبة بين عدد الملائكة وعدد البشر ٩٩ إلى ١؛ على سبيل المثال، الخروف الضائع فى حكاية الراعى الطيب (لوقا، الاصحاح الثانى عشر، ٣٢) يمثل الجنس البشرى، بينما ال

٩٩ خروفاً الذين لم يضيعوا يمثلون الملائكة. ملائكة هذا الجمع الذى لا يحصى مصنفين فى عدد من الفئات، والكنيسة – معارضة حتى رأى أوريجن، الذى رأى أن كل الأرواح يشبه كل منها الآخر فيما يتعلق بالجوهر، القوة، إلى آخره – أعلنت بصراحة تحبيذها للتمييز بين الملائكة، فى المجمع الثانى فى القنسطنطينية فى ٥٥٣ ب.م. تعترف الكنيسة بتسع طبقات من الملائكة، الذين صنفوا فى مجموعات كل منها من ثلاث طبقات من الملائكة. هذه المراتب التسعة هى: ١- السيرافيم، ٢- الشيروبيم، ٣- ملائكة العرش THRONI، 4- الحكام DOMINATIONES، 5- الفضلاء VIRTUTES، 6- العتاة POTESTATES، 7- الأمراء PRINCIPATUS، 8- رئيس ملائكة ARCHANGELI، 9- الملاك ANGELI (الملائكة العاديون).

يبدو بما لا يدع مجالاً للشك أن الملائكة يتألفون بالمعنى الضيق للكلمة من الطبقة الأدنى الأكثر عدداً، بينما السيرافيم هى الطبقة الأعلى والأقل عدداً. الأشياء على الأرض ليست مختلفة كثيراً: ليس هناك كثير من الموظفين الرسميين ذوى ألقاب عليا، وإنما لدينا عدد كبير من سعاة البريد العاديين.

تحتوى المقالة المذكورة أيضاً على المعلومات التالية:

“يعيش الملائكة فى صلة حميمة وشخصية مع الله وعلاقاتهم بالله من ثم هى (علاقة) عبادة لامتناهية، خضوع متواضع، عاطفة لا تكل وهى التى تتكر كل حب بخلاف حب الله، من إستسلام تام مبهج بكامل كينونتهم، ولاء راسخ، من طاعة لا تردد فيها، احترام عميق، وامتنان لانهاية له، صلاة قانته، وكذلك تمجيد لا يتوقف، من تعظيم دائم، من ثناء هائل، من تهلل مقدس، من فرح جذل.”

كان الأباطرة يطلبون خضوعاً بهيجاً مماثلاً من حاشيتهم وموظفيهم الرسميين. كان هذا نموذج البيزنطية.

من الواضح ان صورة الاله الواحد كما نمت فى المسيحية لم تكن نتاجاً أقل للاستبداد الإمبراطورى منها للفلسفة، التى اتجهت منذ ايام افلاطون أكثر فأكثر نحو التوحيد. كانت هذه الفلسفة فى توافق كبير مع الشعور العام والاحتياجات العامة التى سرعان ما اصبحت جزءاً من الوعي الشعبى. هكذا على سبيل المثال، فإننا نجد عند بلوتوس وهو كاتب مهازل، عاش فى القرن الثالث ق.م، والذى حملت افكاره فلسفة شعبية رخيصة، مقاطع مثل هذا التصريح التالى لعبد، يسأل صنيعاً:

“فى النهاية هناك إله، يسمع ويرى ما نفعله نحن البشر، وهو سوف يعامل ابنك كما عاملتني انت هنا. وهو سوف يكافئ على الأعمال الطيبة ويجازى أيضاً على أعمال الشر.” (أسرى الحرب، الفصل الثانى، المشهد الثانى).

نحن بالفعل أمام مفهوم الله مسيحي تماماً. ولكن هذا التوحيد كان ساذجاً للغاية، بلا تفكير يسمح للآلهة القديمة بالاستمرار في الوجود بجانبه. ولم يخطر للمسيحيين أنفسهم أن يناقشوا وجود الآلهة القديمة، ماداموا قد قبلوا كثيراً من المعجزات الوثنية بلا مناقشة. ولكن الإله المسيحي لم يحتمل جانبه آلهة غيره، سوف يكون حاكماً منفرداً. إذا لم تخضع الآلهة الوثنية له وتقر بالدخول ضمن بلاطه، فلم يكن هناك دور يترك لهم عدا الدور الذي لعبته المعارضة الجمهورية في ظل الأباطرة الأوائل، الذي كان في القسم الأعظم منه دوراً مؤسفاً. لقد كمن فحسب في جهود عرضية لممارسة بعض الخدع على الرب العظيم، لتحريض رعاياه الفاضلين ضده، بلا أى أمل أبداً في الإطاحه بالسيد، ولكن بتوقع وحيد هو إثارتة عرضاً.

ولكن حتى هذا التوحيد غير المتسامح، الواثق من انتصاره، الذي لم يشك لحظة في سموه وقدرة إلهه الكلية، كان قائماً بالفعل حين ظهرت المسيحية في المشهد. مما لا ريب فيه، ليس بين الوثنيين، ولكن بين أمة صغيرة ذات طابع خاص، اليهود، الذين طوروا الاعتقاد في مخلص، والإلزام بالمساعدة المتبادلة، وبتضامن حازم، إلى مدى أبعد كثيراً، الذين لبوا على نحو أفضل كثيراً الحاجة القوية التي استشعرت في هذا الوقت لمثل هذه المذاهب، أكثر مما فعلت أى أمة أو طبقة في المجتمع في هذا العصر. أضفى اليهود، من ثم، زخماً قوياً على المذهب الجديد الناشئ عن هذه الاحتياجات، وأسهموا فيه ببعض من عناصره الأكثر أهمية. حتى نكشف بشكل كامل عن كل هذه الجذور التي نمت منها المسيحية، يجب أن نضيف لدراستنا العامة عن العصر الهيليني الروماني، في ظل العهد الإمبراطوري، دراسة خاصة عن الشعب اليهودي.

القسم الثالث: اليهود

الفصل الأول: شعب إسرائيل

أ – الهجرات القبلية السامية

إن بدايات تاريخ إسرائيل غارقة في ظلمة عميقة، ربما حتى أكثر مما هو الحال مع التاريخ الإغريقي والرومانى. ليس فقط لأن هذه المرحلة الباكرة قد نقلت خلال عدة قرون شفاهة فحسب، إنما حتى لأنه حينما بدأت الخرافات القديمة تجمع وتسجل فقد شوهت بأسوأ الطرق دعائية. ليس هناك خطأ أشد من الافتراض بأن تاريخ الكتاب المقدس هو تسجيل لأحداث فعلية، قد تحتوى قصص الكتاب المقدس على نواة تاريخية، ولكن تحديد هذه النواة غاية في الصعوبة.

لم تتخذ الكتابات "المقدسة" الخاصة باليهود الشكل الذى لدينا اليوم إلا بعد العودة من المنفى البابلى، فى القرن الخامس قبل الميلاد. كانت كل المأثورات القديمة فى هذا الوقت قد جرى التلاعب بها واستكملت بانتحالات، بأعظم جسارة، حتى تلبى متطلبات الفئة الكهنوتية الناشئة. وهكذا فإن تاريخ اليهود قد انقلب رأساً على عقب؛ وهذا صحيح بصفة خاصة فيما يتعلق بما روى لنا عن ديانة إسرائيل قبل المنفى.

حين أسس اليهود جماعة خاصة بهم، بعد المنفى، فى أورشليم وفى الريف المتاخم، سرعان ما أثرت هذه الجماعة فى القبائل الأخرى بخصوصياتها، كما يظهر عدد من السجلات، ولكن لم تحفظ مثل هذه السجلات بالنسبة إلى الفترة السابقة على المنفى. قبل تدمير أورشليم من قبل البابليين، كان الإسرائيليون يعتبرون من قبل الشعوب الأخرى أمة كغيرها من الأمم، لم يبد أن هناك سمات خاصة تميزهم عن الآخرين ولدينا كل الأسباب لافتراض أن اليهود حتى آنذاك لم يظهروا بالفعل أية خواص استثنائية.

إنه من المستحيل، بالنظر إلى ضآلة وعدم جدارة المصادر المتاحة بالثقة، أن نرسم صورة دقيقة عن إسرائيل القديمة. إن النقد البروتستانتى للكتاب المقدس، كما مارسه اللاهوتيون، قد أثبت بالفعل أن الكثير قد زُيف واصطنع، ولكن الكثير مازال يُقبل حسب قيمته الظاهرية لأنه لم يُكشف بعد باعتباره تزييفاً ظاهراً فحسب.

ليس لدينا عملياً شيء سوى فرضية نهتدى بها فى محاولتنا لرسم تطور المجتمع الإسرائيلى، وروايات العهد القديم سوف تقدم لنا خدمة قيمة حيثما نكون قادرين على مقارنتها بأوصاف الشعوب فى مواقف مماثلة.

لا يبدأ الوجود التاريخي لليهود حتى ينفذوا إلى بلد الكنعانيين. كل الحكايات عن فترة تبديهم هي اما خرافات قبلية قديمة، ذات زخرفات دعائية، أو حكايات خرافية، أو اختراعات لاحقة. انهم يظهرون في التاريخ أولاً باعتبارهم منطوين ضمن هجرة سامية عظيمة للأمم.

تلعب هجرات الأمم في العالم القديم نفس الدور الذي تقوم به الثورات اليوم. رصدنا في القسم السابق سقوط الإمبراطورية الرومانية وتتبعنا المراحل الأولية قبل اجتياحها من البرابرة التيوتون، وهو الحدث الذي يسمى "هجرة الأمم". ليست هذه ظاهرة فريدة، لقد سبق للشرق القديم أن عرفها في مناسبات متكررة، على نطاق أصغر، ولكن نتيجة لنفس الأسباب.

تطورت الزراعة في كثير من الأحواض الخصبة للأنهار الشرقية الكبرى، في زمن باكر، مقدمة فائضاً من المواد الغذائية ومتيحة وجود أعداد كبيرة من السكان متفرغة لمهن أخرى إضافة لتلك الخاصة بالزراعة. ازدهرت الفنون والحرف، والعلوم، وتطورت ارستقراطية، لديها فرصة أن تكرر وقتها على سبيل الحصر لفنون الحرب، وأصبحت هذه الارستقراطية غاية في الضرورة حيث أن ثروة إقليم النهر بدأت تغرى الجيران البدو شبه المحاربين بأن ينخرطوا في غارات لصوصية. احتاج الفلاح الذي رغب في أن يفلح حقوله في سلام لحماية مثل هذه الارستقراطية، الذي كان عليه أن يدفع لها. ولكن بمجرد أن باتت الارستقراطية أقوى، فقد خضعت بسهولة لإغراء أن توظف قوة ميولها الحربية لغرض زيادة دخلها، خاصة لأن تقدم الفنون والحرف نهض سناً لكل انواع الترف التي يمكن أن يحصل عليها مالكي الثروة فقط. يبدأ قمع الفلاحين ويبدأ الأرستقراطيون في القيام بالحملة، وهم الأكثر مهارة في حمل السلاح مع رعاياهم ضد الشعوب المجاورة بغرض أسرهم كعبيد. يبدأ العمل القسري، ويدفع المجتمع تدريجياً لنفس المضيق المسدود الذي كان عليه فيما بعد أن يكون المرحلة الأخيرة للمجتمع في العصر الإمبراطوري الروماني أيضاً. دُمر الفلاح الحر، حل محله العمل الاجباري؛ وبشكل متزامن دُمر أساس القوة الحربية للإمبراطورية. وبالمثل تفقد الارستقراطية بالرغم من تفوقها في السلاح براعتها الحربية التي تقوضت بفعل تزايد الترف.

لقد فقدوا القدرة المطلوبة لتأدية الوظائف التي تطلبها مركزهم الاجتماعي: أي الدفاع عن الرفاه العام ضد غزوات الجيران الناهيين. يصبح هؤلاء الجيران واعين تدريجياً بالغنيمة الثرية والمغرية التي في متناول اليد، ويحتشدون تدريجياً أقرب فأقرب على الحدود وأخيراً تفيض بهم وهكذا يدشنون اتجاها يضم قبائل أكثر فأكثر تتدافع خلفهم انتهاء إلى أن هذه الحركة لا تنتهي لبعض الوقت. يستولى بعض الغزاة

على الأرض وهكذا يخلقون طبقة فلاحية حرة جديدة. يؤسس آخرون، وهم الأكثر قوة، ارسنقراطية حربية جديدة، بينما الارستقراطية الأقدم حارسة الفنون، وعلوم الحضارة القديمة، قد تستمر فى الاحتفاظ بوضع أرفع بالنسبة للغزاة البرابرة ولكنها لم تعد طائفة محاربين وإنما بالأحرى طائفة كهنة.

حين توقفت حركات الهجرة هذه يمر مجرى التطور مرة أخرى خلال نفس الدورة، التى ربما تقارن بنفس دورة الازدهار والأزمة فى المجتمع الرأسمالى؛ ولكن الدورة القديمة لم تكن تتكرر فحسب فى كل عقد، وإنما كانت تغطى عدة قرون، دورة لم يجر تجاوزها حتى تدخل نمط الإنتاج الرأسمالى، تماماً مثل دورة أزمت اليوم التى لن يجرى تجاوزها حتى يقام الإنتاج الاشتراكى.

استمر مجرى التطور هذا فى مختلف أقاليم آسيا وأفريقيا الشمالية لآلاف الأعوام، لقد كان محسوساً أكثر فى البقاع التى أنتجت فيها أودية الأنهار العريضة الخصبة ثروة ضخمة، ولكن أفضت هذه الثروة إلى فساد ووهن عميقين بينما أنتجت الأقاليم الأقل ملائمة قبائل رعوية فقيرة غير انها شبه محاربة، مستعدة دوماً لتغيير موطنها حين تدعوها الغنيمة، والتى يمكن أن تتجمع فى فرصة مواتية بسرعة بأعداد لاحصرلها فى أية بقعة حتى تخترق الإقليم بعنف مدمر. إن أودية هوانج - هو ويانجستى يانج، التى تطورت فيها الأمة الصينية هى أمثلة لهذا الوضع، أيضاً وادى الجانج حيث تركزت ثروة مغرية، (أودية) دجلة والفرات، حيث ظهرت الإمبراطوريتين القويتين بابل وأشور، واخيراً وادى النيل الذى هو مصر.

ولكن لدينا فى إحدى الحالات آسيا الوسطى وفى (حالة) أخرى الجزيرة العربية التى كانت احتياطياً لاينضب من القبائل الرعوية شبه المقاتلة، والتى مثلت خطراً دائماً على جيرانها وأحياناً استغلت ضعفها كفرصة لتبدأ فى هجرات مكثفة.

فى مثل فترات الضعف هذه سوف تخترق سيول من المغول من آسيا الوسطى وفى مناسبات معينة أيضاً من يسمون الهنود - الجرمان حواجز الحضارة. جاءت من الجزيرة العربية هذه القبائل التى تترج تحت الاسم العام الساميين. كانت أهداف الغزاة الساميين بابل، وأشور، ومصر، والإقليم المتوسط من البحر الأبيض.

تبدأ واحدة من هذه الهجرات السامية الكبيرة فيما يقرب من أكثر من ألف عام قبل ميلاد المسيح تتقدم نحو مابين الرافدين، سوريا، مصر، وربما تنقطع فى وقت ما فى القرن الحادى عشر ق.م. كان العبرانيون من بين القبائل السامية التى غزت إقليماً حضارياً مجاوراً فى ذاك الزمن. بالنظر لولعهم البدوى بالترحال فربما كانوا قد واجهوا الحدود المصرية وجبل سيناء قبل هذا ولم تتخذ الجماعة العبرانية شكلاً

محدداً الا بعد أن استقرت فى فلسطين تاركة وراءها مرحلة عدم الاستقرار الرعوى التى لم تكن هناك فى ظلها إمكانية تشكيل أمة كبيرة.

ب- فلسطين

منذ هذا الزمن فصاعداً، لم يعد تاريخ وسمات الإسرائيليين محددة فقط بالخصائص المكتسبة فى المرحلة البدوية، وربما احتفظوا بها لبعض الوقت بعد ذلك، وإنما أيضاً بطابع وموقع فلسطين.

يجب أن نكون حذرين إزاء المبالغة فى تقدير أثر العامل الجغرافى فى التاريخ. فى الأزمنة التاريخية يستمر العامل الجغرافى – الموقع – طبيعة التربة، المناخ، اجمالاً بلا ريب كما هو فى معظم البلدان، هذا العامل قائم قبل أن يبدأ التاريخ وبالتأكيد له أثر قوى على الأخير. ولكن الطريقة التى سوف يؤثر بها العامل الجغرافى فى تاريخ بلد كثيراً ما تعتمد على المستوى الذى جرى إحرازه بواسطة المهارة التقنية والأوضاع الاجتماعية فى ذلك البلد.

هكذا، على سبيل المثال، لم يكن الإنجليز ليصلوا لمركزهم المهيمن فى العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلا بسبب الطابع الخاص لبلدهم، بثروته فى الفحم والحديد وموقعه الجزيرى. ولكن طالما أنهما لم يلعبا الدور الهام الذى لعباه فى عصر البخار فى الصناعة، فإن هذه الكنوز الطبيعية للتربة كانت ضئيلة الأهمية. وقبل أن تُكتشف أمريكا والطريق البحرى للهند وقبل أن تصبح إسبانيا، وفرنسا وألمانيا متحضرة بدرجة عالية، بينما كان لا يزال يسكن هذه البلدان مجرد برايرة، وكانت التجارة الأوروبية متركزة حول البحر الأبيض وقامت بها بصفة رئيسية سفن تسيرها المجاديف، كان مازال موقع إنجلترا عاملاً قطعاً عن الحضارة الأوروبية وأبقاها فى وضع من الضعف والبربرية.

قد يكون لنفس الخصائص المعينة لبلد ما من ثم نتائج غاية فى الاختلاف فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة، حتى حيث لم تتحول طبيعة البلد بتغير نمط الإنتاج، لن يكون تأثيرها بالضرورة نفس الشيء. إننا نواجه مرة بعد أخرى مجمل الشروط الاقتصادية باعتبارها العامل المقرر.

وهكذا فإن تاريخ إسرائيل من ثم لم يتحدد فقط بطبيعة وموقع فلسطين منظوراً إليه على نحو مطلق وإنما بواسطة الأخيرين فى ظل شروط معينة محددة للمجتمع.

تمثل الموقع الخصوصى لفلسطين فى أنه كان إقليمياً حدودياً تواجعت فيه العناصر المتعادية وحارب كل منها الآخر. انه يقع من ناحية فى نقطة تنتهى فيها الصحراء

العربية وتبدأ أراضي الزراعة السورية، وحيث، تصادم من ناحية أخرى مجالى نفوذ هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين، اللتان تقفان عند بداية حضارتنا وتهيمنان على هذه البداية أى المصرية الناشئة فى وادى النيل، والرافدية الناشئة على دجلة والفرات، بمركزها حيناً فى بابل وحيناً فى نينوى.

كعنصر أخير فإن فلسطين قد اجتازتها طرق تجارية غاية فى الأهمية، لقد سيطرت على المواصلات بين مصر من جانب وسوريا وما بين الرافدين من جانب آخر، وكذلك التجارة الفينيقية مع الجزيرة العربية.

دعنا نزن أولاً أثر العامل الأسبق. كانت فلسطين بلداً خصباً، لم تكن خصوبتها استثنائية على الإطلاق، ولكنها بدت خصبة بالضرورة على نحو غير عادى حين قورنت مع الأقاليم المقفرة الصخرية والرملية المجاورة. اعتبرها سكانها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً.

أنت القبائل العبرانية باعتبارها من مربيى الماشية البدو وباتت فى نزاع دائم مع سكان فلسطين، الكنعانيين، الذين غزوا منهم مدينة بعد أخرى، مخضعين إياهم أكثر فأكثر لحكمهم. استقرت هذه القبائل العبرية تدريجياً. ولكن ماغزوه فى حرب دائمة كان يجب أن يحتفظ به بحرب دائمة لأن بدوا آخرين كانوا يدفعونهم من الخلف، تائقين بالمثل لهذه الأرض الخصبة، الأدوميين، والموابيين، والعمونيين، وآخرين.

بقى العبرانيون فى البلد المغزو رعاة لمدة طويلة، بالرغم من أن لهم الآن مواطن محددة. ولكنهم اكتسبوا تدريجياً ممارسة الزراعة التى كان قد مارسها السكان الأصليون، استنبتات الحبوب، والكروم وزراعة الزيتون وأشجار التين، وتزاوجوا مع السكان الأوائل. ولكنهم احتفظوا لوقت طويل بسمات حياة البدو الرعوية التى كانت لهم.

لا يبدو ان تربية الماشية الرعوى بالصحراء موات بصفة خاصة للتقدم التقنى والتطور الاجتماعى. ان نمط حياة البدو فى الجزيرة العربية اليوم مازال يعيد إلى الذهن بقوة ذلك النمط الذى وجد فى الخرافات الإسرائيلية القديمة عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ينتج التكرار الابدى لنفس النشاطات والمحن نفس الحاجات والأفكار، عبر آلاف الأعوام، من جيل إلى جيل ينتج أخيراً نزعاً محافظة عنيدة، متجذرة على نحو أعمق عند الراعى البدوى أكثر منها حتى عند الفلاح وهى مواتية للغاية للاحتفاظ بالمؤسسات والعادات القديمة حتى بعد إدخال تعديلات كبيرة. قد نعتد بحقيقة أن الموقد ليس له مكان محدد فى منزل الفلاح الإسرائيلى، وحيث لا يوجد لذلك مغزى دينى، كتعبير عن هذا التقليد الرعوى. يقول فلهاوزن: "فى هذه

المسألة يشبه الإسرائيليون العرب ويتميزون عن الإغريق الذين يقفون أكثر قرباً منهم في أمور الحياة اليومية الأخرى” ومضيفاً: “قد يقال بالكاد ان للعبرانيين كلمة تقابل لفظة “الموقد” وكلمة “ashfot، بينة بما فيه الكفاية، فقد اتخذت معنى “كوم النفاية”. يختلف هذا تماماً عن الموقد الهندو أوروبي، “المذبح المنزلي، لدى العبرانيين المصباح الأبدى بدلاً من نار الموقد التي لا تطفأ ابداً.

قد يكون من بين العادات التي احتفظ بها الإسرائيليون من مرحلتهم البدوية، الميل والولع بالتجارة في السلع الأكثر أهمية.

لقد أشرنا قبلاً، في دراستنا للمجتمع الروماني، كيف تطورت التجارة باكراً بين الشعوب، بالمقارنة (بالتجارة) بين الافراد. من المحتمل أن أول من مارس التجارة كانوا من الرعاة البدو الذين يعيشون في البرية. أجبرتهم طريقتهم في تحصيل عيشهم على ان يتجولوا من مرعى إلى آخر دون موطن ثابت. ولابد ان المصادر الشحيحة لبلدهم قد أثارت في وقت أبكر الحاجة بينهم لمنتجات بلدان أكثر ملائمة من حيث موقعها، التي واجهوا حدودها. من المحتمل أنهم قايسوا الحبوب، الزيت، التمر، الادوات الخشبية، الحجر، البرونز، والحديد بالماشية، التي انتجوها بوفرة. ولكن تنقلهم قد سمح لهم أيضاً ليس فقط أن يحوزوا منتجات لأنفسهم من بعيد، ولكن أيضاً أن يقايسوا منتجات كان الطلب عليها شديداً، وتُنقل بسهولة لحساب الآخرين، بمعنى آخر، ليس بغرض الاحتفاظ بمثل هذه المنتجات لاستعمالهم أو استهلاكهم الشخصي، وإنما لتمريرها في معاملات تالية. وهكذا فقد أصبحوا أوائل التجار، ومادامت لم تكن هناك طرق وكانت الملاحة بائسة التطور، كان هذا الشكل من التجارة مهيمناً بالضرورة، وربما قاد إلى حيازة ثروة ضخمة من قبل هؤلاء الذين مارسوها. فيما بعد، حيث زادت التجارة البحرية، وحيث شيدت الطرق الدائمة والسالكة، فان التجارة التي مارسها البدو الرحل سابقاً تناقصت بالضرورة، واقتصرت الأخيرون مرة أخرى على منتجات بريتهم وأصبحوا أكثر فقراً. يجب أن نعزو لهذا الشرط جزئياً على الأقل التدهور العظيم للحضارة القديمة في آسيا بعد اكتشاف الطريق البحري للهند. أصبحت الجزيرة العربية مقفرة بالفعل لنفس السبب؛ واشتغل بدوها الرحل بتجارة مربحة للغاية مع المدن الفينيقية حين كانت الأخيرة في أقصى ازدهارها. لقد زودوا الفينيقيين بالأجزاء الأسطوانية من المجاديف (looms) التي أنتجت للتصدير إلى الغرب، والصوف الثمين لاغنامهم، ولكنهم احضروا أيضاً منتجات العربية الجنوبية “السعيدة”، الغنية والخصبة، البخور، التوابل، الذهب، الأحجار الكريمة، وبالإضافة إلى ذلك أحضروا من الحبشة، المفصولة عن العربية السعيدة بممر ضيق فقط، سلعاً ثمينة مثل العاج والأبنوس. عبرت التجارة بالنسبة لقسمها الأعظم مع الهند أيضاً من خلال الجزيرة العربية، على امتداد سواحلها التي

تواجه الخليج الفارسي والمحيط الهندي، كان يؤتى بالبضائع على السفن من مالابار وسيلان، ومن ثم تنقل عبر الصحراء إلى فلسطين وفينيقيًا.

اغتنت كل القبائل التي مرت عبر أرضها هذه التجارة كثيرا بسببها، جزئياً من خلال أرباحها كتجار، وجزئياً من خلال المكوس التي كانت تفرض على السلع العابرة. "إنها لظاهرة عامة أن نجد قبائل غاية في الثراء بين الأعراق". يقول هيرين: "يبدو أن لأحد من القبائل بين العرب الرحل قد حقق أرباحاً ضخمة بشكل أبكر بواسطة تجارة القوافل أكثر من المديانيين، الذين اعتادوا على الترحال على طول الحدود الشمالية لهذا البلد، من ثم بالقرب من فينيقيًا. لقد كانت قافلة من التجار المديانيين، محملة بالتوابل، والبلسم، والمر، في طريقها من الجزيرة العربية إلى مصر، هي التي بيع لها يوسف. (سفر التكوين ٣٧، ٢٨). الغنيمة التي حازها جدعون حين صد هجوماً للمديانيين على كنعان "التي أخذها الإسرائيليون من هؤلاء القوم بشكل ذهب كانت عظيمة جدا إلى حد إثارة الدهشة، وهذا المعدن كان شائعاً للغاية بينهم حتى إنهم لم يجعلوه زينة لأنفسهم فقط، ولكن حتى أطواق حيواناتهم كانت من الذهب. وهكذا نقرأ في سفر القضاة، ٨: "فقام جدعون وقتل زبح وصلمناع وأخذ الأهلة التي في أعناق جمالها ثم قال لهم جدعون أطلب منكم طلبة أن تعطوني كل واحد أقراط غنيمة. (لأنه كان لهم أقراط ذهب لأنهم اسمعيليون) وكان وزن أقراط الذهب التي طلب ألفاً وسبعمائة شاقل ماعدا الإهلة والحلق وأثواب الأرجوان التي على ملوك مديان وماعدا القلائد التي في أعناق جمالهم".

يناقش هيرين الآن الأدوميين ويواصل: "صنف اليونانيون كل القبائل الرعوية التي تجولت عند شمالي الجزيرة العربية تحت اسم الأنباط العرب. ديودوروس، الذي يصف بشكل ممتاز نمط حياتهم لا يخفق أيضاً في ذكر قوافل تجارتهم مع اليمن. يقول "ليس عدداً ضئيلاً منهم يجعلونه عملهم أن يجلبوا للبحر الأبيض المتوسط، البخور، المر، والتوابل الثمينه الأخرى التي يتلقونها منهم وقد أتت من العربية السعيدة" (ديودوروس، ٢، ص ٩٣).

"كانت الثروة التي أحرزتها هكذا قبائل الصحراء المتنوعة عظيمة إلى حد إثارة جشع المحاربين الإغريق - كانت مدينة بئرا المحصنة واحدة من مراكز تصدير البضائع العابرة لمنطقة الأدوميين، التي سمى وفقاً لها شمال غربي الجزيرة العربية بئرا العربية. حاول "ديمترىوس بوليوركيتس أن ينقض على ويخرب هذه المدينة".

يجب ان نُعد الإسرائيليين في مرحلتهم الرعوية مثل جيرانهم المديانيين. حتى إبراهيم فقد روى أنه كان غنياً جداً، ليس فقط في الماشية، وإنما أيضاً في الفضة والذهب (تكوين ٨، ٢). امكن للرعاة المرتحلون أن يجنوا الثروة من خلال التجارة

فقط. ولكن لم يكن في الحسبان على أية حال أن يحد أو يضعف وضعهم اللاحق في كنعان الروح التجارية التي اكتسبوها من وضعهم الرعوى. لأن موقع هذا البلد سمح لهم أن يستمروا في دورهم التجاري بين مصر وبابل، وأن يربحوا بهذه التجارة جزئياً، بالقيام بها وتطويرها، وجزئياً بازعاجها بمهاجمة القوافل التجارية من حصون جبالهم، ونهبها أو فرض المكوس عليها. لا يجب أن ننسى أن التجارة واللصوصية كانتا حرفتين مرتبطتين بوثوق. "حتى قبل أن يأتى الإسرائيليون إلى كنعان، كانت التجارة غاية في التطور في هذا البلد. ذكرت رسائل تل العمارنة (من القرن الخامس عشر قبل المسيح) أن قوافل سافرت عبر البلد تحت حماية مسلحة". ولكن لدينا سجلاً باكراً يرجع لعام ٢٠٠ ق.م يتعلق بالعلاقات التجارية الحميمة بين فلسطين ومصر وكذلك بلدان الفرات.

يقتبس إرميا (وهو أستاذ في جامعة ليزج، وليس النبی العبرانی المعروف) من محتويات بردية من تلك الفترة بكلماته هو ما يلي: "القبائل البدوية في فلسطين هي من ثم على صلة حميمة بالأرض الحضارية لمصر. شيوخهم كما نعلم من البردية يترددون أحياناً على بلاط فرعون وهم ملمون بأوضاع مصر. المبعوثون يسافرون جيئةً وذهاباً برسائل مكتوبة بين منطقة الفرات ومصر. هؤلاء البدو الآسيويون ليسوا بأية حال برابرة. القبائل البربرية التي ناهضها الملك المصري مذكورة بوضوح باعتبارها متضادة معهم. اتحد شيوخ البدو أيضاً بغرض القيام بحملات عسكرية ضد أمراء الشعوب".

يعالج هير تسفليد في كتابه التاريخ التجاري لليهود في العصور القديمة، بالتفصيل طرق القوافل التي تمر خلال أو بجوار فلسطين. وهو يحدس ان هذه الاتصالات "ربما كانت ذات اهمية تجارية أعظم في العصور القديمة من سكك حديدنا بالنسبة لنا".

"امتد مثل هذا الطريق من جنوب غربى الجزيرة العربية، بموازة ساحل البحر الأحمر وخليجه الايلى aelanitic، حاملاً منتجات العربية السعيدة، وكذلك إثيوبيا وعدداً من مناطق الأخيرة الداخلية (hinterlands)، بعيداً حتى سيللا sela، التي أسميت فيما بعد بتر، حوالى سبعين كيلومتراً جنوب البحر الميت. أتى طريق قوافل آخر بالمنتجات البابلية والهندية من الجرعاء gerrha، على الخليج الفارسى، مباشرة عبر الجزيرة العربية، وبالمثل إلى بتر. تتفرع من بتر ثلاث طرق: واحد إلى مصر مع فروع على اليسار إلى الموانئ العربية على البحر الأبيض المتوسط، وثنان إلى غزة مع وصلة هامة بالشمال، وثالث على طول الشطآن الشرقية للبحر الميت والأردن، نحو دمشق. أصبحت ايلات على قمة الخليج الايلى التي أعطته

اسمه مركز تصدير لبضائع بلدان ابعد نحو الجنوب، وكانت متصلة أيضاً بطريق قصير مع بترا. مر الطريق الذهاب من غزة إلى الشمال، المذكور سلفاً، خلال وهاد اليهودية والسامرة، منتهاً إلى سهل يزرعيل jisreel، حيث قابل طريقاً آخر من الشرق متجهاً إلى عكا acco. من البضاعة التي تدفقت من هذه الطرق المتعددة، التي قصدت بها فينيقيا كان يعاد نقلها جزئياً في الموانئ العربية المذكورة آنفاً، أو في غزة أو عكا acco، لأن الطريق من المدينة الأخيرة إلى صور وصيدون كان طريقاً صخرياً جداً ولم يكن صالحاً للاستخدام للمواصلات البرية حتى وقت متأخر للغاية. اتجه طرق القوافل الأكثر اعتياداً من الشرق، المذكور سابقاً، من بابل إلى مجرى الفرات الأوسط، وعندئذ عبر الصحراء السورية العربية، التي ازدهرت فيها بالميرا لاحقاً، وبعد الانطلاق لمسافة قصيرة على طول الضفة الشرقية للأردن الأعلى، عبر هذا النهر وجرى خلال سهل يزرعيل jisreel، حتى وصل إلى البحر داخل الطريق الذي ذكرناه آنفاً قبل أن يمس الأردن بقليل، مؤدياً من جلعاد، التي رأينا أنها كانت تستخدم بالفعل في زمن يوسف، وقد علمنا سلفاً أن هذا الطريق قد التقى في سهل يزرعيل jisreel، بالطريق الآتي من غزة، ولكن بافتراض أن هذا الطريق الذي مر في فلسطين إلى مصر وفقاً (لسفر التكوين ٣٧، ٢٥، ٤١، ٥٧) بدأ أيضاً من غزة لانستطيع ان نثبت أن هذه (الطرق التجارية والأسواق التي أقيمت في تقاطعاتها) كان لها لوقت طويل أى تأثير، على الإسرائيليين، من أية وقائع سجلت في التاريخ، ولا نستطيع أن نقدر مثل هذا التأثير، ولكن مما لا شك فيه أنه كان موجوداً بالضرورة، وهذا الافتراض سوف يلقي الضوء على كثير من النصوص القديمة المتواضعة التي تعكس مثل هذا التأثير.

ازدهر الترف وصناعات التصدير، والفن أيضاً، على نحو اقل كثيراً بين الإسرائيليين من التجارة، من المحتمل ان يكون ذلك بسبب أن الإسرائيليين قد كفوا عن أن يكونوا رُحلاً في الوقت الذي كانت قد تطورت فيه الحرف اليدوية بالفعل إلى مستوى عال بين جيرانهم. كانت مواد الترف التي يحصلون عليها بواسطة التجارة أفضل وارخص من تلك التي صنعها الحرفيون المحليون. كانت النتيجة أن مثل هذا العمل كان مقصوراً على أبسط المواد. حتى الفينيقيون الذين أصبحوا أمة حضارية في تاريخ أبكر بكثير، أعيق تقدم صناعتهم بسبب المنافسة بين السلع المصرية والبابلية التي تاجر فيها الفينيقيون. يحتمل بالكاد أن كان الفينيقيون متفوقين في مجال الصناعة بالنسبة إلى بقية سكان سوريا. من المحتمل أن يكون هيرودوت محقاً حين يقول إن أول الفينيقيين الذين رسوا على ساحل بلاد الإغريق عرضوا سلعهم التي لم تكن منتجات وطنهم، انما منتجات مصر وأشور، بمعنى آخر الخاصة

بالمنطقة الداخلية (hinterlands) لسوريا. لم تصبح مدن فينيقيا الكبرى مدناً صناعية مهيمنة حتى فقدت استقلالها السياسى وجزءاً مهماً من علاقتها التجارية".

ربما أعاق تطور الحرف اليدوية فعلاً أيضاً وضع الحرب الدائم. كيفما كان الأمر فمن المؤكد أن الحرف اليدوية لم تتطور لحد بعيد. يصف النبی حزقیال فى رثاءه لصور tyre، بغاية الكمال تجارة الأخيرة بما فيها التجارة مع إسرائيل. كانت صادرات الإسرائيليين زراعية على وجه الحصر فى طبيعتها: "يهودا وأرض إسرائيل هم تجارك. تاجروا فى سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزبيب وبلسان". (٢٧، ١٧)

حين جعل داود أورشليم عاصمته، فإن حيرام ملك صور أرسل له "خشب أرز، ونجارين، وبنائين، فبنوا لداود بيتاً. (صامويل الثانى ٥، ١١) وقد حدث نفس الشيء فى زمن سليمان عند بناء الهيكل. ودفع سليمان لحيرام سنوياً بالمقابل عشرين ألف كر حنطة طعاماً لبيته وعشرين كر زيت رض. (ملوك أول ٥، ١١)

بدون حرف ترف يدوية عالية التطور، بمعنى آخر بدون حرف فنية، لا يمكن أن تزدهر فنون الحفر والفنون التشكيلية وتحقق حتى تمثيلاً للشكل الإنسانى، وتتجاوز مجرد الإشارة للنموذج الإنسانى، تُفرد وتؤمّنل موضوعاتها.

يمكن لمثل هذا الفن أن يؤسس فقط على مستوى عال من التجارة، مزوداً الفنان بأكثر المواد اختلافاً ذات النوعيات الكثيرة، وهكذا تمكنه من اختيار الأكثر ملائمة لأغراضه. أضف إلى ذلك فمن الضروري وجود تخصص عميق، ومجموعة من الخبرات راكمتها أجيال فى معالجة هذه المواد المتنوعة، مقترنة فى النهاية بتقدير رفيع للفنان، رافعة إياه فوق مستوى الاضطرار للعمل، مانحة إياه وقت الفراغ، والبهجة والطاقة.

نحن نجد كل هذه العناصر مجتمعة فى المدن التجارية الكبرى فقط مع حرف يدوية قوية وقديمة. حازت فنون الحفر ذروة تطورها على أساس نظام حرفى يدوى حيوى فى طيبة وممفيس، وفى اثينا، وفيما بعد، بدءاً بالعصور الوسطى، فى فلورنسا، أنتويرب وأمستردام. لقد افتقر الإسرائيليون لهذا، وقد كان لهذا الافتقار أثره أيضاً على دينهم.

ج - مفهوم الرب فى إسرائيل القديمة

مفاهيم الإله بين الشعوب البدائية الطبيعية غاية فى الغموض والاضطراب، وليست محددة بأية حال بدقة شديدة كما نجدها فى الميثولوجيات التى قُلبت ظهراً لبطن من

قبل الباحثين. ولم يتم تصور الآلهة المتعددة بأشكال واضحة، ولاحتى مُيزَ الواحد منها عن الآخر بدقة، إنها غير معروفة، شخصيات غامضة، لها تأثير على الطبيعة والإنسان، تمنح السعادة أو التعاسة للأخير ولكنها بالفعل أكثر ضبابية وعدم تحديد فى صورتها فى البداية، أكثر من رؤى الأحلام.

تكمّن التمييزات المحددة الوحيدة بين الآلهة المختلفة في مواطنهم. كل موضع أثار خيال الإنسان البدائي بصفة خاصة بدا له أنه موطن إله معين. الجبال العالية أو منحدر صخري، البساتين في المواقع الغربية وأحياناً حتى شجرة عتيقة، الينابيع، والكهوف، تحوز هكذا نوعاً من القدسية باعتبارها بيوت الآلهة. ولكن حتى حجر تشكّل بغرابة أو قطعة من الخشب ربما تعتبر موطن إله، موضوعاً مقدساً، تؤمن حيازته لمن يملكونه مساعدة هذا الإله الذي يكتنفه. كل قبيلة، كل عرق حاول أن يفتنى مثل هذه الموضوعات المقدسة، مثل هذا الوثن. ويصدق هذا أيضاً على العبرانيين الذين كان مفهومهم عن الرب في البداية على المستوى الذي ذكرناه لتونا، غاية في البعد عن التوحيد. تبدو المعتقدات المقدسة للإسرائيليين في البداية وكأنها لم تكن شيئاً أكثر أو أقل من أوثنان. بدءاً "بالصنم" teraphim (ترافيم)، الذي يسرقه يعقوب من صهره لابان، حتى تابوت العهد الذي يسكن فيه يهوه، والذي يمنح النصر والمطر والثروة لمن يعتصم به بحق. كانت الأحجار التي عبدت من قبل الفينيقيين والإسرائيليين تسمى "بيت إيل" أو بيت الله.

ليست آلهة المواضع المختلفة والأوثان متفردة في هذه المرحلة بعد، غالباً ما لا تختلف أسمائها، على سبيل المثال، بين الإسرائيليين والفينيقيين. كثير من الآلهة كانت تسمى إيل el (الجمع إلهيم) بينما سميت أخرى بعل (السيد) من قبل الفينيقيين. "بالرغم من أسمائها المتطابقة كانت كل هذه البعول تعتبر أصلاً أنها كائنات متميزة على نحو مطلق. وكثيراً ما لانجد طريقة أخرى لتمييزها إلا بأن نضيف لأسمائها اسم المكان الذي عُبد فيه الإله المعنى".

لم يصبح وجود تفريق أكثر تمييزاً بين الآلهة المختلفة في الوعي الشعبي ممكناً إلا بعد أن تطور فن الحفر والفرن التشكيلي إلى حد القيام بتفريد وأمثلة الأشكال الإنسانية، لخلق شخصيات محددة، ذات سمات شخصية، ولكن متضمنة أيضاً، جاذبية، وجلالة، وعظمة، أو رهبة جعلتها أسمى بالنسبة لأشكال البشر العاديين. هكذا أعطى الشرك أساساً مادياً، أصبح غير المرئيين الآن مرئيين، ومن ثم بمقدورهم أن يكونوا حاضرين بنفس الطريقة في عقول الجميع. تميزت الآن الآلهة المختلفة دوماً كل منها عن الآخر، واختفى كل الاختلاط بينها. أصبح من الممكن

منذ الآن فصاعدا التمييز والتفريد من كتلة الكائنات الروحية التى لاتحصى الساكنة فى فوضى عظيمة فى ذهن الإنسان البدائى، شخصيات نوعية محددة.

نستطيع أن نتتبع بجلاء فى مصر الزيادة فى عدد الآلهة النوعية اذ تنطلق فنون الحفر والفنون التشكيلية فى تطورها. وليس من قبيل المصادفة أننا نجد أن بلاد الإغريق لم تحرز فقط أعلى تطور فى صناعات الفن وفى تصوير الكائنات الإنسانية فى الفنون التشكيلية، وانما أيضاً أقصى تفريد متعدد الجوانب ومتميز لآلهتها، وقد تحقق كلا هذين المكتسبين بشكل متزامن.

التقدم الذى حققته الأمم المتطورة صناعياً وفنياً، فى استبدال الوثن، مسكن الروح أو الإله، بصورة الإله، لم يكن قد أنجزه الإسرائيليون بسبب تخلف صناعتهم وفنهم. انتهى تطوره فى هذا الصدد أيضاً إلى توقف عند مستوى نمط التفكير البدوى. لم يطرأ لهم أبداً أن يمثلوا آلهتهم الخاصة فى صور. فالصور الإلهية التى ألموا بها كانت صور آلهة قبائل أجنبية فقط، خاصة بالأعداء، آلهة مستوردة من الخارج أو نقلت عن نماذج أجنبية. من هنا الكراهية التى يظهرها الوطنيون لهذه الصور.

كان هذا راجعاً لتطور معاق، الذى أدى بالمثل على أى حال إلى أن ينجز الإسرائيليون بشكل أسهل الخطوة التى حررتهم من الشرك حيث أصبحوا ملمين بالتوحيد الفلسفى والأخلاقى الذى ظهر فى عدة مدن كبرى، فى ذروة الحضارة القديمة، لأسباب سبق وأن أشرنا إليها. حيثما تجذرت صورة الإله فى خيال الناس، أحرز الشرك هكذا، الذى لم يضعف بسهولة موطئ قدم ثابت. من ناحية أخرى فإن ضبابية الصورة الإلهية، وكذلك تطابق أسماء الآلهة فى أكثر المواضع تنوعاً، مهدت الطريق لجعل فكرة إله واحد شعبية، باعتبارها معارضة لمن تمثل له كل الأرواح اللامرئية الأخرى كائنات خاضعة فقط. ليس من قبيل المصادفة بأى حال أن كل الديانات التوحيدية القومية قد انبثقت عن أمم كانت لا تزال فى المرحلة الرعوية للفكر ولم تطور صناعة أو فنا ذوى أهمية: إضافة لليهود، كان هناك الفرس، وفيما بعد العرب المسلمون الذين اعتنقوا التوحيد بمجرد أن اتصلوا بحضارة مدينية أعلى. ليس الإسلام فقط بل أيضاً ديانة الزند يجب أن تعد من الديانات التوحيدية. فالأخيرة تعرف أيضاً سيداً وخالقاً واحداً للعالم، اهورامزدا. انجروماينجو (أهرمان) هو روح أدنى والى حد ما مثل الشيطان.

حقيقة أن المراحل المتأخرة تستوعب التقدم فى داخلها على نحو أكثر سهولة وتطوره قياساً بتلك المراحل الأكثر تقدماً، ربما تبدو متناقضة ظاهرياً، ولكنها حقيقة لدينا دليل عليها حتى فى تطور العضويات الفيزيائية. كثيراً ماتكون الأشكال عالية التطور اقل قابلية للتكيف وتهلك على نحو أكثر سهولة، بينما الأشكال الأدنى، التى

تكون أعضائها أقل تخصصاً قد تكون قادرة على أن تكيف نفسها بسهولة أكثر للظروف المتغيرة، وهى من ثم فى وضع افضل لأن تدفع أبعد مجرى التطور.

ولكن تطور أعضاء الإنسان ليس (تطوراً) غير واع فحسب، فإضافة إلى أعضاء البدنية يطور الإنسان بوعى (أعضاء) اصطناعية أخرى، قد يتعلم إنشاءها من الآخرين. بمقدار ما يتعلق الأمر بهذه الأشكال الاصطناعية، فإن أشخاصاً مفردين أو مجموعات قد تتخطى من ثم مراحل كاملة من التطور، ولكن بالطبع بعد أن يكون قد تم الوصول إلى المراحل الأعلى قبل ذلك بواسطة الآخرين التى اكتسبوها منهم فقط. انها مسألة معرفة عامة، على سبيل المثال، الإضاءة الكهربائية قد أدخلت على نحو أكثر سرعة فى كثير من القرى الفلاحية منها فى المدن الكبرى، التى كانت قد استثمرت بالفعل كميات كبيرة من رأس المال فى الإضاءة الغازية. يمكن للقرية الفلاحية أن تقوم بالقفزة من مصباح البترول إلى الإضاءة الكهربائية بتخطى مرحلة الإضاءة بالغاز، ولكن هذا بات ممكناً فقط بواسطة حقيقة أن التقدم التقنى فى المدن الكبرى قد امتلك القدرة على إنتاج الضوء الكهربائى بالفعل. لم تكن القرية الفلاحية لتطور هذه المعرفة لحسابها الخاص. وهكذا قبلت جماهير اليهود والفرس التوحيد بسهولة أكثر مما قبلته جماهير المصريين، والبابليين والهيلينيين، ولكن فكرة التوحيد كان يجب أن تنشأ أولاً على يد فلاسفة هذه الأمم الحضارية رفيعة التقدم. ولكن الفترة التى نعالجها الآن، أى فترة ما قبل المنفى، لم تبلغ مرحلة التوحيد بعد. مازال هناك عالم بدائى من الآلهة سائداً.

د - التجارة والفلسفة

تطور التجارة خواص عقلية مختلفة عن ما تطوره الحرف اليدوية والفن. فى نقده الاقتصاد السياسى وفى أعقاب ذلك فى رأس المال، يشير كارل ماركس للطابع المزدوج للعمل كما يتمثل فى السلع. كل سلعة هى مادة استهلاك ومادة تبادل، ومن ثم يمكن للعمل المتضمن فيها ان يعتبر كنمط نوعى خاص من العمل - مثل عمل النسيج، أو صنع الأوانى، أو الحدادة - وكعمل إنسانى مجرد بصفة عامة فى آن معاً.

النشاط الإنتاجى النوعى الذى ينتج مواداً معينة للاستهلاك مثير لاهتمام المستهلك الذى يتطلب مثل هذه القيم الاستهلاكية النوعية بصفة خاصة. اذ يحتاج إلى قماش، فانه يهتم بالعمل المبذول فى إنتاج هذا القماش لسبب بسيط هو أنه هذا العمل النوعى المنتج للقماش. ولكن بالنسبة لمنتجى السلع أيضاً - يعنى كقاعدة، فى مرحلة التطور التى نعالجها الآن، فهم ليسوا بعد عمالاً مأجورين، وانما فلاحون مستقلون،

حرفيون، فنانون، أو عبيدهم – العمل هام فقط باعتباره النشاط النوعي، الذي يُمكن المُنتج من ان ينتج منتجات نوعية.

ولكن موقف التاجر مختلف. يكمن نشاطه في شراء السلع رخيصة وبيعها غالية. أي تنويعه معينة من السلع يشتريها أو يبيعها غير ذات أهمية بالنسبة له في التحليل الأخير، شرط ان يجد مشترياً فقط. مما لا شك فيه، انه مهتم بكمية العمل الضروري اجتماعياً، لإنتاج السلع التي يتعامل فيها، في كل من موضعي الشراء والبيع، لأن هذا العنصر له تأثير في تحديد أسعارها. ولكنه مهتم بهذا العمل فقط باعتباره عملاً إنسانياً عاماً يضيف القيمة على السلع، تجريبياً، ليس بوصفه عملاً عينياً، منتجاً قيماً استهلاكية نوعية. لا يفكر التاجر بالطبع في الأمر بكثير من الكلمات، فقد استغرق الإنسان وقتاً طويلاً حتى يُكشف تحديد القيمة بواسطة العمل الإنساني العام. وفي الحقيقة، لقد تطلب الأمر عبقرية كارل ماركس، في مرحلة عالية التطور في إنتاج السلع، لتحليل هذا الشرط بشكل كامل. ولكن حتى قبله بآلاف الأعوام، يحوز العمل الإنساني العام المجرد تعبيراً ملموساً باعتباره متعارضاً مع الأشكال العينية للعمل، لرصد ما ليست ادنى قوة للتجريد ضرورية لإدراكه، أي، في النقود.

النقود هي ممثل العمل الإنساني العام المتضمن في كل سلعة، انها لاتمثل نوعاً خصوصياً من العمل، ليس عمل النسيج أو الفخاري أو الحداد، إنما أي عمل، كل عمل، اليوم نوع معين، غداً آخر. ولكن التاجر مهتم بالسلعة فقط باعتبارها تمثل نقوداً، وليس بفائدتها النوعية، وإنما ثمنها النوعي.

المُنتج – سواء كان فلاحاً، حرفياً، فناناً – مهتم بالطابع الخاص لعمله، بخصوصية المادة التي سوف يعالجها، وسوف يزيد إنتاجية عمله أكثر، كلما أصبح أكثر تخصصاً فيه. يقيده عمله النوعي، على أي حال، بمكان معين، بأرضه أو ورشته. ومن ثم فإن الحد الخاص للعمل الذي هو منخرط فيه سوف ينتج حداً عقلياً معيناً أعطاه الإغريق اسم banausia (مشتق من banausos، الحرفي). يقول سقراط في القرن الخامس قبل عصرنا: "رغم ان الحدادين، والنجارين، وصانعي الأحذية قد يكونون ماهرين في اختصاصهم، فإن أغلبهم نفوس وضيعة، لا يعرفون ماهو الجميل والخير والعدل". وقد عبر اليهودي عيسى سيراخ حوالي عام ٢٠٠ ق.م عن نفس الفكرة. يقول رغم أن الحرف اليدوية قد تكون نافعة، فإن الحرفي مع ذلك لانفع فيه في السياسة، وفي القانون وفي نشر الثقافة الأخلاقية.

الآلة فقط سوف تجعل من الممكن إزالة هذا الحد العقلي بالنسبة لجماهير العمال، ولكن إزالة نمط الإنتاج الرأسمالي فقط هي التي تخلق الشروط التي يمكن للآلة في ظلها أن تتجزأ أكثر الطرق كملاً مهمتها العظيمة في تحرير الجماهير العاملة.

أنشطة التاجر لها تأثير مختلف تماماً عليه أكثر مما (لأنشطة) الحرفى. فليس بمقدوره أن يكتفى بمعرفة فرع خاص من الإنتاج فى إقليم معين، فكما توسع اهتمامه لأبعد، وشمل فروعاً للإنتاج أكثر، وأقاليم أكثر، بشروطها النوعية للإنتاج ومتطلباتها النوعية، كلما سيكون قادراً على نحو أفضل أن يختار تلك السلع التى يكون بيعها فى الوقت الحاضر الأكثر ربحاً، وتلك الأسواق، التى يمكن ان يشتري منها بأقصى ربحية وكذلك التى يستطيع ان يقوم فيها بأكثر المبيعات ربحاً. ولكن رغم القيمة الكبيرة للمنتجات والأسواق التى هو معنى بها، فإنه مهتم فى التحليل الأخير بشروط الثمن، بمعنى آخر، بشروط الكميات المتنوعة للعمل الإنسانى المجرد، أى، بالعلاقات العددية المجردة. كلما تتطور التجارة أكثر فأكثر، كلما انفصل الشراء والبيع أكثر عن بعضهما فى المكان والزمان، وكلما اختلفت أكثر أوضاع النقود التى يجب ان يتعامل بها التاجر، وكلما أصبح الاختلاف أعظم بين زمن الشراء والدفع، وكلما كانت مرحلة تطور نظام الائتمان ودفع الفوائد أكثر تقدماً، كلما تصبح هذه العلاقات العددية بالفعل أكثر تعقيداً وتنوعاً. وهكذا لابد أن تحفز التجارة التفكير الرياضى، وفى نفس الوقت التفكير المجرد. ولكن بينما توسع التجارة فى نفس الوقت الأفق ماوراء الحدود المحلية والمهنية، مانحة التاجر معرفة بأكثر المناخات والترب تنوعاً، وأكثر مراحل تطور الحضارة وأنماط الإنتاج تبايناً، فإنها تحفزه على أن يقيم المقارنات، وتمكنه من اكتشاف العنصر العام فى جملة التفاصيل الخاصة، العنصر الضرورى فى جملة العوارض، العنصر المتكرر الذى سوف ينتج مرة بعد أخرى من شروط معينة. تطورت قوة التجريد فيما يتصل بذلك لحد هائل، وكذلك بواسطة التفكير الرياضى، بينما تُطور الحرف اليدوية بالأحرى الحس بالعينى، وكذلك أيضاً لسطح بالأحرى منها لجوهر الأشياء. ليست الأنشطة "الإنتاجية"، الزراعة والحرف اليدوية، وإنما التجارة "غير المنتجة"، هي التى تطور مثل هذه الخواص العقلية التى تكمن فى أساس الدراسة العلمية.

ولكن هذا لايعنى أن التجارة تخلق من ذاتها مثل هذا البحث العلمى. الفكر النزيه، البحث عن الحقيقة، وليس للنفع الشخصى – هذا تحديداً ما يفتقر التاجر إليه بشدة. يعيش الفلاح وكذلك الحرفى من عمل أيديهما فقط. للثروة المتاحة لهما حدود غاية فى التحدد، ولكن ضمن هذه الحدود من المؤكد انه يمكن ان يحصل عليها أى فرد متوسط معافى، مالم تقوض وتفقر الحرب أو قوى طبيعية عاتية الجماعة بكاملها. أن تكون هناك طموحات تبدو أعلى من المتوسط فى مثل هذه الظروف ليست ضرورية ولا واعدة. تتميز هذه الحرف من ثم بقبول مبتهج لمكانتها الموروثة، طالما أن رأس المال، عادة فى شكل رأس مال ربوى، لايقهرها ويضطهدها هو أو من يحكمونها.

ولكن التجارة، بتوظيفها العمل الإنساني العام، تنطلق على نحو مختلف تماماً عن الحرف اليدوية، بعملها العيني المفيد. إن نجاح الأخيرة محدود بصرامة بقدر الفرد، نجاح التجارة لا يعرف حدوداً. يجد الربح في التجارة حدوده فقط في كمية النقود، في رأس المال، الذي يملكه التاجر، وقد تزداد هذه الكمية إلى ما لا نهاية. من ناحية أخرى تتعرض هذه التجارة لتقلبات أعظم مدى ومخاطر أكثر من الرتبة الثابتة في عمل الفلاح الحرفي في إنتاج السلع البسيط. يتأرجح التاجر بشكل دائم بين طرفي الثروة المترفة والخراب الكلي. تثار الرغبة في الكسب في مثل هذه الحالات على نحو أكثر فعالية منها بين الطبقات المنتجة. يتميز التاجر بجشع ونهم، وكذلك أيضاً بأكثر القساوات وحشية، تجاه كل من منافسيه واتجاه موضوعات استغلاله. حتى هذا اليوم فإن الوضع واضح باشمئزاز بالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون من عملهم الخاص، في كل الأماكن حيث لا يواجه الميل الاستغلالي لرأس المال مقاومة نشيطة، وذلك على سبيل المثال، في المستعمرات.

ليس هذا نمطاً للتفكير يشجع على دراسة نزيهة، علمية. تُطور التجارة القدرة الضرورية لهذا الغرض، ولكن ليس تطبيقها للأغراض العلمية. على النقيض من ذلك، حين تؤمن التجارة نفوذاً على التعليم، يتقوم تأثيرها في اتجاه تكييف نتائج التعليم من أجل أغراض خاصة فقط، الذي يقدم له تعليمنا البورجوازي الراهن أمثلة عدة.

يمكن أن يتطور الفكر العلمي فقط في طبقة منحت كل المواهب، الخبرات والمعرفة المتضمنة في التجارة، وكذلك أيضاً المتحررة من ضرورة كسب العيش، ومن ثم تملك وقت الفراغ الضروري، الفرصة، والمتعة في البحث النزيه، في حل المشاكل دون النظر لنتاجها المباشر، العملي، والشخصي. تطورت الفلسفة فقط في المراكز التجارية الكبرى، وفقط في تلك المراكز التي كانت فيها عناصر أخرى فضلاً عن التجارة حاضرة، التي أعطتها ثروتها أو مركزها الاجتماعي وقت الفراغ والحرية. في عدد من المدن الإغريقية كان هؤلاء هم الملاك العقاريون الكبار، الذين حررهم عبيدهم من الحاجة إلى العمل، والذين لم يعيشوا في الريف، وإنما في المدينة، الذين لم يكونوا محدوديّن بالشجاعة البدنية الفظة للمالك الريفي، ولذلك كانوا معرضون أيضاً لتأثيرات المدينة وللتجارة واسعة النطاق.

مثل هذه الطبقة من كبار الملاك العقاريين، تحيا وتتفلسف في المدن، يبدو أنها ظهرت فقط في المدن البحرية التي كانت مناطقها الداخلية كبيرة بما يكفي تماماً لنتج نبالة ريف كهذه، ولكن لم تكن كبيرة بما يكفي لأن تبتعد الأخيرة عن المدينة وأن تحول انتباهها لتوسيع ملكيتها في الأرض. توجد هذه الأوضاع بصفة خاصة

فى مدن الموانئ الإغريقية. ولكن كانت المناطق الداخلية لمدن الموانئ الفينيقية غاية فى الضالة لتنتج مثل هذه الملكيات العقارية الكبيرة. عاش كل واحد فى هذه الجماعات بواسطة التجارة.

من ناحية أخرى، فى تلك المدن، التى كانت محاطة بنطاق أراضى كبير، بدا أن كبار الملاك العقاريين قد بقوا أكثر تحت تأثير حياة الريف، وأنهم طوروا بالأحرى نمط تفكير المالك الريفى فى المراكز التجارية الكبيرة لآسيا الوسطى، وتمتع كهنة الأماكن المختلفة للعبادة بأعظم درجة من التحرر من العمل، وأقل تعرض لمتطلبات الأعمال العملية. ليس قلة من هذه الأماكن أصبحت هامة وثرية بما يكفى لتكون قادرة على أن تعول بشكل دائم عددا من الكهنة كان مطلوبا منهم عمل قليل. كانت نفس المهمة الاجتماعية التى وقعت على عاتق الارستقراطية فى مدن اليونان البحرية من نصيب الكهنة فى أماكن العبادة فى المراكز التجارية الكبرى للقارة الشرقية، خاصة مصر وبابل، أى تطور التفكير العلمى، والفلسفة، ولكن هذا الوضع فرض حداً على التفكير الشرقى بقى التفكير الإغريق متحرراً منه: الارتباط والمرجعية للعبادة الدينية. كانت خسارة الفلسفة كسباً للدين، وكسباً للكهنة. بينما الكهنة اليونانيون مرافقون بسطاء للعبادة، حراساً لأماكن العبادة والقائمين على الشعائر الدينية فيها، أصبحوا فى المراكز التجارية الكبرى فى الشرق حفاظاً وقائمين على كل المعرفة العلمية، وكذلك الاجتماعية: الرياضيات، علم الفلك، الطب، التاريخ، الشريعة. تزايد تأثيرهم من ثم على الدولة والمجتمع إلى حد ضخم. وقد تمكن الدين ذاته فى هذه الأقاليم من أن يحقق سلطة روحية لم تكن الميثولوجيا اليونانية قادرة على مثلها، حيث سرعان ما فرضت الفلسفة الهيلينية الميثولوجيا. ولم تقم بمحاولة لأن تصبغ مفاهيمها الساذجة بمعرفة أكثر عمقا، أو أن تؤلف بها بين الاثنين.

من المحتمل أن ديانة بلاد الإغريق القديمة قد تلقت قوتها الحسية، وطابعها الفنى الفرح بسبب السمو الذى بلغته الفنون، وكذلك بسبب حقيقة أن فلسفتها ابتعدت عن الكهنة. من ناحية أخرى، فى إقليم ذو تجارة دولية نشيطة، ولكن لا يملك الفنون، بدون ارستقراطية دنيوية لديها ميول ثقافية وحاجات، ولكن ذو كهانة متطورة تماماً، ديانة تثمر تطوراً باكراً للشرك، ذات شخصيات إلهية قاطعة التحدد، سوف تتخذ بسهولة أكثر طابعاً روحياً مجرداً، بينما يمكن للإله أن يتغير بسهولة أكثر من شخصية إلى فكرة أو مفهوم.

هـ - التجارة والقومية

للتجارة أثر آخر على الفكر الإنساني بالإضافة إلى ما حللناه لتونا. إنها حافز ضخمة للشعور القومي. لقد ذكرنا سلفاً حدود الأفق الفلاحي والبورجوازي باعتبارهما متعارضين مع الأفق الواسع للتاجر. يكتسب الأخير هذا الأفق الواسع بسبب حقيقة أن طموحاته تتزايد على الدوام، تنقله من المكان الذي وضعته فيه واقعة ميلاده. لقد بدا هذا أكثر وضوحاً في حالة الأمم البحرية، وجد في الأزمنة القديمة الفينيقيون والإغريق، يغامر الأولون ما وراء البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنطي، ويكتشف الآخرون البحر الأسود. لم تسمح التجارة عبر البر بمثل هذه الحملات التوسعية. وقد استلزمت التجارة البحرية درجة عالية من المهارة، خاصة في بناء السفن، وقد جرت التجارة بين أمم عظيمة وصغرى، حيث أخضع الآخرون بسهولة، مما أدى إلى تأسيس مستعمرات من قبل الشعوب التجارية. كانت التجارة عبر البر هي الأبعد. وأدارتها على نحو غاية في البساطة (القبائل) الرعوية التي زارت القبائل الأعلى تطوراً بكثير، ووجدت بينها بالفعل فائض منتجات الزراعة والصناعة. لم تكن هناك إمكانية في حالات كهذه لتأسيس مستعمرات بواسطة الحملات المعزولة. ربما يتحد عدد من القبائل الرعوية عرضاً من أجل أن ينيهوا أو يخربوا البلدان الأكثر ثراءً وتطوراً، ولكن حتى آنئذ فإنهم لم يأتوا كمستعمرين، باعتبارهم حملة حضارة أعلى. ولكن مثل هذه الاتحادات للقبائل الرعوية قد تحققت على نحو غاية في الندرة، وعندئذ في ظل ظروف استثنائية فقط، ما دامت الطبيعة الخاصة لتربية الماشية الرعوى تعزل القبائل المختلفة والأشخاص gentes، حتى الأسر، كل منها عن الأخرى مفرقة إياهم فوق مساحات شاسعة. يمكن للتجار الذين ينتمون لهذه القبائل كقاعدة أن ينفذوا داخل الجماعة الغنية والقوية التي كانوا يتاجرون معها فقط باعتبارهم مستجيرين جرى التسامح معهم.

هذا حقيقي أيضاً فيما يتعلق بالتجار الذين ينتمون للقبائل الصغيرة الذين استقروا في معبر الأمم بين مصر وسوريا. أسست هذه القبائل أيضاً مثل الفينيقيين والأغارقة مستوطنات في البلدان التي كانت تتاجر معها، من بابل حتى مصر ولكنهم لم يكونوا مستعمرين بالمعنى الدقيق للكلمة، ليست مدناً قوية، ليست أدوات للتحكم واستغلال البرابرة من قبل أمة متحضرة، ولكن جماعات ضعيفة من المستجيرين، محاطة بمدن قوية غاية في التحضر. لقد كان في غاية الضرورة لأعضاء هذه الجماعات أن يبقوا ملتحمين معاً في مواجهة الغرباء الذين عاشوا بينهم، لذا أصبحت رغبتهم أقوى في تأمين القوة والمكانة لأمتهم، لأن سلامتهم الخاصة ومكانتهم وسط الغرباء ومن ثم أيضاً ظروف نشاطهم التجاري تعتمد على مثل هذا الاعتراف.

في كل مكان، حتى في القرن التاسع عشر، كما سبق وان أشرت في كتابي عن توماس مور فإن طبقة التجار هي القسم الأكثر أممية والأكثر قومية في المجتمع في

أن معاً. ولكن في حالة التجار الذين ينتمون إلى الأعراق الصغيرة الذين كانوا معرضين بدون دفاع لكثير من سوء المعاملة في الخارج تزايد هذا الشعور القومي، هذا التوق لتلاحم قومي ومكانة قومية، وكذلك زادت كراهيتهم للأجانب بالضرورة على نحو أكثر قوة.

هكذا كان حال التجار الإسرائيليين. من المحتمل أن الإسرائيليين ذهبوا لمصر بالأحرى باكراً في تاريخهم، ربما حينما كانوا رعاة ماشية متجولون فحسب، قبل أن يصبحوا سكاناً دائمين في كنعان بزمان طويل. لدينا أدلة تتعلق بمهاجرين كنعانيين إلى مصر تعود لتاريخ مبكر للغاية، ربما تعود إلى الألف الثالثة قبل المسيح. يقول ادوارد ماير حول هذا الموضوع: "إن رسماً شهيراً في مقبرة امنحوتب، في بني حسن يظهر لنا أسرة بدوية تتكون من ٣٧ شخصاً، يقودهم رئيسهم الباشا، راحلون نحو مصر في السنة السادسة من حكم سنوسرت usertesen الثالث. ويسمون عامو amu، التي تعنى الكنعانيين، وملامح وجوههم تعينهم بوضوح باعتبارهم ساميين. وهم يرتدون حلاً متعددة الألوان كانت مألوفة في آسيا منذ أقدم الأزمنة، ومسلحون بالأقواس والرماح ويقودون بغلاً وماعزاً معهم، واحد منهم قادر أيضاً على أن يلعب على القيثارة، وقد أتوا وفي حيازتهم المادة الثمينة meszemut، لصبغ حواجبهم. وهم الآن يطلبون الدخول وفي هذا الصدد يتقدمون إلى كونت مينا تخوفو menatchufu، امنحوتب، الذي تخضع له أراضي الجبال. يقدمهم الكاتب الملكي نفرحوتب للأخير من أجل بعث رسالة رسمية ولتقديم تقرير إلى الملك. مناظر أخرى مثل تلك التي رسمت هنا ربما تكون غالباً قد حدثت والتجار والحرفيين الكنعانيين بلا ريب استقروا في المدن الشرقية للدلتا بأعداد كبيرة، حيث ستكون لدينا الفرصة أن نجدهم ثانية. وبالعكس كثيراً ما أتى التجار المصريون بالتأكيد إلى المدن السورية. بالرغم من أن التجارة المصرية كان عليها أن تمر خلال أيدي كثير من الوسطاء، فمن المحتمل جداً أنها قد امتدت بعيداً إلى بابل حتى في هذه الفترة الباكرة.

بعد بضعة قرون من هذا الوقت، حوالي العام ١٨٠٠ ق.م، في الوقت الذي كان يتحلل فيه المجتمع المصري، غزا الهكسوس مصر الشمالية، وهي القبائل الكنعانية المتجولة بلا شك، التي أغواها ومكنها ضعف الحكومة المصرية من أن تغزو أراضي النيل الغنية، حيث بقوا لأكثر من قرنين. تكمن أهمية حكم الهكسوس في تاريخ العالم في حقيقة أنهم كانوا من أسس الرابطة النشطة التي لم تنقطع بين مصر والمقاطعات السورية منذ آنذاك. أتى التجار والحرفيون الكنعانيون إلى مصر بأعداد كبيرة، ونصادف الأسماء الأولى الكنعانية وأشكال العبادة من ثم في الإمبراطورية

الجديدة، بدأت الكلمات الكنعانية تتسلل إلى اللغة المصرية. يتبين لنا كيف كان هذا الاتصال نشطاً من خلال كشفنا لمؤلف طبي كُتب حوالى عام ١٥٥٠ ق.م. يحتوى على وصفة للعيون كتبه عامو من كبنى amu from kepni، وأغلب الاحتمال أنها المدينة الفينيقية بيبيلوس.

ليس لدينا سبب لنفترض أن العامو، البدو الساميين وسكان المدن فى الشرق والشمال الشرقى من مصر، الذين ذهبوا إلى مصر، لم يشتملوا أيضاً على العبرانيين، بالرغم من أن الأخيرين لم يسموا تعييناً. من ناحية أخرى، فإنه من الصعب أن نحدد اليوم ما يمكن أن نعهده النواة التاريخية فى خرافات يوسف، وإقامة العبرانيين فى مصر، وخروجهم بقيادة موسى. أن نفترض أنهم هم الهكسوس، كما يفعل يوسفوس، ليس محتملاً. ولكن يبدو الكثير مؤكداً، أنه ليس كل إسرائيل، وإنما أسراً معينة وقوافل العبرانيين أتت إلى مصر فى تاريخ مبكر، حيث عوملوا، اعتماداً على الظروف المتنوعة للأحوال فى البلد، بشكل ملائم بهذا القدر أو ذاك، فحيناً يستقبلون بأذرع مفتوحة، وبعدئذ يعذبوا ويطردوا باعتبارهم أجنبى "غير مرغوب فيهم".

هذا هو النصيب النموذجى لمستوطنات التجار الأجانب هذه، الآتية من قبائل ضعيفة، بعد استقرارهم فى الإمبراطوريات القوية. ال "شتات" diaspora، أى تبتدد اليهود عبر العالم لا يبدأ بالتأكيد متأخراً مع تدمير أورشليم من قبل الرومان، ولا مع المنفى البابلى، وإنما أبكر كثيراً، إنه نتيجة طبيعية للتجارة، وهى ظاهرة اشترك فيها اليهود مع أغلب الشعوب التجارية. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الزراعة، كما فى حالة معظم هذه القبائل، بقيت المصدر الرئيسى للعيش، وللإسرائيليين أيضاً حتى زمن نفيهم. شكلت التجارة سابقاً هواية فقط لمربى الماشية الرعويين. بعد أن استقروا وأدخل تقسيم للعمل، وأصبح التاجر المرتحل متميزاً عن الفلاح، الذى عاش على الأرض، بقى عدد التجار صغيراً نسبياً، حيث يحدد الفلاح طابع الشعب. وكان عدد الإسرائيليين الذين عاشوا فى الخارج قليلاً على أى حال بالمقارنة مع هؤلاء الذين بقوا فى الوطن. لم يكن العبرانيون مختلفين عن الشعوب الأخرى فى هذا الصدد.

ولكنهم كانوا يعيشون فى ظروف سببت كراهية نحو الغرباء، والشعور القومى القوى، حتى الحساسية القومية، التى حُفزت فى التاجر، قد انتقلت إلى جسم السكان أكثر مما هو الحال عادة بين الشعوب الفلاحية.

و — كنعان، معبر الأمم

لقد رأينا كيف كانت عظيمة أهمية فلسطين في التجارة بين مصر، وبابل وسوريا. ومنذ وقت لا تعيه الذاكرة جهدت هذه الدول لامتلاك هذا البلد.

تطورت روح حربية في مصر في الصراع ضد الهكسوس، الذين ذكروا سلفاً (حوالي ١٨٠٠ ق.م إلى ١٥٣٠ ق.م)، ولكن طور الهكسوس في نفس الوقت التجارة كثيراً بين مصر وسوريا. ظهرت من ثم بعد طرد الهكسوس الرغبة في التوسع الحربي بين المصريين، خاصة بغرض التحكم في الطريق التجاري إلى بابل. لقد تقدموا نحو الفرات واحتلوا فلسطين وسوريا. وقد أجبروهم الشيتا على التقهقر من البلد الأخير cheta، ولكن بقوا في فلسطين (لفترة) أطول من القرن الخامس عشر حتى الثاني عشر ق.م. سيطروا أيضاً على عدد من المعاقل هناك، وكانت أورشليم من بينها. لكن تدهورت في النهاية القوة الحربية المصرية، وبدءاً من القرن الثاني عشر، لم تعد مصر قادرة على الاحتفاظ بفلسطين وبالمثل. أضعف الشيتيون cheitites السوريين في نفس الوقت بسبب الانتشار الأولى للأشوريين، ومنعوا من النفاذ أبعد نحو الجنوب.

هُجر الحكم الأجنبي في فلسطين هكذا لبعض الوقت. وكانت هذه هي الفرصة التي سنحت لمجموعة من القبائل البدوية، تحت الاسم العام للإسرائيليين، لأن تدخل البلد كغزاة لتحتله تدريجياً. لم يكونوا قد أكملوا هذه العملية تماماً بعد، وكانوا مازالوا منخرطين في نزاع نشيط مع سكان البلد السابقين، حين نهض أعداء جدد ليواجهونهم في شكل قبائل بدوية أخرى كانت تدفعهم نحو "الأرض الموعودة". واجهوا في نفس الوقت على أية حال، على خطهم الأمامي عدواً في شكل سكان الأودية التي تفصل بلد الجبل الواقع تحت سيطرة الإسرائيليين عن البحر. كان هؤلاء هم الفلسطينيين. لابد أن الأخيرين قد شعروا بالتهديد بجدية بسبب تقدم شعب شديد العدوانية كالإسرائيليين. من ناحية أخرى فإن سهل الساحل لا بد وأن كان مغرياً بصفة خاصة في عيون الإسرائيليين، حيث مر عبر هذا السهل الطريق الرئيسي الذي يربط مصر بالشمال. ومن تحكم في هذا الطريق تحكم في نفس الوقت من ثم في كل تجارة مصر الأجنبية مع الشمال والشرق. كانت التجارة البحرية لمصر في البحر الأبيض المتوسط في هذا الوقت ضئيلة الأهمية للغاية. ولكن إذ ظهر أن سكان هذه التلال التي طوقت السهل شعب مقاتل وسلاب، فلا بد أن يبقى ذلك بالضرورة تهديداً دائماً للتجارة من وإلى مصر، وللثراء الناجم عن تلك التجارة. وقد كانوا مقاتلون وسلابين. رُوي لنا مراراً عن تشكيل عصابات اللصوص في إسرائيل، على سبيل المثال، يفتاح، الذي حوله: "اجتمع رجال بطالون وكانوا يخرجون معه" (قضاة، ٣، ٣). ونسمع أيضاً عن غزوات عصابات داخل بلد الفلسطينيين. وهكذا فنحن نقرأ فيما يتعلق بشمشون أن "وحل عليه روح الرب فنزل

إلى اشقلون وقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم وأعطى الحل لمظهرى الأحبية" (قضاة ٤١، ٩١) الذى يعنى أنه كان يسرقهم من أجل أن يدفع ديناً. داود يصور فى بداياته أيضاً بوصفه قائداً لمجموعة لصوص "واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيساً وكان معه نحو أربع مئة رجل". (صموئيل الأول، ٢٢/ ٢)

ليس هناك ما يدعو للتعجب من وضع كهذا حيث ساد عدااء دائم بين الفيلستينيين والإسرائيليين، انتهاءً إلى أن الأولين قد بذلوا كل جهد للقضاء على جيرانهم المزعجين. مضغوطين من جانب من قبل البدو، ومن جانب آخر من قبل الفيلستينيين أكرهت إسرائيل على أن تكون فى وضع من التبعية والخطر. لقد خضعت للفيلستينيين باستعداد أكبر مادام إقليم الجبل الذى سكنوه شجع تكوين روح محلية ذات خصوصية، وانقسام للعشائر، بينما كانت السهول على الأرجح تلائم توحيد القبائل والجماعات المتنوعة الخاصة بالفيلستينيين لأجل عملية عظيمة مفردة. حينما نجحت مملكة داود العسكرية القوية فقط فى صهر مختلف قبائل إسرائيل فى وحدة صلبة كفت إسرائيل عن أن تُضطهد.

أطيح بالفيلستينيين الآن، وهزمت آخر المدن المحصنة فى نجد كنعان، التى كانت مازال تقاوم الإسرائيليين، بما فيها أورشليم، ذات الموقع الجيد الاستثنائي، بقعة منيعة تقريباً. التى قامت بأطول مقاومة للإسرائيليين، والتى تحكمت فى كل الطرق الداخلية لفلسطين من الجنوب. وقد أصبحت عاصمة المملكة ومرتكز الوثن الاتحادي، تابوت العهد، الذى سكن فيه إله الحرب يهوه.

سيطر داود الآن على مجمل التجارة التى تمر بين مصر والشمال، وقد درت عليه هذه التجارة غنيمة غنية، مكنته من زيادة موارده الحربية وتوسيع حدود دولته باتجاه الشمال وبتجاه الجنوب، حيث أخضع القبائل اللصوصية بعيداً حتى البحر الأحمر، وجعل طرق التجارة آمنة إلى هذا البحر، بمساعدة الفينيقيين، لأن الإسرائيليين لم يكونوا ذوى معرفة بالإبحار، بدأ يواصل التجارة على البحر الأحمر، التى كانت قد مرت سابقاً بقرب الطريق البرى من العربية الجنوبية (سبأ) تجاه الشمال. لقد كان العصر الذهبى لإسرائيل، التى كان بمستطاعها، بسبب موقعها المهيمن على واحد من أكثر الطرق التجارية أهمية لهذا العصر، أن تحقق درجة مفسدة من القوة والثروة.

ومع ذلك فإن هذا الموقع المواتى تحديداً كان مقدراً له أن يسبب خرابها. لأن الأهمية الاقتصادية لهذا الموضع لم تكن سراً بالنسبة للدول الكبرى المجاورة. كلما ازدهر البلد فى ظل داود وسليمان، كلما أثار بالضرورة جشع جيرانه الأقوياء،

الذين كانت قوتهم الحربية تتحسن مرة أخرى في هذا الوقت تماماً، خاصة في مصر بسبب حقيقة أن الميليشيا الفلاحية كانت تستبدل بالمرتزقة الذين يمكن استخدامهم بسهولة أكثر في الحروب العدوانية، ومما لا ريب فيه، لم تكن لدى مصر قوة كافية لغزو فلسطين بشكل دائم. ولكن الأمر الأكثر سوءاً بالنسبة لإسرائيل هو أنه بدلاً من أن توضع في حالة اعتماد دائم على أمة كبرى، تمنحها قوتها على الأقل السلام والحماية ضد الأعداء الخارجيين، فقد أصبحت كرة اللعب للمتنافسين المصريين والسوريين وفيما بعد الأشوريين أيضاً، وشكلت فلسطين مسرح الحرب التي حوربت عليها معارك هذه القوى المتعادية. إضافة إلى دمار الحروب التي كان عليها أن تحاربها دفاعاً عن مصالحها الخاصة، كان هناك الآن أيضاً دمار الجيوش الكبيرة التي كانت تتصارع هناك من أجل مصالح غربية تماماً عن سكان البلد، ولم تخف أعباء الجزية الإلزامية والتبعية، التي فُرضت على الإسرائيليين من وقت لآخر، بسبب حقيقة أن الأعباء لم تكن مفروضة دائماً من قبل نفس السادة، وأن السادة كانوا يتغيرون دوماً وفقاً لحظوظ الحرب المتغيرة، وأن كل سيد اعتبر حيازته قصيرة وأنها يجب أن تُستغل حتى الحد الأقصى على الفور.

كانت فلسطين في هذا الوقت في مركز مشابه إلى حد ما لمركز بولندا في القرن الثامن عشر أو إيطاليا، خاصة إيطاليا الشمالية، من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر. إيطاليا وبولندا في هذين الموضعين الأخيرين، مثل فلسطين في زمن أبكر، وجدتا نفسيهما غير قادرتين على فرض سياسة من صنعهما، ومن ثم قدمتا مسرحاً للحرب وموضوعاً لاستغلال القوى الأجنبية. بولندا لها ذات العلاقة مع روسيا، والنمسا، إيطاليا مع إسبانيا وفرنسا، وكذلك مع سادة الإمبراطورية الألمانية، ولاحقاً النمسا. وكما في حالة إيطاليا وبولندا، حدث انقسام قومي في فلسطين أيضاً، ومن المحتمل أنه يرجع لنفس السبب: في فلسطين، كما في إيطاليا كانت الأجزاء المختلفة للبلد متأثرة بتنوع الأجناس المجاورة. كان الجزء الشمالي من الإقليم، الذي احتله الإسرائيليون أكثر عرضة للخطر وأيضاً كثيراً ما حكمه السوريون ولاحقاً الأشوريون. الجزء الجنوبي، بما فيه فلسطين والبلد المجاور، بمعنى آخر، على وجه التقريب إقليم سبط يهوذا، كان بالأحرى معرضاً لأن تهدده مصر أو أن يكون تابعاً لها، حسب مقتضى الحال. بدت إسرائيل بالمعنى الضيق للكلمة من ثم أحياناً وكأنها تتطلب سياسة خارجية مختلفة أكثر مما فعلت يهوذا. من المحتمل أن هذا الاختلاف في السياسة الخارجية قد أصبح السبب الرئيسي لانقسام إسرائيل إلى مملكتين، على نقيض الوضع السابق، الذي كانت فيه السياسة الخارجية سبب وحدة الأسباط الاثنى عشر ضد العدو المشترك الوحيد الذي يهدد الجميع بشكل متساو، أي، الفيلسطينيين.

ولكن أنتجت الأوضاع المماثلة لفلسطين وإيطاليا وبولندا بالضرورة تأثيرات متشابهة في حقل آخر أيضاً: نجد في كل هذه البلدان نفس الشوفينية القومية، نفس الحساسية القومية، نفس الكراهية للأجانب، التي هي إلى حد ما أكثر تكثيفاً من المشاعر المرتبطة التي تأتت عن التعارضات القومية عند أجناس أخرى في ذلك الزمن. لا بد أن تتزايد هذه الشوفينية، حيث يستمر الوضع غير المحتمل للبلد، وخضوعه بلا توقف لنزوات جيرانه الكبار، جاعلين إياه مسرحاً للحرب من أجل غزواتهم اللصوصية.

بالنظر للأهمية التي حازها الدين في الشرق، لأسباب جرى تعيينها قبلاً عبرت الشوفينية بالضرورة عن نفسها حتى في الدين. أتت العلاقات التجارية النشطة مع جيرانها أيضاً بوجهات نظرهم الدينية، أشكال العبادة، والصور الإلهية إلى إسرائيل، لكن كراهية الأجانب، من ناحية أخرى، اتخذت أيضاً شكل كراهية لآلهتهم، ليس لأن وجودهم كان مشكوكاً فيه، ولكن بسبب أنهم كانوا يعتبرون مساعدين فعالين للعدو.

لا تميز هذه المسألة العبرانيون عن الشعوب الشرقية الأخرى. كان سوتيك SUTCH الإله السلفى للهكسوس في مصر. حين طرد الهكسوس في النهاية، عزلوا الإله السلفى أيضاً. حيث طابقوا بينه وبين إله الظلام، ست أو سوتيك، الذي نظر إليه المصريون بمقت.

من المحتمل أن وطني إسرائيل وقادتهم الأنبياء كانوا حانقين بنفس القدر على الآلهة الأجنبية مثل الوطنيين الألمان في أيام نابليون الذين كانوا حانقين على الموضوعات الفرنسية والكلمات الفرنسية في اللغة الألمانية.

ز- الصراعات الطبقية في إسرائيل

ولكن لم يكن الوطنيون راضين بكراهية الغرباء فحسب. لقد شعروا أيضاً بأنهم ملزمين بتجديد الدولة، بتزويدها بقوة أكبر. حيث أصبح القهر أكثر حدة من الخارج، فقد تزايد التحلل الاجتماعي داخل الجماعة الإسرائيلية. أتى نمو التجارة منذ زمن داود بثروة عظيمة إلى البلاد. ولكن، كما في كل مكان آخر في العالم القديم بقيت الزراعة في فلسطين أيضاً أساس المجتمع، وكانت ملكية الأرض الشكل الأكثر أمناً وشرفاً للامتلاك. وكما في أماكن أخرى، سعت هذه العناصر التي أصبحت ثرية في فلسطين لحيازة ملكية عقارية، أو إذا كانت تمتلكها بالفعل، أن تزيدها. هنا أيضاً نلاحظ بدايات اتجاه نحو تكوين اللاتيفونديا (الضيعة – العزبة). لقد جرى تشجيع هذا الاتجاه بحقيقة أن الفلاح كان "سائراً للهلاك" في ظل الظروف الجديدة، كما هو

الحال فى بلدان أخرى،. بينما كانت صراعات الإسرائيليين سابقاً مجرد ضغائن محلية صغيرة، لا تتطلب غياب جندى الميليشيا الفلاحية لوقت طويل، ولا لمسافات بعيدة من وطنه، تغير هذا الشرط بمجرد أن أصبحت إسرائيل دولة كبرى، وانخرطت فى صراعات الدول الكبرى. كانت الخدمة العسكرية الآن تدمر الفلاح وتجعله معتمداً على الجيران الأقوياء الذين امتلكوا النقود والذين واجهوه باعتبارهم مرابين، لهم سلطة طرده من أرضه أو سامحين له أن يبقى فيها كعبد مدين، لدفع ديونه. من المحتمل أن الوسائل الأخيرة هي التي فضلوها غالباً، لأننا نقرأ قليلاً عن عبيد ينتمون لأعراق أخرى فى فلسطين. إذا كان للعبيد المشتريين أن يكونوا أكثر من رفاهية مكلفة للاقتصاد المنزلى الخاص، إذا كان لهم أن يصبحوا وسائل مربحه للاستثمار فى الإنتاج، فإنهم يفترضون مسبقاً بالضرورة حروب دائمة ناجحة، متيحة مادة وفيرة رخيصة من العبيد. لم تكن هناك إمكانية لهذه العملية بين الإسرائيليين. لقد انتموا فى قسمهم الأعظم لتلك القبائل التعيسة التى قدمت العبيد، ولم تصنعهم. كان ملاك اللاتيفونديا، الذين احتاجوا لأيدى عاملة رخيصة ومعتمدة، يفضلون كثيراً بالضرورة عبودية المدين من مواطنيهم، نظام يلقى فى بلدان أخرى أيضاً – على سبيل المثال فى روسيا فى الوقت الراهن، منذ إلغاء القنانة – تحبيذاً بين الملاك العقاريين الكبار المحتاجين للعبيد أو الأقنان.

حيث تنامى هذا التطور، تناقصت قوة إسرائيل العسكرية بالضرورة بالمثل مع تناقص الفلاحين الأحرار، وما ترتب على ذلك من ضعف ناجم لقدرتها على مقاومة الأعداء الخارجيين. اتحد، من ثم الوطنيون مع المصلحين الاجتماعيين والشعبيين، من أجل كبح هذا الاتجاه الكارثى. لقد دعوا الشعب والمملكة أن يكافحوا كلا من الآلهة الأجنبية، وكذلك أعداء الفلاحين فى بلدهم، وتنبأوا بدمار الدولة إذا لم يكن من الممكن وضع حد لقهرو وإفقار الطبقة الفلاحية. يصرخ إشعيا "ويل للذين! يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبق موضع. فصرتم تسكنون وحدكم وسط الأرض. فى أدنى قال رب الجنود ألا أن بيوتاً كثيرة تصير خراباً (بيوتاً) كبيرة وحسنة بلا ساكن". (الإصحاح الخامس، ٨، ٩)

وأعلن النبى عاموس:

" اسمعى هذا القول يا بقرات باشان التى فى جبل السامرة الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة لسادتها هات لنشرب. قد أقسم الرب بقدرسه هو ذا أيام تأتى عليكم يأخذونكن بخزائم وذريتك بشصوص السمك". (الإصحاح الرابع، ١، ٢).

"اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكى تبيدوا بائسى الأرض. قائلين متى يمضى رأس الشهر لنبيع قمحاً؟ والسبت لنعرض حنطة. لنصغر الأيفة ونكبر الشاقل

ونعوج موازين الغش؟ لنشتري الضعفاء بفضة والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح؟ قد أقسم الرب بفخر يعقوب أنى لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم. أليس من أجل هذا ترتعد الأرض وينوح كل ساكن فيها؟" (عاموس، الإصحاح الثامن، ٤ - ٨)

حقيقة أن الملأك والحكام كانوا يُوظفون جهاز الحكومة لإقرار النظام الجديد للأشياء فى شكل جبايات، هو أمر واضح من العويل الذى لايتوقف للأنبياء فيما يتعلق بالشرائع القائمة: يصرخ إشعيا الفصيح "ويل للذين، يقضون أقضية البطل وللكتبة الذين يسجلون جوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى، (الإصحاح العاشر، ١): صهيون تقدى بالحق، (الإصحاح الأول، ٧٢). "حقاً أنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة" (إرميا، الإصحاح الثامن، ٨). "حولتم الحق سما وثمر البر افسنتينا". (عاموس، الإصحاح السادس، ٢١).

من حسن حظ الأنبياء أنهم لم يعيشوا فى بروسيا أو ساكسونيا وإلا لما كانوا قد رأوا أبدأ نهاية لمحاكمتهم بالتحريض على العنف، وإهانة الملك lese - majeste، والخيانة العظمى.

ولكن رغم أن تحريضهم كان حيويًا، وضاعطًا كما كانت الحاجات التى نبع منها، فقد كان مستحيلًا أن يلقى الأنبياء أى نجاح فى المجتمع، على الأقل نجاح دائم، رغم أنهم قد يكونوا قد نجحوا عرضاً فى فرض تشريع لتخفيف العوز أو لإزالة التضادات الاجتماعية. لقد كان بمقدورهم أن يهدفوا فقط لاستعادة السلام، وإعاقه مد التطور الاقتصادى. لقد كان مستحيلًا عمل هذا، فجهود الجراكشى gracchi المماثلة فى روما كان محكومًا عليها مقدماً بالإخفاق.

إن تدمير الفلاحين، والدولة أيضاً مع الفلاحين، كان ينطلق بلا مقاومة فى إسرائيل كما كانت الحالة فيما بعد فى روما. ولكن تدمير الدولة لم ينطلق بنفس العملية البطيئة من التحلل كما فى إمبراطورية روما العالمية. لقد أزالها فجأة الخصوم العتاة. الأرفع فى القوة، قبل أن تصل نهاية اختمارها المحلى بزم طويل. كان هؤلاء الخصوم هم الآشوريين والبابليين.

ح - سقوط إسرائيل

تبدأ السياسة الإمبريالية للآشوريين فى الاشتغال بطريقة عظمى حوالى زمن تبيغلت فلاصر (حوالى ١١١٥ - ١٠٥٠ ق.م) وبالرغم من المعوقات المؤقتة، فإنها تأتى بالجيوش الآشورية أقرب فأقرب إلى كنعان. ولكن هؤلاء الغزاة الأقوياء أتوا معهم بطريقة جديدة لمعاملة المهزومين، التى قدر أن يكون لها تأثير الكوارث على الإسرائيليين. خلال مرحلتهم الرعوية، كان مجمل الشعب مهتما بالميزة التى يحصل

عليها كل منهم من الحملة العسكرية. كان مقصوداً بمثل هذه الحملة إما مجرد النهب، أو غزو بلد خصب، قد يستقر فيه المنتصرون باعتبارهم المستغلين الأرستقراطيين للسكان المحليين. ولكن في مرحلة الزراعة المستقرة، لم يعد لدى جماهير السكان، الفلاحين والحرفيين أى اهتمام بحرب غزو لبلد خصب، ولكن اهتمامهم بأى حرب دفاعية ناجحة أصبح بالضرورة أعظم، لأنه فى مثل هذه الحرب كانوا مهددين بفقدان حرياتهم وأراضيهم حال الهزيمة. كان التجار الكبار، على أى حال، محبذون للتوسع الخارجى بالقوة، لأنهم احتاجوا الأمان لطرقهم التجارية وأسواقهم بالخارج، الأمر الذى يمكن إحرازه فى اغلب الحالات بالاحتلال العسكرى فقط على الأقل لبعض الأماكن الأجنبية. كانت نبالة الأرض متطلعة أيضاً لغزو حربى، لأنها رغبت فى أرض أكثر وعبيد جدد، وبالمثل كان الملوك محبين للحرب، متطلعين لزيادة عوائد الضرائب.

ولكن مادام لم يكن هناك جيش دائم ولا بيروقراطية يمكن أن تُنزع من الوطن وتنقل إلى أى موضع، فقد كان الاحتلال الدائم وإدارة الإقليم المغزو من قبل المنتصر يواجه بصعوبات كبرى فى هذه المرحلة الاقتصادية. ارتضى المنتصر من ثم كقاعدة بنهب شامل وإضعاف الشعب المهزوم، وبوعد من الأخير بأن يدعمه وأن يدفع جزية معينة محددة له، غير أنه ترك الطبقات الحاكمة للبلد المأسور فى مركزها الاجتماعى، دون أن يجرى أى تغييرات فى مؤسسات البلد السياسية. تمثلت نواقص هذا الوضع فى حقيقة أن المهزوم سوف يقتنص أول فرصة تلوح ليتخلص من النير المكروه، وهكذا فسوف يكون مطلوباً حملة عسكرية جديدة لإخضاعه مجدداً، ومن الطبيعى ألا تنته مثل هذه الحملة دون إنزال أشد العقوبات تطرفاً ب"المتمردين".

ابتكر الآشوريون طريقة وعدت بإعطاء غزواتهم دواماً أعظم: حينما واجهوا مقاومة عنيدة، أو حينما لقوا انتفاضات متكررة، فكانوا يضعفون الشعب بقطع رأسه، بمعنى آخر، بحرمانه من طبقاته الحاكمة، بنفى السكان الأكثر تميزاً، الأكثر ثراءً، ذكاءً، الميالىين للحرب، خاصة من العاصمة، إلى أحد الأقاليم البعيدة، حيث لا يملك الأشخاص المنفيون، فئة خاضعة يحكمونها، كانوا عاجزين بشكل مطلق. شكل الفلاحون الباقون والحرفيون الصغار، على أى حال، الآن كتلة غير متماسكة، غير قادرة على تقديم أى مقاومة قوية للغزاة.

كان شلمنصر الثانى (٨٥٩ - ٨٢٥ ق.م) أول ملك آشورى اخترق سوريا بالمعنى الضيق للكلمة (حلب، حماة، دمشق) وأيضاً أول من أعطانا أية أنباء عن إسرائيل. يذكر، فى تقرير مسمارى من ٢٤٨ ق.م، من بين أشياء أخرى، جزية دفعها الملك

الإسرائيلي، ياهو. وله صورة تمثل حاوية هذه الجزية، وهى أقدم تمثيل تصويرى لأفراد إسرائيليين نملكها الآن. انتهت إسرائيل منذ هذا الوقت فصاعداً إلى اتصال أوثق مع آشور، إما فى مدفوعاتها للجزية، أو فى انتفاضاتها، بينما كانت الممارسة الموصوفة أعلاه بنفى الطبقات العليا من المهزومين، خاصة من الشعوب المتمردة، تتطور أكثر فأكثر بين الآشوريين. لقد كانت فقط مسألة وقت حينما يأتى أيضاً تدمير إسرائيل على أيدى الآشوريين غير المهزومين وغير القابلين للهزيمة بوضوح. لم تكن هناك حاجة لهبة النبوءة غير العادية بصفة خاصة للتمكن من التنبؤ بتحقيق هذا الذى رآه الأنبياء اليهود مقدماً بهذه الحيوية.

لقى القسم الشمالى من مملكتهم مصيره فى ظل الملك هوشع، الذى رفض دفع الجزية لآشور فى ٤٢٧ ق.م، معتمداً على مساعدة من مصر، لم تأت. انطلق شلمنصر الرابع إلى إسرائيل وهزم هوشع، وجعله سجيناً، وحاصر عاصمته السامرة، التى لم يتمكن من أخذها، على أية حال، إلى مابعد ثلاث سنوات من الحصار من قبل سرجون (٧٢٢ ق.م) خلف سنحريب. "زهرة السكان" (وفقاً لفلهازون) ٢٩٠ و ٢٧ شخص، وفقاً للتقارير الآشورية، كانوا قد نُقلوا الآن للمدن الآشورية والمديانية. وضع ملك آشور مكانهم أشخاصاً أحضرهم من المدن البابلية المتمردة، "وأسكنهم فى مدن السامرة عوضاً عن بنى إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا مدنها" (الملوك الثانى، الإصحاح السابع عشر، ٤٢). لم يكن كامل سكان القبائل العشرة الشمالية لإسرائيل من ثم قد نقلوا بالقوة، وإنما فقط أكثر سكان المدن تميزاً، التى سكنها آنذ الغرباء، ولكن هذا كان كافياً تماماً لتدمير قومية هذه القبائل العشرة، لأن الفلاح وحده غير قادر على إنشاء حياة جماعية خاصة. إن سكان المدن الإسرائيليين والارستقراطيين الذين نقلوا إلى آشور وميديا (ماداي) من ناحية أخرى، اختفوا فى محيطهم الجديد فى مجرى الأجيال، مندمجين فيه.

ط - التدمير الأول لأورشليم

بقى هناك من شعب إسرائيل مدينة أورشليم فقط مع مقاطعتها يهوذا. لقد ظهر كما لو أن هذه البقية الصغيرة سوف تشارك فى مصير الكتلة الأعظم، وان اسم إسرائيل سوف ينمحي هكذا من وجه الأرض. ولكن لم يكن مقدراً للآشوريين أن يأخذوا أورشليم ويدمروها. مما لا ريب فيه، حقيقة أن جيش الآشورى سنحريب، الذى انطلق ضد أورشليم فى ٧٠١ ق.م، كان مضطراً إلى العودة للوطن بسبب اضطرابات فى بابل، وهكذا كان الإبقاء على أورشليم، إرجاءاً فحسب. بقيت يهوذا دولة تابعة لآشور يمكن أن تبتلع فى أى لحظة.

ولكن بدءاً من زمن سنحريب تحول انتباه الأشوريين تدريجياً نحو الشمال، لأنه كانت هناك قبائل حربية تتقدم أكثر فأكثر مهددة، تتطلب قوة عسكرية أكبر فأكثر لصدّها: الكيميريون cimmerians، والماديون medes، والسكيثيون scythians. دخل الآخرون غرب آسيا حوالي ٦٢٥ ق.م، متقدمين في مجرى نهبيهم وتخريبهم حتى حدود مصر، ولكن تبددوا، فيما بعد بحوالي ثمانية عشر عاماً، بدون أن يؤسسوا أية إمبراطورية تخصهم. ولكن لم يهتفوا دون أن يتركوا أثراً معتبرة وراءهم؛ هز غزوهم الملكية الآشورية حتى أسسها. كانت الأخيرة معرضة من ثم لهجوم أكثر نجاحاً من قبل الميديين medes؛ انسحبت بابل وأصبحت حرة، بينما استغل المصريون الوضع ليحوزوا السيطرة على فلسطين. هزم المصريون الملك اليهودي هوشع وقتل في مجدو (٦٠٩ ق.م) حيث عين نخاو، ملك مصر، يهوياكين كتابع له في أورشليم، أخيراً، في عام ٦٠٦ ق.م دمرت نينوى من قبل تحالف من البابليين والميديين medes، وبلغت الإمبراطورية الآشورية نهايتها.

ولكن هذا لم يُنقذ يهوذا. اقتفت بابل الآن خطى آشور وحاولت على الفور أن تحرز سيطرة على الطريق إلى مصر. عارض نخاو جهد البابليين تحت (قيادة) نبوخذنصر، الذي تقدم بعيداً حتى سوريا الشمالية. هُزم المصريون في معركة كركميش (٥٠٦ ق.م)، وأصبحت يهوذا دولة تابعة لبابل في أعقاب ذلك فوراً. كانت يهوذا تنتقل بوضوح من يد إلى يد، ففقدت كل استقلالها. رفضت يهوذا أن تدفع الجزية للبابليين، بعد أن حرّضتها مصر، ولكن إنهار هذا التمرد تقريباً بلاصرع، كانت أورشليم محاصرة من قبل نبوخذنصر واستسلمت بلاشروط. في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار. (وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذ ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل أنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض. وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل. وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل. (الملوك الثاني، الإصحاح الرابع والعشرون، ١٢ - ١٦)

كانت بابل مستمرة في ممارسة الطريقة الأشورية القديمة، مرة أخرى لم يقوموا بتهجير كامل السكان، وإنما هجروا فقط البلاط الملكي، الارستقراطيين، الرجال القادرين على حمل السلاح والمواطنين المدنيين الأثرياء ١٠٠٠٠ شخص إجمالاً. “مساكين شعب الأرض” من المحتمل أيضاً الذين من المدينة، تركوهم وراءهم، وبالتأكيد يشمل ذلك أيضاً قسماً من الطبقات الحاكمة. لم تكن يهوذا قد دمرت بعد. لقد أعطاه سادة بابل ملكاً جديداً. ومرة أخرى، للمرة الأخيرة، كانت الدورة الأخيرة تتكرر. حرص المصريون الملك الجديد، صدقيا على أن ينفصل عن بابل.

عندئذ ظهر نبوخذنصر خارج أورشليم، هزمها ومحا تماماً هذه المدينة، التي كانت عنصراً عنيداً ومثيراً للاضطراب بسبب موقعها المهيمن على طول معبر الأمم من بابل إلى مصر (٥٨٦ ق.م).

“وفي الشهر الخامس جاء نبوزرادان، رئيس الشرط عبد ملك بابل، إلى أورشليم، وأحرق بيت الرب، وبيت الملك، وكل بيوت أورشليم، وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار. وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين”. (الملوك الثاني، الإصحاح الخامس والعشرون، ٢١-٨)

نقرأ في إرميا بالمثل ٣٩، ٩، ١٠: “وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين سقطوا له وبقية الشعب الذين سباهم نبوزرادان رئيس الشرط إلى بابل. ولكن بعض الشعب الفقراء الذين لم يكن لهم شيء تركهم نبوزرادان رئيس الشرط في أرض يهوذا وأعطاهم كروماً وحقولاً في ذلك اليوم”.

بقي من ثم عدد من العناصر الفلاحية. كان سيكون بلا معنى إفراغ البلاد من السكان كلية، وتركه بغير مزارعين، لأنه لم يكن ليتمكن آنذ من دفع أية ضرائب. لقد رغب البابليون بوضوح أن ينقلوا خاصة هذا القسم من السكان، وفق ممارساتهم، الذي كان قادراً على توحيد وقيادة الأمة، ويمكن من ثم أن يصبح خطراً على الهيمنة البابلية. نادراً ما كان الفلاح وحده قادراً على تحرير نفسه من الحكم الأجنبي.

يصبح من السهل فهم المعلومات الواردة في إرميا ٩٣ إذا ماتذكرنا تشكيل اللاتيفونديا الذي كان يأخذ مجراه في يهوذا أيضاً. لقد كان من الطبيعي الآن أن تقسم اللاتيفونديا وتوزع على الفلاحين المجردين من الملكية، أو أن يصبح العبيد المدنيين

والمستأجرين ملاكاً أحراراً للأرض التي زرعوها. لأن طغاتهم قد كانوا قادة يهوذا في صراعها ضد بابل.

طبقاً للتقرير الآشوري، كان سكان يهوذا في ظل سنحريب ٢٠٠٠٠ دون احتساب (سكان) أورشليم، الذي ربما يقدر ب ٢٥٠٠٠. عدد الملاك العقاريين الكبار قدر ب ١٥٠٠٠؛ نقل نبوخذنصر ٧٠٠٠ من هؤلاء بعد الغزو الأول لأورشليم. وقد ترك وراءه من ثم ٨٠٠٠. مع ذلك يقرر كتاب الملوك الثاني، ٢٤، ١٤، أن الذين بقوا بالفعل كانوا هم فقط "مساكين شعب الأرض". هؤلاء الثمانية آلاف قد سبوا لاحقاً في التدمير الثاني. من المحتمل أنها كانت كرومهم وحقولهم هي التي أعطت إلى مساكين الشعب، الذين لم يملكوا شيئاً.

اقرب الاحتمال أنه لم ينقل كامل السكان هذه المرة أيضاً، ولكن كل سكان أورشليم قد نقلوا. على أية حال، معظم سكان البلد قد بقى. ولكن ما بقى كف عن أن يشكل مجتمعاً يهودياً نوعياً. كانت كامل الحياة القومية لليهود قد تركزت في سكان المدن الذين يعيشون الآن في المنفى.

لقد اكتسبت الحياة القومية الآن مساحة خصوصية، بسبب الوضع الخصوصي لليهود المدنيين. بينما كان الإسرائيليون حتى الآن عرقاً لم يختلف بقوة عن الأعراق الأخرى المحيطة به، ومن ثم لم يثر أى انتباه خاص وسط هذه الأعراق، فإن بقاياها، التي استمرت الآن في عيش حياة قومية منفصلة، تطورت إلى عرق مختلف عن أى (عرق) آخر في الوجود. لم يكن متأخراً عن تدمير أورشليم من قبل الرومان، بل باكراً عند تدمير أورشليم من قبل نبوخذنصر، أن باتت لدينا بدايات الوضع غير الطبيعي لليهود الذي يجعلهم ظاهرة فريدة في التاريخ.

القسم الرابع: بدايات المسيحية

الفصل الأول: المجمع المسيحي الأول

أ- الطابع البروليتارى للمجمع

لقد رأينا أن الطابع القومى المحض للغيورين الديمقراطيين لم يستجب لحاجة كثير من العناصر البروليتارية فى أورشليم. ولكن الفرار من المدينة الكبيرة إلى الريف المفتوح، الذى كان مسعى الإسينيين، لم يكن يلائم ذوق كل أحد. كان الحال آنذاك، مثله الآن، حيث من السهل الهرب من الريف، ومن الصعب الهرب من المدينة. لم يعد البروليتارى الذى أصبح معتاداً على حياة المدينة يشعر بأنه على راحته حين يكون فى الريف. ربما وجد الأغنياء، فى قصورهم الريفية، تغييراً مبهجاً من اضطراب المدينة الكبيرة، ولكن العودة إلى الريف فى حالة البروليتارى عنيت له عملاً شاقاً فى الحقول، لم يتعلم أن يقوم به، ولم يكن كفواً له.

فضل جمهور البروليتاريين بالضرورة، فى أورشليم وكذلك فى المدن الكبيرة الأخرى، أن يبقوا فى المدينة. لم تقدم لهم الإسينية ما احتاجوا إليه. بالتأكيد ليس لهؤلاء الذين إنتموا من بينهم إلى البروليتاريا الرثة وأصبحوا معتادون على العيش كطفيليات اجتماعية.

نشأ هناك بالضرورة بجانب الغيورين Zealots والإسينيين اتجاه بروليتارى آخر، موحداً الاتجاهين الغيورى والإسينى فى حركة واحدة. تجلّى التعبير عن هذا الاتجاه فى مجمع المخلص.

من المعترف به بصفة عامة أن المجمع المسيحى قد احتضن بصفة أصلية عناصر بروليتارية تقريباً على وجه الحصر، وكان تنظيمًا بروليتارياً. وكان هذا صحيحاً لفترة طويلة بعد البدايات الباكورة.

يشير القديس بولس فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين أنه لا الثقافة ولا الملكية كانت ممثلة فى المجمع.

“فانظروا دعوتكم، أيها الإخوة، أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى”.

قدم فريدلاندر وصفا جيدا للطابع البروليتارى للمجمع المسيحى الأولى فى كتابه الحياة الرومانية وآداب وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكورة، الذى اقتبسنا منه سلفاً عدة مرات:

“أيا ما كان عدد الأسباب التى أسهمت فى انتشار الإنجيل، فمن المؤكد أنه قبل منتصف أو نهاية القرن الثانى فقد كان له فقط بضعة أتباع معزولين وسط الطبقات العليا. لم يقدم فقط تمرسها الفلسفى، وتعليمها العام المرتبط بوثوق بتعدد الآلهة، المعارضة الأقوى، وإنما بالإضافة لذلك، أدى الإعلان المسيحى للإيمان إلى أشد النزاعات خطراً مع النظام القائم للأشياء، وأخيراً، فإن رفض كل المصالح الأرضية كان بالطبع أشد صعوبة لهؤلاء الذين امتلكوا الشرف، والثروة والنقود. يقول لاكتانتىوس إن الفقراء والأدنياء، أكثر استعداداً للإيمان من الأغنياء، الذين ثار عدائهم بلا شك بطرق مختلفة ضد الاتجاهات الاشتراكية الخاصة بالمسيحية. من ناحية أخرى، ساعد انتشار المسيحية فى الشريحة الأدنى من المجتمع، إلى حد ملحوظ تشتت اليهود، الذى لا بد وأنه كان سريعاً جداً، ولا بد وأن عدد المسيحيين باكراً فى عام ٦٤ كان ذو وزن، خاصة فى روما”.

ولكن كان هذا التوسع قاصراً لوقت طويل على بعض المواقع.

“تظهر التصريحات التى حفظت بشكل عرضى تماماً أنه من ٩٨ – ٤٢، من ١٨٠ – ٧٤، من ٣٢٥ أكثر من ٥٥٠، مكاناً ضمت جماعات مسيحية”.

“ولكن لم يشكل المسيحيون فى الإمبراطورية الرومانية أقلية صغيرة فقط كما هو الحال مؤخراً فى القرن الثالث، ولكن هذه الأقلية، على الأقل حتى بدايات القرن، قد أتت على وجه الحصر تقريباً من أدنى طبقات المجتمع. لقد كان مزحة بين الوثنيين أن المسيحيين تمكنوا من أن يحولوا (الى عقيدتهم) بسطاء العقول فقط، العبيد فقط، النساء والأطفال؛ وأنهم كانوا أجلاً، غير متعلمين، وريفيون؛ وأن أعضاء جماعاتهم كانوا بصفة رئيسة أناساً لا اعتبار لهم، الحرفيون والنساء العجائز. لم يجادل المسيحيون أنفسهم فى هذا. يقول جيروم: ليست جماعة المسيح مجندة، من الليسيوم LYCEUM والأكاديمية، وإنما من أدنى العامة (DE VILI PLEBECULA). لقد صادق بوضوح الكتاب المسيحيين على أنه، حتى منتصف القرن الثالث، لم يتسلل الإيمان الجديد سوى لعدد قليل من الأتباع ضمن الطبقات الأعلى. يقول إيوسيبوس إن السلام الذى تمتعت به الكنيسة، فى ظل كومودوس (١٨٠ – ١٩٢ ب.م) أسهم إلى “حد عظيم فى انتشارها” حتى أن عدة أشخاص فى روما، متميزون بحكم مولدهم وثروتهم، قد مالوا إلى “الخلاص بكامل بيوتهم وعائلاتهم”. يقول أوريجن، فى حكم الإسكندر سيف-؛-يروس (٢٢٢ – ٢٣٥ ب.م)، إنه “فى

الوقت الحاضر يستقبل الرجال الأغنياء وكثير من أصحاب المقامات العليا، وكذلك سيدات رقيقات ذوى أصل نبيل، الرسل المسيحيين للكلمة“. أى، لقد حققت المسيحية عندئذ نجاحات لم تكن قادرة على التباهى بها سابقاً وعلى ذلك منذ زمن كومودوس فصاعداً، تجلى انتشار المسيحية بين الطبقات العليا بشكل متعدد وواضح، بينما كان الحال بخلاف ذلك فيما يتعلق بالفترة السابقة الوحيدان ذوى المرتبة فى الوقت السابق على كومودوس، الذى يبدو أن تحولهما إلى المسيحية محتملاً، هما القنصل فلاث-؛-يوس كليمنس، أعدم عام ٥٩ ب.م. وزوجته (أو أخته)، فلاثيا دوميتيلا التى نفيت إلى بونتيا“.

هذا الطابع البروليتارى للمسيحية الأولية ليس أقل الأسباب فى كوننا فقيرى المعرفة بهذه المرحلة الباكرة. ربما كان المدافعون الأوائل عنها أشخاصاً بلغاء للغاية، ولكنهم لم يكونوا ضليعين فى القراءة والكتابة. كانت هذه الفنون أكثر غرابة بالنسبة لعادات جماهير الناس فى تلك الأيام منها الآن. كان التعليم المسيحى لتاريخ مجتمعهم مقصور لعدد من الأجيال على النقل الشفوى، بلاغ أشخاص مستثارين بانفعال شديد، سذج إلى حد لا يصدق، تقارير عن أحداث شهدتها فقط حلقة صغيرة، هذا إذا كانت قد حدثت بالفعل على الإطلاق؛ والتى لم يكن ممكناً من ثم التقصى عنها من قبل جمهور السكان، وبالتأكيد ليس من قبل عناصره الناقدة وغير المتحيزة. فقط حينما تحول أشخاص أكثر تعليماً، من مستوى اجتماعى أعلى، إلى المسيحية، اختطت بداية التثبيت المكتوب للتراث، ولكن حتى فى هذه الحالة لم يكن الغرض تاريخياً بقدر ما كان جدالياً، للدفاع عن نظرات ومطالب معينة.

كثير من الشجاعة أو كثير من التحيز مطلوب، إذا تغاضينا عن جهل كامل بشروط الثقة التاريخية، لادعاء أنك قادر على تقديم سيرة CAREER وحتى أحاديث شخصيات معينة بيقين مطلق، على أساس الوثائق الأدبية التى أنتجت بالطريقة السابقة المليئة بالمستحيلات والتناقضات الصريحة. لقد بينا سلفاً فى مقدمتنا أنه من المستحيل أن نقول أى شيء محدد عن المؤسس المزعوم للمجمع المسيحى. بعدما قيل توا، ربما نضيف أنه ليس ضرورياً بالفعل أن نعرف أى شيء عنه. كل أنماط الفكر التى عينت بصفة عامة، فى معرض المدح أو الذم، باعتبارها مسيحية نموذجياً، قد ظهر أنها بالفعل نتائج جزئياً للتراث الهيلينى الرومانى، وجزئياً التراث اليهودى. ليس هناك فكرة مسيحية واحدة تتطلب افتراض نبى رفيع وإنسان أعلى لتفسير أصلها، وليس هناك فكرة واحدة لا يمكن أن نجدها قبل زمن يسوع فى الأدب “الوثنى” أو اليهودى.

إنه لأمر ضئيل الأهمية، بقدر ما يتعلق الأمر بمفهومنا التاريخي، على أى حال، أن نكون ملمين تماماً بما يخص شخصية يسوع ورساله، مع ذلك فإنه لفي غاية الأهمية أن تكون لدينا معلومات محددة تتعلق بطبيعة المجمع المسيحي الأولى.

لحسن الحظ ليس هذا مستحيلاً بأى حال من الأحوال. لايهم كيف زينت على نحو رائع أو كيف ملئت بالاختراعات المحضة الخطب وأعمال الأشخاص الذين يجلهم المسيحيون بوصفهم أبطالهم ومعلميهم، ليس هناك من شك في أن المؤلفين المسيحيين الأوائل كتبوا بروح المجمع المسيحية التي كانوا يعملون فيها ومن أجلها. لقد كانوا ببساطة ينقلون التراث من زمن أبكر، ولا ريب، ربما، غيروا فيما يتعلق بالتفاصيل، ولكن الذي كان طابعه الجوهرى مع ذلك محدداً جداً حتى أنهم كانوا ليوافقون معارضة نشطة إذا كانوا قد حاولوا أن يغيروا هذا التراث بأى طريقة فظة. ربما حاولوا أن يضعفوا أو أن يعيدوا تفسير الروح التي سادت في بدايات المجمع المسيحي، ولكن لم يكن بإمكانهم أن يستبعدوها كلية. مازال من الممكن إثبات هذه التخفيفات، التي تصبح أجراً بمجرد أن يفقد المجمع المسيحي أكثر فأكثر طابعه البروليتارى الأولى ويقبل المتعلمين وكذلك الأثرياء والشخصيات المحترمة كأعضاء. ولكن تمكننا هذه المحاولات تحديداً من أن ندرك بوضوح هذا الطابع البروليتارى الأصلى.

تجد المعرفة التي حزنناها هكذا دعماً في تطور الطوائف المسيحية اللاحق، المعروفة جيداً منذ بداياتها الأولى والتي تعكس بوضوح في تاريخها اللاحق تطور المجمع المسيحي بعد القرن الثانى، كما نعرفه الآن. ربما نستنتج من ثم أن هذه السلسلة من الأحداث شكلت قانوناً طبيعياً، وأن البدايات، المعروفة لدينا جيداً، للطوائف اللاحقة تقدم تناظراً مع البدايات غير المعروفة للمسيحية. مما لاريب فيه، لايشكل برهاناً بالقياس كهذا دليلاً فى حد ذاته فقط ولكنه ربما يقدم بامتياز دعماً للفرضية التي تشكلت بطريقة أخرى.

كلا هذين العنصرين، تناظر الطوائف اللاحقة، وكذلك البقايا المحفوظة بالفعل للتراث الباكر للحياة المسيحية الأولية، محدد تماماً كأدلة عن اتجاهات توقعناها بشكل معقول مقدماً بمعرفتنا الطابع البروليتارى للمجمع.

ب - الحقد الطبقي

فى المحل الأول، هناك حقد طبقي وحشى تجاه الأغنياء. هذا الحقد الطبقي واضح بجلاء فى إنجيل القديس لوقا، الذى كتب باكراً فى القرن الثانى، خاصة فى حالة لعازر، التى نجدها فى هذا الإنجيل فقط (١٦، ١٩ ومايليها). فى هذا المقطع، يذهب

الإنسان الغنى إلى الجحيم والإنسان الفقير إلى حضن إبراهيم، ليس بسبب أن الأول خاطياً والأخير باراً، لا يقال لنا شيء عن هذا. لقد أدين الإنسان الغنى لسبب بسيط هو أنه إنسان غنى. يناديه إبراهيم: "أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلاء، وهو الآن "يتعزى وأنت تتعذب". لقد كانت الرغبة في الانتقام من جانب المضطهدين هي التي تمخضت عن هذا الوصف لدولة المستقبل. يجعل نفس الإنجيل يسوع يقول "ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى مملكة الله، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله". (٧١ / ٤٢ ، ٥٢). هنا أيضاً يدان الإنسان الغنى بسبب ثروته، وليس بسبب خطيئته.

بالمثل فى الموعدة على الجبل (لوقا ٦ / ٢٠ ومايليها): طوباكم أيها المساكين هؤلاء الذين بلغوا غاية الفقر حتى أنهم لابد وأن يتسولوا): لأن لكم ملكوت الله، طوباكم أيها الجوع الآن لأنكم تشبعون؛ طوباكم أيها الباكون الآن: لأنكم ستضحكون ولكن ويل لكم أيها الأغنياء: لأنكم قد نلت عزاءكم؛ ويل لكم أيها الشباعى! لانكم ستجوعون، ويل لكم أيها الضاحكون الآن! لأنكم ستحزنون وتبكون".

سوف يلاحظ القارئ أنه أن يكون المرء غنياً ويستمتع بثروته يعتبر جريمة، جديرة بأشد العقوبات قسوة.

مازالت نفس الروح فى رسالة القديس يعقوب إلى الاثنى عشر سبطاً فى الشتات التى يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثانى: " هلم الآن، أيها الأغنياء، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة، غناكم قد تهرأ وثيابكم قد أكلها العث؛ ذهبكم وفضتكم قد صدأ، وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار. قد كنزتم فى الأيام الأخيرة هوذا، أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم، المنجوسة منكم تصرخ: وصياح الحصادين قد دخل إلى أذن رب الجنود. قد ترفهتكم على الأرض وتنعمتكم؛ وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح. حكمتكم على البار، قتلتموه، لايقاومكم. فتأنوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب ". (٥، ١ ومايليها)

إن القديس يعقوب يستشيط غضباً حتى ضد هؤلاء الذين فى صفوفه، ضد هؤلاء الذين إنضموا إلى المجمع المسيحى:

"وليفتخر الأخ المتضع بارتفاعه: واما الغنى فباتضاعه، لأنه كزهر العشب يزول، لأن الشمس أشرقت بالحر فيبيست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره. هكذا يذبل الغنى أيضاً فى طرقه اسمعوا يا إخوتى الأحباء. أما اختار الله فقراء (هذا) العالم أغنياء فى الإيمان، وورثة الملكوت الذى وعد به الذين يحبونه؟ وأما انتم

فأهنتم الفقير. أليس الأغنياء يتسلطون عليكم وهم يجرونكم إلى المحاكم؟ أما هم يجدفون على الاسم الحسن الذى دعى به عليكم؟

قليلة هى المناسبات التى اتخذ فيها الحقد الطبقي للبروليتاريا الحديثة مثل هذه الأشكال المتعصبة كتلك الخاصة بالبروليتاريا المسيحية. فى اللحظات القصيرة التى حازت فيها بروليتاريا حقبتنا السلطة حتى الآن، لم تنهال بانتقامها أبداً على الغنى. مما لاشك فيه أنها تشعر بنفسها أقوى بكثير اليوم مما شعرت به بدءاً بروليتاريا المسيحية الوليدة. ولكن من يعرف بأنه قوى يكون دائماً أكثر ميلاً إلى أن يبقى رحب الصدر أكثر ممن هو ضعيف. إن علامة فقدان الثقة عند البورجوازية فى قوتها الخاصة أنها دائماً تُنزل مثل هذا الانتقام الفظيع ببروليتاريا ناهضة.

إن إنجيل القديس متى أحدث ببضعة عقود من (إنجيل) القديس لوقا. فى نفس الوقت، بدأ الأشخاص الأثرياء والمتفقون فى السعى للاتصال بالمسيحية، وبدأ كثير من الدعاة المسيحيين يستشعرون الحاجة لأن يضعوا المذهب المسيحي بشكل أكثر لطفاً حتى يجذبوا هؤلاء الناس. إن طريقة "أكل النار" المسيحية الأولية لم تعد متاحة. ولكن هذا الموقف الأقدم قد ضرب عميقاً بجذوره حتى يمكن إزاحته فحسب، وقد بُذل جهد من ثم ببساطة لـ "مراجعته" بمعنى انتهازى. إن هذه الروح المراجعة هي التى جعلت إنجيل القديس متى "إنجيل التناقضات"، وكذلك أيضاً "الإنجيل المفضل لدى الكنيسة". وجدت الكنيسة، فى هذا الإنجيل "الطابع الجريء والثورى للحماس المسيحي الأولى والاشتراكية - وقد تعدل للغاية إلى وسيلة ذهبية ملائمة لانتهازية إكليريكية، حتى إنه لم يعد يبدو كعقبة فى سبيل وجود كنيسة منظمة صنعت سلامها مع المجتمع الإنسانى".

بالطبع، حذف الكتاب المتعددون الذين اشتركوا بشكل متعاقب فى إنتاج إنجيل القديس مرقس كل الأجزاء غير الملائمة التى كان من الممكن أن يستبعدوها، مثل قصة لعازر، إدانة خلاف الميراث، الذى يقود أيضاً إلى تقييع مطول ضد الأغنياء (القديس لوقا ١٢ / ١٣ ومايليها). ولكن يحتمل أن الموعظة على الجبل أصبحت غاية فى الشعبية ومعروفة للغاية حتى يكون من الملائم معالجة هذا الحدث بنفس الطريقة. وعلى ذلك فقد هُذبت الموعظة. يقول يسوع عند متى: "طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات طوبى للجياع والعطاشى إلى البر، لأنهم يشبعون".

بالطبع، أزلت هذه المراجعة الماكرة كل أثر للحقد الطبقي. إنهم الآن الفقراء فى الروح الذين سيُباركون. ليس من المؤكد أى ضرب من الأشخاص قد قُصدوا بهذا التعبير، ما إذا كانوا بلهاء، أو مثل هؤلاء المتسولين فقط فى خيالهم الخاص وليس

فى الواقع، بمعنى آخر، هؤلاء الذين يستمرون فى الامتلاك بينما يزعمون أن قلوبهم ليست متعلقة بممتلكاتهم. من المحتمل أن الأخيرين هم الذين قُصدوا، ولكن كيفما كان الأمر فإن إدانة الثروة التى جرى التعبير عنها ذات مرة بإعلان مباركة المتسولين لم تعد موجودة. من المسلى أن نجد أن الجوعى قد تحولوا الآن إلى هؤلاء الجوعى للعدالة، الذين يطعمون بمنظور أنهم سيشبعون من العدالة. الكلمة الإغريقية المترجمة هنا بـ "لأنهم يشبعون" قد استعملت غالباً للحيوانات، وتقال على البشر بمعنى تحقيرى أو للسخرية فقط، لتعيين طريقة رديئة لملا المعدة. حقيقة أن الكلمة تتردد فى الموعظة على الجبل أيضاً هى أثر للأصل البروليتارى للمسيحية، من المحتمل أن التعبير كان جارياً فى الدوائر التى أخذ منها، ليشير إلى إشباع كامل للجوع الجسدى. ولكنه يصبح مثيراً للسخرية حين يطبق على إشباع الجوع للعدالة.

لا يوجد نظير هذه الطوباويات، أى لعن الإنسان الغنى، عند متى على الإطلاق حتى أكثر التشويهات حدقا لم يكن من الممكن أن تخرع شكلاً يجعلها مقبولة عند الطبقات الثرية الذى كان تحولها مرغوباً، ومن ثم كان على هذا الجزء أن يستبعد.

ولكن بغض النظر عن كم حاولت كثيراً دوائر معينة ذات نفوذ بالمجمع المسيحى، حيث انها أصبحت أكثر فأكثر انتهازية، السعى لإزالة الطابع البروليتارى، فلم يقضى على البروليتاريا وحقدتها الطبقي بتلك الوسيلة، وظهر مفكرون متفرقون من وقت لآخر ليعبروا عن هذا الحقد. سوف يجد القارئ مجموعة جيدة من المقاطع من كتابات القديس كليمنت، الأسقف أستيريوس لاكتانتىوس، باسيليوس الأعظم، القديس جريجورى من نيسا، القديس أمبروز، القديس يوحنا فم الذهب، القديس جيروم، القديس أوغسطين، إلى آخره، كلهم تقريباً يكتبون فى القرن الرابع، حين كانت المسيحية بالفعل دين الدولة، فى كتاب بول بفلوجر الصغير اشتراكية آباء الكنيسة. أطلقوا كلهم أكثر الإدانات حدة على الأغنياء التى تضعهم على نفس المستوى مع اللصوص وقطاع الطرق.

ج - الشيوعية

بالنظر لهذا الطابع البروليتارى الواضح للمجمع، فمن الطبيعى أنه كان عليه أن يهدف لتحقيق تنظيم شيوعى. فى الواقع، أعلن الكثير تحديداً. نحن نقرأ فى أعمال الرسل: "وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة (α-; -l-; -w-; -v-; -l-; -o-; -k-؛-) وكسر الخبز والصلوات. وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً، والأملاك والمقتنيات كانوا "يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج (٢ / ٤٢، ٤٤)" وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة: ولم يكن أحد يقول أن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً. إذا لم يكن

فيهم أحد محتاجاً: لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كان يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات، ويضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج". (٤ / ٣٢ ، ٣٤)

سوف نتذكر أن حنانيا وسفيرة اللذان حاولا أن يحتفظا ببعض من نقودهما خفية عن المجمع قد جوزيا على هذا الانتهاك بالموت بتدخل إلهي.

كان القديس يوحنا فم الذهب (تعنى الكلمة الأطول CHRYSOSTOM "فم الذهب")، وقد سمي كذلك بسبب بلاغته النارية، وكناقد غير هياب لزمته (٣٤٧ – ٤٠٧ ب.م)، أضاف إلى العرض المقدم سابقاً عن الشيعية المسيحية الأولية مناقشة لمميزاتها، التي كان لها صلاحية اقتصادية شديدة الواقعية، وابتعدت غاية البعد عن الوجد الزهدي. نحن نجد هذا المقطع في موعظته الحادية عشره HOMILIES تعليقاً اعلى أعمال الرسل. وكلماته مايلي:

"كانت النعمة بينهم، لأن أحدا لم يعانى حاجة، بسبب أنهم أعطوا بغاية الكرم حتى لم يبقى منهم فقيراً. لأنهم لم يعطوا قسماً ويحتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، كما لم يعطوا كل شيء كما لو كان ملكهم الخاص. لقد ألغوا عدم المساواة وعاشوا في وفرة عظيمة؛ وقد فعلوا ذلك بأشد الطرق جدارة بالإطراء. لم يجروا على أن يضعوا الصدقة في أيدي المحتاجين، ولم يقدموا الهبات بتعطف مكابر، وإنما وضعوها تحت أقدام الرسل وجعلوهم سادة وموزعي هذه الهبات. كل إنسان أخذ حاجته حينئذ من موارد الجماعة، وليس من الملكية الخاصة للأفراد. منع هذا الواهبين من أن يكتسبوا رضى ذاتياً باطلاً.

"إذا كان علينا أن نصنع هذا اليوم، فلا بد وأن نحيا بشكل أكثر سعادة بكثير، الأغنياء وكذلك الفقراء. ولن يحصل الفقراء من ثم على سعادة أكثر من الأغنياء. لأن الواهبين ليس فقط لم يصبحوا فقراء وإنما جعلوا الفقير غنياً أيضاً".

"دعنا نصور الأمر لأنفسنا هكذا: الكل يعطون ما لديهم للمالية العامة. لاتدع أحداً ينزعج بهذا المشهد، سواء كان الإنسان الغنى أو الإنسان الفقير. هل تعلم كم من النقود قد تجمع هكذا؟ افترض – لأنه لايمكن تحديدها بيقين مطلق – أنه لو تخلى كل إنسان عن كل نقوده، حقوله، أراضيه، منازل (إذا تغاضينا عن العبيد، لأن لنا أن نفترض إن المسيحيين الأوائل لم يكن لديهم أحداً منهم، الأكثر احتمالاً أنهم حرروهم)، افترض أن قدرا يبلغ حوالى مليون رطل من الذهب يمكن أن يتجمع وربما ضعفى أو ثلاث أضعاف هذا القدر. لأنه، دعنا نرى، كم عدد الأشخاص الذين تضمهم مدينتنا (القسطنطينية)؟ كم عدد المسيحيين؟ ألا يوجد مائة ألف

بتمامهم. وكم عدد الوثنيين واليهود؟ كم عدد آلاف أرطال الذهب التي يمكن أن تجمع هكذا؟ وكم عدد الفقراء لدينا؟ أنا لأعتقد أن هناك أكثر من خمسين ألف. ماهو القدر المطلوب من أجل إطعامهم كل يوم؟ إذا كان عليهم أن يأكلوا على مائدة مشتركة، لايمكن أن تكون التكاليف كبيرة جداً. كيف سنبدأ العمل برصيدنا العملاق؟ هل تعتقد أنه يمكن أبداً أن يستنفد؟ ألن تنصب علينا نعمة الله بوفرة أكثر ألف مرة من ذي قبل؟ ألن نصنع جنة من الأرض؟ إذا ثبت في النهاية انها تجربة ناجحة إلى حد غاية في الروعة في حالة ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف شخص (المسيحيون الأوائل)، ولم يعاني أحد منهم احتياجاً، كم ينبغي أن يكون العائد أفضل في حالة عدد كبير جداً كما هو الحال الآن؟ ألن يضيف كل قادم جديد شيئاً يخصه.

“إن تقسيم الأراضي يؤدي لنفقات أعظم ومن ثم ينتج الفقر. إعتبر فقط منزلاً به زوج وزوجه وعشرة أطفال. هي تنسج، وهو يحاول أن يكسب عيشه في السوق، هل سيكون من الارخص بالنسبة لهم أن يعيشوا معاً في بيت واحد أو أن يعيشوا منفصلين؟ بالطبع سوف يكون مكلفاً أكثر أن يعيشوا منفصلين. إذا انفصل الأبناء العشرة، سوف يحتاجون إلى عشرة منازل، عشرة موائد، عشرة خدم، وكل شيء آخر سوف يضاعف إلى عشرة بنفس الطريقة. وكيف سيكون الحال مع جمهور العبيد؟ ألا يطعمون معاً على مائدة واحدة من أجل توفير النفقات؟ يؤدي التقسيم دائماً إلى التبذير؛ الانضمام يؤدي دائماً إلى الاقتصاد في الموارد. وهكذا يعيش الناس الآن في الأديرة وهكذا عاش المؤمنون. من مات عندئذ من الجوع؟ من لم يشبع بوفرة؟ ومع ذلك يخشى الناس هذا الوضع أكثر مما يخشون من وثبة في البحر الذي لا حدود له. لم لا نبذل جهداً على الأقل ونشرع في الأمر بشجاعة! كيف ستكون نعمتنا عظيمة بهذه الطريقة! لأنه إن كان في تلك الأيام، حين كان عدد المؤمنين صغيراً جداً، من ثلاثة إلى خمسة آلاف فقط، إذا كان في ذلك الوقت حين كان العالم كله معادياً لنا، حيث لم نقابل بمواساة في أي مكان، شرع أسلافنا في المهمة بعزم مصمم، فأى قدر من الثقة ينبغي أن يكون لدينا، الآن حيث هناك مؤمنون في كل مكان بنعمة الله! من سوف يرغب في أن يكون وثنياً؟ أظن لا أحد. يجب أن نجذب الجميع إلينا ونجعل الجميع يميلون نحونا”.

لم يكن المسيحيون الأوائل قادرون على أن يصدروا مثل هذا التصريح الواضح والهادئ عن الحالة. ولكن ملاحظاتهم القصيرة، تعجباتهم، طلباتهم، لعناتهم، تشير بوضوح في كل حالة للطابع الشيعي الموحد للمرحلة الأولى من المجمع المسيحي.

في إنجيل القديس يوحنا الذي، يجب أن نقر بأنه لم يكن قد كتب حتى منتصف القرن الثاني، اعتبرت الرفقة الشيعية ليسوع مع رسله أمراً مفروغاً منه. لم يكن لهم

جميعاً سوى حافظة (نقود) واحدة، وهذه الحافظة كان يحملها يهوذا الإسخريوطي. يوحنا، الذي يحاول في هذه الحالة كما في الحالات الأخرى أن يبرز أسلافه، يزيد الاشتمزاز حيث لابد وأن يُقبض على الخائن يهوذا بوصمة باعتباره مختلساً للمالية العامة. يصف يوحنا واقعة مسح مريم قدم يسوع بطيب ثمين.

“فقال واحد من تلاميذه، وهو يهوذا الإسخريوطي، المزمع أن يسلمه، لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطي للفقراء؟ قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء بل لأنه كان سارقاً وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقي فيه”.

في العشاء الأخير، يقول يسوع ليهوذا: “ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة”.

“وإما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به. لأن قوماً إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج إليه للعيد، أو، أن يعطي شيئاً للفقراء”. يطلب يسوع مراراً في الأناجيل من تلاميذه أن يتخلى كل واحد عن كل شيء يملكه. “فكذلك، كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً”.

“بيعوا أموالكم، وأعطوا صدقة”. (لوقا، ١٢ / ٣٣).

“وسأله رئيس (يسوع) قائلاً، أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا. لا تزني، لا تقتل، لا تسرق، ولا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك. فقال هذه كلها حفظتها منذ حدثتني. فلما سمع يسوع ذلك، يعوزك أيضاً شيء: بع كل مالك، ووزع على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال، اتبعني. فلما سمع ذلك حزن؛ لأنه كان غنياً جداً”.

يدفع هذا الحديث يسوع إلى أن ينطق بمثل الجمل، الذي سيكون أيسر عليه أن يدخل من ثقب إبرة، من أن يدخل غني ملكوت الله. تبدو مملكة السماء متاحة فقط لهؤلاء الذين يشاركون الفقراء في ثروتهم.

يعرض الإنجيل المنسوب إلى القديس مرقس المسألة في نفس الضوء.

ولكن المحرف القديس متى يخفف هنا مرة أخرى الحدة الأصلية للطلب، بوضعه فقط في شكل افتراضي. يجعل متى يسوع يقول للشباب الغني: “إن أردت أن تكون كاملاً فاهرب وبع أملاكك واعط الفقراء”. (٢١ / ١٩).

لقد صُور ما كان يطلبه يسوع من كل واحد من أتباعه، من كل عضو في مجعته، وكأنه أصبح في وقت طلباً يعرض فقط على هؤلاء الذين ينزعون إلى الكمال.

هذه السلسلة من الأحداث طبيعية تماماً في تنظيم كان في البداية بروليتارياً محضاً وفيما بعد أدخل فيه المزيد والمزيد من عناصر كانت ثرية.

بالرغم من ذلك، هناك عدد من اللاهوتيين الذين ينكرون الطابع الشيوعي للمسيحية الأولى. وهم يزعمون أن الخبر الوارد في أعمال الرسل حول هذا الموضوع ذو أصل لاحق، كما كان الحال غالباً في العصور القديمة، وهم يزعمون أن الكاتب هنا أيضاً قد وضع الشرط المثالي الذي حلم به، في الماضي. ولكن ينسى هؤلاء اللاهوتيون أن الطابع الشيوعي للمسيحية الأولى لم يكن ملائماً تماماً للكنيسة الرسمية الخاصة بالقرون التالية، التي كانت تحتضن الأغنياء بهذا القدر أو ذاك. إذا كانت هذه الصورة للمسيحية الأولى قد اعتمدت على تلفيق لاحق، فإن أبطال الاتجاه الانتهازي ما كانوا ليترددون في الاحتجاج ضدها وسوف يعتبرون أن الكتب التي تحتوي مثل هذه الصور كان يجب أن تستبعد من الكتب القانونية التي اعترفت بها الكنيسة. لم تحتل الكنيسة تزويرات أبداً إلا عندما كان يتفق تماماً مع سياستها أن تفعل ذلك، بالتأكيد لم يكن هذا لينطبق على الشيوعية. إذا كانت الشيوعية قد اعتبرت رسمياً المطلوب الأكثر أساسية للمجمع الأولى، فقد أبدي مثل هذا الاعتراف بالتأكيد فقط لأنه كان من المستحيل عمل خلاف ذلك، لأن التقليد في هذه المسألة ضرب بجذوره عميقاً وانتشر أيضاً بصفة عامة.

د - الاعتراضات على الشيوعية

إن اعتراضات هؤلاء الذين ينكرون وجود الشيوعية في المجمع الأولى ليست بأي حال من الأحوال مقنعة. نحن نجد أن كل هذه الاعتراضات قد أعاد تلخيصها ناقد يعارض الصورة التي رسمتها عن المسيحية الأولى في مؤلفي رواد الاشتراكية.

الناقد أ. ك، وهو دكتور في اللاهوت، طبع اعتراضاته في مقالة في الأزمنة الحديثة Neuezeit تتعلق بما يسمى الشيوعية المسيحية الأولى.

يشير لنا، قبل كل شيء، بأن "مواعظ الناصري لم تهدف لتحقيق ثورة اقتصادية" ولكن من أين يحصل أ. ك على هذه المعلومة؟ تبدو أعمال الرسل بالنسبة له مصدراً غير مؤكد يؤسس عليه وصف التنظيمات التي يعزو أصلها إلى فترة ما بعد الموت المزعوم للمسيح؛ أما الأناجيل، وبعضها أحدث من أعمال الرسل، فيعتبرها بمثابة مصادر مؤكدة كلية حتى بالنسبة لأحاديث المسيح!

في الواقع، تنطبق نفس الحقيقة على الأناجيل كما تنطبق على أعمال الرسل. ما يمكن أن نعلمه منها هو شخصية هؤلاء الذين كتبوها، بالإضافة إلى ذلك ربما تتضمن أيضاً بعض الذكريات الماضية، ولكن الذكريات الماضية للتنظيمات أكثر قابلية للتذكر من الأحاديث، ولا يمكن أن تشوه بسهولة شديدة. أضف إلى ذلك، كما رأينا، فإننا نستطيع أن نتحقق جيداً جداً في الأحاديث التي بلغتنا عن المسيح خاصة تشير لشيوعية المجمع المسيحي الأولي بشكل غاية في التحديد.

لا يمكن أن تستخدم التعاليم الخاصة بيسوع، التي لا نعلم عنها شيئاً محدداً على الإطلاق، للبرهنة على أي شيء ضد افتراض الشيوعية الأولية. أضف إلى ذلك، فإن أ. ك. يبذل قصارى جهده ليعلننا نعتقد أن الشيوعية العملية للإسنيين، التي كانت تتطور تحت حدقة بروليتاريي أورشليم، لم يكن لها تأثير عليهم على الإطلاق، وإنما النظريات الشيوعية للفلاسفة والشعراء الإغريق هي التي مارست التأثير الأكثر عمقاً على البروليتاريين غير المتعلمين للمجمع المسيحي خارج أورشليم وقد أشربوا بالمثل الشيوعية، الذي وضع تحقيقها، بالتوافق مع عادات الزمان الماضي، أي، في فترة المجمع الأولي في أورشليم.

بمعنى آخر، لقد قيل لنا إن المتعلمين نجحوا لاحقاً في صبغ البروليتاريين بشيوعية، كانت مراقبتها العملية قد تركتهم سابقاً غير متأثرين بها. لا بد وأننا نحتاج بالتأكيد إلى أقوى البراهين لنجعل هذه النظرة تبدو لنا جدية بالتصديق: فكل دليل لدينا يتعارض معها. حيث يتزايد نفوذ الطبقات المتعلمة على المسيحية، تبتعد المسيحية أكثر فأكثر عن الشيوعية، كما رأينا سلفاً في إنجيل متى، وكما سوف نعلم لاحقاً في تتبع تطور المجمع.

إن أفكار أ. ك. عن الإسنيين خاطئة تماماً. وهو يقول عن المجمع المسيحي الشيوعي في أورشليم: "الواقع أن هذه التجربة الشيوعية المفردة التي تصادف أنها أقيمت بواسطة جمعية تحتوي على اليهود لا بد وأن تثير شكوكنا. نزولاً حتى البدايات الأولى لعصرنا، لم يقيم اليهود أبداً بمثل هذه التجارب الاجتماعية؛ لم يكن هناك قبل ذلك أبداً شيء يدعى شيوعية يهودية. ولكن الشيوعية نظرياً وعملياً معاً لم تكن شيئاً جديداً على الهيلينيين".

إن ناقدنا لا يكشف المصدر الذي يكتشف فيه الشيوعية العملية للهيلينيين في زمن المسيح. ولكنه تقريباً مما لا يصدق أن نسمعه يقول إنه يجد شيوعية أقل بين اليهود مما بين الهيلينيين بينما الحقيقة الفعلية أن شيوعية الأولين هي أرفع بما لا يقاس من الرؤى الشيوعية للأخيرين بسبب أنها قد نفذت بالفعل. وليس لدى أ. ك. بوضوح

أدنى شك في حقيقة أن الإسنيين قد ذكروا قبل المسيح بمائة وخمسين عاماً، ولكن يبدو أنه يظن أنهم لم يظهروا حتى زمن المسيح!

مع ذلك، فإن نفس هؤلاء الإسنيين الذين قُدموا بوصف أنه لم يكن لهم تأثير على ممارسات مجمع أورشليم، يزعم أنهم أنتجوا الخرافة الشيعية التي تخللت أعمال الرسل في القرن الثاني بعد المسيح. الإسنيون، الذين اختفوا من مجال النظر مع تدمير أورشليم، ويحتمل أن الدمار العام للجماعة اليهودية قد طواهم يقدمون بوصفهم قد أشربوا البروليتاريين الهيلينيين خرافات تتعلق بأصل المجمع المسيحي، وأدت بهم إلى تبني فكرة الماضي الشيوعي، في وقت كان العداء فيه بين اليهودية والمسيحية قد اتخذ بالفعل أكثر الأشكال حدة، بينما يزعم أيضاً أنه في الوقت الذي أسس فيه اليهود البروليتاريون تنظيماً في أورشليم الذي كان له بالضرورة اتصالاً وثيقاً شخصياً وعملياً مع الحركة الإسنية، لم يكن للأخيرة أقل تأثير على ذلك التنظيم.

من الممكن تماماً أن تكون الخرافات الإسنية ونظراتها قد حملتها العناصر التي تضمنها الأدب المسيحي الباكر. ولكن الأكثر احتمالاً إلى حد بعيد أنه في هذه الحالة الباكورة للمجمع المسيحي، التي لم يكن قد أنتج فيها أدباً بعد، أن كان تنظيمه واقعاً تحت تأثير النماذج الإسنية. وأمكن لهذا أن يكون تأثيراً بمعنى التنفيذ الفعلي للشيعية، وليس بمعنى تخيل ماضٍ شيوعي مزعوم فحسب، لا صلة له بواقع ما.

إن هذا الإنشاء الاصطناعي بكامله، خلق اللاهوتيين المحدثين والمقبول من أ. ك الذي ينكر التأثير الإسني في الوقت الذي كان فيه هناك تأثير بالفعل، ثم يعزو إليه وظيفة واضحة في وقت كان فيه قد توقف، يبين فحسب كيف يمكن أن تصبح عديد من العقول اللاهوتية في خدمة مهمة تحرير الكنيسة الأولية "من العطر غير اللائق" للشيعية.

ولكن كل ما سبق ليس أسباباً قاطعة عند أ. ك وهو يعرف "سبباً رئيساً" لم يقدر أبداً حتى الآن وهو: أن خصوم المسيحيين قد اتهموهم بكل الانتهاكات الممكنة، ولكن ليس بأنهم كانوا شيعيون. ومع ذلك فإن هؤلاء الخصوم لم يكونوا ليفوتوا فرصة توجيه مثل هذا الاتهام إذا كان هناك أساس له. أخشى أن يستمر العالم في تجاهل هذا "السبب الرئيسي". لأن أ. ك لا يمكن أن ينكر أن الطابع الشيوعي للمسيحية قد شدد عليه بوضوح عدد من المقاطع في أعمال الرسل وكذلك في الأناجيل. وهو يردّها بالقول بأن هذه المقاطع خرافية محضة فحسب. ولكنه لا ينكر أنها هناك وأنها تعبر عن اتجاهات مسيحية حقيقية. إذا لم يشدد خصوم المسيحية بالرغم من ذلك على شيوعية المسيحية، فذلك لا يمكن أن يعود إلى حقيقة أنهم لم يجدوا دعماً لمثل

هذا الاتهام. لأنهم اتهموا المسيحيين بأشياء أخرى، مثل قتل الأطفال، الاتصال بالمحارم، إلخ، التي لم يكن عليها أدنى دليل في الأدب المسيحي. إنه من الصعب أن نصدق، من ثم، أنهم قد تقاعسوا عن توجيه اتهامات كان يمكن أن يقدموا دليلاً عليها في الكتابات المسيحية حتى في الفترات الباكورة للأدب المسيحي.

يجب أن نبحث عن سبب ذلك في مكان آخر غير غياب الشيوعية في المسيحية الأولية.

السبب الحقيقي هو أن الموقف تجاه الشيوعية في تلك الأيام كان مختلفاً عما هو عليه اليوم.

اليوم، أصبحت الشيوعية بالمعنى المسيحي الأولي، بمعنى آخر، القسمة Dividing غير متناسبة مع تقدم الإنتاج، مع وجود المجتمع. اليوم، تتطلب الحاجات الاقتصادية على نحو غير مشروط العكس تماماً من القسمة، أي، أنها تتطلب تركيزاً للثروة في مواضع قليلة، إما في أيدي أفراد خاصين، كما هو الحال اليوم، أو في أيدي المجتمع، الدولة، البلديات، وربما أيضاً في أيدي التنظيمات التعاونية، كما في الخطة الاشتراكية للأمور.

ولكن كان الحال مختلفاً تماماً في أيام المسيحية. بخلاف التعدين، كانت الصناعة بمجملها تقريباً من نوع صغير. في الزراعة، من الحقيقي أنه وجدت هناك حالات مؤسسات واسعة ذات نمط كبير، ولكن هذه المشاريع الكبيرة التي أديرت بشرياً من قبل العبيد، لم تكن أرفع تقنياً من المؤسسات الصغيرة، وأمكن أن تحافظ على نفسها فقط حيث توفر استغلال مدمر قاس للموارد بمساعدة عمل العبيد الرخيصين. لم يصبح الإنتاج الكبير أساس مجمل الإنتاج كما هو الحال اليوم.

من ثم، عني تركيز الثروة في أيدي حفنة قليلة عندئذ أي شيء آخر عدا تعزيز إنتاجية العمل، وبالتأكيد لم يكن أساساً لعملية الإنتاج ومن ثم للرفاهية الاجتماعية.

لم يعن تركيز الثروة في أيدي حفنة قليلة تطوراً للقوى المنتجة، وإنما تراكم لمواد الاستهلاك فحسب بقدر ما لم يكن من الممكن للفرد أن يستهلكها بنفسه، انتهاءً إلى أنه ليس لديه سبيل آخر سوى أن يتشارك فيها مع الآخرين.

وقد فعل الأغنياء هذا على نطاق واسع، وجزئياً بشكل طوعي. كان الكرم يعتبر واحداً من الفضائل الأشد تميزاً في العصر الإمبراطوري الروماني. لقد كان وسيلة لكسب الأتباع والأصدقاء ومن ثم وسيلة لزيادة سلطة الشخص.

“تلقي العبيد عند عتقهم، بصفة عامة هبة سخية بهذا القدر أو ذاك. في حالات عائلية ١٠٠٠٠٠٠ (سيسترسس). تلقت عائلات الأقارب والوكلاء أيضاً منحاً وحماية. ومعتق من كوتا ميسالينيوس، صديق طيباريوس، يحتفل على شاهد قبره في ثيا ابيا، بأن راعيه مراراً ما أعطاه مبالغ تصل إلى ما يتقاضاه الفرسان Knightly Census (400000 سيسترسس)، علموا أطفاله، وقدموا أبويّاً أسباب العيش لأبنائه، أنعموا بالتربويونية العسكرية على ابنه كوتانوس، ودفَعوا تكاليف شاهد القبر هذا”.

كانت هناك حالات كثيرة جداً كهذه. ولكن حيث سادت الديموقراطية، كانت هناك أيضاً مشاركة إجبارية في الممتلكات إضافة للطوعية. كان على من يرغب في منصب أن يشتريه بالهبات السخية للناس، الآخرين، حينما كانت لديهم قوة، إضافة إلى ذلك فرضوا ضرائب مرتفعة على الأغنياء، حتى يعيشوا على عائد هذه الضرائب، بينما كان المواطنون يكافئون من عائدات الدولة لمشاركتهم في الجمعيات العامة وحتى لحضورهم في الاحتفالات العامة Spectacles، وتمتعوا على حساب الإنفاق العام على الموائد العامة الكبيرة، أو أعطوا طعاماً من المخازن العامة.

لم يكن هناك ما هو عدائي في عيون الجماهير في فكرة أن الأغنياء قد وجدوا حتى يشاركوا ملكيتهم مع الآخرين، لم يكن هناك شيء يناقض وجهات النظر العامة. لقد كانت بالأحرى فكرة تتوافق تماماً مع هذه النظرات.

لم تكن الجماهير تنفر من مثل هذه الأفعال، وإنما بالأحرى امتدحتها. كان خصوم المسيحية سيكونون أغبياء لو شددوا على هذه المرحلة فقط. دع القارئ يلاحظ فحسب الاحترام الذي يتحدث به مثل هؤلاء الكتاب المحافظون مثل يوسيفوس وفيلون عن شيوعية الإسنيين، إنهم لا يجدون هذه الشيوعية منفرة أو مضحكة وإنما راقية تماماً.

“الاعتراض الأساسي” عند أ. ك على افتراض شيوعية مسيحية أولية، أي، أن المسيحيين لم يتهموا بهذه الممارسة من قبل خصومهم، هي من ثم دليل فحسب على أن أ. ك يرى الماضي بعيون المجتمع الرأسمالي الحديث وليس بعيونه الخاصة.

بالإضافة إلى هذه الاعتراضات، التي لم تؤسس على أدلة على الإطلاق ولا تعدو أن تكون مجرد تخيلات، يوظف أ. ك الآن عدداً من الانتقادات القاسية المؤسسة على حقائق رويت في أعمال الرسل. بفضول كاف، ناقدنا، المتشكك للغاية، في أن يأخذ في الاعتبار أوصاف الشروط القائمة طويلاً، في الأدب المسيحي الأولي، يقبل

الآن كل ما يذكر عن حادث بعينه بقيمته الظاهرة. إنها نفس الحال إذا ما أعلننا أن أوصاف الشروط الاجتماعية في العصر البطولي التي توجد في الأوديسه هي اختراعات ومع ذلك قبلنا بولف-؛-يموس وسيرس باعتبارهما شخصيتان تاريخيتان قامتا بالفعل بالأعمال التي نسبت إليهما.

ولكن حتى هذه الحقائق المفردة لا تؤثر على افتراض الشيوعية في المجمع الأولي.

في المحل الأول يقول أ. ك إنه كان للمجمع في أورشليم عضوية من خمسة آلاف، ويسأل: كيف يمكن لعدد كبير كهذا، بزوجاتهم وأطفالهم، أن يؤلفوا أسرة واحدة؟

لم يزعم أحد أنهم ألفوا أسرة واحدة أو أنهم أكلوا على مائدة واحدة. وسوف يكون من الصعب حتى تأكيد أن المجمع الأولي كان لديه بالفعل عضوية من خمسة آلاف كما ورد في أعمال الرسل (٤ / ٤). لم تكن الإحصاءات نقطة القوة في الأدب القديم وبالتأكيد ليس في الأدب الشرقي: كانت المبالغة كوسيلة لإنتاج تأثير معين مفضلة كثيراً.

كان عدد الخمسة آلاف يعزى غالباً من أجل أن يشير إلى كمية كبيرة للغاية. وهكذا تصرح الأنجيل بغاية التحديد بأن عدد الأشخاص الذين أطعمهم يسوع بخمسة أرغفة من الخبز كان خمسة آلاف إنسان "سوى النساء والأطفال" (متى ١٤ / ١٢). هل سيصر ناقدني أيضاً على صحة الرقم في هذه الحالة؟

ولكن لدينا كل سبب للاعتقاد بأن نسبة عضوية خمسة آلاف للمجمع الأولي كانت متسمة بالتبجح قليلاً.

عقب موت يسوع فوراً، طبقاً لأعمال الرسل، يلقي بطرس خطبة نارية مستنهضة، وعلى الفور تعمد ثلاثة آلاف شخص (٢ / ٤١). تتمخض دعايته عن أن كثيراً أصبحوا مؤمنين والآن يقدم رقم خمسة آلاف (٤ / ٤). الآن كيف كان الحجم الحقيقي للمجمع في زمن موت يسوع؟ التقى المجمع مباشرة عقب موته و"كان هناك حوالي مائة وعشرون شخصاً إجمالاً" (١ / ١٥).

يشير هذا بالتأكيد إلى أن المجمع كان في البداية صغيراً جداً، بالرغم من كل التحريض المثابر من جانب يسوع ورسله. والآن علينا أن نصدق أنه فجأة، بعد وفاته، تزايد المجمع من أكثر من مائة بالكاد إلى خمسة آلاف، بواسطة إلقاء بعض الخطب؟ إذا كان لابد وأن نقبل أي رقم محدد فمن المحتمل أن الأخير أكثر بعداً عن الحقيقة من الأول.

كان خمسة آلاف عضو منظمين سيكونون عصابة مرموقة تماماً في أورشليم، ولكن يوسيفوس بالتأكيد قد أولاهم بعض الانتباه. لا بد وأن المجمع كان بالفعل عديم الأهمية للغاية، ما دام لا يذكره أحد من معاصريه. أضف إلى ذلك، أن أ. ك. يثير الاعتراض بأن الرواية التي تتعلق بشيوعية المجمع تصرح، بعد وصف المجمع:

“ويوسى، الذي لقب من قبل الرسل بارنابا (الذي، تفسيره، ابن العزاء)، لاويا ومن بلد قبرص، كانت لديه أرض، فباعها وأحضر النقود ووضعها تحت أقدام الرسل. ولكن رجل ما اسمه حنانيا، مع سفيرة زوجته، باع ممتلكات، واستبقى جزءاً من الثمن، زوجته أيضاً كانت مطلعة على ذلك، وأحضرت قدرًا معيناً ووضعته تحت أقدام الرسل”. يقال لنا إن هذه الشهادة ضد الشيوعية، لأن أ. ك. يظن أن بارنابا لم يكن ليخص بالذكر إذا كان الأعضاء قد باعوا ممتلكاتهم وأحضروا النقود إلى الرسل.

ينسى أ. ك. أن بارنابا هنا يُعارض مع حنانيا باعتباره نموذجاً للسلوك القويم، بالتأكيد لا يمكن لشيء أن يعبر بوضوح أكثر عن مطلب الشيوعية. هل كان ضرورياً أن يذكر أعمال الرسل كل إنسان باع ممتلكاته؟ نحن لا نعرف لماذا كان بارنابا فقط هو الذي ذُكر، ولكن الدفاع بأن ذكره يساوي تصريحاً بأنه هو فقط من قام بممارسة فعالية للشيوعية هو تقدير شديد التدني لذكاء مؤلفي أعمال الرسل إن مثل بارنابا مذكور في صلة مباشرة بحقيقة إن كل من امتلكوا شيئاً قد باعوه. إذا كان بارنابا قد ذكر بشكل خاص، فربما كان السبب أنه كان ذو حظوة لدى مؤلفي الأعمال، لأنهم ميزوه بالانتباه مرة أخرى. ولكن ربما كان هناك سبب آخر وهو مصادفة أن اسمه قد وصل (إلينا) مع اسم حنانيا. أو ربما كان هذان الاثنان هما العضوين الوحيديين من المجمع الأصلي الذي كان لديهما أي شيء جدير بالبيع بينما كان كل الباقيين بروليتاريين.

الواقعة الثالثة التي أدلي بها هي التالية: نحن نقرأ في أعمال الرسل (١/٦) وما يليها):

“وفي تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن أرامهم كن يغفل عنهن في الخدمة اليومية”

يسأل أ. ك. بسخط: “أكان هذا سيكون ممكناً إذا كانت الشيوعية ممارسة بالفعل؟”

ولكن لا أحد يدافع عن أن الشيوعية لم تواجه صعوبات في تنفيذها، أو بالفعل، أنه لم يكن ممكناً أن تواجه مثل هذه الصعوبات! وتصرح الرواية إضافة لذلك، ليس بأنه قد جرى التخلي عن الشيوعية، وإنما أن تنظيمها قد تحسن بإدخال تقسيم العمل. لقد

كان الرسل الآن مشغولين بالدعاية فقط بينما انتخبت لجنة من سبعة لتتولى الوظائف الاقتصادية للمجمع.

القصة بكاملها منسجمة تماماً مع افتراض أن الشيوعية كانت ممارسة، وتصبح مضحكة تماماً إذا قبلنا وجهة نظر ناقدنا، التي استعارها من هولتزمان، وفحواها أن المسيحيين كانوا متميزين عن مواطنيهم اليهود ليس بتنظيمهم الاجتماعي، وإنما فقط بإيمانهم بـ"الناصري الذي صلب مؤخراً".

لم وجد هناك اعتراض ما على نمط القسمة، إذا لم يكن تم اللجوء إلى القسمة؟

أضف إلى ذلك: "نحن نقرأ في الإصحاح الثاني عشر (أعمال الرسل)، كنقيض مباشر للرواية التي تفيد وجود الشيوعية، أن مريماً ما، عضو للمجمع كانت تعيش في بيت يخصها".

هذا حقيقي، ولكن كيف يعرف أ. ك أن مريماً كان لها أي حق في أن تبني بيتها؟ ربما كان زوجها ما زال حياً ولم يلتحق بالمجمع؟ ولكن حتى إذا كان لها حق في أن تبني بيتها، لم يكن المجمع ليطلب بالضرورة بيعه. كان هذا البيت مكان اجتماع الأعضاء: وضعت مريم تحت تصرف المجمع. لقد كان يستعمل من قبل المجمع، بالرغم من أنه قانوناً يخص مريم. حقيقة أن المجمع احتاج إلى أماكن للاجتماع، وأنه لم يكن ذو شخصية قانونية حتى يمكن أن يحوز بنفسه مثل هذه الأماكن، ومن ثم فإن الأعضاء الفرديين قد خبروا شكل مثل هذه الملكية، لا ينهض سنداً بالتأكيد ضد افتراض الشيوعية. ليس لدينا الحق في أن نفترض أن الشيوعية المسيحية الأولية كانت غبية لحد التحذلق في تطبيق تنظيماتها لتضطر أعضائها إلى بيع تلك البيوت التي أرادت استعمالها لتقتسم العائد.

يبدو أن الاعتراض الأخير المثار يتعلق بحقيقة أن الشيوعية قد روي عنها في حالة مجمع أورشليم فقط بينما لم يرد ذكر عنها بالارتباط مع المجمع المسيحية الأخرى. سوف تكون لدينا الفرصة لأن نشير لهذه النقطة عند تتبع التاريخ اللاحق للمجمع المسيحي. سوف نرى عندئذ عما إذا كانت، ولأي مدى، ولأي مدة، طبقت الشيوعية بنجاح، ولكن هذه مسألة أخرى. لقد أشرنا سلفاً إلى أن هناك صعوبات قد واجهتها في المدن الكبيرة، وهي لم توجد في حالة الجماعات الزراعية، على سبيل المثال بين الإسينيين.

إننا معنيون الآن فقط بالاتجاهات الشيوعية الأصلية للمسيحية. ليس لدينا أقل سبب لأن نشك في هذه. لدينا في صالحها شهادة العهد الجديد، الطابع البروليتاري للمجمع

والاتجاه الشيوعي القوي للقسم البروليتاري من اليهود خلال القرنين السابقين على تدمير أورشليم، الذي عبرت عنه الإسينية بوضوح شديد.

إن كل البراهين ضد الاتجاه الشيوعي مؤسسة على سوء التفاهم، والحيل، والسفسطات البارعة، التي لا يوجد لها أقل سند مادي.

هـ - احتقار العمل

كانت الشيوعية التي طمحت إليها المسيحية الأولية تتفق مع شروط الأزمنة شيوعية في مواد الاستهلاك، شيوعية في التوزيع والاستهلاك المشترك لمثل هذه المواد. حينما تطبق على الزراعة فقد تؤدي هذه الشيوعية أيضاً إلى شيوعية في الإنتاج، في العمل المشترك المنظم، في المدينة الكبيرة، فإن طريقة كسب العيش، سواء كانت بواسطة العمل أم بالتسول، شئت بالضرورة البروليتاريين، بسبب شروط الإنتاج في تلك الأيام. لم تكن الشيوعية في المدينة الكبيرة لتعني في هدفها أي شيء سوى أعلى مرحلة ممكنة لاستنزاف الأغنياء من قبل الفقراء الذي تطور باقتدار شديد في القرون الأسبق حيثما حازت البروليتاريا قوة سياسية، كما في أثينا وروما. النشاطات المشتركة التي طمحت إليها أمكن أن ترقى على الأكثر للاستهلاك المشترك للأغذية والمواد الأخرى التي تحصلت هكذا شيوعية مساوية لاقتصاد منزلي مشترك، لتنظيم عائلي. في الواقع، يثبت فم الذهب، كما رأينا الأحقية للشيوعية من وجهة النظر هذه فقط. من الذي سينتج الثروة التي ستستهلك بشكل مشترك، ليس أمراً يعنيه، ونحن نجد نفس الوضع في المسيحية الأولية. تورد الأنجيل ملاحظات يسوع حول كل الموضوعات الممكنة، ولكن ليس حول العمل أو بالأحرى، حين يتحدث عن العمل، فإنه يفعل ذلك بأكثر المصطلحات ازدراءاً. وهكذا نحن نقرأ في لوقا (١٢ / ٢٢ وما يليها):

“لا تهتموا لحياتكم، بما تأكلون، ولا للجسد، بما تلبسون، الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغربان: إنها لا تزرع ولا تحصد؛ وليس لها مخدع ولا مخزن، والله يقيتها: كم أنتم بالحري أفضل من الطيور؟ ومن منكم اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحداً. فإن كنتم لا تقدرُونَ ولا على الأصغر فلماذا تهتمون بالبواقي. تأملوا الزنابق كيف تنمو، لا تتعب، ولا تغزل، ولكن أقول لكم، إنه ولا سليمان في مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان العشب الذي يوجد اليوم في الحقل ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا، فكم بالحري يلبسكم أنتم، يا قليلي الإيمان؟ فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون، وما تشربون ولا تقلقوا. فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم: وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه. بل اطلبوا ملكوت الله؛ وهذه

كلها تزداد لكم. لا تخف أيها القطيع الصغير أن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت، بيعوا مالكم وأعطوا صدقة”.

لا ينبغي أن يفهم هذا بأي حال من الأحوال بوصفه عظة للمسيحيين أن يكونوا زاهدين ومن ثم أن يتجاهلوا أمور الأكل والشرب، بسبب ضرورة توجيه عقولهم لرفاهة روحهم. لا، على المسيحيين أن يجاهدوا من أجل مملكة الله، بمعنى آخر، من أجل حكمهم الخاص، وعندئذ سوف يكون لديهم كل شيء يحتاجونه. سوف تكون لدينا فرصة أخرى لنلاحظ كيف كان مفهومهم عن “ملكوت الله” هذا أرسياً.

و – تدمير العائلة

حينما لا تكون الشيوعية مؤسسة على جماعية الإنتاج وإنما جماعية الاستهلاك، وتتابع هدف تحويل الجماعة كلها إلى عائلة واحدة، فإنها ترى بالضرورة في وجود الروابط العائلية التقليدية عنصراً مثيراً للاضطراب. لقد رأينا سلفاً هذا في حالة الإسنيين، والآن نلاحظ تكراراً لذلك في حالة المسيحية التي تعبر غالباً عن عداوتها للعائلة بطريقة غاية في التشديد. وهكذا يقول لنا الإنجيل المنسوب إلى مرقس (٣/ ٣١ وما يليها):

“فجاءت حينئذ أخوته، وأمه، ووقفوا خارجاً، وأرسلوا إليه، يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له، هو ذا، أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك. فأجابهم، قائلاً، من أُمِّي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين، وقال، ها أُمِّي وإخوتي! لأن من يصنع مشيئة الله، هو أخي، وأختي، وأمي”. لوقا يشدد بصفة خاصة على هذه النقطة، نقراً (٨، ٥٩ وما يليها):

“وقال لآخر اتبعني، فقال، يا سيد، ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي، فقال يسوع، دع الموتى يدفنون موتاهم: وأما أنت فاهب وناد بملكوت الله. وقال آخر أيضاً، اتبعك يا سيد ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي، فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله”.

بينما ما سبق هو دليل على أعظم القساوات المطلوبة فيما يتصل بالعائلة، فإننا نجد في مقطع آخر عند لوقا تعبيراً متميزاً عن الكراهية ضد العائلة (٢٦ / ١٤):

“إن أحداً يأتي إلي، ولا يبغض أباه، وأمه، وامراته، وأولاده، وإخوته، وأخواته، حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً”.

في هذا الصدد ظهر متى بوصفه المحرف الانتهازي مرة أخرى. يعرض متى الجملة الآنفة بالطريقة الآتية (٣٧ / ١٠):

“من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني” يمثل هذا بالفعل تخفيفاً ذو وزن للكراهية ضد العائلة. يرتبط بوثوق بهذه الكراهية للعائلة التخلي عن الزواج، الذي كان متطلباً بعناد من المسيحية كما من الإسينية. ولكن وجد أن النظامين مرة أخرى متشابهان في حقيقة أن كليهما يطور الشكليات الممكنين لحالة عدم الزواج، العزوبة، أو التخلي عن كل حياة زوجية، والعلاقات الجنسية غير المنتظمة خارج الزواج التي عينت أيضاً تحت اسم “مشاعة الزوجات”.

هناك مقطع جدير بالملاحظة في مؤلف كامبانيلا مدينة الشمس، الذي يؤكد فيه أحد النقاد بأن: “القديس كليمنت الروماني يقول إنه بواسطة ترتيبات الرسل كانت حتى زوجاتهم يملكن على المشاع، ويمتدح أفلاطون وسقراط لأنهما دافعا عن أن هذه الأشياء يجب أن ترتب هكذا. ولكن التعليقات تفسر هذا بوصفه يعني إطاعة عامة للجميع، وليس مشاعة الفراش. ويؤكد ترتليان هذه التعليقات ويصرح أن المسيحيين الأوائل امتلكوا كل شيء على المشاع عدا زوجاتهم، اللاتي، أظهرن طاعة عامة للجميع، على أية حال”.

هذه “الطاعة العامة” هي شبيهة مثير للاهتمام لهؤلاء الذين هم “فقراء في الروح” يوحى مقطع في مذاهب الرسل الاثني عشر، أحد أقدم المنتجات الأدبية للمسيحية، الذي يقدم فكرة عن مؤسساتها في القرن الثاني، بحالة غريبة من العلاقات الجنسية؛ هنا نقرأ (١١ / ١١):

“ولكن كل نبي، مجرب وصادق، الذي يتصرف باعتبار السر الأرضي للكنيسة، ولكنه لا يعلم الآخرين أن يفعلوا ما يفعله هو نفسه، لا تدعه يدان من قبلك، لأن له دينونة في الرب؛ هكذا كان سلوك الأنبياء (المسيحيون) القدامى.

يلاحظ هارناك أن الكلمات الغامضة “السر الأرضي للكنيسة” تدل على حالة الزواج، وأن موضوع هذه السطور كان إبطال الشك الذي شعر به المجمع نحو مثل هؤلاء الأنبياء حيث دخلوا في علاقات زوجية غريبة. يظن هارناك أن الإشارة هنا تخص أشخاصاً عاشوا في الزواج كخصيان، أو عاشوا مع زوجاتهم كأخوات. هل كان يمكن لكبح للنفس كهذا أن يثير الحفيظة بالفعل؟ قد نفترض ذلك بصعوبة شديدة. سوف يكون مثيراً للاهتمام للغاية إذا أمكن أن نعلم أن هؤلاء الأنبياء، بالرغم من أنهم لم يعودوا يكرزون بممارسة جنسية خارج الزواج، ما زالوا “يشبهون الأنبياء القدامى” بمعنى آخر، المعلمون الأوائل للمسيحية، في أنهم مارسوا بالفعل مثل هذه العلاقات.

يقتبس هارناك المقطع التالي باعتباره مثالا جيدا للسلوك فيما يتعلق بالسر الأرضي للكنيسة من رسالة حول العذرية (١٠ / ١) المنسوبة خطأ إلى القديس كليمنت.

“كثير من الأشخاص الذين لا حياة عندهم يعيشون معاً مع العذراوات تحت ذريعة الشفقة وهكذا يستهدفون للخطر، أو أنهم يتجولون معهن في الطرق وفي البرية، في طرق مليئة بالخطر، تثير الغيظ، الأشرار والحفر. آخرون يأكلون ويشربون معهن، ويرقدون معهن على مائدة. مع عذراوات ونساء مقدسات (Sacratissimas)، بعريضة صاخبة وكثير من الخزي، لا ينبغي لمثل هذه الأشياء أن تحدث بين المؤمنين وعلى الأقل بين هؤلاء اللاتي اخترن شعييرة العذرية”.

في الرسالة الأولى للقديس بولس إلى الكورنثيين، يدعي الرسل، الذين ارتبطوا بالعزوبة الحق في الطواف حول العالم مع الرفيقات، يصرح بولس لمستمعيه: “ألسنت أنا حراً؟. ألعنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل وأخوة الرب وصفا (بطرس)؟”.

كان القديس بولس قد نصح بعدم الزواج لحظة قبلها.

تجوال الرسول مع شابة هو عنصر هام في أعمال القديس بولس، التي قال ترتليان عنها إنها رواية أرامية كتبها كاهن في آسيا الصغرى في القرن الثاني، طبقاً لاعتراف الأخير. مع ذلك كون هذه الأعمال كانت ولوقت طويل كتاباً مفضلاً للتثقيف علامة على أن الوقائع التي وردت فيها اعتبرها كثير من المسيحيين الوريين ليست كريمة على الإطلاق وإنما بالأحرى مثقفة تماماً. القسم الذي يلفت النظر في هذا الكتاب هو الحكاية الجميلة عن تيكلا التي تتضمن تصويراً ممتازاً لجو مسيحية القرن الثاني.

تروي لنا هذه الحكاية أن تيكلا، خطيبة شاب أرستقراطي من إيكاريوم، قد سمعت واحدة من عظات الرسول وأصبحت على الفور متحمسة له، تعطينا الرواية وصفاً شخصياً مسلياً للرسول: قصير القامة، أصلع، ذو ساقين ملتويتين، وركبتين ناتئتين، عيناان واسعتان، الحاجبان يلتقيان فوق الأنف، بالأحرى أنف طويلة، مليء بالجاذبية، له مظهر رجل حينا وملاك حينا آخر. لسوء الحظ، لا يقال لنا أي من أرصدته الجسدية الأنفة هي التي يمكن أن تصنف باعتبارها تسهم في صنع مظهره الملائكي.

باختصار، تخلق القوة السحرية لخطابه انطباعاً عميقاً عند الجميلة تيكلا فتتخلى عن خطيبها. يتهم الأخير بولس أمام الوالي بأنه رجلاً يغوي النساء والفتيات بأحاديثه

حتى ينكصن عن الزواج. يلقي بولس في السجن. ولكن تي كلا تجد طريقها إلى زنزانته وتبقى معه هناك. على ذلك يحكم الوالي بإبعاد بولس عن المدينة وبحرق تي كلا على خازوق. وقد أنقذت بمعجزة: يطفئ المحرقة مطر غزير مفاجئ، يربك ويفرق المشاهدين أيضاً.

تي كلا، وقد باتت حرة الآن، تتبع بولس، الذي تجده في الطريق العام، يأخذ بيدها ويتجول معها ناحية أنطاكية، حيث يلتقيان بأرستقراطي، الذي يقع على الفور في حب تي كلا، وهو مستعد لأن يأخذها من بولس ويعوضه بسخاء عن قبوله. يجيب بولس بأنها لا تخصه وأنه لا يعرفها، وهو نوع من الإجابة شديد الضعف يرد بها رسول متفاخر. ولكن تي كلا تعوض هذا الضعف بالطاقة التي تدافع بها عن نفسها في وجه شهوانية الأرستقراطي، الذي يحاول أن يمتلكها بالقوة، بسبب هذه الإهانة يلقي بها للحيوانات المتوحشة في السيرك، ولكنها لن تصيبها بأذى، وصولاً إلى تحررها مرة أخرى. إنها ترتدي الآن ملابس الرجال، وتقص شعرها ومرة أخرى تتبع بولس، الذي يكلفها بأن تعلم كلمة الرب ويحتمل أنه منحها أيضاً حق التعميد، إذا كان لنا أن نحسد هذا من ملاحظة لترتليان.

احتوى الشكل الأصلي لهذه القصة بوضوح على كثير مما كان مزعجاً في عيني الكنيسة اللاحقة؛ “ولكن حيث وجد أن الأعمال مثقفة وممتعة، فقد تم اللجوء إلى حيلة تحرير إكليركي استبعد أكثر العناصر قابلية للاعتراض عليها، دون أن يزيل كلية آثار الطابع الأصلي للعمل”. (بفيلدر، نفس المصدر، المجلد الثالث، ص ٢٥٦). ولكن رغم أن كثيراً من هذه الكتابات ربما تكون قد فقدت، فما زال لدينا عدد كافٍ من الإشارات التي تشير إلى وجود علاقات جنسية غريبة، انحرفت بقدر كبير عن الأشكال التقليدية، وسببت إزعاجاً كثيراً، ومن ثم تطلبت دفاعاً حيويًا من جانب الرسل، وقد حاولت الكنيسة اللاحقة، التي كان عليها أن تحمل مسؤولية هذه الأوضاع، أن تطمس سجلها، بقدر الإمكان.

نحتاج بالكاد إلى أن نشير إلى أن حالة عدم الزواج من المرجح أن تؤدي لعلاقات جنسية خارج الزواج عدا في حالة الزهد التعصبي.

حقيقة أن المسيحيين توقعوا أن توسم دولتهم المقبلة، التي كان لها أن تبدأ بالقيامة بالكف عن الزواج، قد أشير لها أيضاً بوضوح بالمقطع التالي الذي يجيب فيه يسوع على السؤال الدقيق: إذا كان لامرأة سبعة أزواج متعاقبين، ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة:

“فأجاب وقال لهم يسوع: أبناء هذا الدهر يزوجون ويزوجون: ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر، والقيامة من الأموات، لا يزوجون ولا يزوجون: إذ لا يستطيعوا أن يموتوا أيضاً: لأنهم مثل الملائكة؛ وهم أبناء الله؛ إذ هم أبناء القيامة”. (لوقا، ٢٠ / ٣٤-٣٦).

لا ينبغي أن يفسر هذا باعتباره دالاً على أن البشر سوف يكونون أرواحاً خالصة في دولة المستقبل المسيحية الأولية، دون احتياجات جسدية. لقد جرى تأكيد طابعها الجسدي والفرح بمتعها المادية بصراحة، حيث ما تزال لدينا الفرصة لأن نعلم، ليس هناك شك في أن يسوع يقول هنا إن الزيجات القائمة سوف تنحل في دولة المستقبل، حتى أن مسألة لمن من الأزواج السبعة تكون زوجة تفقد معناها.

ولكن لا يجب أن نعتبر أعمال الأسقف الروماني كاليستوس (٢١٧-٢٢٢)، الذي سمح للفتيات والأرامل ذوي المنزل الرفيعة Senatorial أن يدخلن في علاقات خارج الزواج حتى مع العبيد، بأنها دليل على العداء للزواج. لم يكن هذا الإقرار نتاجاً لشيوعية كان عدائها للعائلة قد بولغ فيه إلى الحد الأقصى، وإنما بالأحرى نتاج مراجعة انتهازية قدمت بسرور تنازلات للحصول على المؤيدين الأثرياء والأقوياء.

ولكن عورضت هذه المراجعة مراراً بواسطة إحياء الاتجاهات الشيوعية في الكنيسة المسيحية، وكثيراً ما ارتبطت هذه مع إدانة الزواج، باللجوء إلى العزوبة، أو مع ممارسة ما يسمى بـ”مشاعة الزوجات” التي كثيراً ما وجدت بين المانويين والغنوصيين.

كان الاتجاه الأكثر نشاطاً بين هذه الاتجاهات هو الذي مثله الكاربوكراتيين.

“عَلَّمَ إبيفانس (ابن كاربوكراتيس) بأن العدالة الإلهية قد منحت كل شيء لمخلوقاتنا بالتساوي في الملك والمتعة. إن ما هو لي وما هو لك قد أدخل إلى العالم حين أصبحت القوانين البشرية سارية، ومعها السرقة والزنا وكل الخطايا الأخرى؛ ألا يقول الرسول: “لأن بالناموس معرفة الخطية (الرومانيين ٣ / ٢٠) و”بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس” (٧، ٧). ما دام الله نفسه قد زرع في البشر دوافع جنسية قوية حتى يبقى النوع، فإن أي منع للشهوة الجنسية عبث، ومنع اشتهاؤ زوجة الجار هو عبث مزدوج، مادام ما هو عام قد جعل بذلك تملكاً خاصاً. إن الغنوصيين من ثم يعتبرون الزواج الأحادي انتهاكاً لمشاعية الزوجات التي تتطلبها العدالة الإلهية بقدر ما تمثل الملكية الخاصة انتهاكاً لمشاعية الطيبات. يختتم القديس كليمنت تصويره لهذه الغنوصيات الفاسقة (الكاربوكراتيين النيقولائيين، قسم خاص من الشمعونيين)

بملاحظة أن كل هذه الهرطقات يمكن أن تصنف وفقاً لاتجاهين: إما أنها تعلم اللامبالاة الأخلاقية أو كبح للنفس منافق مبالغ فيه".

كان هذان بالفعل البديلان اللذان كانت ستتبعهما شيوعية منزلية House Hold متماسكة. لقد أشرنا سلفاً إلى أن هذين التطرفين ربما يلتقيان، وأنهما يستمدان أصليهما من نفس الجذر الاقتصادي رغم ما قد يبدو من تضاربهما الظاهري فلسفياً.

مع انحلال، أو على الأقل تراخي، الروابط العائلية التقليدية، فقد نتج بالضرورة تغير في مركز المرأة، فإذا ما توقفت مرة عن أن تكون مرتبطة بالأنشطة العائلية الضيقة، إذا ما نبذتها مرة، فقد بات بمقدورها أن تركز عقلها واهتماماتها لأفكار أخرى، خارج مجال العائلة. وفقاً لمزاجها، وبنيتها، ومنزلتها الاجتماعية، ربما تحرر نفسها في بعض الحالات ليس فقط من الروابط العائلية، وإنما أيضاً من كل الاعتبارات الأخلاقية. من كل احترام للوصايا الاجتماعية، من كل فضيلة واعتدال. كان هذا هو الحال مع السيدات الأرستقراطيات في روما الإمبراطورية، اللاتي تمكن بسبب ثروتهن الكبيرة وطفولتهن المصطنعة أن ينكصن عن القيام بأي عمل في العائلة.

من ناحية أخرى، فإن إلغاء العائلة بشيوعية منزلية أنتج عند النساء البروليتاريات تقوية عظيمة للمشاعر الأخلاقية، التي تحولت الآن من الدائرة الضيقة للعائلة إلى دائرة أكثر اتساعاً للمجمع المسيحي، أصبحت عنايتهن غير الأنانية بتلبية الاحتياجات اليومية للأزواج والأطفال عناية بتحرير الجنس البشري من كل بؤسه. إننا نجد من ثم في المجمع المسيحي الأولي ليس فقط أنبياء، وإنما أيضاً نبيات. على سبيل المثال، فإن أعمال الرسل تروي لنا عن "الإنجيلي فيليبوس؛" وكان له أربع بنات عذارى كن يتنبأن". (٩ / ٢١)

إن قصة تيكلا، التي يفوضها بولس في أن تعلم وربما حتى أن تعمّد، تشير أيضاً إلى أن وجود المعلمات الأنثيات للكلمة الإلهية لم يكن على الإطلاق غير عادي في المجمع المسيحي.

في الرسالة الأولى إلى الكورنثيين (الإصحاح ١١) يعترف بولس صراحة بحق النساء في أن يتصرفن كنبيات ويطلب منهن فقط أن يضعن خماراً حين يقمن بهذا الواجب حتى لا يثرن شهوة الملائكة! مما لا شك فيه، يقول الإصحاح الرابع عشر:

“لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول
الناموس أيضاً. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه
قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة” (٣٤، ٣٥)

ولكن يعتبر النقاد الإنجليون هذا المقطع إدراج متأخر. بالمثل، إن كامل الرسالة
الأولى للقديس بولس إلى تيماثوس (وكذلك الثانية، وتلك الموجهة إلى تيطس) هي
تزویر يعود تاريخه إلى القرن الثاني. تحاول هذه الكتابات بالفعل أن تعيد المرأة إلى
الحدود الضيقة للعائلة؛ نقرأ فيما يتعلق بها “ولكنها ستخلص بولادة الأولاد” (٢/١٥).
هكذا كانت على أية حال وجهة نظر المجمع المسيحي الأولي، مفاهيمه عن
الزواج، العائلة، مركز المرأة، على اتفاق عام مع ما يمكن أن نستنتجه منطقياً من
أشكال الشيوعية التي كانت قابلة للتحقيق عندئذ في الممارسة وتقدم دليلاً إضافياً
على أن الشيوعية هيمنت على فلسفة المسيحية الأولية.

الفصل الثاني: الفكرة المسيحية عن المخلص

أ – مجيء مملكة الرب

إن عنوان هذا الفصل هو بالفعل حشو من الكلام؛ إننا نعرف أن كلمة خريستوس Christos هي ببساطة الترجمة اليونانية لـ "المخلص". لا تعني "فكرة المسيحية عن المخلص" من ثم شيئاً أكثر أو أقل إذا أخذناها اشتقاقياً من أنها الفكرة الخلاصية عن المخلص. ولكن لا تتضمن المسيحية تاريخياً، كل هؤلاء الذين آمنوا بالمخلص، انها تتضمن فقط فئة معينة من هؤلاء المؤمنين، فئة اختلفت توقعاتها الخلاصية قليلاً ما في البداية عن توقعات بقية الشعب اليهودي. في المحل الأول، توقع المجمع المسيحي في أورشليم، مثل كل بقية اليهود، أن المخلص سوف يأتي خلال وقت قصير وان لم يكن محدداً. بينما الأنجيل التي حفظت لنا قد كتبت في وقت لم يعد لمعظم المسيحيين مثل هذه الآمال المتفائلة – حيث تبين لنا الأنجيل بوضوح تام ان توقعات معاصري المسيح قد خاب أملها تماماً – إلا إنها رغم ذلك مازالت تحفظ لنا بقايا معينة من امل كهذا، بقايا تلقوها من المصادر الشفوية والمكتوبة التي عملوا بها. وفقاً لمرقس (١٠/٤١، ٥١) "وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله". يسأل التلميذ يسوع ماهي العلامة التي سيعرفون بها مجيء المخلص. وهو يقول لهم كل هذه العلامات: الزلازل، الطاعون، كوارث الحرب، كسوف الشمس، إلخ، وعندئذ يخبرهم بأن ابن الإنسان سوف يأتي بقوة عظيمة وبجلال ليفتدي المؤمنين به ويضيف:

"الحق اقول لكم انه لايمضى هذا الجيل حتى يكون "الكل". (لوقا، ٢١/٣٢).

تقرير مرقس مشابه (٣٠/١٣) يجعل يسوع يقول مرة اخرى في الاصحاح التاسع:

"الحق أقول لكم لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله".

وأخيراً يجعل متى يسوع يعد تلاميذه:

"ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص. ومتى طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى. فاني الحق اقول لكم لاتكملون مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان". (٢٣، ٢٢/١٠).

إن تصريح بولس في رسالته الاولى إلى التسالونيكين (١٣/٤ ومايليها) مشابه: "ثم لأريد ان تجهلوا ايها الأخوة من جهة الراقدين لكي لاتحزنوا كالباقين الذين لارجاء لهم. لأنه ان كنا نؤمن ان يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه. فاننا نقول لكم هذا بكلمة الرب إننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب

لانسبق الراقدين. لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس الملائكة وبوق الله: سوف ينزل من السماء والأموات فى المسيح سيقومون أولا: ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعا معهم فى السحب لملاقاة الرب فى الهواء: وهكذا نكون كل حين مع الرب“.

لم يكن من ثم ضروريا على الإطلاق أن يموت المرء حتى يدخل مملكة الله، ربما يعتمد الأحياء على انتظار قدومها، وقد جرى تصورها كمملكة فيها كل من كانوا أحياء فى هذا الوقت، وكذلك الذين قاموا من بين الأموات، سيتمتعون بالحياة بمعنى جسدى كامل. مازالت لدينا آثار هذا الاعتقاد فى الأناجيل، بالرغم من أن المفهوم اللاحق للكنيسة استبعد فكرة دولة أرضية فى المستقبل واستبدلها بدولة سماوية.

وهكذا يعد يسوع (متى ٢٨/١٩ ومايليها): “الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون انتم أيضاً على اثنى عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر. وكل من ترك بيوتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية”.

بمعنى آخر، المكافأة لترك العائلة والتخلى عن ملكية المرء سوف يكون استمتاعا واقعيًا بالملذات الأرضية فى دولة المستقبل. ان ملذات المائدة هى التى عنيت بصفة خاصة.

يهدد يسوع من لن يتبعه، بالطرد، من مجتمعه فى يوم يلي هول الفزع الاكبر: “هناك يكون البكاء وصريير الأسنان متى رأيتم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله وانتم مطروحون خارجا، ويأتون من المشارق والمغرب ومن الشمال ومن الجنوب ويتكئون فى “ملكوت الله” (لوقا ١٣/٢٨، ٢٩) قارن أيضاً متى ١٢/١١/٨).

ولكنه يعد الرسل:

“وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا، لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر” (لوقا ٢٢/٢٩، ٣٠).

ثارت جدالات حتى بين الرسل فيما يتعلق بأولوية الجلوس على المائدة فى دولة المستقبل. يعقوب ويوحنا طلبا موضعين على يمين السيد وشماله، الأمر الذى يثير غضبا شديدا بين الرسل العشرة الباقين. (مرقس ٣٥/١٠ ومايليها)

يقول يسوع لرجل فريسي، يتعشى فى بيته، ألا يدعو أصدقاءه وأقاربه ليتعشوا، وإنما المساكين، المجدوعين، العرج، العمى: "فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك، لأنك تكافى فى قيامة الابرار". ولكننا نفهم مباشرة طبيعة هذه الطوبى: "فلما سمع ذلك واحد من المتكئين قال له: طوبى لمن يأكل خبزا فى ملكوت الله". (لوقا ١٤/١٥)

ولكن سوف تكون هناك أيضاً مشروبات تصاحب الطعام. يعلن يسوع فى العشاء الاخير: "وأقول لكم إنى من الآن لاشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم فى ملكوت أبى". (متى ٢٦ / ٢٩)

تعتبر قيامة يسوع بشيرا بقيامة تلاميذه؛ ولكن الأناجيل تؤكد بوضوح على الوجود الجسدى ليسوع بعد القيامة.

يلتقى باثنين من تلاميذه بعد قيامته فى قرية عمواس، وتعشى معهما، ثم اختفى عنهما.

"فقاما فى تلك الساعة، ورجعا إلى أورشليم، ووجدا الأحد عشر مجتمعين، هم والذين معهم، وهم يقولون: "إن الرب قام بالحقيقة، وظهر لسمعان، وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز. وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم، وقال لهم: سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا. فقال لهم: ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم؟ انظروا يدي ورجلي، إنى أنا هو: جسونى وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام، كما ترون لى. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال أعتدكم ههنا طعام. فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم".

يعطى يسوع فى إنجيل القديس يوحنا، دليلا ليس فقط على وجوده بلحمه وشحمه بعد قيامته، وإنما أيضاً على شهية غاية فى الصحة. يروى يوحنا أن يسوع ظهر لتلاميذه فى غرفة كانت أبوابها مغلقة و"بالمزلاج" من قبل الشاك توما، ثم يواصل القول:

"بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية؛ ظهر هكذا. كان سمعان بطرس وتوما الذى يقال له التوأم ونثنائيل الذى من قانا الجليل وابنا زبدى، واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم، قال لهم سمعان بطرس أنا اذهب لأتصيد، قالوا له نذهب نحن أيضاً معك، فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت وفى تلك الليلة لم يمسكوا شيئا، ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون

أنه يسوع، فقال لهم يسوع يا غلمان لعل عندكم إداما؟ أجابوه لا، فقال لهم القوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا، فألقوا ولم يعودوا يقدرّون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذى كان يسوع يحبه لبطرس هو الرب فلما خرجوا نظروا جمرا موضوعا وسمكا موضوعا عليه وخبزا قال لهم يسوع هلم تغدوا هذه لمرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات (يوحنا، ٢١).

من المحتمل أن المرة الثالثة كانت الأخيرة. وربما تم ذلك بعد أن تقوى يسوع بإفطار السمك فصعد إلى السماء فى خيال مؤلف الإنجيل، من حيث لابد وأن يعود كمخلص.

بينما دافع المسيحيون بثبات عن الحضور الجسدى للقائم من بين الأموات، فقد كان عليهم رغم ذلك أن يفترضوا أن هذا الجسد ذو طبيعة مختلفة عن الجسد الأسبق، على الأقل من أجل الحياة الابدية فقط. ليس هناك مايبعث على الدهشة فى أن نجد أكثر الافكار مبالغه تزدهر حول هذا الموضوع فى العقول المسيحية وكذلك اليهودية فى فترة كانت تتسم بأقصى درجات الجهل والسذاجة كتلك التى تميز المسيحية الاولى.

نجد فى رسالة بولس الاولى إلى الكورنثيين، أن النظرة التى عبر عنها وهى أن رفاقه الذين سيعيشون ليروا دولة المستقبل، وكذلك هؤلاء الذين سوف يبعثون لأجل هذا الغرض، سيكون لهم نمطا جديدا وارفح من الوجود الجسدى:

“هو ذا سر أقوله لكم؛ لا نرقد كلنا (حتى يأتى المخلص) ولكننا كلنا نتغير، فى لحظة، فى طرفة عين، عند البوق الاخير، فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن (الأحياء) نتغير”. (١٥/٥١، ٥٢) إن رؤيا القديس يوحنا تتحدث عن قيامتين، أولهما سوف تحدث بعد الإطاحة بروما:

“ورأيت عروشا فجلسوا عليها، وأعطوا حكما: ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن اجل كلمة الله فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة، وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه هى القيامة الأولى. مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم. بل سيكونون كهنة الله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة” (٢٠/٤، ٦).

ولكن عندئذ يقوم تمرد من أمم الارض ضد هؤلاء الرجال المقدسين. يُرمى المتمردون فى بحيرة من النار والكبريت، و يدان الموتى الذين قام جميعهم الآن، ويلقى، بغير البررة فى بحيرة النار، بينما البررة لن يعرفوا الموت بعد وسوف يبتهجون بالحياة فى أورشليم الجديدة التى سوف تأتى لها أمم الارض بمفاخرها

وكنوزها. سوف يلاحظ القارئ ان القومية اليهودية لاتزال تلوح هنا من خلال أشد الطرق سذاجة، إن نموذج نبوءة القديس يوحنا المسيحية ذو أصل يهودى وقد جرى تأليفه فى فترة حصار أورشليم.

كانت مازالت هناك نبوءات يهودية، عبرت بالمثل عن آمالها الخلاصية، حتى بعد سقوط أورشليم ومثالها باروخ والسفر الرابع من عزرا. يعلن باروخ أن المخلص سوف يجمع الشعوب وسيمنح الحياة لهؤلاء الذين سوف يخضعون لنسل يعقوب ويدمر الآخرين الذين اضطهدوا اسرائيل. سوف يجلس المخلص عندئذ على عرشه فيسود فرح دائم؛ وتمنح الطبيعة كل هباتها بأسخى شكل، خاصة الخمر. سوف يقوم الموتى وينظم الرجال بشكل مختلف تماما. لن يكون البررة متعبين بعد ذلك بالعمل، سوف تتألق أجسادهم بفخامة، ولكن غير البررة سوف يكونون حتى أكثر قبحا من ذى قبل وسوف يعذبون.

يعرض مؤلف الإصحاح الرابع من سفر عزرا أفكارا مماثلة. سوف يأتى المخلص، سوف يعيش لمدة أربعمئة عام، ثم يموت مع بقية البشر. عندئذ، سوف يلى ذلك قيامة عامة ودينونة ينال البررة فيها السلام وبهجة مضاعفة سبع مرات. نحن نرى كيف أن الاختلاف طفيف فى كل هذه النقاط بين الآمال الخلاصية للمسيحيين الأوائل وآمال السكان اليهود ككل. جذب أيضاً السفر الرابع من عزرا، مع تزيينات عديدة لاحقة، انتباها عظيما فى الكنيسة المسيحية، وأدخل فى عدد من الترجمات البروتستانتية للكتاب المقدس.

ب - أسلاف يسوع

توافق المفهوم المسيحى الباكر عن المسيح بشكل كامل مع المفهوم اليهودى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الأنجيل لاتزال تضع اشد تأكيد على (جعل) يسوع من نسل داود. لأن المخلص حسب الفكرة اليهودية، كان ينبغى أن يكون من عرق ملكى. وقد جرى التحدث عنه المرة بعد المرة باعتباره "من نسل داود" أو "ابن الله" الذى يساوى نفس الشيء فى العبرية وهكذا فإن السفر الثانى لصموئيل (١٤/٧) يجعل الرب يقول لداود: "أنا"أكون له (من نسلك) أبا وهو يكون لى ابنا؟

"ويقول الملك فى المزمور الثانى:

"إنى أخبر من جهة قضاء الرب. قال لى أنت ابنى. أنا اليوم ولدتك".

لقد كان ضروريا من ثم البرهنة بواسطة شجرة نسب طويلة أن يوسف، أب يسوع، كان من نسل داود، وأن يجعل يسوع، الناصرى، يولد فى بيت لحم، مدينة داود.

حتى يجعل هذا جديرا بالتصديق، وظفت أشد التأكيدات بروزا. لقد أشرنا قبلا للرواية التي أوردتها لوقا (١/٢ ومايليها).

“وفى تلك الايام صدر من أغسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة. (وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية). فذهب الجميع ليكتبوا كل واحد إلى مدينته. فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم (لكونه من بيت داود وعشيرته) ليكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى”.

إن مؤلف أو مؤلفى انجيل لوقا لديهم شك فى أن شيئاً ما كان خاطئاً وفى جهلهم دونوا أصرح أنواع الهراء. لم يأمر أغسطس أبدا بإحصاء إمبراطورى شامل. تخص الإشارة بوضوح الإحصاء الذى قام به كيرينيوس فى عام ٧ ب.م فى اليهودية التى كانت قد أصبحت لتوها ولاية رومانية. كان هذا هو الإحصاء الأول من نوعه فى اليهودية.

هذا الخطأ على أية حال، غير مهم. ولكن ماذا نقول عن فكرة أن يتطلب إحصاء إمبراطورى عام، أو حتى مجرد إحصاء ولاياتى من كل شخص أن يسافر إلى مسقط رأسه حتى يسجل! حتى اليوم، فى عصر السكك الحديدية، فإن مثل هذا الإجراء سوف يترتب عليه حدوث هجرة ضخمة، وستتزايد ضخامتها بسبب بلاقتها فقط.

فى الواقع، لم يتطلب الإحصاء الرومانى أبدا من أى أحد أن يتواجد إلا فى محل إقامته وقد كان على الرجال أن يحضروا شخصيا.

ولكن لم يكونوا لخدموا الغاية الورعة إذا كان يوسف الطيب قد سافر وحده إلى مدينة داود. إن إجراء هذا الإحصاء من ثم قد صور بحيث يتطلب من كل رب عائلة أن يسافر إلى موطن أسلافه مع الطفل بقضه وقضيضه حتى يمكن أن يعرض يوسف وهو يجر زوجته إلى هناك بالرغم من المرحلة المتقدمة لحملها.

ولكن كل عمل الحب هذا قد ضاع. فى الواقع، لقد أصبح حتى مصدرا لخرج خطير للفكر المسيحى، حين بدأ المجمع المسيحى يتجاوز الوسط اليهودى. لم يكن للوثنيين اهتمام خاص بداود، وكونه من نسل داود لم يكن ليزكيه فى أعينهم. إن نمط التفكير الهيلينى والرومانى كان يميل كثيرا لأخذ أبوة الإله بجدية، بينما كان بالنسبة لليهود رمزا فحسب للنسب الملكى. لم يكن شيئاً غير عادى بين اليونانيين والرومان، كما رأينا، أن يمثل رجل عظيم باعتباره ابن ابوللو أو أى إله آخر.

ولكن الفكر المسيحي، فى جهده لإيلاء المخلص مكانه فى عيون الوثنيين، واجه صعوبة قليلة: أى، التوحيد، الذى استعاره من اليهود. واقعة أن الله أنجب ابنا ليست شيئا خارج السياق فى تعدد الآلهة؛ لديك ببساطة إله واحد أكثر لتتعامل معه. ولكن أن تجعل الله ينجب إليها آخر، ومع ذلك يبقى الله واحدا ليس فى غاية السهولة تفسير هذا. ولم يبسط الأمر بعزل القوة الخلاقة المنبثقة من رأس الإله فى شكل روح قدس خاص، كانت المهمة الآن التوفيق بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة تحت مفهوم واحد يمكن أن يحتضنها جميعا. لقد كانت مهمة جلبت الأسى حتى للخيال الأكثر تهورا ولأكثر المراوغات حذقا. أصبحت عقيدة التثليث واحدة من الأسرار التى يجب الإيمان بها ببساطة دون فهم، سرا يجب الإيمان به بسبب لا معقوليته خاصة.

ليست هناك ديانة دون تناقضات. لم تولد ديانة قط من عقل مفرد بوصفها نتيجة لعملية منطقية محضة: كل ديانة هى نتاج لتأثيرات اجتماعية متعددة، غالبا ما تمتد خلال قرون، وتعكس أكثر الأوضاع التاريخية اختلافا. ولكنه سوف يكون من الصعب أن تجد ديانة غنية جدا بتناقضاتها وغير معقولة فى افتراضاتها كما هى المسيحية، لأنه لا توجد بالكاد أى ديانة أخرى قد نشأت من مثل هذه العناصر المتباينة بشكل صارخ: لقد انتهت المسيحية بواسطة اليهود إلى الرومان، وبواسطة البروليتاريين إلى حكام العالم، وبواسطة تنظيم شيوعى إلى تنظيم تشكيل لاستغلال كل الطبقات.

مع ذلك، فإن اتحاد الأب والابن فى شخص واحد لم يكن الصعوبة الوحيدة التى نشأت من صورة المخلص، للفكر المسيحي، بمجرد أن أتت تحت تأثير بيئة غير يهودية.

ماذا كان يجب أن يصنع بأبوة يوسف؟ لم يعد من الممكن جعل مريم تحمل بيسوع من زوجها. وحيث أن الله قد عاشرها ليس كإنسان وانما فى شكل روح، فلا بد أنها بقيت عذراء. عنى هذا التخلّى عن انحدار يسوع من داود. ولكن قوة التقليد العظيمة فى الدين أدت إلى أنه بالرغم من كل هذا استمرت شجرة الأسلاف المخترعة بجمال ليوسف هذا وتعيين يسوع باعتباره ابن داود متصلة بإخلاص. ولكن بالنسبة للمسكين يوسف فقد عزيت إليه الآن المهمة البغيضة بالعيش مع عذراء دون انتهاك عذريتها، وأيضا، بكونه لم ينزعج بأى طريقة من حملها.

ج- يسوع كمتنرد

بالرغم من أن مسيحيي الأزمنة اللاحقة لم يكن بمقدورهم أن يتحملوا التخلي كلية عن النسب الملكي لمخلصهم، بالرغم من أصله الالهي، فقد عانوا أشد معاناته لاستبعاد ملمح آخر لميلاده اليهودي، أي، روحه المتمرده.

كانت المسيحية في القرن الثاني تتسم أكثر فأكثر بطاعة سلبية، مختلفة تماماً عن الطبيعة اليهودية للقرن السابق. لقد علمنا سلفاً بالطابع المتمرد لتلك الشريحة من الشعب اليهودي التي كانت تنتظر المخلص، خاصة بروليتاريي أورشليم وعُصَب الجليل المتجوله، وبصفة أخص العناصر التي استمدت منها المسيحية أصلها. لا بد وأن نفترض من ثم في البداية أن المسيحية كانت تتسم بالعنف في بداياتها. يصبح هذا الافتراض يقيناً حين نكتشف آثاراً لهذا الوضع في الأناجيل، بالرغم من حقيقة أن محرريها اللاحقين كانوا طموحين بقلق لاستبعاد أي عنصر يمكن أن يزعج هؤلاء الذين في السلطة.

رغم أن يسوع قد يبدو رقيقاً ومذعناً كقاعدة، فإنه يصدر تصريحاً ذو نوع مختلف كلية، تصريح يضطرنا إلى افتراض أنه – بغض النظر عما إذا كان قد وجد فعلاً أم كان شخصية مثالية تعكس رؤى البشر فحسب – كان، في التقليد الأصلي متمرداً صلب بوصفه قائداً فاشلاً لانتفاضة. حتى الطريقة التي يتحدث بها عرضاً عن الأشخاص البررة شرعاً جديرة بالملاحظة:

“لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة” (مرقس ١٧/٢). يترجم لوثر: “لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة”. ربما كان هذا هو المتغير في النص الذي استخدمه. بالتأكيد، لا بد وأن المسيحيين قد تعلموا مبكراً بالأحرى أن من الخطر الإقرار بأن يسوع دعا إليه تلك العناصر التي كانت مناهضة للشرائع خاصة. أضاف القديس لوقا من ثم إلى الدعوة: الندم وهي الإضافة التي يمكن أن نجدها أيضاً في كثير من نصوص القديس مرقس. ولكن متغيرة “دعا إلى نفسه” أو “دعا” (ω-ξ-λ-α-κ-؛-؛-) إلى الكلمات “دعا إلى التوبة” فقد سلبوا هذه الجملة أي معنى على الإطلاق. من سوف يفكر في دعوة “البار”، كما يترجم لوثر ال (ϸ-υ-ο-؛-λ-α-κ-؛-ι-δ-؛-)، إلى التوبة؟ أضف إلى ذلك، مثل هذا التغيير سوف يناقض السياق، لأن يسوع يستخدم الكلمة لأنه قد أتهم بالأكل بصحبة أشخاص محتقرين، وبالارتباط بهم، “وليس لأنه ناشدهم تغيير سلوكهم في الحياة. لم يكن أحد ليعارض دعوة الخطاة إلى الندم”.

يعلق برونوباور بصواب في مناقشته لهذا المقطع:

” إن هذا القول فى شكله الأسمى لا يتعلق بمسألة ما اذا كان الخطاة بالفعل سوف يقومون بالكفارة، يقبلوا الدعوة ويكسبوا حقهم فى مملكة السماء بطاعة من يبشر بالكفارة. كونهم خطاة، يخولهم ميزات تتجاوز تلك التى للبررة. لكونهم خطاه فإنهم مدعوون للنعمة، أعطوا معاملة مفضلة بلا شرط. إن مملكة السماء قد خلقت للخطاة والدعوة التى توجه لهم تقرهم فحسب فى حقوق ملكيتهم، الملازمة لهم كخطاه”.

يوحى هذا المقطع باحتقار للشرائع التقليدية، والكلمات التى يعلن بها يسوع مجيء المخلص موحية بالعنف: سوف تقضى الإمبراطورية الرومانية القائمة فى عريضة القتل. ويبدو أن القديسين لن يلعبوا دورا سلبيا فى هذه العملية.

يعلن يسوع:

“جئت لألقى نارا على الأرض؛ فماذا أريد لو اضطرمت؟ ولى صبغة اصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل ! أتظنون انى جئت لأعطى سلاما على الارض؟ كلا أقول لكم، بل انقساما: لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسمين، ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة”. (لوقا ١٢/٤٩)

وفى متى نقرأ الكلمات الصريحة:

“لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الارض، ماجئت لألقى سلاما بل سيفا”. (٣٤/١٠)

حين وصل إلى أورشليم فى عيد الفصح، يطرد التجار والصيارفة من الهيكل، العمل الذى لايمكن تصوره دون مساعدة مجموعة معتبرة من الناس حرصها، ليس طويلا بعد، فى العشاء الأخير، قبل الكارثة مباشرة، يقول يسوع لتلاميذه:

“الآن، من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له، فليبع ثوبه، ويشتر سيفاً، لأنى اقول لكم إنه ينبغى أن يتم فى أيضاً هذا المكتوب: وأحصى مع إثمه لأن ما هو من جهتى له انقضاء. فقالوا: يارب هو ذا هنا سيفان، فقال لهم يكفى”.

بعد ذلك مباشرة، يجرى النزاع مع القوة المسلحة للدولة على جبل الزيتون. يسوع على وشك ان يقبض عليه

“وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه”.

ولكن فى هذا الإنجيل يبدو يسوع معارضا لإراقة الدماء، ويقبل أن يقيد فى هدوء، بينما يبقى رفاقه هادئين تماما.

فى الشكل الذى لدينا، فإن هذه القصة هى الأكثر بروزاً، إنها من ناحية مليئة بالتصريحات المتناقضة التى لابد وأنها كانت أصلاً مختلفة تماماً.

يدعو يسوع لحمل السلاح كما لو أن ساعة العمل قد حانت، انطلق المؤمنون به مسلحين بالسيوف – وفى ذات اللحظة التى واجهوا فيها العدو وسحبوا سيوفهم، يعلن يسوع فجأة أنه يعارض مبدئياً كل استعمال للقوة – بالطبع هذا التصريح حاد بصفة خاصة فى حالة متى:

“رد سيفك إلى مكانه: لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. اتظن انى لا أستطيع الآن أن اطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة؟ فكيف تكمل الكتب إنه هكذا ينبغى أن يكون؟”

ولكن اذا كان يسوع معارضا من حيث المبدأ لأى استخدام للقوة، لم دعا إلى حمل السيوف؟ لم سمح لأصدقائه بحمل السلاح حينما صحبوه؟ نستطيع ان نفهم هذا التناقض فقط بافتراض أن التقليد المسيحى فى شكله الأسمى لابد وانه قد احتوى تقريراً عن انقلاب مخطط بعناية، أسر فيه يسوع، انقلاب بدا الوقت ناضجاً له بعد أن طرد الصيارفة والباعة خارج الهيكل بنجاح. لم يجرؤ المحررون اللاحقون أن يلقوا بهذا التقرير جانباً، لأنه متأصل بعمق فى التراث، فى مجموعته. لقد بتروه بجعل استخدام القوة يظهر باعتباره عملاً قام به الرسل ضد مشيئة يسوع.

ربما كان من غير النافل أن نتذكر أن هذا التصادم حدث على جبل الزيتون. كانت هذه نقطة الانطلاق المشار إليها لأى انقلاب ضد أورشليم.

دعنا نسجل، على سبيل المثال، الرواية التى يوردها يوسيفوس التى تتعلق بالانتفاضة غير الناجحة التى قادها يهودى مصرى فى زمن الضابط المالى فيلكس (٥٢-٦٢ م.).

جاء هذا الرجل من الصحراء إلى جبل الزيتون مع ثلاثين ألف رجل حتى يهاجم مدينة أورشليم ويطرد الفيلق الرومانى ويحوز السلطة. تعارك فيلكس مع المصرى وفرق أتباعه؛ ويبدو أن المصرى نفسه قد هرب.

يعج تاريخ يوسيفوس بأحداث مماثلة. إنها ذات دلالة على مزاج السكان اليهود فى زمن المسيح. لن تتناقض انتفاضة حاولها النبى الجليلى يسوع مع هذا المزاج على الإطلاق.

اذا كان لنا أن ننظر إلى مشروعه كمحاولة من هذا النوع، فإننا نستطيع ان نفهم أيضاً خيانة يهوذا التى تتداخل مع التقرير الذى نناقشه الآن.

وفقا للطبعة التى حفظت لنا، فإن يهوذا قد وشى بيسوع من خلال قبله، وهكذا عرّفه للعسس بوصفه الرجل الذى ينبغى القبض عليه. ولكن لم يكن لهذه العملية أى معنى على الإطلاق. كان يسوع معروفا جيدا فى أورشليم، وفقا للأنجيل؛ لقد كرز علنا كل يوم؛ وتلقته الجماهير بأذرع مفتوحة، ومع ذلك علينا أن نصدق فجأة انه كان من الضروري ليهوذا أن يدل عليه، حتى يمكن تمييزه من أتباعه. يشبه ذلك إلى حد ما أن نرى شرطة برلين تدفع لجاسوس من أجل أن يدلهم على من هو ببيل. (أوجست ببيل، أحد قادة الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية البارزين – المترجم).

ولكن الأمر يصبح مختلفا تماما، إذا كنا نتعامل مع انقلاب متقن بعناية. سوف يتضمن مثل هذا الموقف شيئا جديرا بالخيانة، سر جدير بالشراء. إذا وجب استبعاد رواية الانقلاب الذى خطط له من القصة، تصبح خيانة يهوذا لا معنى لها ايضا. ولكن حيث أن فعل الخيانة هذا كان بوضوح معروفا للغاية بين الرفاق، وكراهتم للخائن عزيمة للغاية، فقد كان من المستحيل على الإنجيلي أن يستبعد هذا الحدث كالية. ولكن بات الآن مضطرا لأن ينشئ فعلا جديدا للخيانة من خياله الخاص، وإن لم يلق فيه نجاحا كثيرا.

ليس أقل تعاسة من الطبعة الحالية من خيانة يهوذا اختراع أسر يسوع. فهو الذى قبض عليه فقط، بالرغم من أنهم صوروه باعتباره يكرز باستخدام الطرق السلمية، بينما الرسل الذين أخرجوا سيوفهم واستخدموها لم يزعجهم أحد. فى الواقع، يمشي بطرس، الذى "قطع" أذن مالخوس MALCHUS، وراء الشرطة ويجلس فى فناء رئيس الكهنة ويتحدث معهم بسلام. تخيل فقط رجلا من برلين يعارض بالقوة اعتقال رفيق، ويطلق غدارته فى هذه الحالة، فيجرح شرطيا، ثم يمشى عقب ذلك بهدوء، متحدثا بود مع الشرطة، وبعدئذ يجلس معهم فى مخفر الشرطة ليتدفأ ويشرب معهم قدحا من الجعة!

لقد كان من المستحيل اختراع أوضاع أكثر غباءا. ولكن هذه الخرافة تحديدا هى التى ينبغى ان تظهر لنا ان هناك جهدا قد جرى القيام به لإخفاء شئ كان يجب أن يستبعد بأى ثمن. إن عملا طبيعيا، يمكن أن يفهمه المرء ببساطة، نزاع التحامى ينتهي بهزيمة بسبب خيانة يهوذا، وبأسر القائد، يصبح عمله بلا معنى مطلقا ولا يمكن فهمها حين توصف بأنها من أجل "أن يتم المكتوب".

إن إعدام يسوع، الذى يسهل فهمه اذا كان متمردا، يصبح الآن عملا شريرا لا معنى له لا يمكن فهمه، الذى ينجح حتى فى تحقيق هدفه بمعارضة الوالى الرومانى، الذى كان سوف يحرر يسوع. هذا تراكم لأوضاع غير معقولة يمكن أن تفسرها فقط الحاجة التى شعر بها المحررون اللاحقون لأن يبيضوا الحادثة الحقيقية.

حتى الإسنيين، الذين كانوا مسالمين ومعارضين لكل نزاع، قد انساقوا وقتها مع الموجه العامة للوطنية. نحن نجد إسنيين بين القادة اليهود في الحرب العظمى الأخيرة ضد الرومان. وهكذا يروى يوسيفوس عن بداية الحرب: لقد اختار اليهود ثلاث قواد عتاة، تمتعوا ليس فقط بالقوة البدنية والشجاعة، وإنما أيضاً بالذكاء والحكمة، ينجر من بيريا، سيلاس من بابل، ويوحنا الإسيني.

افتراض أن إعدام يسوع كان يعود لحقيقة أنه كان متمرداً هو من ثم ليس الافتراض الوحيد الذى يمكن أن يجعل الإشارات فى الإنجيل واضحة، وإنما يتوافق تماماً مع طابع الحقبة والمكان. من الوقت الذى يعزى إليه موت يسوع عامة، حتى تدمير أورشليم، لم تكن هناك نهاية لعدم الاستقرار فى تلك المدينة. كانت حروب الشوارع شيئاً شائعاً للغاية، وكذلك إعدام منتفضين أفراد. شنت حرب الشوارع كهذه مجموعة صغيرة من البروليتاريين، تبعها صلب قائد حلقتها، الذى كان مواطناً من الجليل، التي كانت دائماً مقاطعة متمردة ربما خلقت بالفعل لمدى بعيد انطباعاً عميقاً على كل المشاركين الذين بقوا على قيد الحياة، بينما التاريخ نفسه ربما لم يكلف نفسه عناء تسجيل مثل هذه الحادثة اليومية.

بالنظر إلى التحريض المتمرد الذى كان يعيش فيه كامل العرق اليهودى فى هذه الفترة، فقد كان من الطبيعى لهذه الطائفة التى أثمرت هذه الانتفاضة التى جرت محاولتها أن تشدد عليها لأغراض الدعاية، معطية إياها هكذا مكاناً راسخاً فى التراث ومن الطبيعى أيضاً أن تبالغ إلى حد ما وأن تزين تفاصيل مثل شخصية البطل.

ولكن الوضع تغير حين دمرت أورشليم مع تدمير المجتمع اليهودى، دمرت البقايا الأخيرة من المعارضة الديمقراطية التى كانت ماتزال تحافظ على نفسها فى الإمبراطورية الرومانية أيضاً. تتوقف فى حوالى هذا الوقت الحروب الأهلية فى الإمبراطورية الرومانية ذاتها.

فى القرنين اللذين يقعان بين المكابيين وتدمير أورشليم على يد تيتوس، كان الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى حالة دائمة من عدم الاستقرار، انهارت حكومة بعد أخرى، وفقدت أمة بعد أخرى استقلالها أو مركزها المهيمن. ولكن القوة التى كانت خلف كل هذه الاضطرابات مباشرة أو غير مباشرة، أى، الدولة الرومانية، كانت تمزقها فى نفس الفترة أشد الكوارث ضخامة من الجراكسين إلى ق-؛- سباسيان، الذين ظهروا أكثر فأكثر من بين الجيوش وقادتها. فى هذه الحقبة، التى تطور فيها وتمتن توقع المخلص، لم تبد أى عضوية سياسية أكثر من مؤقتة، بينما بدت الثورة السياسية وكأن لم يكن ممكناً تقاديها، وكان يجب توقعها. انتهت هذه

الفترة في ظل فسباسيان. حققت الملكية العسكرية في ظل حكمه، أخيراً، الترتيب المالى الذى كان يحتاجه الإمبراطور حتى يعوق مقدماً أى نشاط لمنافس محتمل في نيل حظوة الجنود وليوقف هكذا لفترة طويلة التمردات العسكرية عند منبعها.

لدينا منذ هذا الوقت فصاعداً "العصر الذهبى" للإمبراطورية، وضع عام من السلام الداخلى يستمر لأكثر من قرن، من ق-؛-سباسيان (٦٩ ب.م) حتى كومودوس (١٨٠ ب.م). بينما كان الاضطراب بالنسبة للقرنين السابقين هو القاعدة، كان الهدوء شعار هذا القرن. الثورة السياسية، التى كانت سابقاً شيئاً طبيعياً، أصبحت الآن الأكثر شذوذاً. بدأ الآن الخضوع للسلطة الإمبراطورية، والطاعة الصابرة، ليس فقط وصية الحكمة للجبناء وإنما أصبح ضارباً بجذوره أكثر فأكثر كالترام أخلاقى.

طبيعى أن كان لهذا تأثيره على المجمع المسيحى. لم يعد بمقدور الأخير بعد أن يستخدم المخلص المتمرد، الذى كان مقبولا لدى الفكر اليهودى. حتى الشعور الأخلاقى للمجمع تمرد ضد هذا المخلص المتمرد. ولكن حيث أن المجمع اعتاد أن ينظر إلى يسوع إلهه باعتباره اندماجاً لكل الفضائل، لم يتضمن التحول تخلياً عن يسوع المتمرد وإحلال صورة مثالية لشخصية أخرى، أكثر تكيفاً مع الظروف الجديدة، ولكنها عنت ببساطة استبعاداً تدريجياً لكل العناصر المتمردة من صورة يسوع الإله، هكذا محوله تدريجياً يسوع المتمرد بعدوانية إلى شخصية سلبية، الذى قتل ليس بسبب انتفاضة وإنما ببساطة بسبب طبيئته اللامحدودة وقداسته، وفساد وحقد الحساد الغادرين.

لحسن الحظ فإن إعادة التلوين قد صنعت بغير مهارة حتى أن آثاراً من الأصباغ الأصلية مازال يمكن اكتشافها، وهي تسمح لنا بأن نخلص إلى استنتاجات بالنسبة لكامل الصورة. يمكن لنا بسبب أن هذه البقايا تحديداً لا تتناسق مع إعادة التلوين اللاحقة أن نستنتج على نحو أكثر تأكيداً أن الأولى حقيقية وتمثل الرواية الفعلية الأصلية.

تتوافق تماماً في هذا الصدد، وكذلك في (الجوانب) الأخرى التى نوقشت سلفاً صورة المخلص في المجمع المسيحى الأولى مع الصورة الأصلية اليهودية. بدأ المجمع المسيحى اللاحق فقط في طرح الاختلافات. ولكن هناك نقطتان تختلف فيهما صورة المخلص في المجمع المسيحى منذ البداية الأولى عن المخلص اليهودى.

د- قيامة المصلوب

لم يكن هناك نقص في المخلصين في زمن يسوع، خاصة في الجليل، حيث ظهر الأنبياء وقادة العُصب في كل لحظة، معلنين أنفسهم فادين وممسوحين من الرب.

ولكن حين خضع مثل هذا الفادى للسلطة الرومانية، وأخذ أسيرا، صلب أو قتل، يكون دوره الخلاصى قد انتهى، وكان طبيعى أن يعتبر نبيا زائفا ومخلصا زائفا. وما زال على النبى الحقيقى أن يأتى.

ولكن المجمع المسيحى وقف إلى جانب بطله. بالنسبة لهم أيضا ما زال على المخلص فى كل مجده أن يأتى. ولكن المخلص الذى كان عليه ان يأتى لم يكن أحدا آخر غير من كان بالفعل، أى، المصلوب، الذى قام بعد ثلاثة أيام من موته وبعد أن ظهر لتلاميذه، صعد إلى السماء.

كان هذا المفهوم خاصا بالمجمع المسيحى. فماذا كان أصله؟

وفقا للمفهوم المسيحى الاولى فقد كانت معجزة قيامه المسيح فى اليوم الثالث بعد صلبه هى التى أثبتت طابعه الإلهى وأدت إلى تشكل توقعات عن عودته من السماء. لم يتقدم لاهوتى زمننا الحاضر ما وراء هذه النقطة. بالطبع لم تعد "النفوس الليبرالية" بينهم تأخذ القيامة حرفيا. لأن الأخير، يسوع لم يقم حقا من "بين الأموات، ولكن تلاميذه إعتقدوا انهم رأوه فى نشواتهم الصوفية بعد موته، ومن ثم استنتجوا أنه ذو أصل إلهى:

"من ثم، علينا أن نعتبر الظهور الأول للمخلص الذى خَبَرَهُ بطرس بنفس طريقة بولس أى ظهور النور السماوى للمسيح فى رؤية صوفيه مفاجئة فى طريقه إلى دمشق – تجربة طبيعية ليست بأى حال معجزة غير قابلة للفهم، ويمكن تصور ها سيكولوجيا استنادا لكثير من التجارب المشابهة فى كل العصور. اقتفاءً لتشابهات أخرى، فمن السهل أيضا أن نفهم أن هذه التجربة للرؤية الملهمة لم تقتصر على بطرس، ولكنها سريعا ما تكررت لتلاميذ آخرين، وأخيرا، لمجموعة من المؤمنين نجد الأساس التاريخى لاعتقاد التلاميذ فى القيامة فى التجارب الرؤيوية الصوفية التى تنبثق عن فرد وسرعان ما تقنع الجميع، وقد اعتقدوا فى هذه التجارب انهم رأوا المعلم المصلوب حيا وصعد إلى مجد سماوى. فى البيت فى عالم عجائبي، نسج الخيال الرداء ليلبس ما كان يحرك ويغمر النفس. فى الأساس، لم تكن القوة المحركة لقيامه يسوع فى اعتقادهم شيئا أكثر من الانطباع الذى لا يمكن محوه الذى خلقه شخص واحد فيهم، كان حبهم وثقتهم فيه أقوى من الموت. كانت معجزة الحب هذه وليس معجزة كلى القدرة أساس عقيدة القيامة فى المجمع الأولى. من ثم لم يتوقف عندئذ تمرير العواطف، ولكن المستيقظ حديثا، ألهم عقيدة دفعت إلى الفعل، أدرك التلاميذ مهمة حياتهم. كان عليهم أن يعلنوا أن يسوع الناصرى، الذين سلموه لأعدائهم، كان المخلص، وقد أظهره الله أكثر بقيامة يسوع وصعوده إلى السماء، وأن يسوع سوف يعود سريعا ليتولى الحكومة الخلاصية للعالم."

سوف يجعلنا العرض السابق نقبل انتشار إعتقاد المجمع المسيحى في المخلص،
ومعه كل الظاهرة الضخمة التاريخية للمسيحية، كنتائج لهلوسة عرضية لإنسان فان
بمفرده.

ليس من المستحيل أن تكون قد خطرت لواحد من الرسل رؤيا عن المصلوب،
وليس من المستحيل أن يكون قد آمن عديد من الأشخاص بهذه الرؤية، لأن الحقبة
كانت (حقبة) ساذجة تماما وكان الشعب اليهودى متأثرا بعمق بالاعتقاد فى القيامة.
لم يكن يعتبر القيام من بين الأموات بأى حال غير قابل للتصور. دعنا نضيف
بضعة أمثلة إلى التى قدمناها قبلا.

فى إنجيل متى، يصف يسوع للرسل أنشطتهم:

“اشفوا مرضى، طهروا برصا، أقيموا موتى، أخرجوا “شياطين”. (١٠، ٨)

الإقامة من الموتى قد ضمنت هنا بأشد الطرق واقعية فى تعداد اللواجبات اليومية
لرسل، مع شفاء المرضى. وقد أضيفت مذكرة تحذرهم من قبول أجر لقاء هذا
العمل. اعتبر يسوع أو بالأحرى مؤلف الإنجيل الإقامة من بين الموتى مقابل
أتعاب، بمعنى آخر، أن يقام بها كعمل، تدخل تماما فى مجال الممكن.

مميزة تماما قصة القيامة كما رويت عند متى. مقبرة يسوع حرسها الجنود، حتى
لايسرق الرسل الجثة وينشروا الخبر بأنه قد قام. ولكن الحجر قد تدحرج عن فتحة
القبر مصحوبا بومضات ضوء وزلازل، ويقوم يسوع.

“وفيما هما ذاهبتان، إذا، قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة، وأخبروا رؤساء الكهنة
بكل ماكان. فاجتمعوا مع الشيوخ، وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين:
قولوا، إن تلاميذه أتوا ليلا، وسرقوه ونحن نيام. وإذا سمع هذا عند الوالى، فنحن
نستعطفه، ونجعلكم مطمئنين. فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم: فشاع هذا القول
عند اليهود إلى هذا اليوم”. (٢٨، ١١ ومايليها)

تخيل هؤلاء المسيحيون من ثم أن إقامة رجل مات ودفن لثلاثة أيام لن تخلق انطبعا
شديد العمق على شهود العيان حتى تجعل من الضرورى إعطاء أكثر من رشوة
سخية من أجل فرض الصمت عليهم، وحتى لإغوائهم بنشر رواية كانت عكس
الحقيقة.

قد نعتقد عن طيب خاطر بأن المؤلفين الذين تبنوا نظرات كتلك التى عبر عنها
الإنجيليون هنا كانوا قادرين على قبول خرافة القيامة بدون أدنى تردد.

ولكن هذا لا يحسم كامل السؤال. هذه السداجة، هذا الاعتقاد الحازم فى إمكانية القيامة، لم يكن سمة خاصة بالمجمع المسيحى، حيث شارك فيه كل السكان اليهود فى هذا الزمن، على الأقل ذلك القسم من السكان اليهود الذى كان يتوقع مخلصاً. لم امتلك المجمع المسيحى فقط رؤيا لقيامة مخلصه؟ ولم يمتلكها أيضاً أتباع واحد من المخلصين الآخرين الذين عانوا الموت كشهداء فى هذا العصر؟

سوف يجيب لاهوتيوننا بأننا يجب أن نفسر هذا بواسطة الانطباع العميق الذى خلفته بصفة خاصة شخصية يسوع، انطباع لم يكن أى من المخلصين الآخرين قادر على خلقه. ويناقض هذا التصريح حقيقة أن أنشطة يسوع، التى لم تستمر وفقاً لكل المؤشرات سوى لوقت قصير، لم تترك آثاراً فى الجماهير، انتهاءً إلى أنه لم يسجلها معاصر واحد. ولكن استمر مخلصون آخرون فى القتال لوقت طويل ضد الرومان وحققوا مؤقتاً انتصارات عظيمة ضد الآخرين، نجاحات سجلت فى التاريخ؛ هل كان يمكن أن يكون هؤلاء المخلصين قد خلقوا انطباعاً أقل من يسوع؟ لكن دعنا نفترض أن يسوع، بينما لم يكن قادراً على التأثير فى الجماهير، كان قادراً رغم ذلك على أن يخلف وراءه انطباعات لا تمحى بين بضعة من تلاميذه، بسبب قوة شخصيته. هذا سوف يفسر على الأكثر لماذا استمر الايمان بيسوع بين أصدقائه الشخصيين، وليس لم حازت الدعاية قوة بين الأشخاص الذين لم يعرفوه، والتى لم تستطع شخصيته أن تؤثر فيهم. إذا كان الانطباع الشخصى الذى خلقه يسوع هو الذى أنتج الاعتقاد بقيامته وبمهمته الإلهية فقط، فإن هذا الاعتقاد سوف يصبح بالضرورة أضعف حيث تخبو الذكرى الشخصية عنه، ويتناقص عدد الأشخاص الذين كانوا على اتصال شخصى معه.

ليس للأخلاف أمجاد المنجزين الدراميين وفى هذا الصدد فإن رجل الكوميديا والإكليركى يتشابهان كثيراً. ماهو صحيح بشأن الممثل صحيح أيضاً بشأن المبدع، إذا كان مبشراً فقط، ويؤثر فقط من خلال شخصيته، ولا يترك كتابات وراءه تتجاوز حياته الشخصية، ربما تكون مواعظه دوماً مؤثرة بعمق شديد، ربما ترتفع دوماً بقوة شديدة، ولكنها لا تستطيع أن تنتج نفس الانطباع على هؤلاء الذين لا يسمعونها، على هؤلاء الذين حصلوا عليها بالنقل فقط. فلن يكون لشخصيته أى أثر على مثل هؤلاء الأشخاص على الإطلاق، لن يستثار خيالهم بها. لا يمكن لأحد أن يترك خلفه ذكرى شخصية وراء دائرة هؤلاء الذين كانوا على اتصال شخصى معه، مالم يكن قد أنتج إبداعاً جديراً بخلق انطباع منفصل تماماً عن شخصيته، أن يكون إبداعاً فنياً، صرحاً، إعادة إنتاج، تأليفاً موسيقياً، عملاً أدبياً، أو إنجازاً علمياً، مجموعة من المواد المرتبة منهجياً، نظرية، اختراعاً، اكتشافاً، أو، أخيراً، مؤسسة أو تنظيم سياسى أو اجتماعى من نوع أو آخر، أنتجه أو على الأقل نتج بتعاونه المميز.

مادام هذا النتاج وأثره يستمر، فسوف يستمر الاهتمام بشخصية المبدع أيضا. فى الواقع، بينما قد يتم تجاهل مثل هذا الإبداع عمليا خلال حياة منتجته، سوف ينمو بعد موته ويبدأ فى تبين مغزاه، كما هو الحال مع مكتشفات عديدة، اختراعات وتنظيمات، حيث يمكن تماما أن يبدأ الاهتمام بمبدعها بعد موته فقط، وقد يستمر فى التزايد أكثر فأكثر. كلما كان الانتباه الذى أولى إياه أقل حين كان حيا، وقل ما هو معروف بالفعل عن شخصه، كلما استثار هذا الجهل الخيال، وكلما كان إبداعه قويا، كلما أحيطت هذه الشخصية بهالة من الحكايات والخرافات. فى الواقع، إن حب الإنسان للعلاقات السببية، الذى يبحث فى كل حدث اجتماعى – وكذلك أيضاً فى كل حدث طبيعى – (عن) شخصية فعالة وراءه، هذا الحب للعلاقات السببية قوى بما فيه الكفاية حتى يؤدي لإيجاد مبدع لأى عمل أصبح ذو أهمية عظيمة، أو على الأقل ربط هذا العمل باسم ما وصل إلينا، فى حالة ما اذا كان المبدع الفعلى قد نسي، أو، كما هو الحال كثيرا جدا، اذا كان نتاجاً لتعاون مواهب غاية فى الكثرة، لا يبرز أحد منهم الآخرين تماما – حتى يؤدي منذ البداية لاستحالة تسمية مبدع معين.

ليس علينا ان نبحث فى شخصيته، وإنما فى الإبداع الذى ارتبط باسمه، عن سبب أن النشاط الخلاصى ليسوع لم يلق مصير النشاطات المماثلة ليهودا وتيوداس ومخلصين آخرين لهذا الزمان. الإيمان الصوفى بشخصية النبى، وحب المعجزات، النشوة، الايمان بالقيامة – كل هذه نجدها بين أتباع المخلصين الآخرين وكذلك بين تلامذة يسوع. قد لانبث سبب اختلاف واحد منهم فيما يشتركون فيه جميعا. بينما قد يكون طبيعيا للاهوتيون، حتى الأكثر ليبرالية، أن يفترضوا بأنه رغم أن كل المعجزات التى أشيعت عن يسوع قد تطرح، فإن يسوع نفسه يبقى معجزة، إنسانا أعلى، لم ير العالم مثله قط – وإننا مضطرون حتى لإنكار هذه المعجزة. إن نقطة الاختلاف الوحيدة بين يسوع والمخلصين الآخرين هى فى حقيقة ان الآخرين لم يتركوا شيئا وراءهم يمكن ان تحفظ فيه شخصيتهم، بينما أورث يسوع تنظيما ذو عناصر حُسبت بامتياز لثبقى تلاميذه معا وتجذب أعدادا متزايدة من التلاميذ الجدد.

جمع المخلصون الآخرون معا عُصبا بغرض الانتفاض فحسب؛ وتفرقت العصب بعد إخفاق الانتفاضة. إذا لم يكن يسوع قد فعل أكثر من هذا، لكان اسمه قد اختفى دون أثر بعد صلبه. ولكن يسوع لم يكن متمردا فحسب، لقد كان أيضاً ممثلا وبطلا، ربما حتى مؤسس تنظيم تجاوزه واستمرت أعداده فى التزايد والقوة.

مما لا ريب فيه، فإن الافتراض التقليدى يفيد بأن مجمع المسيح لم يكن منظما من قبل الرسل حتى بعد موته. ولكن لاشئ يضطرنا لقبول هذا الافتراض، الذى هو، أضف إلى ذلك، غير جدير بالتصديق بالمرة. لأن هذا الافتراض يأخذ كأمر مسلم

به ليس وضعاً أقل من أنه بعد موت يسوع مباشرة أدخل تلاميذه في مذهبه عنصراً جديداً كلياً، جرى تجاهله حتى حينه وغير مرغوب فيه من جانبه، وإن هؤلاء الذين بقوا غير منظمين حتى هذا الوقت انطلقوا في اتخاذ خطوة التنظيم، التي كان يعارضها معلمهم، في نفس اللحظة التي عانوا فيها هزيمة كانت قوية بما فيه الكفاية لأن تدمر حتى تنظيمها محكماً.

إذا حكمنا قياساً على تنظيمات أخرى مماثلة نحن ملمين ببداياتها على نحو أفضل، فيجب علينا أن نفترض بالأحرى أن التنظيمات الخيرية الشيعية لبروليتاريي أورشليم، تشربت بالأمل بمجيء المسيح، وقد وجدت حتى قبل زمن يسوع، وإن محرضاً جريئاً ومتمرداً يدعى يسوع، أتى من الجليل، أصبح بطلهم وشهيدهم الأشد بروزاً فحسب.

وفقاً ليوحنا، كان للرسل الاثني عشر صندوقاً عاماً حينما كان يسوع مازال حياً. ولكن يسوع يطلب أيضاً أن يتخلى كل تلاميذه الآخرين عن كل ملكيتهم.

ولا نقرأ في أى مكان في أعمال الرسل أن الرسل والمجمع لم يكونوا منظمين حتى بعد موت يسوع. نجدهم بالفعل منظمين في هذا الوقت، ويقيمون اجتماعات عضويتهم قائمين بوظائفهم. إن أول ذكر للشيعية في أعمال الرسل هو مايلي:

“وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات”. (٢، ٤٢) بمعنى آخر، فقد استمروا في تناول وجباتهم معاً كما كانوا قبلاً، وأيضاً مواصلي ممارسات شيعية أخرى. إذا لم تكن هذه الممارسات قد أدخلت حتى بعد موت يسوع، ماكانت لتستخدم صياغة الكلمات هذه.

لقد كان تنظيم المجمع هو الذى خدم كرابطة تضم تلاميذ يسوع معاً بعد موته، كوسيلة لإبقاء ذكرى بطلهم المصلوب حياً، الذى أعلن نفسه وفقاً للتقليد أنه المخلص. مع زيادة التنظيم، ونمو قوته أكثر فأكثر، شغل شهيدته بالضرورة خيال أعضائه أكثر فأكثر، وأصبحوا بالضرورة مبغضين أشد البغض لاعتبار المخلص المصلوب مخلصاً غير حقيقياً، مرغمين غاية الإرغام على اعتباره المخلص الحقيقي رغم موته، بوصفه المخلص الذى سوف يأتى مرة أخرى بكل جلاله؛ وأصبح أكثر طبيعية بالنسبة لهم أن يؤمنوا بقيامته، وأصبح الإيمان بالطابع الخلاصى، وفي قيامة المصلوب العلامة المميزة للتنظيم، فارقة إياه عن المؤمنين الآخرين بالمخلص. إذا كان الإيمان بقيامة المخلص قد نشأ من انطباعات شخصية، لكان سيصبح بالضرورة أضعف وأضعف في مجرى الزمن، حيث يكون قد طمس أكثر فأكثر بواسطة انطباعات أخرى، وسوف يختفى في النهاية مع موت هؤلاء

الذين عرفوا يسوع. ولكن اذا كان الإيمان فى قيامة المصلوب نتيجة نفوذ تنظيمه، فإن هذا الإيمان سوف يصبح أكثر متانة وحمية مع تزايد التنظيم، وكلما عرف أقل عن شخص يسوع، كلما قل تقيد خيال عابديه بتفصيلات محددة.

لم يكن الايمان بقيامة المصلوب هو الذى خلق المجمع المسيحى وأعطاه قوته، ولكن على النقيض، لقد كان نشاط وقوة المجمع هو الذى خلق الاعتقاد فى الحياة المستمرة للمخلص.

لم يكن هناك شيء فى الاعتقاد فى قيامة المخلص الذى صلب، يتناقض مع الفلسفة اليهودية للحياة. لقد رأينا إلى أى حد جرى تخلل هذه الفلسفة تماما بالاعتقاد بالقيامة، ولكن لا ينبغي أن نغفل عن حقيقة أن كامل الأدب الخلاصى لليهود قد تخللته فكرة ان المجد المقبل يمكن إحرازه فقط لقاء معاناة وموت البار، فكرة كانت نتيجة طبيعية للمحن والبلايا التى تعرض لها اليهود آنذاك.

لقد أعطى الإيمان بالمخلص المصلوب كل علامة من ثم، لصيرورته ببساطة واحدا من التنويعات المتعددة للنبوءة الخلاصية بين يهود تلك الأيام، ربما لم يبلغ أبدا أكثر من ذلك. ولكنه أنقذ من هذا المصير – ومن النسيان الناشئ – بواسطة حقيقة أن الأساس الذى أقيم عليه كان أساسا تضمن بالضرورة تطور معارضة ضد اليهود. هذا الأساس، الذى كان حياة ونشاط التنظيم الشيعى للبروليتاريا ارتبط بوثوق مع النوعية الخاصة للتوقعات الخلاصية للبروليتاريين الشيعيين فى أورشليم.

هـ – الفادى الأممى

كانت التوقعات الخلاصية لبقية اليهود قومية محضة فى طابعها، بما فيها تلك التى تخص الغيورون. لقد تضمنت: إخضاع الأمم الأخرى للهيمنة اليهودية العالمية، التى كان عليها أن تحل محل الحكم الرومانى للعالم؛ والانتقام من الأمم التى كانت تضطهد اليهود وتسيء معاملتهم. ولكن كانت التوقعات الخلاصية للمجمع المسيحى مختلفة تماما. كان هذا المجمع أيضاً حافلا بالوطنية اليهودية وبالعداء للرومان؛ مثلت الاطاحة بالنير الأجنبى الشرط، الاولى الضرورى لأى تحرير، ولكن أتباع المجمع المسيحى لم يكتفوا بذلك. فهم لم يخططوا للإطاحة بنير الحكام الأجانب فقط، وإنما بكل الحكام، بمن فيهم هؤلاء الذين فى الوطن. لقد دعوا لأنفسهم المرهقين والمثقلين بالهموم فقط؛ لقد كان يوم الدينونة هو يوم الانتقام من كل الأغنياء والأقوياء.

لم تكن العاطفة التى حركتهم حقدا عرقيا وإنما حقدا طبقيًا، وكانت هذه السمة هي جرثومة انفصالهم عن بقية اليهود، الذين كانت توحدهم روح قومية. ولكن مثل هذا

العنصر أيضاً جرثومة تقارب مع بقية العالم، العالم غير اليهودى. وقد بقيت النظرية القومية للمخلص قاصرة على العالم اليهودى، حيث رفضت من بقية العالم، الذى كان إخضاعه جزءاً من هذه الفكرة.

لم يكن الحقد الطبقي ضد الأغنياء وكذلك التضامن البروليتارى أفكاراً يقتصر قبولها بأي حال على البروليتاريا اليهودية فقط. لابد أن أملاً خلاصياً تضمن انقاذ الفقراء وجد بالضرورة أذناً صاغية بين فقراء كل الأمم. فقط المخلص الاجتماعى، وليس المخلص القومى، يمكن أن يتعالى على حدود اليهودية. يمكن لمثل هذا المخلص أن يتجاوز منتصراً الكارثة الفظيعة التى ألمت بالمجتمع اليهودى، والتى انتهت بتدمير أورشليم.

من ناحية أخرى، فإن تنظيمًا شيوعياً لا يمكن أن يحافظ على نفسه فى الإمبراطورية الرومانية، إلا فى إقليم قوى فيه هذا التنظيم بالإيمان فى مجيء المخلص وفى إنقاذه لهؤلاء الذين اضطهدوا وأسبغت معاملتهم. كانت هذه التنظيمات الشيوعية عملياً، كما سوف نعلم لاحقاً، مؤسسة على جمعية للمساعدة المتبادلة.

أصبحت الحاجة لمثل هذه التنظيمات شاملة فى الإمبراطورية الرومانية بدءاً من القرن الأول لعصرنا، وقد شعر بها على نحو أكثر حيوية حيثما تزايد الفقر العام وحيث كانت البقايا الأخيرة للشيوعية الأولية التقليدية تتحلل. ولكن الاستبداد الشاك يقمع كل أشكال التنظيم؛ لقد رأينا أن تراجان كان خائفاً حتى من منظمات الحريق الطوعية. كان قيصر مازال مبقياً على التنظيمات اليهودية، ولكنها فقدت لاحقاً أيضاً مركزها المتميز.

لم تستطع منظمات المساعدة المتبادلة أن تستمر فى الوجود إلا كجمعيات سرية. ولكن من يقبل أن يخاطر بحياته لاجتماع مساعدات فى المرض فحسب؟ أو من سوف يخاطر بحياته من خلال شعور بالتضامن مع رفاقه فى وقت كانت فيه كل روح عامة قد أتمدت؟ أيا مابقى من مثل هذه الروح العامة، أو من التفانى للرفاه العام، لم تواجه فى أى مكان فكرة، عظيمة سامية مثل فكرة التجديد الخلاصى للعالم، التى تعنى، المجتمع. والأكثر أنانية بين البروليتاريين، هؤلاء الذين انضموا إلى جمعيات المساعدة المتبادلة من أجل امتياز شخصى قد اطمأنوا إذا عرضوا أشخاصهم للخطر بفكرة حدوث قيامة شخصية ترافقها مكافأة سخية لاحقة؛ فكرة لم تكن ضرورية إلا من أجل رفع معنويات المضطهدين فى عصر دفعت فيه أوضاعه الغرائز الاجتماعية والمشاعر إلى الحد الأقصى، حتى أن الفرد شعر بنفسه مجبراً بشكل لا يقاوم على الانصياع لها، إلى حد تعريض امتيازهم للخطر، أى حياته ذاتها. كانت فكرة حدوث قيامة شخصية، من ناحية أخرى، لامفر منها، فى مسار صراع

خطر ضد قوى عاتية، فى عصر كانت فيه الغرائز والمشاعر الاجتماعية قد قمعت إلى حد غاية فى التدنى بواسطة، التفسخ الاجتماعى المتلاحق، ليس فقط ضمن الطبقات الحاكمة، وإنما أيضاً ضمن المضطهدين والمستغلين.

فقط فى الشكل الشيوعى للمجمع المسيحى، ذلك الذى ينتمى إليه المخلص المصلوب، أمكن لفكرة المخلص أن تضرب بجذورها خارج اليهودية. فقط من خلال الإيمان بالمخلص وفى القيامة أمكن للتنظيم الشيوعى أن يبقى ويوسع نفسه فى الإمبراطورية الرومانية كجمعية سرية. ولكن حين اتحد، هذين العاملين – الشيوعية والإيمان بالمخلص – أصبحا لا يقاومان. ما أمل اليهود فيه بلا جدوى من مخلصهم ذو النسب الملكى قد انجز بواسطة المخلص المصلوب الذى تحدر من البروليتاريا: اخضع روما، جعل القياصرة يركعون، قهر العالم. ولكنه لم يقهر العالم من أجل البروليتاريا. فى مجراه المنتصر، أصبح التنظيم الخيرى، البروليتارى، الشيوعى وقد تحول إلى أكثر الأدوات روعة للهيمنة والاستغلال فى العالم. ليست هذه العملية الجدلية جديدة كلية. لم يكن المخلص المصلوب لا أول ولا آخر قاهر يحول جيوشه التى كسبت انتصاراته فى النهاية، لتقاتل شعبها، موظفا إياها لإخضاعهم واستعبادهم.

كان لقيصر ونابليون أيضاً أصلهما فى الانتصارات الديمقراطية.

الفصل الثالث: المسيحيون اليهود والمسيحيون الوثنيون

أ- التحريض بين الوثنيين

تشكل المجمع الشيوعى الأولى للمخلص فى أورشليم؛ وليس لدينا أدنى سبب لنشك فى التصريحات التى تفيد ذلك فى أعمال الرسل. ولكن سرعان ما نشأت المجمع فى مدن أخرى بها بروليتاريا يهودية. كانت هناك بالطبع بين أورشليم والأقسام الأخرى من الإمبراطورية، خاصة نصفها الشرقى، مواصلات نشطة، على الأقل بسبب الكثير من مئات الآلاف، وربما الملايين من الحجاج، الذين حجوا سنويا لتلك المدينة. وكان عديد من المتسولين الذين لا يملكون شيئاً وبدون عائلة أو بيت يرتحلون بلا توقف من مكان إلى مكان، كما لا يزال الحال فى أوروبا الشرقية، مقيمين فى كل مكان حتى تستنفذ الصدقة المحلية. هذا هو معنى التعليمات التى أعطاها يسوع لرسله:

“لاتحملوا كيساً، ولا مزودة، ولا أحذية: ولا تسلموا على أحد فى الطريق. وأى بيت دخلتموه، فقولوا أولاً: سلام لهذا البيت. فإن كان هناك ابن السلام، يحل سلامكم عليه: وإلا، فيرجع إليكم، وأقيموا فى ذلك البيت، آكلين وشاربين مما عندهم: لأن الفاعل مستحق لأجرته. لا تنتقلوا من بيت إلى بيت. وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم، فكلوا مما يقدم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها، وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله. وأية مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فيها، فاخرجوا إلى شوارعها، وقولوا:

“حتى الغبار الذى لصق بنا، من مدينتكم. ننفذه لكم: ولكن اعلموا هذا قد اقترب منكم ملكوت الله. وأقول لكم أنه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة”. (لوقا ١٠/٤-١٣)

إن التهديد الأخير الذى يضعه الإنجيلى فى فم يسوع يعكس نموذجياً حقد المتسول الذى خدع فى توقعاته بشأن الصدقة. الذى سوف يرضيه أن يرى المدينة كلها تشتعل باللهب. ولكن المخلص فى هذه الحالة هو من يلعب (دور) مشعل الحرائق له.

كل المحرضين الذين لا يملكون شيئاً وينتمون للتنظيم الجديد الذين تجولوا هكذا كانوا يعتبرون رسلاً، وليس فقط الاثنى عشر الذين وصلت إلينا أسمائهم ممن نصبهم يسوع ليعلنوا كلمته. إن أعمال الرسل DIDACHE التى سبق وأن ذكرناها (تعاليم الرسل الاثنى عشر) مازالت تتحدث فى منتصف القرن التالى عن الرسل النشطين فى المجمع.

مثل هؤلاء "المتسولون والمتآمرون" الرحالون، الذين اعتبروا أنفسهم ملأى بالروح القدس أتوا بمبادئ التنظيم البروليتارى الجديد "البشرى الفرحة" للإنجيل من أورشليم إلى المجتمعات اليهودية المجاورة وأخيرا بعيدا حتى روما. لكن بمجرد أن ترك الإنجيل تربة فلسطين، فقد دخل بيئة اجتماعية مختلفة كلية تركت طابعا مختلفا كلية عليه.

وجد الرسل مع أعضاء الجماعة اليهودية، جماعة أخرى، على اتصال وثيق بهؤلاء الأعضاء، زملاء اليهود، الوثنيون "الذين يخشون الله" (-; -ε-; -β-; -ó-; -μ-; -ε-; -σ-; -l-; -o-; -γ-; -) الذين عبدوا الإله اليهودى، وحضروا فى الكنيس، ولكنهم لم يكونوا قادرين أن يبلغوا حد قبول كل العادات اليهودية. فى الأغلب فقد كانوا يخضعون لاحتفال الغمر أو التعميد؛ ولكن لم تكن لتكون لهم صلة بالختان أو شرائع التغذية، ومراعاة السبت، والمظاهر الأخرى التى سوف تنزعهم كلية من محيطهم "الوثنى".

لابد وان المحتوى الاجتماعى للإنجيل قد وجد قبولا جاهزا لدى الفئة البروليتارية من نمط "الوثنيون الذين يخشون الله". وهم من نقلوه إلى مجموعات بروليتارية غير يهودية أخرى، التى قدمت تربه مواليه لمذهب المخلص المصلوب، على الأقل إلى المدى الذى وعد فيه بتحول اجتماعى ومؤسسات منظمة مباشرة لتقديم المساعدة. ولكن لم تتعاطف هذه الطبقات مع كل العادات اليهودية بصفة خاصة، وفى الواقع، فقد نظرت لها ببعوض واحتقار.

كلما انتشر أكثر التعليم الجديد فى المجتمعات اليهودية خارج فلسطين، كلما أصبح واضحا بالضرورة انه سوف يكسب قوة دعائية أكثر لحد هائل إذا نبذ خصائصه اليهودية، وكف عن أن يكون قوميا، وأصبح على وجه القصر اجتماعيا فى طبيعته.

الرجل الذى أدرك أولا هذا الشرط ودافع عنه بحمية يدعى شاول، يهودى يقول عنه التراث أنه لم يأت من فلسطين، ولكن من المجمع اليهودى لمدينة إغريقية، طرسوس، فى قيلقيه. روح نارية، لقد رمى بنفسه أولا بكل قوته فى الدفاع عن الفريسية، وحارب باعتباره فريسيا المجمع المسيحى، الذى كان مرتبطا بوثوق بنزعة الغيورين، حتى اقتنع فجأة، وفقا للرواية، بخطأ طريقه من خلال رؤيا، انتهاء إلى أنه اندفع للطرف المعاكس. انضم للمجمع المسيحى، ولكنه ظهر فيه فورا باعتباره واحدا من المحبذين للإطاحة بوجهات النظر القائمة، فمادام الأمر قد تطلب أن يروج المذهب الجديد بين غير اليهود، فمن غير الضرورى لهم أن يقبلوا اليهودية.

حقيقة أنه غير اسمه العبرى من شاول إلى الاسم اللاتينى بولس نموذجى فى الدلالة على ميوله. وقد أجرى كثير من اليهود الذين رغبوا فى أن يلعبوا دورا فى الدوائر غير اليهودية مثل هذه التغييرات فى الأسماء. إذا كان على منسى أن يغير اسمه إلى مينيلوس، فلم لا يسمى شاول نفسه بولس؟

من المحتمل أننا لا يمكن أن نحدد فى يومنا هذا القسم الصحيح تاريخيا من قصة بولس بأى يقين. كما فى كل الامور التى تتعلق بالتواريخ الشخصية، فالعهد الجديد هنا أيضاً مصدر لا يعتمد عليه لأقصى حد، وهو حافل بالتناقضات وحكايات المعجزات المستحيلة. ولكن أعمال بولس الشخصية هى أمر ثانوى. النقطة المهمة هى معارضته مبدئياً للنظرات السابقة للمجمع المسيحى. نشأت هذه المعارضة من طبيعة الحالة، التى لم يكن ممكناً تجنبها، ولايهم كم قد يبالغ أعمال الرسل فى الأحداث الفردية، فحقيقة الصراع بين هذين الاتجاهين داخل المجمع لم تخفى علينا. أعمال الرسل نفسها هى نتاج جدالى، نتيجة لهذا الصراع، كتبت بغرض كسب الأصدقاء للموقف البولسى، وأيضاً لتهدة المعارضة بين الاتجاهين.

من المحتمل فى البداية أن الاتجاه الجديد قد كان غاية فى التواضع، ولم يتطلب فقط سوى تسامح فى بعض النقاط التى احتمل المجمع الأم أن يتغاضى عنها.

على الأقل هذا ما يبدو محتملاً من الرواية (الواردة) فى أعمال الرسل، التى، يجب أن نعترف، على أية حال، بأنها لونت الوضع بألوان وردية بالأحرى وتظاهرت بأن السلام قد حل بينما كان هناك بالفعل صراع وحشى يتطور.

وهكذا تروى الأعمال، على سبيل المثال، من زمن نشاط بولس الدعائى فى سوريا:

“وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة، أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لايمكنكم أن تخلصوا. فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثه ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة. فهؤلاء بعدما شيعتهم الكنيسة اجتازوا فى فينيقية والسامرة يخبرونهم برجوع الأمم وكانوا يسببون سرورا عظيما لجميع الأخوة. ولما حضروا إلى أورشليم قبلتهم الكنيسة والرسل والمشايخ فأخبروهم بكل ما صنع الله معهم. ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنه ينبغى أن يختنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى”. (أعمال الرسل ١٥/١-٥)

الرسل والشيوخ، بمعنى آخر، اللجنة التنفيذية للحزب، تجتمع الآن، بطرس وكذلك يعقوب يلقيان خطابى صلح، وقرروا فى النهاية إرسال يهوذا وبرنابا وسيلاس، وهم

أعضاء كذلك فى اللجنة التنفيذية إلى سوريا، من أجل إعلام الاخوة هناك (أعمال
الرسل، ٢٨/١٥، ٢٩):

“لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن، أن لانضع عليكم ثقلا أكثر غير هذه الأشياء
الواجبة؛ أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى”. وهكذا فإن
اللجنة التنفيذية قد تخلت عن تختين المهتدين الجدد الوثنيين، ولكن الممارسات
الخيرية قد لاتهمل: “غير أن نذكر الفقراء، وهذا عينه كنت اعتنيت أن افعله” هذا
هو تقرير الرسول فى رسالته إلى الغلاطيين. (١٠/٢)

كان نظام المساعدات عزيزا على قلوب كل من المسيحيين اليهود والمسيحيين
الوثنيين، ولم يشكل موضوعا للخلاف بينهم. ومن ثم فقد ذكر قليلا جدا فى أدبهم،
الذى كان معنيا تقريبا على وجه الحصر بأغراض جدالية. ولكن سيكون من الخطأ
الافتراض من هذا التنويه غير المتكرر أن هذا النشاط الخيرى لم يلعب دورا فى
المسيحية الأولية. انه من الحقيقى أنه لم يلعب دورا فى خلافات الأخيرة الداخلية.
استمرت هذه الخلافات بالرغم من كل جهود الصلح.

“فى رسالة القديس بولس إلى الغلاطيين التى اقتبسناها آنفا، نجد بالفعل أن المدافعين
عن الختان اتهموا بالتصرف استنادا لاعتبارات إنتهازية:

“جميع الذين يريدون أن يعملوا منظرا حسنا فى الجسد هؤلاء يلزمونكم أن تختتنوا
لئلا يضطهدوا لأجل صليب المسيح فقط”. (١٢/٦)

بعد المؤتمر المذكور فى أورشليم، يصف أعمال الرسل بولس باعتباره قائما بجولة
تحريضية عبر بلاد الإغريق، موضوعها هو مرة أخرى التحريض بين الوثنيين.
وبعد عودته إلى أورشليم، يقدم تقريراً لرفاقه حول نجاح مهمته.

“فلما سمعوا كانوا يمجدون الرب. وقالوا له أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من
اليهود الذين آمنوا وهم جميعا غيورون للناموس. وقد أخبروا أنك تعلم جميع اليهود
الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا أن لا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب
العوائد”. (أعمال الرسل ٢١-٢٠/٢١)

مطلوب من بولس الآن أن يبرئ نفسه من هذه التهمة وان يقدم الدليل على أنه
مازال يهوديا ورعا. وهو يعلن أنه مستعد لأن يفعل هذا، ولكنه يمنع من تنفيذ نيته
بواسطة هجوم مفاجئ شنه اليهود عليه، ممن رغبوا فى قتله كخائن لأمتهم. تضعه
السلطات الرومانية تحت نوع من الاعتقال الوقائى وأخيرا ترسله إلى روما، حيث
يتمكن من أن يواصل تحريضه دون تحرش به بتاتا، الأمر الذى يختلف عما كان

عليه الحال فى أورشليم: "كارزا بملكوت الله ومعلما بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة ولا مانع". (٣١/٢٨)

ب - التعارض بين اليهود والمسيحيين

لقد كان من الطبيعى أن يعلن المسيحيون الوثنيون موقفهم على نحو أكثر توكيدا حين تزايدت أعدادهم. لقد كانت المعارضة من ثم مصممة على أن تصبح أكثر حدة. كلما بقيت هذه المعارضة أطول، وكلما كثرت أوجه الخلاف، كلما كان موقف هذين الاتجاهين بالضرورة أكثر عدائية كل منهما إزاء الآخر. وقد تأجج هذا الوضع أكثر بتفاقم التضاد بين اليهود والأمم التى عاشوا وسطها، فى العقود التى سبقت تدمير أورشليم. لقد كان تحديدا العنصر البروليتارى فى اليهودية، خاصة فى أورشليم، الذى قارب الأمم غير اليهودية، خاصة الرومان، بحقد متعصب أكثر فأكثر. لقد كان الرومانى أسوأ مضطهد ومستغل، أسوأ عدو، وكان الهيلينى حليفه. كل مسألة تميز بها اليهود عنهم جرى تأكيدها الآن أكثر من ذى قبل بما لا يقاس. كل هؤلاء الذين شددوا على الدعاية بين اليهود كانوا مدفوعين بالضرورة، باعتباريات قامت على نجاح تحريضهم، إلى أن يشددوا على السمات اليهودية، وأن يتمسكوا بكل الشرائع اليهودية، التى كانوا إضافة إلى ذلك ميالين إليها، بسبب تأثيرات محيطهم.

ولكن بنفس القدر الذى تزايد به الحقد المتعصب لليهود ضد قوميات مضطهدهم فإن، المقت والاحتقار الذى شعرت به الجماهير نحو اليهود تزايد أيضا. مرة أخرى قاد هذا أيضاً عديداً من المسيحيين الوثنيين ومحرصيهم ليس فقط لأن يطلبوا إعفاء من الشرائع اليهودية، وإنما إلى أن يتحدثوا باستخفاف أكثر فأكثر عن هذه الشرائع. أصبح التضاد بين المسيحيين اليهود والمسيحيين الوثنيين أكثر فأكثر، فى حالة الأخيرين، بات عداً لليهودية ذاتها. مع ذلك، كان الاعتقاد فى المخلص، بما فيه أيضاً المخلص المصلوب، لحد بعيد أيضاً متداخلاً بوثوق مع اليهودية حتى انتهى المسيحيين الوثنيين إلى إنكار الأخيرة كلية. لقد استعاروا من اليهودية كل النبوءات الخلاصية وبعض الروافد الأخرى للاعتقاد فى المخلص، وبالرغم من ذلك كانوا يصبحون فى نفس الوقت أكثر فأكثر عداً تجاه اليهودية. أضاف هذا تناقضا جديدا للتناقضات الكثيرة الموجودة سلفا فى المسيحية.

لقد رأينا قبلا كيف كان التأكيد الذى وضعته الأنجيل على انحذار يسوع من داود عظيما، وكيف صنعوا أكثر التركيبات غرابة لجعل الجليلى يولد فى أورشليم. وهم يقتبسون مرة بعد مرة مقتطفات من الكتابات المقدسة لليهود، حتى يثبتوا بواسطتها

مهمة يسوع الخلاصية. وهم يعرضون يسوع نفسه بوصفه محتجا ضد أى اتهام برغبته فى نقض الشريعة اليهودية “لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس، أو الأنبياء: ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم: إلى ان تزول السماء والارض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل”. (متى ١٧/٥؛ انظر لوقا ١٦/١٦)

ويأمر يسوع تلاميذه بما يلى:

“الى طريق أمم لاتمضوا والى مدينة للسامريين لاتدخلوا: بل اذهبوا بالأحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة”. (متى ١٠/٦)

هذا منع صريح ضد الدعاية خارج اليهودية. وقد عبر يسوع عن نفسه بالمثل، وإن بشكل أكثر لطفاً، لامرأة كنعانية عند متى (امرأة اغريقية، ولدت فى فينيقيا السورية، عند مرقس): صرخت اليه قائلة:

“ارحمنى ياسيد، يا ابن داود: ابنتى مجنونة جدا. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه، وطلبوا اليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. فأنت وسجدت له قائلة: ياسيد أعنى. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين وي طرح للكلاب، فقالت: نعم، ياسيد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال: يا امرأة عظيم إيمانك: ليكن لك كما تريد. فشفيت ابنتها من تلك الساعة”. (متى، ١٥/٢١ ومايليها؛ انظر مرقس ٧/٢٧).

يذعن يسوع فى هذه الحالة لصوت العقل. ولكن يظهر فى البداية أنه فظ جدا إزاء المرأة، الإغريقية، لأنها ليست يهودية، رغم أنها دعت ابن داود وهي كلمات تشى بإيمان يهودى بالمخلص.

تترأى لنا الفكرة الكامنة وراء وعد يسوع لرساله بأنهم سوف يجلسون فى دولته المقبلة على اثنى عشر كرسيًا، حاكمين أسباط إسرائيل الاثنى عشر يهودية تماما. كان يمكن لهذا الوعد ان يكون جذابا لليهودى فقط، وليهودى فى اليهودية فقط. لقد فقد أهميته تماما فى الدعاية بين الوثنيين.

ولكن بينما استعارت الأناجيل هذه الأمارات المؤثرة عن الإيمان اليهودى بالمخلص، فقد وضعتها غالبا فى تجاور مباشر مع انفجارات العداء تجاه اليهود التى كان مؤلفوها ومحرروها مملوءين بها. يلقي يسوع المرة بعد المرة مواعظه ضد كل

شئ عزيز على اليهودى الورع، الصيام، سنن التغذية، مراعاة السبت. وهو يرفع
الوثنيين فوق اليهود:

“لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره”. (متى
٤٣/٢١)

ويذهب يسوع إلى حد أن يلعن اليهود صراحة:

“حينئذ ابتداء يوبخ المدن التى صنعت فيها أكثر قواته، لأنها لم تنتب: ويل لك،
ياكورزين ! ويل لك، يابيت صيدا ! لأنه لو صنعت فى صور وصيدا، القوات
المصنوعة فيكما، لتابتا قديما فى المسوح والرماد. ولكن أقول لكم: إن صور وصيدا
تكون لهما حالة أكثر احتمالا يوم الدين، مما لكما. وانت، ياكفر ناحوم، المرتفعة إلى
السماء، ستهبطين إلى الهاوية: لأنه لو صنعت فى سدوم القوات المصنوعة فيك
لبقيت إلى اليوم. ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالا يوم
الدين ممالك”. (متى ٢٤/١١-٢٤)

هذه الكلمات دليل على حقد متميز تجاه اليهود. نحن لانعد نسمع طائفة من اليهودية
تسب طائفة أخرى من نفس الأمة. لقد وصمت الأمة اليهودية هنا بصفتها هذه
باعتبارها متدنية أخلاقيا، وعرضت باعتبارها خبيثة على نحو غير عادى وعنيدة.

نحن نجد أيضاً هذه الفكرة وقد عبرت عنها النبوءات التى وضعت فى فم يسوع
وتخص تدمير اورشليم، التى اصطنعت بالطبع بعد أن تحقق هذا الحدث. الحرب
اليهودية، التى كشفت بشكل يثير الدهشة قوة اليهود والخطر الذى جسده بالنسبة
لأعدائهم، هذا الانفجار الوحشى لليأس الضارى، قد زاد العداوة بين اليهود والوثنيين
إلى أقصى درجة، وكان له تقريبا من ثم نفس الأثر الذى كان لمعركة يוניو
وكومونة باريس على الحقد الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية. عمق هذا أيضاً
الهوة بين المسيحية اليهودية والمسيحية الوثنية، ولكن يضاف إلى ذلك فقد حرم
الأولى أكثر فأكثر من أساسها. انتزع تدمير اورشليم الأرض من تحت أقدام أى
حركة طبقية مستقلة من جانب البروليتاريا اليهودية. فهذه الحركة يجب أن تؤسس
على استقلال الأمة. بعد تدمير اورشليم، تواجد اليهود فقط فى بلدان أجنبية، وسط
أعداء، حيث كانوا جميعهم أغنياء وفقراء، مكروهين ومضطهدين منهم على
السواء، والذين كان عليهم أن يتضامنوا بحزم ضدهم. ان خيرية الأثرياء نحو
مواطنيهم الفقراء وصلت من ثم نقطة عالية جدا تحديدا وسط اليهود، وفى حالات
كثيرة فاق الشعور بالتضامن القومى العداوات الطبقية. فقدت المرحلة اليهودية من
المسيحية من ثم بالفعل قوة دعايتها. أصبحت المسيحية منذ هذا الوقت فصاعدا أكثر

فأكثر على وجه الحصر مسيحية وثنية، لم تعد بعد حزبا سياسيا داخل اليهودية، وإنما حزبا سياسيا خارج اليهودية، معاديا حتى لليهودية.

ولكن مع سقوط المجتمع اليهودي، فقد الأمل اليهودي القومي في المخلص التربة التي نما منها. لقد كان من الممكن له أن يستمر في الحياة لبضعة عقود، ليصنع المزيد من بضع حركات تشنجية قبل موته، ولكن تلقى ضربة الموت كعامل مؤثر في التطور السياسى والاجتماعى في تدمير العاصمة اليهودية.

ولكن هذا لم يكن صحيحا عن آمال المخلص بين المسيحيين الوثنيين، الذين كانوا منفصلين تماما عن الأمة اليهودية ولم تمسهم محنها. ان فكرة المخلص قد احرزت الآن قوتها الحية فقط في شكل المخلص المصلوب، بمعنى آخر، المخلص غير اليهودي، المخلص المترجم إلى الإغريقية، المسيح.

في الواقع، ذهب المسيحيون بعيدا إلى حد تحويل الحدث الرهيب الذي دل على إفلاس الأمل اليهودي في المخلص إلى انتصار لمسيحهم. تبدأ أورشليم الآن في الظهور كعدو للمسيح، تدمير أورشليم هو انتقام المسيح من اليهود، دليل مخيف على قوته المنتصرة. يروى لنا "لوقا عن دخول يسوع إلى أورشليم:

"وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة، وبكى عليها، قائلا: انك لو علمت أنت أيضا، حتى، فى يومك هذا، ما هو لسلامك! ولكن الان قد اخفى عن عينيك. فإنه ستأتى أيام، ويحيط بك أعداؤك بمترساله، ويحرقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك، وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجرا على حجر، لأنك لم تعرفى زمان افتقارك". (لوقا ١٩/١٤-٤٤)

وعقب ذلك مباشرة يقول يسوع مرة أخرى إن أيام تدمير أورشليم، آتية بالإبادة حتى للحوامل والأمهات الحاضنات، سوف تكون "أيام الانتقام". (لوقا ١٩/٢٢)

إن اغتيالات سبتمبر الخاصة بالثورة الفرنسية، التي لم ترتكب بغرض إشفاء غليل الانتقام من الأطفال، وإنما من أجل صد عدو قاسى، تبدو نسبيا رقيقة حين تقارن بحكم الراعى الطيب.

ولكن تدمير أورشليم كان له أيضا نتائج أخرى على الفكر المسيحى. لقد أشرنا سلفا كيف أن المسيحية، التي كانت حتى آنذاك قد وسمت بالعنف، حققت الآن طابعها السلمى. وكان يمكننا أن نجد فقط بين اليهود ديمقراطية نشطة في البدايات الأولى للعصر الإمبراطورى. كانت أمم الإمبراطورية الأخرى قد أصبحت جبانة وعديمة اللياقة لشن الحرب، بل وحتى البروليتاريا. لقد قضى تدمير أورشليم على

الاحتياطي الأخير للطاقة الشعبية في الإمبراطورية. أصبح كل تمرد الآن ميئوساً منه. وغدت المسيحية الآن مسيحية وثنية فقط؛ لقد جعلها هذا خانعة، بل عبودية.

ولكن كان حكام الإمبراطورية رومانين. لقد كان من الضروري لكل العناصر الأخرى في الإمبراطورية أن تفوز لنفسها بالخطوة لدى الرومان. بينما كان المسيحيون الأوائل وطنيين يهود وأعداء لكل حكم أجنبي واستغلال، أكمل المسيحيون الوثنيون حقدهم لليهود بتقديس النزعة الرومانية والسلطة الإمبراطورية. نحن نجد أن هذا قد جرى التعبير عنه حتى في الأناجيل، في القصة المعروفة جيداً عن المحرضين الذين أرسلهم "الكتبة والفريسيين" إلى يسوع حتى يثيرونه للنطق بما ينطوى على خيانة:

"فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم ابرار لكي يمسكوه بكلمه حتى يسلموه إلى الوالى وسلطانه. فسألوه قائلين يامعلم نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم ولا تقبل الوجوه بل بالحق تعلم طريق الله، أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا. فشعر بمكرهم وقال لهم لماذا تجربوننى. أرونى ديناراً. لمن الصورة والكتابة. فأجابوا وقالوا لقيصر. فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر ومالله الله". (لوقا ٢٠/٢٠-٢٥)

يقدم يسوع هنا نظرية استثنائية عن النقود والضرائب: العملة النقدية تخص من تحمل صورته ونقشه؛ في دفع الضرائب، وعليه فإننا نعيد فقط النقود إلى الإمبراطور.

تتخلل نفس الروح كتابات أبطال الدعاية بين المسيحيين الوثنيين. وهكذا فنحن نقرأ في رسالة بولس للرومانيين. (١٣/١-٧) "لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله: والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله: والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة لأنه لا يحمل السيف عبثاً، إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذى يفعل الشر. لذلك يلزم أن يخضع. ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً: إذ هم خدام الله، مواظبون على ذلك بعينه. فاعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية. الجباية لمن له الجباية والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام".

كم نحن بعيدون الآن عن يسوع الذى دعا تلاميذه لشراء السيوف والذى بشر بالحدق على الأغنياء والأقوياء، كم نحن بعيدون عن المسيحية التى تلعن روما فى رؤيا القديس يوحنا والملوك المتحالفون معها بكل قسوة: "بابل العظيمة (روما) مسكنا لشیاطین ومحرسا لكل روح نجس ومحرسا لكل طائر نجس وممقوت. لأنه من خمر

غضب زناها قد شرب جميع الأمم وملوك الأرض زنوا معها وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها وسيبكي وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتتعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها" إلخ. (١٨/٢-٣-٩)

إن الملاحظة الأساسية في أعمال الرسل هي التأكيد على العداوة التي شعر بها اليهود نحو تعاليم المخلص المصلوب، وايضا التأكيد على استقبال معين مزعوم للرومان لتعاليمه. مارغبه المسيحيون أو تخيلوا أنه الحال بعد سقوط أورشليم قد عرضوه وكأنه كان الحال في تلك المدينة.

الدعاية المسيحية، وفقا لأعمال الرسل، مقموعة مرة بعد أخرى من قبل اليهود في أورشليم؛ اضطهد اليهود ورجموا المسيحيين حيثما استطاعوا، بينما حمت السلطات الرومانية المسيحيين. لقد رأينا أنه قد قيل إن بولس قد هدد بجدية في أورشليم بينما سمح له أن يكرز دون إزعاج في روما. الحرية في روما، القمع بالقوة في أورشليم !

ولكن أكثر الأدلة سطوعا على كراهية اليهود وتملق الرومان يظهر في قصة آلام المسيح، حكاية معاناة وموت المسيح. هنا يمكن أن نلاحظ بتميز كيف أن مضمون قصته قد تحول إلى عكسه تماما تحت تأثير الاتجاهات الجديدة.

حيث أن قصة الآلام هي القسم الأشد أهمية للمختصر التاريخي الذي قدمته الأنجيل، القسم الوحيد الذي نستطيع أن ندعى فيه بأننا نتعامل مع التاريخ، وحيث أنه غاية في النموذجية عن نمط الكتابة التاريخية للمسيحية الأولية، فإن هذه القصة جديرة ببحثنا.

الفصل الرابع: قصة آلام المسيح

هناك بالفعل بضعة أشياء قد يشار إليها في الأنجيل بدرجة معينة من الجدارة بالتصديق بوصفها وقائع فعلية في حياة المسيح: ميلاده وموته؛ واقعتان بالفعل، اذا أمكن البرهنة عليهما، سوف يظهران أن يسوع عاش بالفعل ولم يكن شخصية أسطورية فحسب، ولكنهما لا يلقيان ضوءاً ما على أكثر العناصر أهمية في شخصية تاريخية: أى، الأنشطة التي ينخرط فيها هذا الشخص بين الميلاد والموت. إن خليط المبادئ الأخلاقية والأعمال العجائبية التي قدمتها الأنجيل كرواية عن هذه الأنشطة حافلة للغاية بمادة مستحيلة ومصطنعة بوضوح، وبها القليل القليل مما يمكن أن يتأيد بدليل آخر، حتى أنها لا يمكن أن تستعمل كمصدر.

ليست الحالة مختلفة كثيراً مع الافادة التي تتعلق بميلاد وموت المسيح. مع ذلك فلدينا هنا بضعة إشارات بأن هناك نواة فعلية من الحقيقة تبقى مختفية تحت جملة الاصطوانات. ربما نستنتج وجود بعض هذه الحقائق الأساسية على الأقل من ملابسات أن هذه القصص تحتوى على اتصالات كانت محرجة للغاية للمسيحية، لم تخترعها المسيحية بالتأكيد، ولكن من الواضح أنها كانت معروفة للغاية ومقبولة بين أتباعها حتى أنها مكنت مؤلفي الأنجيل أن يستبدلوا اختراعاتهم بها، الأمر الذى فعلوه غالباً دون تردد في حالات أخرى.

واحدة من هذه الحقائق هي الأصل الجليلي ليسوع، الذى لم يكن ملائماً لأقصى حد نظراً لزعمه بأنه المخلص من نسل داود. لأنه كان على المخلص أن يأتى من مدينة داود. لقد رأينا أية حيلة خاصة كانت مطلوبة لربط الجليلي بهذه المدينة. اذا كان يسوع نتاجاً فحسب لخيال أحد المجامع التي تبنت رؤية خلاصية مبالغ فيها، فإن مثل هذا المجمع لم يكن ليفكر أبداً فى ان يصنع منه جليلياً. إننا من ثم قد نقبل على الأقل هذا الأصل الجليلي، ومعه وجوده، بوصفه محتملاً للغاية. ربما نقبل، أيضاً، موته على الصليب. لقد رأينا أن الأنجيل مازالت تحتوى على مقاطع تسمح لنا أن نفترض أن يسوع قد خطط لانتفاضة باستخدام القوة، وقد صلب من أجل هذه المحاولة. هذا أيضاً موقف محرج يمكن تأسيسه بصعوبة على الاختراع. إنه يتناقض بحدّة مع الروح السائدة فى المسيحية فى الوقت الذى كانت قد بدأت فيه تفكر فى ماضيها وتسجل تاريخ أصلها. ليس – لابد أن نتذكر – لأغراض تاريخية، وإنما لأغراض جدالية ودعائية.

إن موت المخلص نفسه بالصلب كان فكرة غريبة للغاية على الفكر اليهودي، التى صورت المخلص دائماً بجلالة بطل منتصر، حتى أن حادثة حقيقية فقط، استشهاد

بطل القضية الخيرة، أنتج انطبعا لايمحى على تلاميذه، وأمكن له أن يخلق التربة الصالحة لفكرة المخلص المصلوب.

حين قبل المسيحيون الوثنيون تقليد هذا الصلب، فسر عان ما اكتشفوا أنه عائق: أعلن التقليد أن الرومان قد صلبوا يسوع كمخلص يهودى، ملك اليهود، بمعنى آخر. بطل للاستقلال القومى اليهودى، خائن للحكم الرومانى، وأصبح هذا التقليد بعد سقوط أورشليم محرراً بشكل مزدوج. كانت المسيحية الآن فى معارضة مكشوفة لليهود، ورغبت فى أن تتفاهم مع السلطات الرومانية. لقد أصبح الآن مهما تشويه التقليد بطريقة تحول اللوم على صلب المسيح من أكتاف الرومان إلى (أكتاف) اليهود، وأن تطهر المسيح ليس فقط من كل مظهر لاستخدام القوة، وإنما أيضاً من كل تعبير يشى بأفكار مواليه لليهود ومعادية للرومان.

ولكن حيث أن الإنجيليين كانوا جهلة تماماً مثل الجمهور الأعظم من الطبقات الدنيا فى تلك الأيام، فقد أنتجوا أكثر خلط للألوان لفتا للنظر فى إعادة تنقيحهم للصورة الأصلية.

من المحتمل أننا لانجد فى أى مكان فى الأنجيل تناقضات أكثر وأشياء غير معقولة أكثر مما فى القسم الذى خلق تقريبا ولمدة ألفى عام أعمق الانطباع على العالم المسيحى وأثار خياله على نحو أشد قوة. ومن المحتمل أنه لم تلون مادة أخرى مرارا إلى هذا الحد مثل معاناة وموت المسيح. ومع ذلك فإن هذه الرواية لن تحتل أى بحث رصين، وهى تجمع لأكثر الأساليب الروائية لا فنية وفضافة.

لقد كانت قوة العادة فقط هي التى سببت حتى فى ان تبقى أرقى الشخص فى العالم المسيحى متبلدة فيما يتعلق بالإدراجات التى لاتصدق التى صنعها مؤلفو الأنجيل، حتى أن الشفقة الأولية التى ينطوي عليها صلب يسوع، وكذلك فى أى استشهاد من أجل قضية عظمى، كان له أثره بالرغم من كتلة التفاصيل هذه، وأضفت هالة أكثر لمعانا على العناصر المثيرة للسخرية والعبثية للقصة.

تبدأ قصة الآلام بدخول يسوع إلى أورشليم. إن هذا موكب ملك منتصر. يأتى السكان لتحيته، البعض نثروا ملابسهم أمامه على الطريق، آخرون قطعوا أغصان الأشجار، لنثرها فى طريقه، وصاحوا له بابتهاج: أوصنا Hosanna (ساعدنا!)؛ مبارك الآتى باسم الرب: مباركة مملكة أبينا داود، الآتية باسم الرب. (مرقس ٩/١١)

كان الملوك يستقبلون هكذا بين اليهود (انظر ملوك ١٣،٩ حين يتحدث عن ياهو). العامة مرتبطين بيسوع؛ الأرستقراطية والبورجوازية فقط "الكهنة والكتبة"، معادين

له. يتصرف يسوع كديكتاتور. لقد كانت لديه قوة كافية ليطرد الباعة والصيارفة من الهيكل، دون أن يواجه بأدنى مقاومة. ويبدو أن لديه سيطرة مطلقة على قلعة اليهودية هذه.

بالطبع هذه المبالغة طفيفة من جانب الإنجيليين. إذا كان يسوع قد امتلك مثل هذه القوة العظمى، فلم يكن ليخفق في أن يجذب انتباهها عظيما. إن مؤلفا مثل يوسيفوس، الذى يروى التفاصيل النافلة، كان من المؤكد أن يكون في جعبته شيء يقوله عن الموضوع. أضف إلى ذلك، فحتى العناصر البروليتارية في أورشليم، الغيورون، على سبيل المثال، لم يكونوا أبدا أقوىاء بما فيه الكفاية لحكم المدينة بلا معارضة. فقد واجهوا مقاومة مرة بعد المرة. إذا كان يسوع قد حاول أن يدخل أورشليم ويظهر الهيكل ضد معارضة الصدوقيين والفريسيين، فقد كان من الضروري له أولا أن يقاتل معركة منتصرة في الشوارع. كانت معارك الشوارع بين الفرق اليهودية المختلفة أحداثا يومية في أورشليم في ذلك الزمن.

إنه لجدير بالملاحظة، على أية حال، في حكاية دخوله، أن السكان يظهرون وهم يحيون يسوع بأنه الذى سيأتى "بملكة أبينا داود"، بمعنى آخر، باعتباره مسترد المملكة اليهودية. يظهر يسوع ليس فقط في ضوء كونه خصما للطبقة الحاكمة وسط اليهود، وإنما أيضاً كمعارض للطبقات الحاكمة من الرومان. ليست هذه العداوة بالتأكيد نتاج خيال مسيحى، وإنما هي من الواقع اليهودى.

يلى الآن فى رواية الأنجيل الأحداث التى عالجناها سلفا: الأمر بأن يحصل التلاميذ على السلاح، خيانة يهوذا، النزاع المسلح على جبل الزيتون. لقد رأينا سلفا أن هذه بقايا تقليد قديم لم يشعر أحد به لاحقا بوصفه غير ملائم وأعيد تلوينه لجعله أكثر سلمية وخنوعا في نغمته.

يؤخذ يسوع سجيناً، ويقاد إلى قصر رئيس الكهنة وهناك يحاكم:

"وكان رؤساء الكهنة والمجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا. لأن كثيرين شهدوا عليه زورا ولم تتفق شهادتهم. فقام رئيس الكهنة فى الوسط وسأل يسوع قائلاً: أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هؤلاء عليك؟ أما هو فكان ساكتا ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة ايضا، وقال له: أنت المسيح، ابن المبارك؟ فقال يسوع أنا هو: وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة، وآتيا فى سحب السماء. فمزق رئيس الكهنة ثيابه وقال ما حاجتنا بعد إلى شهود. قد سمعتم التجاديف. مارأيكم؟ فالجميع حكموا عليه أنه مستوجب الموت". (مرقس، ١٤/٥٥، ٥٦ - ٦٠ -

(٦٤

حقا شكل استثنائي من إجراءات المحاكمة! المحكمة تجتمع فوراً بعد القبض على السجين، في نفس الليلة، وليس في المحكمة، التي يحتمل أنها كانت على جبل الهيكل، وإنما في قصر رئيس الكهنة! ماذا تكون ثقتنا في تقدير محاكمة بتهمة الخيانة العظمى في ألمانيا، حين يقال بأن المحكمة منعقدة في القصر الملكي ببرلين! يظهر شهود زور الآن ضد يسوع، ولكن بالرغم من حقيقة أنه لا أحد يستجوبهم، وأن يسوع لا يحير جواباً على اتهاماتهم فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا شيئاً يجرمه. يسوع هو أول من يجرم نفسه بإعلان أنه هو المخلص. لماذا كل هذا الجهاز من شهود الزور إذا كان هذا الاعتراف كافياً لإدانة يسوع؟ غرضه أن يظهر شر اليهود فحسب. تفرض عقوبة الموت على الفور. هذا انتهاك للأشكال المقررة، التي شدد عليها اليهود في هذا الزمن. إن الحكم بالبراءة فقط هو الذي يمكن أن تنطق به المحكمة دون تأخير؛ أما الإدانة فيمكن أن تنطق في اليوم التالي على المحاكمة. ولكن هل كان للمجلس في هذا الوقت الحق في فرض عقوبة الإعدام على الإطلاق؟ يقول السنهدرين: "قبل أربعين عاماً من تدمير الهيكل كانت إسرائيل محرومة من حق النطق بأحكام البراءة والإعدام".

يؤيد هذا حقيقة أن المجلس لا ينفذ عقوبة يسوع، ولكن يسلمه، بعد أن يحاكمه، حتى يحاكم مرة أخرى من قبل بيلاطس، هذه المرة بتهمة الخيانة العظمى ضد الرومان، الاتهام بأن يسوع قد نوى أن يجعل نفسه ملك اليهود وأن يحرر اليهودية من الحكم الروماني اتهام ممتاز يوجه من محكمة من الوطنيين اليهود!

من الممكن تماماً، على أية حال، أنه كان للمجلس الحق في نطق أحكام الإعدام التي تطلبت موافقة الوالي على الإعدام.

الآن أي مجرى تتخذه المحاكمة أمام الحكم الروماني؟

"فسأله بيلاطس أنت ملك اليهود فأجاب وقال له، أنت تقول. وكان رؤساء الكهنة يشكون عليه كثيراً. فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً أما تجيب بشيء. انظر كم يشهدون عليك. فلم يجب يسوع أيضاً بشيء حتى تعجب بيلاطس. وكان يطلق لهم في كل عيد أسيراً واحد من طلبوه. وكان المسمى باراباس موثقاً مع رفقاءه في الفتنة الذين في الفتنة فعلوا قتلاً. فصرخ الجمع وابتدأوا يطلبون ان يفعل كما كان دائماً يفعل لهم. فأجابهم بيلاطس قائلاً أتريدون ان اطلق لكم ملك اليهود. لانه عرف ان رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً. فهيج رؤساء الكهنة الجمع لكي يطلق لهم بالحرى باراباس. فأجاب بيلاطس أيضاً وقال لهم فماذا تريدون أن أفعل بالذى تدعونه ملك اليهود فصرخوا أيضاً اصلبه. فقال لهم بيلاطس وأي شر عمل. فازدادوا صراخاً

اصلبه. فيبلاطس إذ كان يريد أن يعمل للجميع مايرضيهم أطلق لهم باراباس واسلم يسوع بعد ما جلده ليصلب" (مرقس ١٥/٢-١٥).

عند متى يذهب بيلاطس إلى حد أن يغسل يده في حضور العامة وأن يعلن: "إني برئ من دم هذا البار: أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا". (متى، ٢٤/٢١، ٢٥)

لا يقول لنا لوقا إن المجلس قد حكم على يسوع بالإعدام؛ والمجلس اتهم ببساطة يسوع عند بيلاطس.

"فقام كل جمهورهم، وجاءوا به إلى بيلاطس، وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلًا إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلًا أنت ملك اليهود. فأجابه وقال أنت تقول. فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع إني لا أجد علة في هذا الإنسان. فكانوا يشددون قائلين إنه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئًا من الجليل إلى هنا". (لوقا ٢٣/١-٥)

من المحتمل أن لوقا أقرب إلى الحقيقة. يسوع هنا متهم بالخيانة في حضور بيلاطس وبكبرياء شجاع لا ينكر هذا الذنب. حينما سأله بيلاطس عما إذا كان هو ملك اليهود، بمعنى آخر، قائدهم في النضال من أجل الاستقلال، يعلن يسوع "أنت تقول". إن إنجيل القديس يوحنا منتبه إلى أنه كيف سيكون رديًا الاحتفاظ بهذه البقية من الوطنية اليهودية، ومن ثم جعل يسوع يجيب: "ليست مملكتي من هذا العالم" بمعنى: أنها لو كانت من هذا العالم، لقاتل أتباعي. إن إنجيل القديس يوحنا هو الأحدث؛ لقد تطلب من ثم وقت طويل بالنسبة للكتاب المسيحيين ليقرروا هكذا أن يشوهوا الحقائق الأصلية.

إن الحالة بالنسبة لبيلاطس واضحة جدا. كممثل للسلطة الرومانية، فقد كان يقوم بواجبه فحسب بإعدام المتمرّد يسوع.

ولكن الجمهور الأعظم من اليهود لم يكن لديه أدنى سبب حتى يسخط على رجل لم يرغب في أن تكون له صلة بالحكم الروماني، ودعاهم لرفض دفع الضرائب للإمبراطور. إذا كان يسوع قد فعل هذا بالفعل، فقد كان يتصرف باتفاق تام مع روح الغيورين المهيمنة آنئذ بين سكان أورشليم.

يترتب من ثم على طبيعة الحالة، إذا افترضنا أن الاتهام الوارد في الإنجيل صحيح، أن اليهود تعاطفوا مع يسوع، بينما كان بيلاطس مضطرا لإدانته. ولكن ماهو السجل في الأناجيل؟ لايجد بيلاطس أقل ذنب في جانب يسوع بالرغم من أن الأخير يعترف

بمثل هذا الذنب هو نفسه. يعلن الوالى مرة بعد أخرى براءة المتهم، ويسأل أى شر فعله هذا الرجل.

هذا وحده سوف يبدو غريباً. ولكن لا يزال الأكثر غرابة حقيقة أنه بالرغم من أن بيلاطس لا يعترف بذنب يسوع، فهو مع ذلك لا يبرئه.

الآن، يحدث أحيانا أن يجد الوالى حالة سياسية معقدة جدا يستعصي عليه أن يحكم فيها بنفسه. ولكن لم نسمع بأن واحدا من موظفي الإمبراطور كان عليه أن يجد حلا للصعوبة بسؤال جموع شعب عن ماذا ينبغي عمله مع المتهم. إذا لم يفضل أن يحكم بالإدانة فى حالات الخيانة العظمى، فقد كان عليه أن يرسل المتهم إلى روما، إلى الإمبراطور. الوالى أنتونيوس فيلكس (٥٢-٦٠ م)، على سبيل المثال، تصرف هكذا. لقد أغوى قائد غيورى أورشليم، رئيس العصبة إلعازر، الذى أغار على الأرض لعشرين عاما، أن يأتى إليه، بوعدة بالأمان، ثم أخذه سجيناً وأرسله إلى روما، أضاف إلى ذلك صلب عديدا من أتباعه.

ربما أرسل بيلاطس يسوع إلى روما بنفس الطريقة. ولكن إنجيل متى يعزو أشد الأدوار سخرية إلى بيلاطس: قاضى رومانى، ممثل الإمبراطور طيباريوس، سيد الحياة والموت، يتوسل إلى تجمع شعبى فى أورشليم أن يسمح له بتبرئة سجين، وحين "يقرر بشكل سلبى، يجيب: "حسنا، اذبحوه، أنا برئ من دمه" ولكن لا يمكن لأى خاصية أن تتناقض بعنف أكثر مع (خاصية) بيلاطس التاريخى من الرحمة التى توحى بها فى الأنجيل. أجرييا الأول، فى رسالة إلى فيلون، يدعو بيلاطس "شخصية عنيدة وقاسية بلا رحمة" ويتهمة ب" الفساد، والرشوة، والسرقة، والتعامل بقسوة، الإهانات، إعدامات مستمرة دون حكم، قساوات لانهائية ولا تحتل".

إن فظاظته وقسوته أثمرت مثل هذه الظروف الفظيعة التى أدت لاشمئزاز الحكومة المركزية فى روما فاستدعته (٣٦ م).

ويطلب منا أن نعتقد أن هذا الرجل كان عادلا على نحو استثنائى وشغوبا فى حالة المحرض البروليتارى يسوع، أضاف إلى ذلك أظهر درجة من الاعتبار لرغبات الشعب التى كان لها نتاج أثر على المتهم.

لقد كان الإنجيليون غاية فى الجهل حتى يلاحظوا هذه الصعوبات. ولكن لابد أنهم كانوا قد شعروا بأنهم ينسبون دوراً غريباً للحاكم الرومانى. لقد بحثوا من ثم عن قضية تجعل هذا الدور أكثر جدارة بالتصديق: لقد رووا أن بيلاطس كان معتادا على إطلاق سجين فى عيد الفصح بناء على طلب اليهود، وأنه حين عرض أن يطلق سراح يسوع أجابوا: "ليس هذا بل باراباس!".

فى المحل الأول، من الغريب أنه لاتذكر عادة كهذه فى أى مكان عدا فى الأناجيل؛ مثل هذه العادة سوف تتناقض مع الممارسة الرومانية، التى لم تعط الولاة حق العفو. وتتناقض مع أى ممارسة قانونية منتظمة أن يمنح حق العفو لجمهور عرضى وليس لهيئة مسئولة. يمكن للاهوتيون فقط أن يقبلوا مثل هذه الأوضاع القانونية بقيمتها الظاهرية. ولكن حتى إذا تغاضينا عن ذلك، وحتى إذا قبلنا حق العفو المنسوب إلى الجمهور اليهودى على هذا النحو شديد الغرابة الذى تصادف أنه كان يتداول أمام بيت الوالى، فيجب مع ذلك أن نسأل ماهى العلاقة بين هذه الممارسة والقضية الراهنة؟

لم يحكم على يسوع حتى قانونا. بنطس البيلاطى مواجه بالسؤال: هل يسوع مذنب بتهمة الخيانة العظمى أم لا؟ هل أحكم عليه أم لا؟ وهو يجيب بالسؤال: هل ستستخدم حقك فى العفو فى صالحه أم لا؟ بيلاطس بدلا من أن ينطق بالحكم، يدعو للعفو ! اذا كان يعتبر يسوع بريئا، أليس له الحق فى تبرئته؟

يتوالى الآن عبث جديد. يفترض أن لليهود حق العفو؛ كيف يمارسون هذا الحق؟ هل يطلب إطلاق باراباس؟ لا، إنهم يطلبون أيضاً أن يصلب يسوع! يبدو أن الإنجيليين يستنتجون أن حق العفو عن واحد يتضمن حق إدانة الآخر.

توازى هذه الممارسة القضائية المجنونة ممارسة سياسية ليست أقل جنونا.

يصور الإنجيليون لنا جمهورا يكره يسوع إلى حد أنه يعفو بالأحرى عن قاتل وليس عنه؛ سوف يتفضل القارئ بتذكر، قاتل – لم يكن متاحا للرحمة موضوع أكثر جدارة – ولا يرضى حتى يقاد يسوع إلى الصلب.

تذكر أن هذا هو نفس الجمهور الذى حياه بالأمس فقط كملك بصيحات (أوصنا)، ونشر الأردية تحت قدميه وحياة بابتهاج، بدون أن يظهر صوت مناوى. وقد كان هذا التفانى من جانب الجمهور فقط الذى مَثَل – طبقا للأناجيل – سبب رغبة الأرستقراطيين فى القضاء على حياة يسوع، منعهم أيضاً من محاولة القبض عليه فى ضوء النهار وجعلهم يختارون الليل بدلا من ذلك. الآن يبدو أن نفس هذا الجمهور مجمع تماما فى كراهته الوحشية المتعصبة ضده، ضد الرجل الذى اتهم بجريمة سوف تجعله جديرا بأشد احترام فى عينى أى وطنى يهودى: محاولة تحرير الجماعة اليهودية من الحكم الأجنبى.

هل حدث أى شيء يبرر هذا التحول العقلى المثير للدهشة؟ سوف تكون هناك حاجة إلى أشد الدوافع قوة لتفسير مثل هذا التغير. الإنجيليون يتمتمون ببضع جمل غير متماسكة ومثيرة للسخرية، اذا كانت شيئا على الإطلاق. لايعزو لوقا ويوحنا أى

دوافع؛ يقول مرقس: “فهيج رؤساء الكهنة الجمع ضد يسوع”؛ متى ! “حرضوا الجموع”. هذه المجازات تظهر فحسب أن الكتاب المسيحيين قد فقدوا حتى البقية الأخيرة من حسهم السياسى ومعرفتهم السياسية.

لا يمكن حتى لأكثر الجموع فقداناً للعقل أن تقتنع بكراهة متعصبة دون دافع ما. قد يكون هذا الدافع غيباً أو زائفاً، ولكن يجب أن يكون هناك دافع. يتجاوز الجمع اليهودى فى الأنجيل أكثر شريرى المسرح سوء سمعة وبلاهة فى خسته الغيبة. لأنه بدون أدنى سبب، بدون أدنى قضية، يصخب مهذراً دم من وقّره بالأمس.

يصبح الأمر أكثر غباوة حين نعتبر الظروف السياسية للزمن. كان للجماعة اليهودية بصفة خاصة حياة سياسية نشطة متميزة فى ذلك عن كل الأقسام الأخرى من الإمبراطورية الرومانية تقريباً؛ مظهرة التطرفات القصوى لكل أنواع المعارضات الاجتماعية والسياسية. كانت الأحزاب السياسية منظمة جيداً، وكان هناك حتماً جمهور ما وراء السيطرة. تشربت الطبقات الدنيا فى أورشليم تماماً بنزعة الغيورين، وكانت فى صدام دائم حاد مع الصدوقيين والفريسيين، ومملوءة بأشدّ الأحقاد وحشية ضد الرومان. وكان أفضل حلفائهم الجليليين المتمردين.

“حتى اذا نجح الصدوقيين والفريسيين فى “تهيج” بعض الناس ضد يسوع، فلم يكن من المحتمل أن يتمخضوا عن تظاهرة شعبية متفق عليها، ولكن على أكثر تقدير حرب شوارع دموية. ليس هناك شيء أكثر إثارة للسخرية من فكرة أن الغيورين سوف يندفعون بصرخات وحشية ليس ضد الرومان والأرستقراطيين، وإنما ضد المتهم المتمرد الذى انتزعوا إعدامه من الحاكم الرومانى ضعيف الشخصية، بالرغم من افتتان الحاكم الغريب بالخائن.

لم يخترع أحد أبداً أى شيء أكثر طفولية بفظاظة. ولكن مع هذا الجهد لتصوير الطاغية الدموى بيلاطس كحمل برئ، وجعل الفساد الأهلى لليهود مسئؤلاً عن صلب المخلص المسالم الذى لا ضرر منه، استنفدت عبقرية الإنجيليين تماماً. إن نهير اختراعهم “يجف قليلاً وتتردد القصة الأصلية مرة أخرى بخفوت، على الأقل للحظة: “بعد أن أدين، سخرؤا من يسوع وأسيئت معاملته – ولكن ليس من اليهود – إنما من جنود بيلاطس ذاته الذى أعلن توا أنه برئ، بيلاطس الآن يجعل جنوده لا يصلبون يسوع فقط ولكن يجلدونه أولاً ويسخرون منه باعتباره ملك اليهود، ثم يضعون تاجاً من الشوك على رأسه، ويلفونه برداء أرجوانى، ويركع الجنود أمامه، وعندئذ مرة أخرى يضربونه على رأسه ويبصقون عليه. وأخيراً يضعون على صليبه الكتابة “يسوع ملك اليهود”.

ينتج هذا مرة أخرى "الطبيعة الأصلية لـ" حل العقدة". يبدو الرومان مرة أخرى باعتبارهم أعداء يسوع اللدودين، وسبب سخريتهم وكذلك كراهيتهم هو الخيانة العظمى، ودعواه بأنه ملك اليهود، وجهده في زعزعة النير الرومانى.

لسوء الحظ، فإن الحقيقة البسيطة لاتستمر فى الصمود لفترة طويلة.

يموت يسوع، ومن الضرورى الآن تقديم دليل، فى شكل عدد من المؤثرات المسيحية العنيفة، بأن إلها قد مات:

"فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح. وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين". (متى ٢٧/٥٠-٥٣)

لا يروى الإنجيليون ماذا أنجز "القديسون" الذين بعثوا فى وبعد خروجهم الجماعى إلى أورشليم، ما إذا كانوا قد بقوا أحياء أو رقدوا فى حينه مرة أخرى فى قبورهم. فى أى حالة، سوف يتوقع المرء أن حدثا استثنائيا كهذا سيخلق انطبعا عميقا على كل الشهود ويقنع الجميع بالوهية يسوع. ولكن يبقى اليهود عنيدين، مرة أخرى الرومان فقط هم الذين يقرون بالإلوهية.

"وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وماكان خافوا جدا وقالوا هذا حقا ابن الرب". (متى ٢٧/٥٤)

ولكن رؤساء الكهنة الفريسيين من ناحية أخرى مازالوا يعلنون بأن يسوع مضل (٢٧/٦٣)، وحين قام من بين الأموات فإن الأثر الوحيد الذى تمخض عنه ذلك هو أن يغتني الشهود الرومان بواسطة الرشوة التى ذكرناها سابقا، بالدفع لإعلانهم بأن المعجزة مزيفة.

وهكذا، فى نهاية قصة الآلام، تحول الرشوة اليهودية الجنود الرومان الشرفاء إلى أدوات للغدر اليهودى والنذالة، الذى أظهر حقدا شيطانيا فى قتال الرحمة الإلهية الرفيعة.

فى هذه الحكاية بمجملها الميل للخنوع إزاء الرومان والحق ضد اليهود موضوع بغاية الغلاظة وجرى التعبير عنه فى مثل هذا التراكم من الهولوات التى قد يظن المرء أنه لم يكن ممكنا أن يكون لها أدنى تأثير على الأشخاص الأذكياء، ومع ذلك فنحن نعلم أن هذه الحيلة قد فعلت فعلها. زينت هذه الحكاية، بهالة الألوهية، تعظمت باستشهاد المعلن الفخور لمهمة عليا، وكانت لعدة قرون واحدا من أفضل الوسائل

لإثارة الحقد والاحتقار لليهود، حتى فى أكثر العقول الخيرة فى العالم المسيحى؛ لأن اليهودية لم تكن شيئاً بالنسبة لهم، وقد بقوا بعيدين عنها. ولقد وصموا اليهود باعتبارهم حثالة الإنسانية، كعرق موهوب بالطبيعة بأكثر (أنواع) الخبث شراً وعناداً، الذى يجب أن يبقى بعيداً عن كل مجتمع إنسانى، وأن يقبض عليه بيد من حديد.

ولكن كان سيكون من المستحيل أبداً تأمين قبول عام لهذا الموقف نحو اليهود، اذا لم يكن قد نشأ فى وقت الكراهية الشاملة واضطهاد اليهود.

اذ نشأ هذا الموقف فى وقت كان اليهود فيه خارجين على القانون، فقد تفاقم هذا الوضع بشدة، أطال استمراره، ووسع مجاله.

مانعرف باعتبارها قصة آلام ربنا يسوع المسيح هى فى الواقع حادثة واحدة فقط فى تاريخ معاناة الشعب اليهودى.

الفصل الخامس: تطوير تنظيم المجمع

أ- بروليتاريون وعبيد

لقد رأينا أن مقومات عديدة للمسيحية، التوحيد، النزعة الخلاصية، الاعتقاد في البعث، الشيوعية الإسينية، ظهرت وسط اليهود، وأن قسما من الطبقات الدنيا لهذا الشعب وجد أكثر التعابير إشباعا لرغباته وطموحاته في تركيب من هذه العناصر. لقد رأينا أيضاً أن كامل العضوية الاجتماعية للإمبراطورية الرومانية قد اخترقها أوضاع جعلتها – خاصة أقسامها البروليتارية – عرضة للتأثر أكثر فأكثر بهذه الاتجاهات الجديدة ذات الأصل اليهودي، ولكن هذه الاتجاهات، حين خضعت لتأثير محيط غير يهودي، لم تكن قد انفصلت عن اليهودية فقط، وإنما اتخذت حتى موقفا عدائيا تجاه الأخيرة. أصبحت هذه الاتجاهات منصهرة الآن مع حركات موت العالم الإغريقي الروماني، الذي حول الروح القومية النشطة التي سادت بين اليهود حتى تدمير أورشليم إلى عكسها تماماً، محلاً الحركة اليهودية إلى استسلام عاجز، خنوع ذليل، وتوق الموت.

مع التغير في مجال الفكر، تغير تنظيم المجمع بعمق أيضاً في آن معا.

أهمته في البداية شيوعية نشطة وإنما غامضة، إدانة لكل ملكية خاصة، رغبة في نظام اجتماعي جديد وأفضل حيث يقضى على كل التمايزات الطبقيّة بتقسيم الملكية.

من المحتمل أن المجمع المسيحي كان في البداية تنظيماً مقاتلاً بصفة رئيسة، إذا كنا مصيبين في افتراضنا بأن الإشارات إلى العنف في الأناجيل التي يتعذر تفسيرها بخلاف ذلك هي بقايا تقليد أصلي. هذا الملمح سوف يتفق تماماً أيضاً مع المركز التاريخي للأمة اليهودية في هذا الوقت.

إنه من غير المتصور أن نفترض أن طائفة بروليتارية – فوق كل شيء – قد بقيت بعيدة عن التيار الثوري العام.

كيفما كان الأمر، فإن التنظيمات المسيحية الأولى بين اليهود كانت مشبعة بالرغبة في الثورة، توق لمجيء المخلص، لجيشان اجتماعي. الانتباه للحظة الحاضرة، أي العمل التفصيلي العملي بكلمات أخرى، يحتمل أنه أهمل.

ولكن تغير هذا الوضع بعد تدمير أورشليم. هزمت العناصر التي أعطت المجمع الخلاص طابعه المتمرد. وأصبح مجمع المخلص أكثر فأكثر مجمعا معاديا لليهود، داخل البروليتاريا غير اليهودية، التي لم يكن لديها لا القدرة ولا الرغبة في الصراع. ولكن كلما شاخ المجمع، أصبح واضحاً أكثر فأكثر أنه لم يعد بمستطاعه أن يعتمد على تحقيق النبوءة التي مازالت تحتويها الأناجيل، انتهاء إلى أن معاصري يسوع سوف يعيشون حتى يروا التغير العظيم. اختفى تدريجياً الإيمان بمجيء "مملكة الله"

على الأرض. مملكة الله، التي كان عليها أن تهبط من السماء، كانت قد تحولت أكثر فأكثر إلى السماء؛ قيامة البدن (اللحم) تحولت الآن إلى خلود الروح، التي قدر لها وحدها أن تجرب كل مباهج السماء أو غصص الجحيم.

كلما اتخذت التوقعات الخلاصية للمستقبل هذا الشكل غير الأرضي أكثر فأكثر، صائرة محافظة سياسيا أو غير مبالية، أصبح الاهتمام العملي باليوم الحاضر بالضرورة أكثر فأكثر بروزا.

ولكن مع تناقص الحماس الثوري، عانت الشيوعية العملية ذاتها تغيرات عديدة.

لقد نجمت بصفة أصلية عن رغبة حيوية وإن غامضة لإزالة الملكية الخاصة، رغبة في علاج فقر الرفاق بجعل كل الممتلكات مشتركة.

ولكننا قد أشرنا سلفا أنه بالتعارض مع الإسينيين، كانت المجامع المسيحية أصلا مدنيّة فحسب، بل مجامع متروبوليتانية بصفة أساسية، وأن هذا قد شكل عقبة في وجه التطور التام والدائم لشيوعيتها.

كانت الشيوعية بين الإسينيين، وكذلك وسط المسيحيين، أصلا شيوعية استهلاك، ملكية للسلع. ولكن مازال الاستهلاك والإنتاج يرتبطان اليوم بوثوق في المقاطعات الريفية، وقد كان الحال آنذاك أكثر بما لا يقاس. عني الإنتاج، الإنتاج من أجل الاستهلاك الخاص، وليس من أجل البيع؛ الزراعة، تربية الماشية، الاقتصاد المنزلي، كلها كانت مرتبطة بوثوق. كان الإنتاج الكبير في الزراعة ملائما تماما في هذا الزمن وبالفعل أرفع قياسا بالإنتاج الصغير، بقدر ماسمح بتقسيم للعمل أكثر كمالا وتوظيف أتم للأدوات والهيكل المختلفة. بالطبع، لقد كان هذا أكثر من جيد بالقياس لمساوئ العمل العبودي. ولكن بينما كان الاشتغال بواسطة العبيد آنئذ الشكل الأكثر شيوعا لأبعد حد للزراعة الكبيرة، لم يكن الشكل الممكن الوحيد. نحن نجد بالفعل مؤسسات كبرى قد شغلته عائلات فلاحية عديدة، في بدء التطور الزراعي. من المحتمل أن الإسينيين قد أسسوا مشاريع عائلية تعاونية زراعية على نطاق كبير حيثما ألف الإسينيون مستوطنات كبيرة شبه رهبانية في الصحراء، تشبه المستوطنات التي ظهرت جانب البحر الميت التي روى عنها بليني (التاريخ الطبيعي، الكتاب الخامس)، "حيث عاشوا في مجتمع النخيل".

ولكن شكل الإنتاج في التحليل الأخير هو دائما العامل الحاسم في كل بنية اجتماعية. فقط هذه المجتمعات التي تقوم على نمط الإنتاج قد تكون لها القوة والاحتمال.

بينما كانت الزراعة الاجتماعية أو التعاونية ممكنة في الوقت الذي نشأت فيه المسيحية، لم يكن أي من المتطلبات المسبقة الضرورية من أجل الصناعة الحضرية التعاونية، قائما، على أية حال. كان العمال في الصناعات الحضرية إما عبيد أو عمال منزليين أحرارا. كانت المؤسسات الكبرى ذات العمال الأحرار، التي تشبه

العائلة الفلاحية الكبيرة، بالكاد معروفة. العبيد، العمال المنزليين، حاملي الأثقال، أيضاً الباعة الجائلين، البدالين الصغار، البروليتارية الرثة، كانت هذه هي الطبقات الدنيا من السكان الحضريين في هذه الأزمنة التي أمكن أن تظهر بينها الاتجاهات الشيوعية. ولكن هذه الطبقات لم تقدم عنصراً يمكن أن يوسع الملكية المشتركة للسلع إلى خاصية عامة للإنتاج. بقي العنصر العام جماعية استهلاك فقط. وهذه الجماعية بدورها لم تكن بصفة أساسية شيئاً أكثر من تناول الوجبات المشتركة. اللباس، ومواطن السكنى في مهد المسيحية، أيضاً في وسط إيطاليا وجنوبها، لم تكن ذات أهمية كبيرة. حتى شيوعية متطرفة كشوعية الإسينيين لم توغل في تأسيس جماعية ملابس. يبدو أن الملكية الخاصة في مسألة اللباس، بدت حتمية وكانت جماعية السكنى هي الأكثر صعوبة في التحقق بمدينة كبرى مادامت ورش الرفاق العديدين كانت منتشرة في كل الاتجاهات، ومادامت المضاربة في الملكية العقارية في العصر المسيحي الباكر جعلت أسعار المنازل في المدن الكبرى غاية في الارتفاع. وضع غياب تسهيلات المواصلات سكان المدن الكبرى في مساحة صغيرة وجعل ملاك هذه المساحة السادة المطلقين لسكانها الذين سلبوا بفضاعة. بنيت المنازل مرتفعة في الهواء بقدر ما سمح فن البناء آنذاك؛ وبلغت في روما سبع طوابق أو أكثر في الارتفاع، وبلغت الإيجارات أرقاما خرافية. كان استغلال الملكية العقارية من ثم شكلاً مفضلاً من الاستثمار لدى رأسماليي هذا الزمن. في عهد الثلاثي الذي اشترى الجمهورية الرومانية، حاز كراسوس بصفة خاصة ثروته بمثل هذه المضاربة.

لم يستطع بروليتاريي المدينة الكبرى أن يتنافسوا في هذا المضمار؛ هذا وحده جعل من المستحيل عليهم أن ينعموا بسكنى جماعية. أضف إلى ذلك، بالنظر إلى الطابع الشاك للأباطرة، لم يستطع المجمع المسيحي أن يوجد إلا كجمعية سرية. كانت السكنى الجماعية ستجعل اكتشافه أمراً سهلاً.

لم تستطع الشيوعية المسيحية من ثم أن يكون لها أى شكل عام دائم بالنسبة لأكثر أعضائها سوى ما جرى التعبير عنه في الوجبات المشتركة.

تصف الأناجيل أيضاً "مملكة الله"، دولة المستقبل، تقريباً على وجه الحصر باعتبارها وجبة مشتركة؛ مامن بهجة أخرى متوقعة؛ كان هذا النعيم بوضوح أول ما داعب مخيلة المسيحيين الأوائل.

رغم ما كان لهذا الشكل من الشيوعية العملية من أهمية للبروليتاريين الأحرار، فقد عنى قليلاً للغاية بالنسبة للعبيد، الذين كانوا عادة جزءاً من عائلة سيدهم وكانوا يطعمون على مائدته، بتكاليف رخيصة للغاية، مما لاشك فيه. بضعة عبيد فقط هم الذين عاشوا خارج بيت سيدهم، على سبيل المثال، هؤلاء الذين أداروا محلاً في المدينة لبيع منتجات ضيعة سيدهم الريفية.

كان الأمل فى المخلص الآتى بالنسبة للعبيد، أفق مملكة النعيم العام، بالضرورة أكثر جاذبية، بكثير من الشيوعية العملية، التى أمكن أن تتحقق فقط فى أشكال ضئيلة المغزى بالنسبة لهم ماداموا عبيدا.

نحن لانعرف موقف المسيحيين الأوائل بالنسبة للعبودية. لقد أدانها الإسيانيون كما رأينا. يروى فيلون:

“لايوجد عبيد بينهم، وإنما جميعهم أحرار، يعمل كل منهم بشكل متبادل من أجل الآخر. وهم يعتبرون اقتناء العبيد ليس فقط غير عادل وانتهاك للتقوى، وإنما أيضاً غير إلهى، انتهاك للقانون الطبيعى، الذى خلق الجميع “متساوين كأخوة”.

من المحتمل أن بروليتارىى مجمع المخلص فى أورشليم كانوا بنفس العقلية.

ولكن اختفت آفاق الثورة الاجتماعية مع تدمير أورشليم. إن المتحدثين باسم المجمع المسيحى، الذين كانوا معنيين بجزع ألا يثيروا أية شكوك بالعداء تجاه القوى السائدة، حاولوا بالضرورة أيضاً أن يهدئوا العبيد المتمردين الذين عدوهم فى صفوفهم.

هكذا على سبيل المثال، فإن مؤلف رسالة بولس إلى الكولوسيين – وهى فى الشكل الباقى حالياً “تحرير” أو اصطناع يعود تاريخه إلى القرن الثانى – يناشد العبيد على النحو التالى:

“أيها العبيد، أطيعوا فى كل شيء سادتكم حسب الجسد، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب” (٢٢/٣).

إن مؤلف رسالة بطرس الأولى – ومن المحتمل أنها ألُفت فى زمن تراجان يستخدم حتى عبارات أوضح:

“أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة، ليس للصالحين المترفعين فقط، بل للعنفاء أيضاً. لأن هذا أفضل، إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يتحمل أحزاناً متألماً بالظلم. لأنه أى مجد هو، إن كنتم تلطمون مخطئين، فتبصرون بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير، “فتصبرون فهذا فضل عند الله “. (بطرس الأولى ١٨/٢-٢٠)

وجدت الانتهازية المسيحية الأولية للقرن الثانى حتى من الملائم للسادة المسيحيين أن يستبقوا عبيدا كانوا إخوتهم فى المجمع، كما تبرهن على ذلك رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس:

“جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا ساداتهم مستحقين كل إكرام، لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه. والذين لهم سادة مؤمنون، لا يستهينوا بهم، لأنهم أخوة، بل

ليخدموهم أكثر لأن الذين يتشاركون في الفائدة (-á;-γ;-α;-η;-η;-τ;-ο;-í) (-؛ هم مؤمنون ومحبوبون". (٢-١/٦)

لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر خطأ من القول إن المسيحية ألغت العبودية، على العكس، لقد أمدت العبودية برفاد جديد. كان العبد في العصور القديمة، يبقى في مكانه بواسطة الخوف. لقد قدر للمسيحية أن ترفع طاعة العبد العمياء إلى واجب أخلاقي، يقام بها بابتهاج.

المسيحية، على الأقل بعد أن كفت عن أن تكون ثورية، لم تعد تقدم للعبد أملا في الحرية، وشيوعيتها العملية نادرا ماتضمنت مميزات للعبد. العنصر الوحيد الذي كان لا يزال يجذب الأخير هو "المساواة أمام الله"، بمعنى آخر، داخل المجمع حيث لكل رفيق حقوقا متساوية، حيث يمكن للعبد أن يجلس بجوار سيده في الوجبة المشتركة، إذا كان الأخير أيضاً عضواً في المجمع.

أصبح كاليستوس العبد المسيحي لمسيحي معتق، حتى أسقف روما (٢١٧-٢٢٢ ب.م).

ولكن حتى هذا الشكل من المساواة لم يعد ذو مغزى كبير. لابد وأن يتذكر القارئ كيف كان وضع البروليتاريا الحرة قريبا من (وضع) العبيد، التي خرج من عدادها كثير منهم، ومن ناحية أخرى حاز عبيد العائلة الإمبراطورية مناصب رفيعة في الدولة وكان ينافقهم أحيانا حتى الأرستقراطيين.

إذا لم تكن المسيحية، بالرغم من كل شيوعيتها وكل إحساسها البروليتاري غير قادرة على إلغاء العبودية في صفوفها الخاصة، فلأنه كان للعبودية جذور قوية في العصور القديمة "الوثنية"، بالرغم من أن الأخيرة في مجملها كانت معارضة لها، وبالرغم من أن الأخلاق كقاعدة مرتبطة بوثوق بنمط الإنتاج. الحب الشامل للجار، الأخوة، مساواة الجميع أمام الله، كما أعلنت في مجمع المخلص لم تكن أكثر تعارضا مع العبودية مما كانت حقوق الإنسان كما أعلنت في إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية. كانت المسيحية في البداية بصفة رئيسية دين البروليتاريا الحرة، ولكن بالرغم من كل التقارب بين الأخيرة والعبيد في العصور القديمة بقي هناك اختلاف في المصالح بين الطبقتين.

لقد ألف البروليتاريون الأحرار أغلبية في المجمع المسيحي منذ البداية، مانعين مصالح العبيد من أن تجد تعبيراً كاملاً في المجمع. هذا بدوره جعل بالضرورة المجمع أقل جاذبية للعبيد مما للبروليتاريين الأحرار، مقويا هكذا أغلبية الأخيرة.

كان التطور الاقتصادي يعمل في نفس الاتجاه وتحديدا في الوقت الذي تلقت فيه الاتجاهات الثورية في المجمع المسيحي ضربة موتها، أي، في وقت سقوط أورشليم، يبدأ عصر جديد للإمبراطورية الرومانية، عصر سلام شامل، ولكن أيضاً

بقدر عظيم سلام عالمي، منذ أن فقدت الإمبراطورية الرومانية قوتها في التوسع. ولكن الحرب، الحرب الأهلية وكذلك الحرب الإمبريالية، قد كانت وسائل الحصول على عبيد رخيصين؛ توقف هذا الوضع الآن. أصبح العبد نادرا ومكلفا، لم يعد تشغيل العبد مثمرا، استبدل في الزراعة بالمستوطن coloni، وفي الصناعة الحضرية بعمل العمال الأحرار، كف العبد أكثر فأكثر عن أن يكون منتجا لمنتجات ضرورية وأصبح منتجا لمواد الترف. أصبحت الخدمات الشخصية للعظماء والأقوياء الآن الوظيفة الأساسية للعبودية. أصبحت روح العبد الآن مرادفة أكثر فأكثر لروح الخانع. ولت أيام سبارتاكوس.

احتدم بالضرورة التعارض بين العبد والبروليتاريين الأحرار بالتناقص في عمل العبيد مترافقا في نفس الوقت مع زيادة في عدد البروليتاريين الأحرار في المدن الكبرى. سبب كلا هذين الاتجاهين للعنصر العبيدي في المجمع المسيحي أن يزاح إلى الخلفية. لا يثير الدهشة أن المسيحية فقدت أخيرا كل اهتمام بالعبيد.

من السهل فهم هذا التطور إذا نظرنا للمسيحية باعتبارها الإطاحة بمصالح طبقية معينة؛ ولكنه لا يمكن أن يفهم إذا اعتبرنا المسيحية كبنية أيديولوجية فحسب. لأن التطور المنطقي لأفكارها الأساسية كان سيؤدي لإلغاء العبودية؛ ولكن المنطق لم يشتغل أبدا في التاريخ العالمي حين أملت المصالح الطبقية خلاف ذلك.

ب - تدهور الشيوعية

الاعتراف بالعبودية، وكذلك الاتجاه المتزايد لقصر جماعية الطيبات على الوجبات المشتركة، لم تكن العقبتان الوحيدتان اللتان واجههما المجمع المسيحي في جهده لتنفيذ طموحاته الشيوعية.

تطلبت هذه الطموحات ان يبيع كل عضو في المجمع كل ممتلكاته ويضع العائدات تحت تصرف المجمع لتوزيعها على أعضاءه.

من الواضح في البداية أن هذه الممارسة لم يكن ممكنا أن تنفذ على نطاق واسع. كان متطلبها المسبق الضروري هو أن يبقى على الأقل نصف المجتمع غير مؤمن وإلا لم يكن لوجود أحد ليشتري ممتلكات المؤمنين. ولم يكن أحد يبيع للمؤمنين المواد الغذائية التي احتاجوها، مقابل عائدات بيعهم.

إذا قصد المؤمنون أن يعيشوا ليس على الإنتاج وإنما على التقسيم، فقد كان عدد كاف من غير المؤمنين ضروريا، الذين سوف ينتجون للمؤمنين. ولكن حتى في الحالة الأخيرة، فقد حكم على النظام بالإخفاق بمجرد أن باع كل المؤمنين أملاكهم، قسموها واستهلكوها. بالطبع سوف يهبط المخلص من السحب قبل ذاك ويعالج كل شرور "الجسد".

ولكن هذا الاختبار لم يتح له الوقت أبدا حتى يتحقق.

ان عدد الأعضاء الذين كان لديهم أى شيء يستحق البيع والتقسيم كان ضئيلا للغاية فى المراحل الأولى للمجمع. لقد كان يمكن لهم أن يحصلوا على دخل ثابت فقط بجعل كل عضو يسلم كسبه اليومى للمجمع. إذا لم يكن الأعضاء مجرد متسولين أو حاملين، فقد احتاجوا لملكية ما إذا كانوا سيكسبون أى شيء، مثلاً الملكية فى وسائل الإنتاج بالنسبة للنساجين، صانعى الفخار أو الحدادين، أو فى مخزون السلع، فى حالة البدالين أو الباعة الجائلين.

لم يستطع المجمع فى ظل الشروط المعنية، أن يهيئ ورشا خاصة للإنتاج من أجل احتياجاته الخاصة؛ كما فعل الإسنيين، ولم يتمكن من أن ينعزل عن نطاق الإنتاج السلعى والإنتاج الفردى؛ من ثم، بالرغم من كل مطامحه الشيوعية، كان عليه أن يقبل الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج ومخزون السلع.

ولكن بعد قبول الإنتاج الفردى، القبول بالاقتصاد المنزلى الفردى، المرتبط بمثل هذا الإنتاج، كان يجب أن يعقبه، وأيضا ما يخص العائلة الفردية، الزواج الأحادى بالرغم من كل وجباتهم المشتركة.

مرة أخرى تبين أن العائد العملى للاتجاهات الشيوعية هو الوجبات المشتركة ولكنها لم تكن نتيجتها الوحيدة. لقد نجح البروليتاريون فى الاتحاد من أجل تقليل بؤسهم بواسطة جهودهم المشتركة. فحين واجهوا عقبات فى تنفيذ شيوعية كاملة فقد وجدوا أنفسهم مضطرين لتوسيع عملهم الخيرى أكثر بما لا يقاس، الذى سوف يعطى مساعدة للفرد فى حالات العوز الاستثنائى.

كانت المجامع المسيحية مرتبطة بوثوق بعضها بالآخر. كان العضو الذى يصل من مدينة أخرى يعطى عملا من المجمع إذا رغب فى أن يبقى، أما إذا رغب فى أن يرحل قدما، فقد كان يعطى نفقة ضئيلة.

إذا أصبح عضو مريضا، يتولاه المجمع. إذا مات، فإنه يدفنه على نفقته ويعنى بأرملته وأطفاله، إذا كان مسجوناً، وهو ما حدث غالباً، فالمجمع مرة أخرى الذى يقدم له المواساة والمساعدة.

خلق التنظيم المسيحى البروليتارى هكذا دائرة للواجبات مكافئة تقريبا لنظام التأمينات فى أمة حديثة. فى الأناجيل، فإن مراعاة هذا النظام للتأمين المتبادل يخول المرء الحياة الأبدية. حين يأتى المخلص، فإنه سوف يقسم البشر إلى هؤلاء الذين سوف يشاركون فى جلاله مملكة المستقبل والحياة الأبدية وهؤلاء الذين قدر لهم اللعنة الأبدية. للأوائل، الخراف، سوف يقول الملك:

“تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم: لأنى جعت فأطعمتمونى: عطشت فسقيتمونى: كنت غريباً، فأويتمونى: عرياناً، فكسوتمونى: مريضاً فزرتمونى: محبوساً فأتيتم إلى فيجيب الأبرار حينئذ قائلين بأنهم لم يفعلوا شيئاً كهذا للرب. فيجيب الملك ويقول: الحق أقول لكم بما إنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم“. (متى ٢٥/٣٤-٤٠)

كانت وجباتهم المشتركة وإحسانهم المتبادل فى أى حال آمن رابطة داخل المجمع المسيحى، رابطة تلحم دوما الجماهير معا.

ولكن كانت هذه الممارسة للإحسان تحديدا تطور قوة قُدرَ لها أن تُضعف وتُمزق إربا الطموحات الشيعوية الأصلية.

حيث تضاعف توقع مجيء المخلص فى كل مجده، وحيث أصبح المجمع مقتنعا أكثر فأكثر أنه كان من الضرورى حيازة ملكية لتنفيذ برنامجه فى المساعدة، انتَهك الطابع الطبقي البروليتارى للدعاية المسيحية. ووجه جهد أكثر فأكثر لتجنيد الأعضاء الأثرياء الذين يمكن استخدام نقودهم.

كلما احتاج المجمع لنقود أكثر، كلما عمل محرضوه باجتهاد أكثر من أجل أن يثبتوا للأنصار الأثرياء تفاهة كل كنوز هذا العالم وانعدام قيمتها مقارنة بنعم الحياة الأبدية، التى كان يمكن للأغنياء أن يحصلوا عليها إذا تخلوا فقط عن ممتلكاتهم. لم يكن تبشيرهم فى زمن التشاؤم العام ذاك، خاصة وسط الطبقات الثرية، دون أثر. كم كان هناك من الاشخاص الأثرياء الذين ملأهم الاشمئزاز، من كل المتع وكل وسائل المتعة، بعد فترة شباب فاسق. بعد أن استنفدوا كل الأحاسيس التى تشتري بالنقود، مازال باقيا هناك إحساس واحد: إحساس الفقر.

نزولا إلى العصور الوسطى مازلنا نجد عودة متكررة لحالة الاشخاص الأثرياء الذين يعطون كل ممتلكاتهم للفقراء ويعيشون هم أنفسهم حياة المتسولين، فى أغلب الحالات بعد أن تمتعوا تماما بكل ملذات العالم، حتى درجة الغثيان الكامل.

ولكن لم يكن مثل هؤلاء الاشخاص غاية فى الكثرة حتى يجعلوا طرح الريح هذا متكررا كما تطلب المجمع. مع الفاقة المتزايدة فى الإمبراطورية، مع تضاعف البروليتارية الرثة فى المجمع، التى إما لم تستطع أو لم تكن لتكسب خبزها بالكدح، أصبح إلزاميا أكثر تجنيد أشخاص أغنياء للقيام بنفقات المجمع.

لقد كان من الأسهل أن تجعل غنيا يترك نقوده لأغراض الإحسان الخاصة بالمجمع عند موته من أن تجعله يتبرع بها خلال حياته. كانت العائلات التى لا أطفال لديها شائعة للغاية، كانت الروابط العائلية غاية فى الضعف؛ وغالبا ما كانت الرغبة فى عمل وصايا للأقارب ضئيلة للغاية. تطور من ناحية أخرى، الاهتمام بشخصية

المرء الخاصة إلى درجة عليا، متضمنا الرغبة في حياة مستمرة ما بعد الموت، من أجل حياة سعيدة بالطبع.

لقد تكيف المذهب المسيحي جيدا لإشباع هذه الرغبة، فأتاح للأغنياء طريقة ملائمة للحصول على الأبدية دون حرمان خطير في هذه الحياة إذا لم يتخلوا عن ملكيتهم حتى الموت، حين لم تعد لها فائدة بالنسبة لهم. فالإيصاء بملكيتهم، التي لا فائدة فيها الآن كلية قد تشتري لهم الخلاص الأبدى.

لقد أسر المحرضون المسيحيون من ثم الأرستقراطيين الشباب العاطفيين من خلال اشمئزازهم من الحياة التي عاشوها؛ لقد أسروا الأغنياء العجائز الهالكين من خلال خوفهم من الموت وقصص الجحيم التي تنتظرهم. لم يتوقف التلاعب الاختلاسي بالمواريث منذاك عن أن يكون طريقة مفضلة للمحرضين المسيحيين، لإتخام المعدة القوية للكنيسة بغذاء أكثر فأكثر.

ولكن في القرون القليلة الأولى من حياة المجمع، ولكونه تنظيما سريا، فلم تكن له شخصية قانونية ولم يستطع من ثم أن يرث مباشرة.

لقد جرى القيام بجهود من ثم لتجنيد أشخاص أغنياء وهم مازالوا أحياء لدعم المجمع، حتى لو لم يكن مثل هؤلاء الأشخاص مستعدين لتنفيذ وصايا الرب بدقة فيوزعوا بين الفقراء كل ما امتلكوا. لقد رأينا أن الكرم كان سمة عامة بين أثرياء تلك الأيام قبل أن يلعب تراكم رأس المال دورا هاما في نمط الإنتاج. لقد تعزز هذا الكرم لصالح المجمع، مشكلا مصدرا دائما لدخله، حيثما كان ممكنا إيقاظ اهتمام وتعاطف الثرى مع المجمع. كلما كف المجمع عن أن يكون تنظيما مقاتلا، كلما تأكدت أكثر مرحلته الإحسانية، وكلما أصبحت الاتجاهات داخل المجمع لتلطيف الحقد البروليتارى الأصلي ضد الأغنياء أقوى ولتمكن الأخيرين من أن يشعروا بالراحة في المجمع رغم أنهم بقوا أغنياء ومتشبهين بملكائهم.

وجهة نظر المجمع إلى الحياة – رفضه الآلهة القديمة، التوحيد، الاعتقاد في البعث، الأمل في المخلص – كانت هذه الأشياء تتفق كما رأينا، مع الاتجاهات العامة لتلك الأزمنة، جاعلة المذهب المسيحي متعاطفا حتى مع الطبقات العليا.

من جانب آخر، واجه الأغنياء، الفاقة المتزايدة للجماهير، كانوا يبحثون عن طرائق لتقليل هذه الفاقة، كما تبين مؤسسات إحسانهم. لأن هذه الفاقة عرضت كل المجتمع للخطر. جعلت هذه الحقيقة أيضاً التنظيم المسيحي أكثر تعاطفا في عيونهم.

أخيرا، لعبت الرغبة في الشعبية أيضاً دورا في الدعم الذى قدم للمجمع المسيحي، على الأقل في الأماكن التي حازت فيها هذه المجامع نفوذا على قسم يعتد به من السكان.

من ثم قد يصبح المجمع المسيحي ولحد بعيد جذابا بالنسبة لأمثال هؤلاء الأغنياء الذين لم يصبحوا روحيين ويائسين، حيث لم يدفعهم للوعد بالإيصاء بملكيتهم الخوف من الموت أو غصص اللعنة الأبدية.

ولكن حتى يشعر الأغنياء بالراحة في المجمع، كان على طابعه أن يتغير جوهريا، كان لابد من هجر الحقد الطبقي على الأغنياء.

تأذت النفوس البروليتارية المقاتلة في المجمع، بهذا الجهد في جذب الأغنياء وتقديم تنازلات لهم كما نعلم من رسالة يعقوب العامة إلى الاثنى عشر سبطا في الشتات، التي يعود تاريخها لمنتصف القرن الثاني وذكرت سابقا في هذا الكتاب. يحث يعقوب الأعضاء: "فإنه إن دخل إلى مجمعكم رجل بخواتم ذهب، في لباس بهي، ودخل أيضاً فقير بلباس وسخ؛ فنظرتم إلى اللابس اللباس البهي، وقلتم له اجلس أنت هنا حسنا، وقلتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس أنت هنا تحت موطئ قدمي: فهل لا تترتابون في أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة؟. وأما أنتم فأهنتم الفقير ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية" (٩-٢/٢).

ثم يهاجم بعدئذ هؤلاء الذين يتطلبون من الأغنياء قبولا نظريا للمذهب فقط، وليس أن يعطوا نقودهم:

"ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال؟ هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟ إن كان أخ وأخت عريانين، ومعتازين للقوت اليومي، فقال لهما أحكم، امضيا بسلام، استدفيا واشبعا؛ ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد فما المنفعة؟ هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته" (٧١-٤١/٢).

لم يتغير أساس التنظيم بالطبع بسبب هذا التقدير للأغنياء، بقي الأساس نظريا وعمليا غير متغير. ولكن واجب إعطاء كل ما يملكه المرء قد استبدل بضريبة طوعية مفروضة ذاتيا، غالبا ما لا ترقى سوى لهبه صغيرة.

أحدث إلى حد ما من رسالة يعقوب هو الدفاع apologeticus (عن العقائد المسيحية) لترتليان (من المحتمل حوالي ٠٥١-٠٦١ م) تصف هذه الوثيقة أيضاً تنظيم المجمع:

"حتى إذا كان يوجد نوع من المالية المشتركة، فهي ليست مكونة من رسوم. لأنه هكذا فقد عقدنا اتفاقا لعبادتنا. كل منا يضع كمية صغيرة يوميا في الشهر، أو حينما يرغب؛ فقط إذ هو يرغب وإذا كان قادرا، لأنه ليس هناك إجبار في هذا الأمر، كل واحد يسهم بإرادته الحرة، هذه النقود، إذا جاز القول، ودائع التقوى. إنها لا تنفق على المآدب أو فترات الشراب أو بيوت الأكل التي لانفع فيها، وإنما لإطعام ودفن الفقراء، لصالح الأولاد والبنات الذين ليس لديهم والدين أو نقود، في دعم العجائز غير القادرين على التجول، وكذلك للناس الذين تحطمت سفنهم أو الذين ربما كانوا

فى المناجم أو منفيين فى الجزر أو السجن – مادامت فاقتهم بسبب مصاحبتهم للرب، وهم أنفسهم مستحقون لأن يقام أودهم باعترافهم”.

ويواصل ترتليان: “نحن الذين نشعر بأنفسنا متحدين قلباً وروحاً، ليست لدينا صعوبات بشأن جماعية الطيبات؛ لدينا كل شيء مشترك، عدا زوجاتنا؛ نتوقف الجماعية هناك، حيث الآخرون وحدهم يمارسونها”.

تم الاحتفاظ بالشيوعية من ثم نظرياً، وبدأ أن تطبيقاتها الأكثر صرامة قد تلطفت فى الممارسة. ولكن دونما وعي فإن كامل طابع المجمع، الذى تكيف أصلاً لمجرد الأوضاع البروليتارية، كان يتغير بسبب التقدير المتزايد للأغنياء. تلك العناصر التى حبذت تجنيد الأعضاء الأغنياء كان عليها أن تكافح ليس فقط الحقد الطبقي للمجمع، وإنما أن تغير أيضاً عملياته الداخلية بعدة طرق.

بالرغم من أن الشيوعية قد ضعفت كثيراً، بقيت الوجبات المشتركة الرابطة الأقوى التى توحد كل الأعضاء. كانت الترتيبات الخيرية مطبقة فقط فى حالات معزولة من العوز، التى كان كل الأعضاء معرضين لها على أية حال. ولكن الوجبة المشتركة أشبعت الحاجة اليومية لكل عضو. هذه الوجبة كان يشهدها كل المجمع؛ لقد كانت المركز الذى دارت حوله كل حياة المجمع.

ولكن لم يكن للوجبة المشتركة أى مغزى كوجبة، فى حالة الأعضاء الأثرياء. لقد كان لديهم طعام وشراب أفضل فى بيوتهم. إن الوجبة البسيطة، وغالباً الرديئة قد آذت بالتأكيد حاسة الذوق عندهم. لقد أتوا إلى هذه الوجبات بغرض المشاركة فى الحياة المجمعية، للحصول على نفوذ داخلها، وليس من أجل ملئ معدهم. ذلك الذى عنى إشباع حاجة عضوية للآخرين، عنى بالنسبة لهم إشباع حاجة روحية فقط؛ كانت المشاركة فى الخبز والنيبذ أداء رمزياً محضاً. حيث تزايد عدد الأثرياء فى المجمع، كان هناك زيادة أيضاً فى عدد هؤلاء المشاركين فى الوجبات المشتركة الذين كانوا مهتمين فقط بالتجمع ورموزه، وليس بالأكل والشرب. من ثم، فصلت فى القرن الثانى، الوجبات العامة الفعلية للأعضاء الأفقر عن الوجبات الرمزية المحضة والمخصصة لكل المجمع. وفى القرن الرابع، بعد أن أصبحت الكنيسة القوة المهيمنة فى الدولة، استبعدت الوجبات من النوع الأول من منازل اجتماعات المجمع، والكنائس. لقد أهملت أكثر فأكثر، حيث ألغيت فى مجرى القرون التالية. اختفى هكذا كلية الملمح الأكثر بروزاً للشيوعية العملية من المجمع المسيحى، واحتل مكانه العمل الخيرى على سبيل الحصر، والعناية بالفقراء والضعفاء، الذى بقي حتى اليوم، على نطاق أقل توسعاً لحد كبير، على أية حال.

لم يبق هناك شيء فى المجمع يمكن أن يؤذى الأغنياء؛ لقد كف عن أن يكون مؤسسة بروليتارية. الأغنياء الذين كانوا مستبعدة كلية بصفة أصلية من “مملكة الرب” إذا لم يتخلوا عن ممتلكاتهم للفقراء، قد يلعبون الآن نفس الدور فى هذه المملكة كما فى “عالم الشيطان”، وقد استغلوا بوفرة هذه الميزة.

لم تكن التعارضات الطبقيّة القديمة هي التي أحييت مرة أخرى في المجمع المسيحي، وإنما نشأت طبقة مهيمنة جديدة في الأخير، بيروقراطية جديدة بقائد جديد، الأسقف، الذي سوف نتعرف عليه قريباً جداً.

لقد كان المجمع المسيحي، وليس الشيوعية المسيحية، هي التي ثنى لها أباطرة روما أخيراً ركبهم. لم يكن انتصار المسيحية هو ديكتاتورية البروليتاريا، ولكن ديكتاتورية السادة التي أنشأتها في مجمعها الخاص.

أبطال وشهداء المجامع الأولى، الذين تخلوا عن ممتلكاتهم، عن عملهم، عن حياتهم، من أجل تحرير الفقراء والبؤساء، قد وضعوا الأساس فحسب لنمط جديد من الطغيان والاستغلال.

ج- رسل، وأنبياء ومعلمون

لم يكن لدى المجمع أصلاً مسؤولين ولا تمييزاً بين أعضاءه. كل الأعضاء، ذكورا أو إناثاً، قد يعينوا كمعلمين ومحرضين، إذا شعروا بأن لديهم القدرة. تحدث كل منهم بصراحة "وفقاً لنوره"، أو كما صيغ في تلك الأيام، كيفما حرّكه الروح القدس. واصل أغلبهم أيضاً، بالطبع، تجارته الخاصة، ولكن عدداً كبيراً، ممن نالوا وضعاً خاصاً، باعوا ممتلكاتهم وكرسوا أنفسهم للتحريض كلية باعتبارهم رسلاً وأنبياء. وكانت النتيجة تمييزاً فنوياً class جديداً.

نشأت فئتان الآن داخل المجمع المسيحي: الأعضاء العاديون، التي كانت شيوعيتهم العملية مطبقة فقط على الوجبات المشتركة وترتيبات الرفاه العام للمجمع: التكليف بالأعمال، تقديم المساعدة للأرامل واليتامى، وكذلك للسجناء، تأمين ضد المرض، معاشات الوفاة.

ولكن هؤلاء الذين طبقوا الشيوعية تماماً كانوا يعتبرون أشخاصاً "مقدسين" أو "كاملين"؛ هؤلاء تخلوا عن الملكية والزواج الأحادي، مقدمين كل ممتلكاتهم للمجمع.

كان هذا بادرة جيدة وأعطى هذه العناصر الراديكالية، كما تشير إلى ذلك أسمائهم بذاتها وضعاً عظيماً في المجمع؛ وقد حركهم شعور بالتفوق على الرفاق الآخرين وعاملوا أنفسهم كنخبة مهيمنة.

وهكذا كان الشكل الراديكالي للشيوعية هو ما أنتج أرستقراطية جديدة.

مثل أي أرستقراطية أخرى، فإن الأخيرة، لم تكتف بادعاء حق قيادة بقية الجماعة، وإنما حاولت أيضاً أن تستغل الجماعة.

بعد كل شيء، كيف سيعيش "المقدسون" بعد أن تخلوا عن كل وسائل الإنتاج ومخازن السلع التي امتلكوها؟

يمكن لهم أن يلجأوا فقط للعمل العرضي، مثل حمل الطرود أو العمل كمراسلين ساعة وما أشبه، أو إلى التسول.

كان أكثر الأشياء طبيعية هو كسب العيش بالتكفف من رفاقهم ومن المجامع نفسها، الذين لم يكونوا ليسمحوا لرجل ذو قيمة أو امرأة ذات قيمة أن تهلك جوعاً، خاصة إذا كان هذا العضو الجدير بالتقدير يمتلك موهبة الدعاية؛ لم تتطلب هذه الموهبة آنئذ معرفة من الصعب اكتسابها، وإنما مزاجاً وعقلاً فطناً، وحضوراً للبديهة.

نحن نجد بولس بالفعل ينتقد الكورنثيين ويذكرهم أن المجمع مضطر أن يعفيه مع كل الرسل الآخرين من العمل اليدوي، وأيضاً أن يعيّلهم:

"ألسنت أنا رسولاً؟ ألسنت أنا حراً؟ أما رأيت يسوع المسيح ربنا؟ أعلننا ليس لنا سلطان أن نجول باخت زوجة. كباقي الرسل وأخوة الرب وصفاً. أم أنا وبرنابا وحدنا ليس لنا سلطان أن لانشغل؟. أو من يرعى رعية ومن لبن الرعية لا يأكل؟ فإنه مكتوب في ناموس موسى، لا تغم ثورا دارساً. ألع الله تهمه الثيران؟ أم يقول مطلقاً من أجلنا؟"

ثور الله الدارس يعنى نحن: هذا هو مغزى كلمة بولس. لا يشير هذا المقطع بالطبع للثيران التي تدرس قشاً فارغاً. يواصل الرسول:

"إن كنا نحن قد زرنا لكم الروحيات، أعظيم إن حصدنا منكم الجسديات؟ إن كان آخرون شركاء في السلطان عليكم أفلسنا نحن "بالأولى" (الرسالة الأولى للكورنثيين ١٢-٧/٩)

قد نلاحظ عرضاً، أن الجملة الأخيرة، تشير أيضاً للطابع الشيعي للمجامع المسيحية الأولى.

بعد هذا الالتماس لطبيبات الحياة من أجل الرسل، يصرح بولس بأنه لا يتحدث عن نفسه، وإنما من أجل الآخرين؛ هو لا يطلب شيئاً من الكورنثيين. ولكنه يسمح لمجامع أخرى أن تعوله: "سلبت كنائس أخرى، أخذاً أجره منهم (-٧-؛ -٥-؛ -٤-؛ -٣-؛ -٢-؛ -١-؛ -٠-؛ -١-؛ -٢-؛ -٣-؛ -٤-؛ -٥-؛ -٦-؛ -٧-؛ -٨-؛ -٩-؛ -١٠-؛ -١١-؛ -١٢-؛ -١٣-؛ -١٤-؛ -١٥-؛ -١٦-؛ -١٧-؛ -١٨-؛ -١٩-؛ -٢٠-؛ -٢١-؛ -٢٢-؛ -٢٣-؛ -٢٤-؛ -٢٥-؛ -٢٦-؛ -٢٧-؛ -٢٨-؛ -٢٩-؛ -٣٠-؛ -٣١-؛ -٣٢-؛ -٣٣-؛ -٣٤-؛ -٣٥-؛ -٣٦-؛ -٣٧-؛ -٣٨-؛ -٣٩-؛ -٤٠-؛ -٤١-؛ -٤٢-؛ -٤٣-؛ -٤٤-؛ -٤٥-؛ -٤٦-؛ -٤٧-؛ -٤٨-؛ -٤٩-؛ -٥٠-؛ -٥١-؛ -٥٢-؛ -٥٣-؛ -٥٤-؛ -٥٥-؛ -٥٦-؛ -٥٧-؛ -٥٨-؛ -٥٩-؛ -٦٠-؛ -٦١-؛ -٦٢-؛ -٦٣-؛ -٦٤-؛ -٦٥-؛ -٦٦-؛ -٦٧-؛ -٦٨-؛ -٦٩-؛ -٧٠-؛ -٧١-؛ -٧٢-؛ -٧٣-؛ -٧٤-؛ -٧٥-؛ -٧٦-؛ -٧٧-؛ -٧٨-؛ -٧٩-؛ -٨٠-؛ -٨١-؛ -٨٢-؛ -٨٣-؛ -٨٤-؛ -٨٥-؛ -٨٦-؛ -٨٧-؛ -٨٨-؛ -٨٩-؛ -٩٠-؛ -٩١-؛ -٩٢-؛ -٩٣-؛ -٩٤-؛ -٩٥-؛ -٩٦-؛ -٩٧-؛ -٩٨-؛ -٩٩-؛ -١٠٠-؛ -١٠١-؛ -١٠٢-؛ -١٠٣-؛ -١٠٤-؛ -١٠٥-؛ -١٠٦-؛ -١٠٧-؛ -١٠٨-؛ -١٠٩-؛ -١١٠-؛ -١١١-؛ -١١٢-؛ -١١٣-؛ -١١٤-؛ -١١٥-؛ -١١٦-؛ -١١٧-؛ -١١٨-؛ -١١٩-؛ -١٢٠-؛ -١٢١-؛ -١٢٢-؛ -١٢٣-؛ -١٢٤-؛ -١٢٥-؛ -١٢٦-؛ -١٢٧-؛ -١٢٨-؛ -١٢٩-؛ -١٣٠-؛ -١٣١-؛ -١٣٢-؛ -١٣٣-؛ -١٣٤-؛ -١٣٥-؛ -١٣٦-؛ -١٣٧-؛ -١٣٨-؛ -١٣٩-؛ -١٤٠-؛ -١٤١-؛ -١٤٢-؛ -١٤٣-؛ -١٤٤-؛ -١٤٥-؛ -١٤٦-؛ -١٤٧-؛ -١٤٨-؛ -١٤٩-؛ -١٥٠-؛ -١٥١-؛ -١٥٢-؛ -١٥٣-؛ -١٥٤-؛ -١٥٥-؛ -١٥٦-؛ -١٥٧-؛ -١٥٨-؛ -١٥٩-؛ -١٦٠-؛ -١٦١-؛ -١٦٢-؛ -١٦٣-؛ -١٦٤-؛ -١٦٥-؛ -١٦٦-؛ -١٦٧-؛ -١٦٨-؛ -١٦٩-؛ -١٧٠-؛ -١٧١-؛ -١٧٢-؛ -١٧٣-؛ -١٧٤-؛ -١٧٥-؛ -١٧٦-؛ -١٧٧-؛ -١٧٨-؛ -١٧٩-؛ -١٨٠-؛ -١٨١-؛ -١٨٢-؛ -١٨٣-؛ -١٨٤-؛ -١٨٥-؛ -١٨٦-؛ -١٨٧-؛ -١٨٨-؛ -١٨٩-؛ -١٩٠-؛ -١٩١-؛ -١٩٢-؛ -١٩٣-؛ -١٩٤-؛ -١٩٥-؛ -١٩٦-؛ -١٩٧-؛ -١٩٨-؛ -١٩٩-؛ -٢٠٠-؛ -٢٠١-؛ -٢٠٢-؛ -٢٠٣-؛ -٢٠٤-؛ -٢٠٥-؛ -٢٠٦-؛ -٢٠٧-؛ -٢٠٨-؛ -٢٠٩-؛ -٢١٠-؛ -٢١١-؛ -٢١٢-؛ -٢١٣-؛ -٢١٤-؛ -٢١٥-؛ -٢١٦-؛ -٢١٧-؛ -٢١٨-؛ -٢١٩-؛ -٢٢٠-؛ -٢٢١-؛ -٢٢٢-؛ -٢٢٣-؛ -٢٢٤-؛ -٢٢٥-؛ -٢٢٦-؛ -٢٢٧-؛ -٢٢٨-؛ -٢٢٩-؛ -٢٣٠-؛ -٢٣١-؛ -٢٣٢-؛ -٢٣٣-؛ -٢٣٤-؛ -٢٣٥-؛ -٢٣٦-؛ -٢٣٧-؛ -٢٣٨-؛ -٢٣٩-؛ -٢٤٠-؛ -٢٤١-؛ -٢٤٢-؛ -٢٤٣-؛ -٢٤٤-؛ -٢٤٥-؛ -٢٤٦-؛ -٢٤٧-؛ -٢٤٨-؛ -٢٤٩-؛ -٢٥٠-؛ -٢٥١-؛ -٢٥٢-؛ -٢٥٣-؛ -٢٥٤-؛ -٢٥٥-؛ -٢٥٦-؛ -٢٥٧-؛ -٢٥٨-؛ -٢٥٩-؛ -٢٦٠-؛ -٢٦١-؛ -٢٦٢-؛ -٢٦٣-؛ -٢٦٤-؛ -٢٦٥-؛ -٢٦٦-؛ -٢٦٧-؛ -٢٦٨-؛ -٢٦٩-؛ -٢٧٠-؛ -٢٧١-؛ -٢٧٢-؛ -٢٧٣-؛ -٢٧٤-؛ -٢٧٥-؛ -٢٧٦-؛ -٢٧٧-؛ -٢٧٨-؛ -٢٧٩-؛ -٢٨٠-؛ -٢٨١-؛ -٢٨٢-؛ -٢٨٣-؛ -٢٨٤-؛ -٢٨٥-؛ -٢٨٦-؛ -٢٨٧-؛ -٢٨٨-؛ -٢٨٩-؛ -٢٩٠-؛ -٢٩١-؛ -٢٩٢-؛ -٢٩٣-؛ -٢٩٤-؛ -٢٩٥-؛ -٢٩٦-؛ -٢٩٧-؛ -٢٩٨-؛ -٢٩٩-؛ -٣٠٠-؛ -٣٠١-؛ -٣٠٢-؛ -٣٠٣-؛ -٣٠٤-؛ -٣٠٥-؛ -٣٠٦-؛ -٣٠٧-؛ -٣٠٨-؛ -٣٠٩-؛ -٣١٠-؛ -٣١١-؛ -٣١٢-؛ -٣١٣-؛ -٣١٤-؛ -٣١٥-؛ -٣١٦-؛ -٣١٧-؛ -٣١٨-؛ -٣١٩-؛ -٣٢٠-؛ -٣٢١-؛ -٣٢٢-؛ -٣٢٣-؛ -٣٢٤-؛ -٣٢٥-؛ -٣٢٦-؛ -٣٢٧-؛ -٣٢٨-؛ -٣٢٩-؛ -٣٣٠-؛ -٣٣١-؛ -٣٣٢-؛ -٣٣٣-؛ -٣٣٤-؛ -٣٣٥-؛ -٣٣٦-؛ -٣٣٧-؛ -٣٣٨-؛ -٣٣٩-؛ -٣٤٠-؛ -٣٤١-؛ -٣٤٢-؛ -٣٤٣-؛ -٣٤٤-؛ -٣٤٥-؛ -٣٤٦-؛ -٣٤٧-؛ -٣٤٨-؛ -٣٤٩-؛ -٣٥٠-؛ -٣٥١-؛ -٣٥٢-؛ -٣٥٣-؛ -٣٥٤-؛ -٣٥٥-؛ -٣٥٦-؛ -٣٥٧-؛ -٣٥٨-؛ -٣٥٩-؛ -٣٦٠-؛ -٣٦١-؛ -٣٦٢-؛ -٣٦٣-؛ -٣٦٤-؛ -٣٦٥-؛ -٣٦٦-؛ -٣٦٧-؛ -٣٦٨-؛ -٣٦٩-؛ -٣٧٠-؛ -٣٧١-؛ -٣٧٢-؛ -٣٧٣-؛ -٣٧٤-؛ -٣٧٥-؛ -٣٧٦-؛ -٣٧٧-؛ -٣٧٨-؛ -٣٧٩-؛ -٣٨٠-؛ -٣٨١-؛ -٣٨٢-؛ -٣٨٣-؛ -٣٨٤-؛ -٣٨٥-؛ -٣٨٦-؛ -٣٨٧-؛ -٣٨٨-؛ -٣٨٩-؛ -٣٩٠-؛ -٣٩١-؛ -٣٩٢-؛ -٣٩٣-؛ -٣٩٤-؛ -٣٩٥-؛ -٣٩٦-؛ -٣٩٧-؛ -٣٩٨-؛ -٣٩٩-؛ -٤٠٠-؛ -٤٠١-؛ -٤٠٢-؛ -٤٠٣-؛ -٤٠٤-؛ -٤٠٥-؛ -٤٠٦-؛ -٤٠٧-؛ -٤٠٨-؛ -٤٠٩-؛ -٤١٠-؛ -٤١١-؛ -٤١٢-؛ -٤١٣-؛ -٤١٤-؛ -٤١٥-؛ -٤١٦-؛ -٤١٧-؛ -٤١٨-؛ -٤١٩-؛ -٤٢٠-؛ -٤٢١-؛ -٤٢٢-؛ -٤٢٣-؛ -٤٢٤-؛ -٤٢٥-؛ -٤٢٦-؛ -٤٢٧-؛ -٤٢٨-؛ -٤٢٩-؛ -٤٣٠-؛ -٤٣١-؛ -٤٣٢-؛ -٤٣٣-؛ -٤٣٤-؛ -٤٣٥-؛ -٤٣٦-؛ -٤٣٧-؛ -٤٣٨-؛ -٤٣٩-؛ -٤٤٠-؛ -٤٤١-؛ -٤٤٢-؛ -٤٤٣-؛ -٤٤٤-؛ -٤٤٥-؛ -٤٤٦-؛ -٤٤٧-؛ -٤٤٨-؛ -٤٤٩-؛ -٤٥٠-؛ -٤٥١-؛ -٤٥٢-؛ -٤٥٣-؛ -٤٥٤-؛ -٤٥٥-؛ -٤٥٦-؛ -٤٥٧-؛ -٤٥٨-؛ -٤٥٩-؛ -٤٦٠-؛ -٤٦١-؛ -٤٦٢-؛ -٤٦٣-؛ -٤٦٤-؛ -٤٦٥-؛ -٤٦٦-؛ -٤٦٧-؛ -٤٦٨-؛ -٤٦٩-؛ -٤٧٠-؛ -٤٧١-؛ -٤٧٢-؛ -٤٧٣-؛ -٤٧٤-؛ -٤٧٥-؛ -٤٧٦-؛ -٤٧٧-؛ -٤٧٨-؛ -٤٧٩-؛ -٤٨٠-؛ -٤٨١-؛ -٤٨٢-؛ -٤٨٣-؛ -٤٨٤-؛ -٤٨٥-؛ -٤٨٦-؛ -٤٨٧-؛ -٤٨٨-؛ -٤٨٩-؛ -٤٩٠-؛ -٤٩١-؛ -٤٩٢-؛ -٤٩٣-؛ -٤٩٤-؛ -٤٩٥-؛ -٤٩٦-؛ -٤٩٧-؛ -٤٩٨-؛ -٤٩٩-؛ -٥٠٠-؛ -٥٠١-؛ -٥٠٢-؛ -٥٠٣-؛ -٥٠٤-؛ -٥٠٥-؛ -٥٠٦-؛ -٥٠٧-؛ -٥٠٨-؛ -٥٠٩-؛ -٥١٠-؛ -٥١١-؛ -٥١٢-؛ -٥١٣-؛ -٥١٤-؛ -٥١٥-؛ -٥١٦-؛ -٥١٧-؛ -٥١٨-؛ -٥١٩-؛ -٥٢٠-؛ -٥٢١-؛ -٥٢٢-؛ -٥٢٣-؛ -٥٢٤-؛ -٥٢٥-؛ -٥٢٦-؛ -٥٢٧-؛ -٥٢٨-؛ -٥٢٩-؛ -٥٣٠-؛ -٥٣١-؛ -٥٣٢-؛ -٥٣٣-؛ -٥٣٤-؛ -٥٣٥-؛ -٥٣٦-؛ -٥٣٧-؛ -٥٣٨-؛ -٥٣٩-؛ -٥٤٠-؛ -٥٤١-؛ -٥٤٢-؛ -٥٤٣-؛ -٥٤٤-؛ -٥٤٥-؛ -٥٤٦-؛ -٥٤٧-؛ -٥٤٨-؛ -٥٤٩-؛ -٥٥٠-؛ -٥٥١-؛ -٥٥٢-؛ -٥٥٣-؛ -٥٥٤-؛ -٥٥٥-؛ -٥٥٦-؛ -٥٥٧-؛ -٥٥٨-؛ -٥٥٩-؛ -٥٦٠-؛ -٥٦١-؛ -٥٦٢-؛ -٥٦٣-؛ -٥٦٤-؛ -٥٦٥-؛ -٥٦٦-؛ -٥٦٧-؛ -٥٦٨-؛ -٥٦٩-؛ -٥٧٠-؛ -٥٧١-؛ -٥٧٢-؛ -٥٧٣-؛ -٥٧٤-؛ -٥٧٥-؛ -٥٧٦-؛ -٥٧٧-؛ -٥٧٨-؛ -٥٧٩-؛ -٥٨٠-؛ -٥٨١-؛ -٥٨٢-؛ -٥٨٣-؛ -٥٨٤-؛ -٥٨٥-؛ -٥٨٦-؛ -٥٨٧-؛ -٥٨٨-؛ -٥٨٩-؛ -٥٩٠-؛ -٥٩١-؛ -٥٩٢-؛ -٥٩٣-؛ -٥٩٤-؛ -٥٩٥-؛ -٥٩٦-؛ -٥٩٧-؛ -٥٩٨-؛ -٥٩٩-؛ -٦٠٠-؛ -٦٠١-؛ -٦٠٢-؛ -٦٠٣-؛ -٦٠٤-؛ -٦٠٥-؛ -٦٠٦-؛ -٦٠٧-؛ -٦٠٨-؛ -٦٠٩-؛ -٦١٠-؛ -٦١١-؛ -٦١٢-؛ -٦١٣-؛ -٦١٤-؛ -٦١٥-؛ -٦١٦-؛ -٦١٧-؛ -٦١٨-؛ -٦١٩-؛ -٦٢٠-؛ -٦٢١-؛ -٦٢٢-؛ -٦٢٣-؛ -٦٢٤-؛ -٦٢٥-؛ -٦٢٦-؛ -٦٢٧-؛ -٦٢٨-؛ -٦٢٩-؛ -٦٣٠-؛ -٦٣١-؛ -٦٣٢-؛ -٦٣٣-؛ -٦٣٤-؛ -٦٣٥-؛ -٦٣٦-؛ -٦٣٧-؛ -٦٣٨-؛ -٦٣٩-؛ -٦٤٠-؛ -٦٤١-؛ -٦٤٢-؛ -٦٤٣-؛ -٦٤٤-؛ -٦٤٥-؛ -٦٤٦-؛ -٦٤٧-؛ -٦٤٨-؛ -٦٤٩-؛ -٦٥٠-؛ -٦٥١-؛ -٦٥٢-؛ -٦٥٣-؛ -٦٥٤-؛ -٦٥٥-؛ -٦٥٦-؛ -٦٥٧-؛ -٦٥٨-؛ -٦٥٩-؛ -٦٦٠-؛ -٦٦١-؛ -٦٦٢-؛ -٦٦٣-؛ -٦٦٤-؛ -٦٦٥-؛ -٦٦٦-؛ -٦٦٧-؛ -٦٦٨-؛ -٦٦٩-؛ -٦٧٠-؛ -٦٧١-؛ -٦٧٢-؛ -٦٧٣-؛ -٦٧٤-؛ -٦٧٥-؛ -٦٧٦-؛ -٦٧٧-؛ -٦٧٨-؛ -٦٧٩-؛ -٦٨٠-؛ -٦٨١-؛ -٦٨٢-؛ -٦٨٣-؛ -٦٨٤-؛ -٦٨٥-؛ -٦٨٦-؛ -٦٨٧-؛ -٦٨٨-؛ -٦٨٩-؛ -٦٩٠-؛ -٦٩١-؛ -٦٩٢-؛ -٦٩٣-؛ -٦٩٤-؛ -٦٩٥-؛ -٦٩٦-؛ -٦٩٧-؛ -٦٩٨-؛ -٦٩٩-؛ -٧٠٠-؛ -٧٠١-؛ -٧٠٢-؛ -٧٠٣-؛ -٧٠٤-؛ -٧٠٥-؛ -٧٠٦-؛ -٧٠٧-؛ -٧٠٨-؛ -٧٠٩-؛ -٧١٠-؛ -٧١١-؛ -٧١٢-؛ -٧١٣-؛ -٧١٤-؛ -٧١٥-؛ -٧١٦-؛ -٧١٧-؛ -٧١٨-؛ -٧١٩-؛ -٧٢٠-؛ -٧٢١-؛ -٧٢٢-؛ -٧٢٣-؛ -٧٢٤-؛ -٧٢٥-؛ -٧٢٦-؛ -٧٢٧-؛ -٧٢٨-؛ -٧٢٩-؛ -٧٣٠-؛ -٧٣١-؛ -٧٣٢-؛ -٧٣٣-؛ -٧٣٤-؛ -٧٣٥-؛ -٧٣٦-؛ -٧٣٧-؛ -٧٣٨-؛ -٧٣٩-؛ -٧٤٠-؛ -٧٤١-؛ -٧٤٢-؛ -٧٤٣-؛ -٧٤٤-؛ -٧٤٥-؛ -٧٤٦-؛ -٧٤٧-؛ -٧٤٨-؛ -٧٤٩-؛ -٧٥٠-؛ -٧٥١-؛ -٧٥٢-؛ -٧٥٣-؛ -٧٥٤-؛ -٧٥٥-؛ -٧٥٦-؛ -٧٥٧-؛ -٧٥٨-؛ -٧٥٩-؛ -٧٦٠-؛ -٧٦١-؛ -٧٦٢-؛ -٧٦٣-؛ -٧٦٤-؛ -٧٦٥-؛ -٧٦٦-؛ -٧٦٧-؛ -٧٦٨-؛ -٧٦٩-؛ -٧٧٠-؛ -٧٧١-؛ -٧٧٢-؛ -٧٧٣-؛ -٧٧٤-؛ -٧٧٥-؛ -٧٧٦-؛ -٧٧٧-؛ -٧٧٨-؛ -٧٧٩-؛ -٧٨٠-؛ -٧٨١-؛ -٧٨٢-؛ -٧٨٣-؛ -٧٨٤-؛ -٧٨٥-؛ -٧٨٦-؛ -٧٨٧-؛ -٧٨٨-؛ -٧٨٩-؛ -٧٩٠-؛ -٧٩١-؛ -٧٩٢-؛ -٧٩٣-؛ -٧٩٤-؛ -٧٩٥-؛ -٧٩٦-؛ -٧٩٧-؛ -٧٩٨-؛ -٧٩٩-؛ -٨٠٠-؛ -٨٠١-؛ -٨٠٢-؛ -٨٠٣-؛ -٨٠٤-؛ -٨٠٥-؛ -٨٠٦-؛ -٨٠٧-؛ -٨٠٨-؛ -٨٠٩-؛ -٨١٠-؛ -٨١١-؛ -٨١٢-؛ -٨١٣-؛ -٨١٤-؛ -٨١٥-؛ -٨١٦-؛ -٨١٧-؛ -٨١٨-؛ -٨١٩-؛ -٨٢٠-؛ -٨٢١-؛ -٨٢٢-؛ -٨٢٣-؛ -٨٢٤-؛ -٨٢٥-؛ -٨٢٦-؛ -٨٢٧-؛ -٨٢٨-؛ -٨٢٩-؛ -٨٣٠-؛ -٨٣١-؛ -٨٣٢-؛ -٨٣٣-؛ -٨٣٤-؛ -٨٣٥-؛ -٨٣٦-؛ -٨٣٧-؛ -٨٣٨-؛ -٨٣٩-؛ -٨٤٠-؛ -٨٤١-؛ -٨٤٢-؛ -٨٤٣-؛ -٨٤٤-؛ -٨٤٥-؛ -٨٤٦-؛ -٨٤٧-؛ -٨٤٨-؛ -٨٤٩-؛ -٨٥٠-؛ -٨٥١-؛ -٨٥٢-؛ -٨٥٣-؛ -٨٥٤-؛ -٨٥٥-؛ -٨٥٦-؛ -٨٥٧-؛ -٨٥٨-؛ -٨٥٩-؛ -٨٦٠-؛ -٨٦١-؛ -٨٦٢-؛ -٨٦٣-؛ -٨٦٤-؛ -٨٦٥-؛ -٨٦٦-؛ -٨٦٧-؛ -٨٦٨-؛ -٨٦٩-؛ -٨٧٠-؛ -٨٧١-؛ -٨٧٢-؛ -٨٧٣-؛ -٨٧٤-؛ -٨٧٥-؛ -٨٧٦-؛ -٨٧٧-؛ -٨٧٨-؛ -٨٧٩-؛ -٨٨٠-؛ -٨٨١-؛ -٨٨٢-؛ -٨٨٣-؛ -٨٨٤-؛ -٨٨٥-؛ -٨٨٦-؛ -٨٨٧-؛ -٨٨٨-؛ -٨٨٩-؛ -٨٩٠-؛ -٨٩١-؛ -٨٩٢-؛ -٨٩٣-؛ -٨٩٤-؛ -٨٩٥-؛ -٨٩٦-؛ -٨٩٧-؛ -٨٩٨-؛ -٨٩٩-؛ -٩٠٠-؛ -٩٠١-؛ -٩٠٢-؛ -٩٠٣-؛ -٩٠٤-؛ -٩٠٥-؛ -٩٠٦-؛ -٩٠٧-؛ -٩٠٨-؛ -٩٠٩-؛ -٩١٠-؛ -٩١١-؛ -٩١٢-؛ -٩١٣-؛ -٩١٤-؛ -٩١٥-؛ -٩١٦-؛ -٩١٧-؛ -٩١٨-؛ -٩١٩-؛ -٩٢٠-؛ -٩٢١-؛ -٩٢٢-؛ -٩٢٣-؛ -٩٢٤-؛ -٩٢٥-؛ -٩٢٦-؛ -٩٢٧-؛ -٩٢٨-؛ -٩٢٩-؛ -٩٣٠-؛ -٩٣١-؛ -٩٣٢-؛ -٩٣٣-؛ -٩٣٤-؛ -٩٣٥-؛ -٩٣٦-؛ -٩٣٧-؛ -٩٣٨-؛ -٩٣٩-؛ -٩٤٠-؛ -٩٤١-؛ -٩٤٢-؛ -٩٤٣-؛ -٩٤٤-؛ -٩٤٥-؛ -٩٤٦-؛ -٩٤٧-؛ -٩٤٨-؛ -٩٤٩-؛ -٩٥٠-؛ -٩٥١-؛ -٩٥٢-؛ -٩٥٣-؛ -٩٥٤-؛ -٩٥٥-؛ -٩٥٦-؛ -٩٥٧-؛ -٩٥٨-؛ -٩٥٩-؛ -٩٦٠-؛ -٩٦١-؛ -٩٦٢-؛ -٩٦٣-؛ -٩٦٤-؛ -٩٦٥-؛ -٩٦٦-؛ -٩٦٧-؛ -٩٦٨-؛ -٩٦٩-؛ -٩٧٠-؛ -٩٧١-؛ -٩٧٢-؛ -٩٧٣-؛ -٩٧٤-؛ -٩٧٥-؛ -٩٧٦-؛ -٩٧٧-؛ -٩٧٨-؛ -٩٧٩-؛ -٩٨٠-؛ -٩٨١-؛ -٩٨٢-؛ -٩٨٣-؛ -٩٨٤-؛ -٩٨٥-؛ -٩٨٦-؛ -٩٨٧-؛ -٩٨٨-؛ -٩٨٩-؛ -٩٩٠-؛ -٩٩١-؛ -٩٩٢-؛ -٩٩٣-؛ -٩٩٤-؛ -٩٩٥-؛ -٩٩٦-؛ -٩٩٧-؛ -٩٩٨-؛ -٩٩٩-؛ -١٠٠٠-؛ -١٠٠١-؛ -١٠٠٢-؛ -١٠٠٣-؛ -١٠٠٤-؛ -١٠٠٥-؛ -١٠٠٦-؛ -١٠٠٧-؛ -١٠٠٨-؛ -١٠٠٩-؛ -١٠١٠-؛ -١٠١١-؛ -١٠١٢-؛ -١٠١٣-؛ -١٠١٤-؛ -١٠١٥-؛ -١٠١٦-؛ -١٠١٧-؛ -١٠١٨-؛ -١٠١٩-؛ -١٠٢٠-؛ -١٠٢١-؛ -١٠٢٢-؛ -١٠٢٣-؛ -١٠٢٤-؛ -١٠٢٥-؛ -١٠٢٦-؛ -١٠٢٧-؛ -١٠٢٨-؛ -١٠٢٩-؛ -١٠٣٠-؛ -١٠٣١-؛ -١٠٣٢-؛ -١٠٣٣-؛ -١٠٣٤-؛ -١٠٣٥-؛ -١٠٣٦-؛ -١٠٣٧-؛ -١٠٣٨-؛ -١٠٣٩-؛ -١٠٤٠-؛ -١٠٤١-؛ -١٠٤٢-؛ -١٠٤٣-؛ -١٠٤٤-؛ -١٠٤٥-؛ -١٠٤٦-؛ -١٠٤٧-؛ -١٠٤٨-؛ -١٠٤٩-؛ -١٠٥٠-؛ -١٠٥١-؛ -١٠٥٢-؛ -١٠٥٣-؛ -١٠٥٤-؛ -١٠٥٥-؛ -١٠٥٦-؛ -١٠٥٧-؛ -١٠٥٨-؛ -١٠٥٩-؛ -١٠٦٠-؛ -١٠٦١-؛ -١٠٦٢-؛ -١٠٦٣-؛ -١٠٦٤-؛ -١٠٦٥-؛ -١٠٦٦-؛ -١٠٦٧-؛ -١٠٦٨-؛ -١٠٦٩-؛ -١٠٧٠-؛ -١٠٧١-؛ -١٠٧٢-؛ -١٠٧٣-؛ -١٠٧٤-؛ -١٠٧٥-؛ -١٠٧٦-؛ -١٠٧٧-؛ -١٠٧٨-؛ -١٠٧٩-؛ -١٠٨٠-؛ -١٠٨١-؛ -١٠٨٢-؛ -١٠٨٣-؛ -١٠٨٤-؛ -١٠٨٥-؛ -١٠٨٦-؛ -١٠٨٧-؛ -١٠٨٨-؛ -١٠٨٩-؛ -١٠٩٠-؛ -١٠٩١-؛ -١٠٩٢-؛ -١٠٩٣-؛ -١٠٩٤-؛ -١٠٩٥-؛ -١٠٩٦-؛ -١٠٩٧-؛ -١٠٩٨-؛ -١٠٩٩-؛ -١١٠٠-؛ -١١٠١-؛ -١١٠٢-؛ -١١٠٣-؛ -١١٠٤-؛ -١١٠٥-؛ -١١٠٦-؛ -١١٠٧-؛ -١١٠٨-؛ -١١٠٩-؛ -١١١٠-؛ -١١١١-؛ -١١١٢-؛ -١١١٣-؛ -١١١٤-؛ -١١١٥-؛ -١١١٦-؛ -١١١٧-؛ -١١١٨-؛ -١١١٩-؛ -١١٢٠-؛ -١١٢١-؛ -١١٢٢-؛ -١١٢٣-؛ -١١٢٤-؛ -١١٢٥-؛ -١١٢٦-؛ -١١٢٧-؛ -١١٢٨-؛ -١١٢٩-؛ -١١٣٠-؛ -١١٣١-؛ -١١٣٢-؛ -١١٣٣-؛ -١١٣٤-؛ -١١٣٥-؛ -١١٣٦-؛ -١١٣٧-؛ -١١٣٨-؛ -١١٣٩-؛ -١١٤٠-؛ -١١٤١-؛ -١١٤٢-؛ -١١٤٣-؛ -١١٤٤-؛ -١١٤٥-؛ -١١٤٦-؛ -١١٤٧-؛ -١١٤٨-؛ -١١٤٩-؛ -١١٥٠-؛ -١١٥١-؛ -١١٥٢-؛ -١١٥٣-؛ -١١٥٤-؛ -١١٥٥-؛ -١١٥٦-؛ -١١٥٧-؛ -١١٥٨-؛ -١١٥٩-؛ -١١٦٠-؛ -١١٦١-؛ -١١٦٢-؛ -١١٦٣-؛ -١١٦٤-؛ -١١٦٥-؛ -١١٦٦-؛ -١١٦٧-؛ -١١٦٨-؛ -١١٦٩-؛ -١١٧٠-؛ -١١٧١-؛ -١١٧٢-؛ -١١٧٣-؛ -١١٧٤-؛ -١١٧٥-؛ -١١٧٦-؛ -١١٧٧-؛ -١١٧٨-؛ -١١٧٩-؛ -١١٨٠-؛ -١١٨١-؛ -١١٨٢-؛ -١١٨٣-؛ -١١٨٤-؛ -١١٨٥-؛ -١١٨٦-؛ -١١٨٧-؛ -١١٨٨-؛ -١١٨٩-؛ -١١٩٠-؛ -١١٩١-؛ -١١٩٢-؛ -١١٩٣-؛ -١١٩٤-؛ -١١٩٥-؛ -١١٩٦-؛ -١١٩٧-؛ -١١٩٨-؛ -١١٩٩-؛ -١٢٠٠-؛ -١٢٠١-؛ -١٢٠٢-؛ -١٢٠٣-؛ -١٢٠٤-؛ -١٢٠٥-؛ -١٢٠٦-؛ -١٢٠٧-؛ -١٢٠٨-؛ -١٢٠٩-؛ -١٢١٠-؛ -١٢١١-؛ -١٢١٢-؛ -١٢١٣-؛ -١٢١٤-؛ -١٢١٥-؛ -١٢١٦-؛ -١٢١٧-؛ -١٢١٨-؛ -١٢١٩-؛ -١٢٢٠-؛ -١٢٢١-؛ -١٢٢٢-؛ -١٢٢٣-؛ -١٢٢٤-؛ -١٢٢٥-؛ -١٢٢٦-؛ -١٢٢٧-؛ -١٢٢٨-؛ -١٢٢٩-؛ -١٢٣٠-؛ -١٢٣١-؛ -١٢٣٢-؛ -١٢٣٣-؛ -١٢٣٤-؛ -١٢٣٥-؛ -١٢٣٦-؛ -١٢٣٧-؛ -١٢٣٨-؛ -١٢٣٩-؛ -١٢٤٠-؛ -١٢٤١-؛ -١٢٤٢-؛ -١٢٤٣-؛ -١٢٤٤-؛ -١٢٤٥-؛ -١٢٤٦-؛ -١٢٤٧-؛ -١٢٤٨-؛ -١٢٤٩-؛ -١٢٥٠-؛ -١٢٥١-؛ -

الأثر الذى خلفته هذه الشيوعية المسيحية فى عقول غير المؤمنين واضح من قصة بيريجرينوس بروتينوس، التى كتبت فى ١٦٥ ب.م، من قبل لوسيان. لوسيان الساخر ليس بالطبع مراقبا غير متحيز، وهو يروى كثيرا من الثرثرات الخبيثة من تنويع بعيدة الاحتمال، منها على سبيل المثال أن بيريجرينوس قد ترك مدينته الأم، باريوم على الهيلسبوننت، لأنه قتل أبيه. ومادام لم يوجه إليه اتهام قضائي أبدا فى المحكمة يخص هذا الانتهاك، فإن الأمر على الأقل مشكوك فيه تماما.

ولكن بعد أن طبقنا المحاذير الضرورية على رواية لوسيان، مازال لدينا مايكفى مما له أهمية عظيمة لأنه لا يظهر فقط كيف تأثر الوثنيون بالمجمع المسيحى، وإنما يقدم أيضاً لمحات عن الحياة الفعلية للأول.

بعد أن قام لوسيان بإطلاق عدد من أكثر التصريحات خبثا حول بيريجرينوس، يروى كيف أصبح الأخير منفيا طوعا بعد أن قتل أبيه وارتحل فى العالم:

“أصبح ملما أيضاً فى هذا الوقت بحكمة المسيحيين المثيرة للإعجاب بالتدخل مع كهنتهم وكتبهم فى فلسطين. سرعان ماظهروا مجرد أطفال بالمقارنة معه، لقد أصبح نبيهم؛ المتحدث فى مادبهم (ζ-η-ρ-α-σ-ι-θ-؛-)، رئيس المعبد (لايميز لوسيان بوضوح بين اليهود والمسيحيين، ك)، الجميع فى شخص واحد؛ علق على عدد من الكتابات وفسرها لهم، وكتب عددا منها بنفسه، باختصار، اعتبروه الها، جعلوه مشرعهم ونصبوه قائدا لهم. بالطبع، مازالوا يوقرون الرجل العظيم الذى صلب فى فلسطين، لأنه أدخل الدين الجديد (T-ε-λ-ε-τ-η-؛-) لهذا السبب أعتقل بيريجرينوس وألقى به فى السجن، الأمر الذى أعطاه مكانه خاصة بقية حياته، زيادة على ذلك أضفى عليه عادات كذبه ورغبته فى الشهرة، التى أصبحت العاطفة المهيمنة عليه”.

“حين كان ملقى فى السجن، اعتقد المسيحيون أن هذا سوء حظ عظيم، ولم يألوا جهدا فى مساعدته على الهرب، وحيث وجدوا أن هذا مستحيل غمروه بكل عناية ممكنة واهتمام. بدءا من الصباح الباكر يمكنك أن ترى النساء العجائز، الأرامل واليتامى، جالسين خارج السجن بينما شيوخهم يرشون الحراس ويقضون الليل معه. كانوا يأتون له بكثير من الطعام، ويتبادلون خرافاتهم المقدسة، والعزيز بيريجرينوس، كما كانوا لايزالون يسمونه، كان سقراطا جديدا فى عيونهم، ممثلين معينين من المجامع المسيحية أتوا حتى من المدن الأسيوية من أجل مساندته، ولمساعدته فى المحكمة، ولتعزيته. فى حالات كهذه، التى تتدخل فيها أخوتهم، يظهرون حماسا لا يصدق، باختصار، لا يدخرون ثروة. لقد تلقى بيريجرينوس أيضاً نفودا كثيرة منهم بسبب سجنه، ولم يكن ماحصل عليه بالقليل لذلك.

“لأن هؤلاء البؤساء الحزانى يعيشون مقتنعين بأنهم سوف يكونون جميعا خالدين ويعيشون إلى الأبد، لذلك فهم يحتقرون الموت وغالبا مايسعون إليه طوعا. أضف إلى ذلك، فإن مشرعهم الأول قد صوّر لهم أنهم جميعا قد أصبحوا أخوة منذ أن

هجروا الآلهة الهيلينية، وعبدوا معلمهم ذاك المصلوب وعاشوا وفق شرائعه؛ من ثم فإنهم يقدرّون كل الأشياء باعتبارها غير مهمة، معتبرين إياها ممتلكات مشتركة دون أن يكون لديهم أى سبب وجيه لهذه النظرة. إذا ما زارهم أفاق ذكى، قادر على استغلال الوضع، سرعان ما سوف يصبح غنيا جداً، بسبب قدرته على أن يخدع بمظهره الكاذب هذه الجماهير الساذجة”.

بالطبع قد لا يؤخذ كل هذا حرفياً؛ من المحتمل أنه ليس أكثر صدقا من حكايات الكنوز التي يراكمها المحرضون الاشتراكيون من ملائيم العمال. كان على المجمع المسيحي أن يصبح أولاً أغنى مما كان، قبل أن يصبح أحد غنيا منه. ولكن يحتمل أن يكون من الحقيقى أنه فى ذلك الوقت اعتنى جيداً بمحرضيه ومنظميه وقد استغل الزملاء عديمو الضمير هذا الوضع. ويجب أن نلاحظ أيضاً مايتضمنه هذا فى العلاقة بالشيوعية فى المجمع.

يخبرنا لوسيان عندئذ أن حكومة سوريا حررت بيريجرينوس لأن الأخير بدا لأهمية له. عاد بيريجرينوس على ذلك إلى مدينته الأم، حيث وجد أن ميراثه قد تناقص إلى حد بعيد. على أية حال، مازال لديه قدر كبير من النقود، اعتبره أتباعه ضخماً، وقد قدره حتى لوسيان، بشكل ملائم، بخمسة عشر تالنت (١٧٠٠٠ جنيه إسترليني). وقد أعطى هذا المبلغ لسكان مدينته الأم، حتى يحرر نفسه من الاتهام بقتل أبيه:

“لقد تحدث فى الجمعية الشعبية للباريين parians: كان قد بات لديه شعر طويل، ارتدى عباءة قذرة، وتطوق بحقيية، وحمل عصا فى يده، وقد خلق بصفة عامة انطباعاً مسرحياً للغاية. وقد ظهر أمامهم فى هذه الثياب وأعلن أن كل الأملاك التي تركها له والده ستكون ملكية الناس. حين سمع الناس هذا، الزملاء الفقراء الذين كان يسيل لعابهم على القسمة، صاحوا على الفور بأنه وحده كان صديقاً للحكمة والأمة، وأنه وحده خلف ديوجين وكراتيس. وهكذا ختمت أفواه الأعداء، ومن يتذكر حادثة القتل كان سيذبح على الفور”.

“انطلق فى رحلته الآن كرجال لا بيت له، ويمده المسيحيون للمرة الثانية بوفرة من النقود للسفر ويتبعونه فى كل مكان، ولايسمحون له بأن يعانى أى حاجة. وقد شق طريقه هكذا لبعض الوقت”.

ولكنه قد استبعد أخيراً من المجمع، لسبب مزعوم بأنه أكل طعاماً محرماً. وقد حرم هكذا من وسائل عيشه، وحاول أن يستعيد أملاكه، الأمر الذى لم يفلح فيه. بوصفه فيلسوفاً كلبياً وناسكاً متسولاً، تجول الآن عبر مصر، إيطاليا، بلاد الإغريق، ووضع أخيراً نهاية لحياته فى أولمبيا، مستهدياً بنمط الألعاب، فى حضور جمهور دعاه لهذا المشهد، بأن وثب بطريقة مسرحية فى محرقة فى منتصف الليل، على ضوء القمر.

من الواضح أن العصر الذي ظهرت فيه المسيحية كان غنياً بالمخلوقات الشاذة. ولكنه سوف يكون من الظلم أن نعتبر رجالاً مثل بيريجرينوس محتالين فقط، موته الطوعي وحده دليل على العكس. يتطلب الانتحار بالتأكيد باعتباره إيقافاً إعلانياً للحياة ليس فقط إحساساً بالحدود له باللاجدوى وحب الأحاسيس، وإنما أيضاً قدراً من الاحتقار للعالم والاشمئزاز من الحياة، وإلا وجب أن نصنفه كجنون كلية.

إذا لم يكن بيريجرينوس بروتينوس، كما صوره لوسيان، ليس بيريجرينوس الحقيقي، وإنما كاريكاتير، فإن الكاريكاتير ذكى. إن جوهر الكاريكاتير ليس مجرد تشويه للمظهر، ولكن تأكيد أحادى الجانب ومبالغة فى العناصر المحددة والمميزة. قد لا يكون رسام الكاريكاتير الحقيقي مجرد مهرج خيالى، فهو لابد وأن يخترق الأشياء ويدرك العناصر الأساسية وذات الدلالة فيها.

وهكذا أكد لوسيان أطوار بيريجرينوس تلك التى كانت ستصبح هامة لكل فئة "المقدسین والكاملين" التى كان ممثلها. ربما حفزتهم أكثر الدوافع اختلافاً، وهى أحياناً رفيعة، وأحياناً دوافع حمقاء، تبدو غير أنانية لأقصى حد بالنسبة لهم، ولكن خلف موقفهم الكلى نحو المجمع كان هناك بالفعل الاتجاه المستغل الذى لاحظته لوسيان. ربما كان لايزال اغتناء "المقدسین" المفقرين بشيوعية المجمع فى أيامه مبالغة، إلا أنه سرعان ما كان ما سيصبح واقعاً، واقع تجاوز وراءه نهائياً أفظ مبالغات الساخر عن مرحلتها الباكراً.

يضع لوسيان أشد تأكيد على "الثروة" التى حازها الأنبياء؛ وآخر، معاصر للوسيان، يؤكد جنونهم.

سيلسوس يصف "كيف يتنبأون فى فينيقيا وفلسطين":

"هناك كثيرون، بالرغم من أنهم ليسوا ذوى سمعة أو اسم، يتصرفون عند أدنى إثارة وبأكبر سهولة، داخل وخارج الأماكن المقدسة، كما لو كان قد غشيهم وجد نبوى؛ آخرون يتسكعون كمتسولين، يزورون المدن والمعسكرات الحربية، يقدمون نفس المشهد. كل منهم يملك الكلمات على طرف لسانه ويستعملها مباشرة: "أنا إله، أو ابن الله"، أو "روح" الله". لقد جئت لأن خراب العالم ما انفك يقترب، وأنتم أيها البشر ذاهبون إلى الدمار بسبب إثمكم. ولكن سوف أخلصكم، وسرعان ما تروننى آتياً مرة أخرى بقوة سماوية! طوبى لمن يبجلنى الآن. سوف أرسل كل الآخرين إلى الجحيم الأبدى، المدن وكذلك الأرياف وسكانها. الذين لن يعترفوا الآن بالهلاك الذى يتوعدهم، سرعان ما سيغيرون رأيهم بلا جدوى وحسرة! ولكن هؤلاء الذين آمنوا بى، سوف أحفظهم إلى الأبد. يضيفون لتلك التهديدات الطنانة كلمات فضولية، نصف بلهاء غير متماسكة مطلقاً قد لا يفهم معناها من قبل أى إنسان، مهما كان ذكياً، شديدة الغموض وفارغة؛ ولكن أول مغفل أو مشعوذ يسمعها يستطيع أن يفسرها على هواه هؤلاء الأنبياء المزعمين الذين سمعتهم أكثر من مرة بأذنى

هاتين قد اعترفوا بضعفهم لى، بعد أن أقنعهم، واعترفوا هم أنفسهم بأنهم قد اخترعوا كل كلماتهم "الغامضة".

هنا مرة أخرى نحن نتعامل مع التركيب اللطيف للمحتال والنبى، ولكن مرة أخرى سوف يكون من المغالاة إذا وصفنا العمل بمجمله باعتباره خداعا. إنه يشير فحسب إلى وضع عام للسكان قدم حقا طيبا لأنشطة المخادعين، ولكن الذى قدم سندا أيضاً لظهور حالات واقعية من مشاعر مبالغ فيها ووجدية فى عقول أثيرت بسهولة.

من المحتمل أن الرسل وكذلك الأنبياء كانوا متشابهين فى هذا الصدد. ولكنهم اختلفوا فى جانب هام واحد: الرسل لم يكن لهم موطن إقامة دائم؛ لقد ارتحلوا بلا مأوى الذى منه أتى اسمهم (C-O-λ-T-σ-ó-η-α-؛-، رسول، رحال، مسافر بحر)؛ الأنبياء من ناحية أخرى، كانوا "المشهورون المحليين". لا بد وأن فئة الرسل قد تطورت أولاً. بينما كان المجمع لا يزال صغيراً، لم يكن بمقدوره أن يعول بشكل دائم محرضاً. بمجرد أن تستنفد وسائل إعالتة، كان عليه أن يذهب لمكان آخر. وبينما كان عدد المجمع صغيراً، كان الواجب المهم هو تأسيس مجامع جديدة فى المدن التى ليس بها مجمع بعد. كان توسع التنظيم فى حقول جديدة، لم تمس حتى الآن، وإبقاء صلة بينها، المهمة العظمى لهؤلاء المحرضين الرحالين، الرسل. إنهم مسئولون بصفة خاصة عن الطابع الأسمى للتنظيم المسيحى، الذى أسهم كثيراً فى دوامه. يمكن لتنظيم محلى أن يدمر، لأن ليس له دعماً خارجياً. لقد كان ممكناً بالكاد، بالموارد التى كانت عندئذ تحت تصرف سلطة الدولة، أن تضطهد كل المجمع المسيحية فى كل أجزاء الإمبراطورية. لقد بقيت دائماً هناك قلة استطاعت تقديم المساعدة المادية للمضطهدين، والتى بحث عندها المضطهدون عن مأوى. كان هذا يعود قبل كل شيء للرسل الذين كانوا يتحركون دوماً، والذين لا بد وأن عددهم فى بعض الأوقات كان معتبراً.

لم يتمكن المحرضون المحليون، المعنيون تحديداً بالعمل التنظيمى من الظهور إلى أن حازت مجامع معينة حجماً أتاح لها وسائل الحفاظ على مثل هؤلاء المحرضين بشكل دائم.

كلما كان عدد المدن التى تضم مجامع مسيحية أكبر، وكلما كانت عضوية الأخيرة أكبر، كلما ازدهر الأنبياء، وبات حقل نشاط الرسل أصغر، الذين اشتغلوا أساساً حتى الآن فى المدن التى لا تحتوى على مجامع أو على مجامع صغيرة فحسب، تدهورت مكانة الرسل بالضرورة. ولكن لا بد أنه كان هناك نوع من التعارض بينهم وبين الأنبياء. لأن وسائل المجمع كانت محدودة. كلما أخذ الرسل أكثر لأنفسهم، ترك القليل للأنبياء. لقد جاهد الأخيرون بالضرورة ليحطوا من المكانة المتدهورة بالفعل للرسل، ليحدوا من الهبات التى تخصص لهم، من ناحية أخرى، أن يرفعوا مكانتهم الخاصة وأن يبلوروا ادعاءات محددة على هبات المؤمنين.

هذه الجهود ظاهرة بوضوح في مذهب (فن التعليم Didache) الرسل الاثني عشر، الذي اقتبسناه سلفا عدة مرات، وهي وثيقة كتبت بين ١٣٥ و ١٧٠ ب.م. نقرأ في هذه الوثيقة:

“كل رسول يأتي اليك سوف يستقبل باعتباره المعلم. ولكنه لا يجب أن يبقى أكثر من يوم واحد؛ يومان على الأكثر. ولكنه إذا بقى لثلاثة أيام، فهو نبي كاذب. وحين يغادرك الرسول، فلن يتلقى شيئا عدا ما يحتاجه من الخبز في رحلته إلى محطته التالية. ولكنه إذا طلب نقودا، فهو نبي زائف”.

“لا تغوى ولا تختبر أى نبي يتحدث في الروح لأن كل خطية سوف تغفر أما هذه الخطية فلن تغفر. ولكن ليس كل إنسان يتحدث في الروح نبي، وانما من كان له سلوك المعلم فقط، ومن ثم فإن النبي والنبي الزائف يمكن أن يميزا بسلوكهما. وليس هناك نبي، مدفوع بروح الله، يطلب وجبة (يقول هارناك: من أجل الفقير) سوف يتقاسم فيها إلا إذا كان نبيا زائفا. ولكن كل نبي يعلم الحقيقة هو نبي زائف إذا لم يمارس ما يبشر به. وكل نبي، مختبر وصادق، يتصرف باحترام نحو الأسرار الأرضية للكنيسة، ولكنه لا يعلم الآخرين أن يقوموا بما يقوم به هو نفسه؛ لاتحكم عليه بنفسك؛ لأن دينونته بيد الله. تصرف الأنبياء (المسيحيون) القدامى هكذا دائما”.

يحتمل أن هذا المقطع في الحقيقة يحتوى على إشارة إلى الحب الحر، الذي كان سيسمح به للرسول، اذا لم يسألوا المجمع أن يحاكى مثالهم، كما رأينا سلفا. ونقرأ المزيد:

“من يقول في الروح؛ اعطنى نقودا أو شيئا ما آخر، لاتلتفت إليه؛ ولكن إذا طلب هبات لمعوزين آخرين، لا يدينه أحد”.

“ولكن كل إنسان يأتي باسم الرب (بمعنى آخر، كل رفيق، ك)، دعه يدخل، ولكنك سوف تختبره وتميز الصادق من الزائف، لأنه يجب أن يكون لك فهم. إذا كان الآتي الجديد زائرا عابرا، ساعده، ولكنه لن يبقى أكثر من يومين أو ثلاثة معك على الأكثر. إذا رغب في أن يستقر بينكم، دعه يعمل ويأكل، إذا كان حرفيا. ولكن إذا لم يكن يعرف تجارة، انظر (للمسألة) حسب علمك بأنه لن يعيش مسيحي عاطلا بينكم. إذا لم يقبل هذا الشرط، فإنه واحد ممن يتكسبون من المسيح. تجنب مثل هذا”.

لقد كان من ثم يعتبر ضروريا بالفعل أن يراعى أن المجمع لم يكن يكتسحه ويستغله متسولين من أماكن أخرى. ولكن كان على هذا أن يطبق فقط على المتسولين العموميين: “ولكن كل نبي حقيقى يرغب في أن يقيم بينكم جدير بما يقيم أوده. بالمثل، معلم حقيقى، مثل أى عامل جدير بما يقيم أوده. كل بواكير ثمارك ومعاصر خمرك ودراس الحنطة، من ماشيتك وخرافك، سوف تأخذها وتعطها للأنبياء، لأنهم

رؤساء كهنتك. ولكن إذا لم يكن عندك نبي اعطها للفقراء. حين تصنع فطيرا، خذ القطعة الأولى منه وقدمها وفقا للوصايا. وبالمثل حين تفتح وعاءا للخمر أو الزيت، خذ الدفقة الأولى واعطها للأنبياء. ولكن من النقود واللباس والممتلكات الأخرى، خذ نصيبا حسب تقديرك وقدمه وفقا للوصايا".

يعامل الرسل بغاية الجور فى هذه التعليمات. ليس من الممكن بعد أن يجمعوا تماما، ولكن المجمع الذى قدموا فيه أنفسهم عليه أن يرسلهم بأقصى سرعة ممكنة. بينما رفيق عادى عابر قد يطلب استضافة المجمع ليومين أو ثلاثة، الرسول التعس يحصل فقط على يوم أو يومين. ولكنه لا يستطيع أن يطلب نقودا على الإطلاق.

النبي، من ناحية أخرى، "جدير بما يقيم أوده" ! يجب أن يعال من صندوق المجمع. ولكن إضافة إلى هذا، فإن المؤمنين مضطرين أن يسلموا إليه كل بواكير الثمار، الخمر، الخبز، الزيت والقماش، حتى من دخلهم النقدي.

يتوافق هذا تماما مع الوصف الذى قدمه لوسيان فى نفس الوقت الذى كتب فيه المذهب (فن التعليم Didache)، عن الحياة المزدهرة لبيريغرينوس الذى كان قد أعلن نفسه نبيا. بينما كان الأنبياء يزيحون الرسل هكذا، كانوا هم أنفسهم يواجهون منافسة جديدة ممثلة فى المعلمين، الذين كانت أهميتهم حين كتب المذهب ضئيلة تماما حتى أنهم قد ذكروا عرضا فقط.

بالإضافة لهذه العناصر الثلاثة، كان هناك أيضاً آخرون نشطون فى المجمع الذين لم يذكروا فى المذهب Didache. يذكرهم بولس جميعا فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين (٢٨/١٢):

"فوضع الله اناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قواتٍ وبعد ذلك مواهب الشفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة".

من تلك، أعوانا وتدابير أصبحت غاية فى الأهمية، ولكن ليس تلك الخاصة بالشعوزة والشفاء، التى من المحتمل أنها لم تأخذ، فى المجمع أية أشكال ميزتها عن ماهو جار بصفة عامة فى تلك الأزمنة. إن ظهور المعلمين مرتبط بدخول العناصر الغنية والمتقفة إلى المجمع. كان الرسل والأنبياء إناسا جهلة واصلوا الكلام، دون أن يدرسوا أبدا موضوعات ملاحظاتهم. من المحتمل أن المثقفين قد تعالوا فحسب على هذا. سرعان ما وجد أشخاص فى عداد الأخيرين انجذبوا إما بالطبيعة الخيرية للمجمع، أو بقوته، أو يمكن بالطابع العام للمذهب المسيحى، وحاولوا أن يرتفعوا بالآخر إلى مرحلة أعلى مما كان يعرف آنذاك كعلم، الذى، لاشك، لم يعد يرقى للكثير. أصبح هؤلاء الأشخاص معلمون. لقد كانوا من سعى أولا لملئ المسيحية بروح سينيكا أو فيلون، التى لم يكن لديها قبلا منها الكثير.

ولكن كان ينظر اليهم، بحسد وكرهية من هيئة المجمع، من المحتمل أيضاً من قبل غالبية الرسل والأنبياء؛ ربما لم تكن العلاقة متباينة عن تلك التى بين اليد "الخشنة" عند "الكادح" و "المتقنين" بالرغم من ذلك فقد كان للمعلمين بلا شك أن يؤمنوا مكانة أكبر فأكبر مع تزايد العناصر الثرية والمتقفة داخل المجمع، وأن يتخلصوا فى النهاية من الأنبياء والرسل.

ولكن قبل أن تبلغ الأمور هذا الحد، كانت الفئات الثلاثة قد امتصتها سلطة كانت قد بدأت تتجاوزها جميعاً فى القوة، ولكن التى يذكرها المذهب Didache عرضاً فقط: الأسقف.

د - الأسقف

لم تكن بدايات المجمع المسيحية مختلفة فى ظروفها عن الظروف التى أحاطت بكل تنظيم بروليتارى جديد. مؤسسوها، رسلها، كان عليهم أن يديروا كل عمل المجمع بأنفسهم، الدعاية وكذلك التنظيم والإدارة. ولكن مع نمو المجمع، أصبحت الحاجة لتقسيم العمل محسوسة، ضرورة تخصيص وظائف معينة لموظفين محددين.

أولاً، جعلت إدارة دخل ونفقات المجمع منصبا مجمعياً منفصلاً.

يمكن أن يقوم أى عضو بالدعاية بالطريقة التى يعتقد أنها أفضل. حتى هؤلاء الذين كانوا معينين على وجه الحصر بالدعاية لم يعهد اليهم، فى القرن الثانى، كما رأينا تواء، بهذه المهمة من قبل المجمع. كان الرسل والأنبياء معينين ذاتياً فى مهماتهم، أو كما بدا لهم، فقد تبعوا صوت الله فقط. إن المكانة التى نعم بها الداعية الفرد فى المجمع بغض النظر عما إذا كان رسولاً أو نبياً، وكذلك قدر دخله، اعتمدت على الانطباع الذى خلقه، بمعنى آخر على شخصيته.

من ناحية أخرى، إن الحفاظ على الانضباط الحزبى، إذا جاز لنا أن نسميه كذلك، كان مسألة للمجمع ذاته، مادام المجمع كان صغيراً وعرف كل الأعضاء منهم الآخر. بت المجمع نفسه بشأن دخول الأعضاء الجدد، لم يكن مهماً من يدير الاحتفال الأولى، الذى كان يتعلق بالتمديد. قرر المجمع نفسه بشأن عمليات الطرد، حفظ السلام بين الرفاق، قرر بشأن الخلافات التى قد تنشأ بينهم. لقد كان المحكمة التى تحاكم أمامها كل الاتهامات التى تقام من رفاق ضد رفاق. لم يكن المسيحيون أقل شكا فى محاكم الدولة من الاشتراكيين الآن. كانت وجهات نظرهم الاجتماعية أيضاً فى تناقض حاد مع وجهات نظر قضاة الدولة. لقد كان المسيحي يعتبرها خطيئة أن يقف أمام قاضى الدولة بحثاً عن حقوقه، خاصة فى حالة تتضمن خصومة مع رفيق. وهكذا فإن جرثومة سلطة قضائية خاصة قد زرعت، سلطة ادعتها الكنيسة دائماً على أتباعها، باعتبارها معارضة لمحاكم الدولة. بالطبع، فى هذا الأمر أيضاً، شوه تماماً طابع القانون الأسمى للكنيسة فيما بعد، لأنه، فى بدايات المجمع المسيحي، فقد دلت محاكمة المتهم من قبل أنداده على إلغاء العدالة الطبقية.

فى رسالة بولس الأولى "الى الكورنثيين (١/٦-٤) نقرأ:

"أيتجاسر منكم أحد له دعوى على آخر، أن يحاكم عند الظالمين، وليس عند القديسين. (يعنى الرفاق)؟ أستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟ فإن كان العالم يدان بكم فأنتم غير مستاهلين للمحاكم الصغرى؟ أستم تعلمون أننا سندين ملائكة؟ فبالأولى أمور هذه الحياة؟ فإن كان لكم محاكم فى أمور هذه الحياة فأجلسوا المحقرين فى الكنيسة قضاة".

لقد كان لحفظ النظام والسلام فى المجمع فى البداية شكلا بسيطا وصلة ضئيلة بأى منصب محدد أو أى سلطة محددة كما كان للدعاية نفسها.

ولكن تطلب العامل الإقتصادى تنظيما حتى فى مرحلة باكورة، خاصة مادام المجمع لم يكن مجرد تنظيم للدعاية، ولكن منذ البداية أيضاً جمعية للمساعدة المتبادلة.

وفقا لأعمال الرسل، سرعان ما استشعرت الحاجة فى مجمع أورشليم لأن يعهد لرفاق معينين بجمع وتوزيع هبات الأعضاء، خاصة تقديم الوجبات على المائدة. Diakoneo (ω-; -ε-; -ν-; -ο-; -κ-; -α-; -ι-; -δ-; -;) وهى كلمة تعنى أن يخدم، خاصة على المائدة. من الواضح أن هذا كان أول مهمة رئيسة للشمامسة deacons، حيث كانت الوجبة المشتركة الوظيفة الرئيسية للشيوخية المسيحية الأولية.

نقرأ فى أعمال الرسل:

"وفى تلك الأيام، إذ تكاثر التلاميذ، حدث تذر من اليونانيين على العبرانيين أن "أراملهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية فدعا الاثنى عشر (كان الرسل فى الواقع إحدى عشر آنئذ، إذا اعتبرنا الحساب فى الأناجيل حسب قيمته الظاهرية) جمهور التلاميذ وقالوا: لايرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد. فانتخبوا أيها الأخوة سبعة رجال منكم مشهودا لهم ومملوءين من الروح القدس، وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة" (١/٦-٣).

يخبرنا التقرير بأن هذا الاقتراح قد نفذ، وهو مايبدو جديرا بالتصديق تماما بطبيعة الحال.

أعفى الرسل من ثم من خدمتهم كنادلين فى قاعة الطعام، التى كانوا مضطرين أصلا للقيام بها بالإضافة إلى الدعاية التى أصبحت عبئا ثقيلًا عليهم مع زيادة المجمع. ولكن النادلين المعينين حديثا (الشمامسة) كان عليهم بالضرورة أيضاً أن يقسموا مهماتهم. كانت الخدمة على المائدة وعمليات الخدمة والنظافة الأخرى أمرا مختلفا تماما عن جمع وإدارة اشتراكات الأعضاء. تضمن هذا المنصب قدرا كبيرا من الأمانة، معرفة بالأعمال، وعطفا، مقترنا بالصرامة.

وقد عين من ثم مديراً على الشمامسة. كان تعيين مدير كهذا أمراً حتمياً. كل تنظيم لديه ملكية أو دخل يجب أن يكون له مثل هذا المدير. حمل الموظفون الإداريون والماليون لقب Epimeletes أو Episkopos (المراقب، المشرف). لقد استعمل نفس الاسم أيضاً في حكومة المدن لبعض الموظفين الإداريين. هاتش، الذى يتتبع هذا التطور بالتفصيل، ويصفه فى كتاب ندين له بمعلومات كثيرة حول هذا الموضوع، يقتبس من القاضى الرومانى كاريسيوس ما يلى: "الأساقفة (Episcopi) هم هؤلاء الذين يشرفون على الخبز والأشياء الأخرى المشتركة، ويخدمون لأجل المعيشة اليومية لسكان المدينة

(eppiscopi, qui praesunt pani et caeteris venalibus rebus)
(quae civitatum populis at quotidianum victum usui sunt)

كان أسقف المدينة من ثم مديراً رسمياً معنى خاصة بالتغذية الملائمة للسكان. لقد كان من الطبيعى إعطاء نفس اللقب لمدير "بيت الشعب"، المسيحى.

لقد قرأنا سلفاً عن الخزانة العامة للمجمع، التى ذكرها ترتليان. نحن نعلم من الدفاع الأول لجوستين الشهيد (ولد حوالى ١٠٠ ب.م) أن إدارة هذه الخزانة قد عهد بها إلى أمين خاص. يقول ترتليان:

"الأثرياء والراغبون قد يعطون على هواهم من ممتلكاتهم، تجمع الهبات وتودع مع المشرف، يعول الأخير بعد ذلك اليتامى، الذين يعانون الفاقة بسبب المرض أو لسبب آخر، والسجناء والغرباء فى المدينة، ويعنى بكل ذوى الحاجة بشكل عام". جهد كثير، مسئولية كثيرة، ولكن أيضاً سلطة كبيرة وضعت هكذا بين يدى الأسقف.

كان منصب الأسقف فى بدايات المجمع وكذلك مساعديه ووظائف أخرى فى المجمع، مناصب شرفيه، تمارس بلا مكافأة بالإضافة إلى التجارة المنتظمة لكل موظف:

"احتفظ الأساقفة والقسس فى تلك الايام الباكرا ببنوك، مارسوا الطب، زخرفوا كصاغة: فضة، رعوا الخراف، أو باعوا سلعهم فى الأسواق المفتوحة القانون الأساسى القائم للمجالس المحلية الأولى حول المسألة هى أن الأساقفة لا يجب أن يبيعوا سلعهم بالتجزئة من سوق إلى سوق، ولا أن يستخدموا وضعهم ليشتروا أرخص ويبيعوا أغلى من الناس الآخرين".

ولكن حيث نما المجمع، أصبح من المستحيل تصريف وظائفه الاقتصادية العديدة باعتبارها هواية. بات الأسقف موظفاً لدى المجمع وتلقى راتباً مدفوعاً.

ولكن هذا جعل توليه للمنصب دائماً. لقد كان للمجمع حق إبعاده اذا لم يحقق متطلباته، ولكن من الواضح أنه سوف يحس ببعض النفور من حرمان رجل من

منصبه وإبعاده عن مهامه. من ناحية أخرى، تطلبت إدارة أعمال المجمع درجة معينة من المهارة وإلماما بظروف المجمع، التي يمكن أن تحرز فقط بواسطة نشاط طويل في المنصب. لقد كان ضروريا، من ثم، من أجل تسهيل تصريف أعمال المجمع، تجنب أى تغيير غير ضرورى فى منصب الأسقف.

ولكن كلما بقى الأسقف أطول فى المنصب، كلما تزايدت بالضرورة مكانته وسلطته، إذا كان كفؤا لمتطلبات المنصب.

لم يبق الموظف الدائم الوحيد للمجمع. لم يكن من الممكن أيضاً أن يمارس منصب الشماسية دوما كهواية. كان يدفع أيضاً للشماسية، مثل الأسقف، من مالية المجمع، ولكنهم كانوا مرؤوسيه. الأسقف، الذى كان عليه أن يعمل معهم، كان لهذا السبب يستشار عند تعيينهم. وهكذا كان للأسقف ميزة توزيع الأعمال فى المجمع الأمر الذى زاد نفوذه بالضرورة.

حيث تزايد المجمع، فقد أصبح من المستحيل له أن يعنى بشئون انضباطه. لم يتزايد فقط عدد الأعضاء، وإنما أيضاً تنوعت مهنتهم. بينما شكلوا جميعا فى البداية عائلة واحدة، ألف كل واحد فيها الرفاق الآخرين، واتحد كلهم تماما الواحد مع الآخر فى الفكر والشعور، هكذا مؤلفين نخبة من المتحمسين المضحين بالذات، تغير هذا الشرط تدريجيا مع زيادة المجمع. حصلت أكثر العناصر تباينا على (حق) الدخول. عناصر من طبقات وأقاليم مختلفة، غالبا غريبة وبدون فهم كل منها للآخر، أحيانا معادية حتى كل منها للآخر – مثل العبيد وملاك العبيد – أيضاً عناصر لم تكن مدفوعة بالحماس، ولكن بالحساب الماكر، أن تستغل سذاجة وكرم الرفاق. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك اختلاف فى وجهات النظر – أنتج كل هذا بالضرورة جدالات من كل الأنواع، خلافات لم يكن يمكن أن تحسم غالبا من خلال مناقشة بسيطة فى تجمعات المجمع، ولكن تطلبت بالأحرى أبحاثا طويلة عن الحقائق الفعلية.

من ثم عهد إلى لجنة، لجنة الشيوخ، أو الكهنة بمهمة حفظ الانضباط وحل الخلافات التى تنشأ داخله، وتقديم تقرير للمجمع عن طرد الأعضاء غير الجديرين بالعضوية، ربما أيضاً البت بشأن دخول أعضاء جدد، الذين احتفلت بدخولهم هذه اللجنة بالاحتفال الإستهلالى: التعميد.

الأسقف، الذى كان عالما تحديدا بكل الشئون المجمعية، كان رئيس هذه اللجنة وهكذا حصل على نفوذ على التنظيم الأخلاقى والقضائى للمجمع، حيثما أصبح الكهنة (كلمة كاهن priest مشتقة من presbyter)، بسبب الحجم المتزايد للمجمع، موظفيه الدائمين مدفوعى الأجر، فقد وضعوا مباشرة تحت سلطان حارس مالية المجمع، الأسقف، وكذلك كان الشماسية أيضاً.

يمكن للمجمع بسهولة فى مدينة كبرى، أن يصبح كبيراً جداً حتى ليتطلب أكثر من بناء واحد لىأوى تجمعاته. لقد كان مقسماً عندئذ إلى مقاطعات، فى كل مقاطعة تجمع.

كان على الشمس أن يقوم على خدمته، بينما فوض الأسقف كاهناً لىدير التجمع ويمثل الأسقف. كان الحال فى الضواحي والقرى مماثلاً. حيث وقعت هذه قرية من مجمع كمجمع روما أو الإسكندرية، كان نفوذ الأخير طاغياً، ووقع المجمع المجاور مباشرة تحت تأثير المدينة الكبرى وأسقفها، الذى أرسل لهم شمامسته وكهنته.

وهكذا فقد تشكلت تدريجياً بيروقراطية مجمعية ترأسها الأسقف، أصبحت مستقلة وقوية أكثر فأكثر. لقد كان على المرء أن تكون له أعظم مكانة فى المجمع حتى ينتخب فى مركز كان يسعى إليه كثيراً. إذا ماتم الحصول على المنصب، فقد أضفى كثيراً من القوة على صاحب المنصب حتى أن أى أسقف ذو ذكاء وقدرة قليلين يمكن أن يفرض إرادته أكثر فأكثر، خاصة فى الأمور الشخصية، وأكثر من ذلك مادامت اتجاهاته قد توافقت من البداية مع (اتجاهات) أغلبية مجمعه.

كانت النتيجة أنه حاز سلطة ليس فقط على الأشخاص الذين قاموا بالوظائف فى إدارة المجمع، وإنما أيضاً على مثل هؤلاء الذين كانوا معنيين بالدعاية والنظرية.

لقد رأينا كيف نحى الرسل الأنبياء فى القرن الثانى ولكن كلا من الأنبياء والرسل، دخلوا فى نزاعات متكررة مع الأسقف، الذى لم يكن ليتردد فى مناسبات كهذه بأن يدعهم يشعرون بسلطته المالية والأخلاقية. من المحتمل أنه لم يجد أية صعوبة فى منع الرسل والأنبياء وحتى المعلمين من أن يقيموا فى المجمع حالما كشفوا عن اتجاهات لم ترضيه. ومن المحتمل أن هذا قد جرى مراراً كثيرة فى حالتى الأنبياء والرسل.

الأساقفة، بمعنى آخر، الممسكون بالمال، لم يجر اختيارهم بالطبع بالتفضيل من المتحمسين غير الأرضيين، ولكن من بين الرجال المقتصدين، المولعين بالأعمال، العمليين. هؤلاء الرجال عرفوا قيمة النقود، ومن ثم أيضاً فائدة الحصول على كثير من الأعضاء الأثرياء. إنه من الطبيعى أن نفترض أن هؤلاء الرجال هم من مثلوا المراجعة الانتهازية فى المجمع المسيحى، حتى إنهم جاهدوا لتخفيف الحقد ضد الأغنياء فى المجمع لإضعاف تعاليم المجمع إلى حد يجعل الثرى يشعر أكثر فيه بأنه فى بيته.

لقد كان أثرياء ذلك الزمن هم المثقفون أيضاً. إن فعل تكييف المجمع لمتطلبات الغنى والمثقف عنيت إضعافاً لنفوذ الرسل والأنبياء وإنقاصاً لاتجاههم إلى حد العبث وكذلك لاتجاهات هؤلاء الذين حاربوا الأثرياء من خلال مجرد اللعن. ولكن ترتب هذا الأثر أيضاً على هؤلاء الذين حاربوهم بحماس وبحقد عميق، خاصة ماداموا قد

قدموا كل ما يملكون للمجمع، بينما كانوا مازالوا أثرياء، من أجل تحقيق مثالهم الشيعي الرفيع.

في الصراع بين الصرامة والانتهازية، انتصرت الأخيرة، بمعنى آخر، كان الأساقفة منتصرين على الرسل والأنبياء، التي كانت حرية حركتهم، الذي كان حقهم في الحياة، قد تناقص بشكل محسوس في المجمع. أزاحهم موظفو المجمع أكثر فأكثر مادام قد كان لكل عضو في البداية الحق في أن يقف خطيباً في تجمع المجمع وأن ينخرط في أنشطة دعائية، قد يقوم موظف في المجمع أيضاً بنشاط كهذا، الأمر الذي يحتمل أنهم فعلوه على نطاق واسع. إنه من الواضح أن الأعضاء الذين برزوا من الجمهور الذي لا اسم له كمتحدثين معروفين قد كانت لديهم فرصة أفضل لأن ينتخبوا لمنصب في المجمع أكثر من الأعضاء المجهولين كلية. من ناحية أخرى، من المحتمل أن هؤلاء المنتخبين أيضاً كان مطلوباً منهم أن يقوموا بالعمل الدعائي بالإضافة إلى أنشطتهم الإدارية والقضائية. من المحتمل أن كثيراً من الموظفين الإداريين كانوا أكثر نشاطاً في الوظيفة الأولى أكثر مما في العمل الذي كان عملهم أصلاً، مادام نمو المجمع قد خلق مراكز جديدة أعفت الآخرين. وهكذا فإن الشماسية قد تمكنوا في حالات كثيرة من أن يكرسوا انتباهها أكثر للعمل الدعائي، إذ كانت وظائفهم في المجامع الكبيرة قد تولتها مأوى خاصة، ملاجئ اليتامى، بيوت الفقراء، خانات للأعضاء من المدن الأخرى.

من ناحية أخرى، فقد أصبح ضرورياً، تحديداً بسبب نمو المجمع ووظائفه الاقتصادية، إعطاء موظفيه بعض التدريب لمنصبهم. لقد كان سيكون الآن مكلفاً للغاية وخطراً السماح لكل إنسان باكتساب الحكمة من خلال خبراته الفعلية فقط. تدرب المدد الجديد للموظفين المجمعيين في منزل الأسقف وهناك صار ملماً بواجبات مناصب الكنيسة. حيث كان على الموظفين أن يقوموا بالدعاية بالإضافة إلى عملهم الرسمي أيضاً، فقد كان من الطبيعي تدريبهم لهذا العمل أيضاً في بيت الأسقف، لتوجيههم بشأن تعاليم المجمع.

وهكذا أصبح الأسقف هو المركز ليس فقط للنشاط الاقتصادي، وإنما أيضاً الدعائي للمجمع، فالأيدولوجية مضطرة مرة أخرى لأن تركع للشروط الاقتصادية.

لقد تطور الآن مذهب رسمي، اعترفت به ونشرته البيروقراطية المجمعية، التي طبقت إجراءات قمعية أكثر فأكثر على كل المذاهب التي لم توافق عليها.

هذا لايعنى أن المذهب الرسمي كان معادياً دائماً للرأى الذكى.

كانت الاتجاهات التي عارضها الأساقفة هي تلك التي تتعلق بالشيعية البروليتارية الأصلية، المعادية للملكية والدولة. بالاتفاق مع جهل الطبقات الدنيا من السكان، سداجتهم، وعدم توافق آمالهم مع الواقع، كانت هذه الاتجاهات تحديداً هي التي ارتبطت بإيمان معين في المعجزات وبحالة عقلية أرفع. إذ أن الكثير قد أنجزته

الكنيسة الرسمية فى هذا المجال، فإن الطوائف التى اضطهدتها فى القرون القليلة الأولى قد تجاوزتها بعيدا فى مبالغاتها المجنونة.

لا يجب أن يضللنا التعاطف مع المضطهدين، ومقت كل اضطهاد، حتى نعتبر كل معارضة للكنيسة الرسمية، كل شكل من الهرطقة، يمثل بالضرورة حالة عقلية أرفع.

سهلت صياغة مذهب رسمى للكنيسة أيضاً بعض الظروف الأخرى.

إن معلوماتنا ضئيلة بالنسبة للمذاهب التى جرى تعليمها فى البدايات البكرة للمجمع المسيحى. فلا يمكن لنا أن نحكم بواسطة مجرد إشارات، لم تكن واسعة للغاية، وذات طبيعة بسيطة للغاية. بالتأكيد قد لانفترض أنها احتوت بالفعل كل شيء عُرض لاحقا باعتباره تعاليم يسوع فى الأناجيل.

بينما قد نذهب بعيدا إلى حد الاعتراف باحتمال أن يكون يسوع قد عاش وصلب، من المحتمل بسبب محاولة انتفاض، فليس هناك عمليا أى شيء آخر يمكن أن يقال عنه. ما يروى أنه تعليمه، لا يؤيده إلا دليل غاية فى الضآلة، وهو متناقض جدا وشديد الضآلة فى أصالته، وملئ جدا بمبادئ أخلاقية مألوفة جرت عندئذ على أفواه كثيرين؛ حتى أنه لا يمكن نسبة أدنى أثر بيقين إلى التعاليم الفعلية ليسوع. ففىما يتعلق بها فنحن لانعلم شيئا.

من ناحية أخرى، فإن لنا كل الحق فى أن نتخيل بدايات المجمع المسيحى باعتبارها مماثلة لبدايات التنظيمات الاشتراكية، التى تقدم تشابهات عديدة أخرى. لا تكشف لنا نظرة على هذه البدايات أبدا شخصية متفوقة أصبح مذهبها القاعدة للتاريخ اللاحق للحركة، وإنما دائما جرثومة مشوشة، بحث غير متيقن، غريزى وتلمس، من عديد من البروليتاريين، لأحد منهم بارز بشكل محسوس يفوق الآخرين، كلهم تحركوا للأمام إجمالا بواسطة نفس الاتجاهات، غير أنهم نشروا غالبا أكثر الانحرافات فردية إثارة للانتباه. مثل هذه الصورة، قدمتها على سبيل المثال بدايات الحركة الاشتراكية البروليتارية فى ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر. وهكذا فإن عصبة العادلين، الاتحاد التالى للشيوعيين، كانت بالفعل مؤسسة لها بعض العمر، قبل أن يعطيها ماركس وانجلر أساسا نظريا محددا فى البيان الشيوعى. وهذه العصبة ذاتها كانت فقط استمرارا لاتجاهات بروليتارية أبكر فى فرنسا وانجلترا. ولولا ماركس وانجلر، لاستمرت تعاليمها فى مرحلة الاختمار لفترة طويلة. إن مؤلفى البيان الشيوعى، قد تمكنا من تأمين مركزهما المهيمن والمحدد بسبب تمكنهما من علم زمنهما فقط.

ليس لدينا ما يبين - على النقيض، فإنه مستحيل إطلاقا - أن شخصا مثقفا حقاً قد ترأس مهد المسيحية. لقد روى بوضوح عن يسوع أنه لم يبرز رفاقه، البروليتاريين

الصرحاء، فى التعليم. لايشير بولس إلى معرفته الرفيعة، بل إلى موته كشهيد، ولقيامته. خلق هذا الموت انطباعا عميقا لدى المسيحيين.

لايكرر الرسل والأنبياء مذاهب محددة وصلت اليهم من الآخرين، وإنما يتحدثون تماما مثلما تحركهم الروح. انهم يعبرون عن أكثر النظرات اختلافا، المجمع الأولى مليئ بالتشاحن والخلافات.

يكتب بولس إلى الكورنثيين:

“ولكننى إذ اوصى بهذا، لست أمدح، كونكم تتجمعون ليس للأفضل بل للأردأ، لأنى أولا، حين تجتمعون للكنيسة، أسمع أن بينكم انشقاقات وأصدق بعض التصديق. لأنه لا بد أن يكون بينكم بدع، ليكون المزكون ظاهرين بينكم”. (الرسالة الأولى للكورنثيين ١١/١٧-١٩).

هذه الحاجة لاتجاهات متعددة، بدع (يستخدم بولس كلمة داخل المجمع لم تكن قد اعترفت بها الكنيسة الرسمية فيما بعد بأى حال من الاحوال. يبلغ فى القرن الثانى هذا السعى الضبابى والمتلمس نهايته. هذا المجمع له تاريخ وراءه. وفى مجرى هذا التاريخ خرجت عديداً من مذاهب الإيمان منتصرة، محققة الاعتراف بين الجمهور الأعظم للمجمع. أضف إلى ذلك، يدخل الآن المتعلمون المجمع، من ناحية، يضعون تاريخ ومذاهب الحركة، التى نقلت اليهم شفويا، فى شكل مكتوب، حافظين إياها من تغيرات تالية؛ ومن ناحية أخرى، يدفعون تعاليم المجمع، التى وجدوها بسيطة تماما، إلى مستوى علم زمانهم، الذى مازال متدنيا، مألئين هذه التعاليم بفلسفتهم، جاعلين إياها سائغة للمتقنين أيضا، كما حصنوها ضد اعتراضات النقد الوثنى.

كان على من سيصبح الآن معلما فى المجمع المسيحى أن يمتلك قدرا معينا من المعرفة. لم يستطع الرسل والأنبياء، الذين استشاطوا غضبا حول خطية العالم وتنبأوا بانهياره العاجل فحسب، أن يتنافسوا معهم.

وهكذا فإن الرسل والأنبياء التعساء كانوا مقيدين ومقموعين من كل الجهات. سرعان ماكان على عملهم الضئيل أن يخضع للآلية الضخمة للبيروقراطية المسيحية؛ فاختفوا ولكن المعلمين كانوا محرومين من حريتهم وباتوا خاضعين للأسقف. سرعان ما لم يجرؤ أحد أن يفتح فمه فى تجمع المجمع، الكنيسة، دون إذن مسبق من الأسقف، أى، لأحد خارج بيروقراطية المجمع، التى كان يديرها الأسقف، بمعنى آخر، الإكليروس، الذى كان سيصبح أكثر فأكثر تميزا عن جمهور الأعضاء، غير الإكليركيين ومتخذا مركزا رفيعا. إن مجاز الراعى وقطيعه يصبح شعبيا، والقطيع يعنى قطيعا من الخراف الراغبة فى التعلم حتى أنهم يسمحون لأنفسهم بأن يساقوا وأن يجزوا دون مقاومة. الراعى الأعلى هو الأسقف.

أسهم الطابع الأممي للحركة فى زيادة سلطة الأسقف. لقد كان الرسل سابقا هم الذين حافظوا على الالتحام الأممي للمجامع المختلفة، بسفرهم الدائم بينها. ولكن حيث أن الرسل قد أزيحوا جانبا، أصبح إيجاد وسائل أخرى للحم وتوحيد المجامع أكثر أهمية. اذا ما ظهرت خلافات، تطلبت عملاً مشتركاً أو تنظيماً مشتركاً فى أى أمر، فسوف تلتقى مؤتمرات المندوبين، مؤتمرات مقاطعات، وحتى مؤتمرات إمبراطورية، بدءاً من القرن الثانى.

فى البداية خدمت هذه التجمعات فقط فى المناقشة والاتفاق المتبادل. لم يكن لها أن تصدر قرارات ملزمة. كل مجمع بمفرده شعر بأنه رفيع (المرتبة). أعلن كييريان فى النصف الأول من القرن الثالث، الاستقلال التام للمجمع. ولكن من الواضح ان الأغلبية لابد وأن سيطرت على المجمع من البداية. حازت هذه الرفعة تدريجيا قوة ملزمة، أصبحت قرارات الأغلبية قانونا لكل المجامع الممثلة، لقد أحلوا جميعا أنفسهم فى جسم واحد متحد. كل ما فقده المجمع الفرد من حرية العمل قد أحرزه الآن فى قوة الحركة ككل.

وهكذا خلقت الكنيسة الكاثوليكية. أما المجامع التى رفضت أن تتصاع لقرارات المؤتمرات (السينودات، المجالس) فقد طردت من تنظيم الكنيسة الكاثوليكية، واستبعدت من قبل الهيئة المركزية. ولكن الفرد الذي طرد من مجمعه، لا يستطيع أن يدخل إلى مجامع أخرى. فقد طرد من كل المجامع. ونتائج الطرد أو الحرمان كانت الآن أكثر شدة.

إن حق طرد الأعضاء الذين عارضوا أغراض التنظيم لن ينكر بالتأكيد على الكنيسة حينما كانت حزبا معينا أو تنظيما يوجد بجانب أحزاب أو تنظيمات أخرى كثيرة داخل الدولة، متابعاً هدفاً خاصاً. ولم تكن لتحرز هذا الهدف إذا كانت قد تخلت عن حق طرد أى أحد معارضا لهدفها.

ولكن باتت الأشياء مختلفة حين أصبحت الكنيسة تنظيماً يطوق الدولة بكاملها، كل المجتمع الأوروبى، الذى شكلت فيه الأمم فقط أقساماً متعددة. أصبح الطرد من الكنيسة الآن مساوياً للطرد من المجتمع الإنسانى؛ قد يرقى إلى عقوبة الإعدام.

الحق فى طرد الأعضاء الذين لايعترفون بأغراض التنظيم ضرورى لتشكيل وللعمل الناجح لأحزاب محددة فى الدولة من أجل حياة سياسية نشيطة وثمرتة، من ثم، من أجل تطور سياسى صحى؛ ولكنه يصبح وسيلة لمنع تكوينات الحزب، ولجعل كل الحياة السياسية والتطور السياسى مستحيلاً، إذا، بدلا من أن توظفه أحزاب متعددة فى الدولة، يصبح وظيفة للدولة ذاتها، أو لتنظيم بحجم نطاق الدولة، ولكنه من الهراء المحض أن نطلب من الأحزاب المتعددة، لأعضاء كل تنظيم، نفس حرية الرأى التى يجب أن يطلبها كل حزب ديمقراطى من الدولة. إن حزبا يتسامح مع كل الآراء الممكنة فى مراتبه يكف عن أن يكون حزبا. ولكن الدولة، حين

تضطهد وجهات نظر معينة، تصبح هي ذاتها حزبا. يجب ألا تتطلب الديمقراطية أن تكف الأحزاب عن أن تكون أحزابا، وإنما أن تكف الدولة عن أن تكون حزبا.

قد لا يكون هناك اعتراض من منطلق ديمقراطى على الحرمانات التي تفرضها الكنيسة، حينما تبقى الكنيسة حزبا من أحزاب متعددة فحسب. إن من لا يعتقد في مذاهب الكنيسة، ولا ينصاع لأحكامها، لا مكان له في الكنيسة. ليس للديمقراطية حق طلب تسامح الكنيسة – حيثما تكثف الكنيسة بأن تبقى حزبا ضمن أحزاب أخرى، اذا لم تتخذ الدولة جانب الكنيسة أو تتطابق معها. عندئذ لا بد من إدخال ديمقراطية على سياسة الكنيسة، وليس طلبا للتسامح مع غير المؤمنين في الكنيسة، الذي سوف يكون نصف إجراء ضعيف.

ولكن بينما لا يمكن أن يثار اعتراض من وجهة نظر ديمقراطية بالنسبة لحق الكنيسة في الحرمان بذاته *se per*، قبل أن تصبح كنيسة دولة. قد يمكن قول الكثير ضد الطريقة التي طبق بها هذا الحق. لأنه لم يعد جمهور الأعضاء الأعظم هو الذي يطبق الحرمان، وإنما البيروقراطية. كلما كان الضرر الذي يمكن أن يحيق بالفرد أكثر، كلما نمت سلطة البيروقراطية الكنسية ورأسها الأسقف.

تزايدت سلطة الأخير أيضاً بسبب حقيقة أنه كان مندوبا لمجمعه في المؤتمرات الكنسية. تبدأ سلطة الأسقف من ثم في وقت واحد مع المجالس، وقد كانت هذه تجمعات أساقفة منذ البداية الأولى.

المكانة والسلطة التي تمتع بها الأسقف بسبب إدارته المالية للمجمع وتعيينه وحكمه على كامل الجهاز العالم، والإدارى، والقضائى، والدعائى للبيروقراطية المجمعية، لم تكمله السلطة التي حازها الكل، الكنيسة الكاثوليكية، باعتبارها مواجهة للجزء، المجمع. لقد تعامل الأسقف مع المجمع بكل سلطة الكنيسة ورائه. حينما أصبح تنظيم كامل للكنيسة أكثر صرامة، أصبحت المجمع بلا قوة أكثر في مواجهة الأساقفة، على الأقل في الحالات التي مثل فيها الأخيرون اتجاهات أغلبية أعضائها. سلبت هذه الجمعية من الأساقفة تماما "حقوق سواد الناس".

لم يكن الأساقفة مخطئين في تأكيد أن سلطتهم أتت من الرسل، وفي اعتبار أنفسهم خلفائهم. كان الأساقفة، مثل الرسل قبلهم، العنصر الدولى الموحد بين كل المجمع. وهذه الحقيقة تحديدا هي التي أعطتهم كثيرا من نفوذهم وسلطتهم على المجمع الفردية.

حتى البقية الأخيرة من الديمقراطية الأصلية للمجمع سرعان ما اختفت الآن، أى، الحق في انتخاب الموظفين الذين كانت هناك حاجة لهم. مع تزايد استقلال وسلطة الأسقف وأتباعه بين المجمع، أصبح من الأسهل بالنسبة له أن يحث الأخيرين على انتخاب أشخاص مناسبين له، لقد كان الأسقف فعليا هو من ملأ هذه المناصب. ولكن عند انتخاب الأسقف نفسه، كان لدى المرشحين المقترحين من قبل الإكليروس

أفضل الآفاق منذ البداية، بسبب قوة الإكليروس فى المجمع. أخيرا انتهى الأمر إلى أن الإكليروس فقط هو من انتخب الأسقف، واحتفظ جمهور أعضاء المجمع بحق المصادقة على أو رفض هذا الانتخاب فقط. ولكن حتى هذا أصبح تدريجيا أمرا شكليا فحسب. لقد انحط المجمع أخيرا إلى مجرد متملقين، الذين اضطروا، حين قدم الأسقف الذي انتخبه الإكليروس، لتحيته بتصفيق شديد.

عنى هذا التدمير النهائى للتنظيم الديمقراطي للمجمع، بواسطة تأكيد السلطة المطلقة للإكليروس، وإكمال تحوله من "خادم خدام الرب" المتواضع إلى سيدهم المطلق.

لقد كان طبيعيا أن تصبح ملكية المجمع الآن فعليا ملكية المديرين. بالطبع ليست ملكية شخصية ولكن ملكية البيروقراطية كهيئة. كفت ملكية الكنيسة عن أن تكون ملكية مجتمعية للأعضاء. لقد أصبحت ملكية الإكليروس. وجد هذا التحول سندا قويا فى، وقد سرع بواسطة، اعتراف الدولة بالمسيحية فى بداية القرن الرابع. ولكن من ناحية أخرى، فإن اعتراف الأباطرة بالكنيسة الكاثوليكية كان نتيجة للتقدم الذى صنعتته قوة البيروقراطية ولسطة الأسقف المطلقة داخل البيروقراطية فحسب.

طالما كانت الكنيسة تنظيما ديمقراطيا، فقد كانت معارضة بشكل مطلق للاستبداد الإمبراطورى فى الإمبراطورية الرومانية. من ناحية أخرى، فإن بيروقراطية الأساقفة، التى حكمت واستغلت الناس بشكل مطلق، كانت أداة جيدة جدا للاستبداد الإمبراطورى. أضف إلى ذلك، فإن الأخير لم يستطع أن يتجاهل الكنيسة، بل كان عليه أن يتصالح معها، وإلا ربما تجاوزته الكنيسة.

أصبح الإكليروس سلطة كان على كل حاكم للإمبراطورية أن يحسب لها حسابا. من بين عديد من المدعين بالعرش قبل الحروب الأهلية فى بداية القرن الرابع، كان قنسطنطين، الذى تحالف مع الإكليروس الكنسى، هو المنتصر.

أصبح الأسقف الآن هو السيد، يحكم الإمبراطورية جانب الأباطرة. غالبا ما ترأس الأباطرة فى مجالس الأساقفة، ولكن بالمقابل وضعوا سلطة الدولة تحت أمر الأساقفة لتنفيذ قرارات المجالس والحرمانات الكنسية.

فى نفس الوقت، حازت الكنيسة الآن حقوقا شخصية قانونية. إذ باتت قادرة على حيازة وإرث الملكية (٣٢١ ب.م) فقد ثارت شهيتها التى تضرب بها الأمثال هكذا على نحو ضخم، فنمت ملكية الكنيسة بسرعة. ولكن الاستغلال الذى مارسه الكنيسة تزايد أيضا.

وهكذا فقد قاد تنظيم شيوعية بروليتارية مقوضة لأكثر (أنواع) الدعم للاستبداد والاستغلال إخلاصا، إلى مصدر لاستبداد جديد، واستغلال جديد.

كان المجمع المسيحي المنتصر فى كل جوانبه العكس تماما من ذلك المجمع الذى أسس قبل ثلاثة قرون من صيادى السمك الجليليين الفقراء والفلاحين وبروليتاريي أورشليم. أصبح المخلص المصلوب أقوى دعامة لذلك المجتمع المنحط والشائن الذى كان المجمع الخلاصى قد توقع منه تدميره الكامل.

هـ - الدير

الكنيسة الكاثوليكية، خاصة كما اعترفت بها الدولة، حولت اتجاهات المجمع الخلاصى الأصلية إلى عكسها تماما، ولكن هذا لم يجر بوسائل سلمية، دون مقاومة وصراع. استمرت الشروط الاجتماعية التى أنتجت الشيوعية الديمقراطية للمسيحيين الأوائل فى الوجود، فى الواقع، أصبحت أكثر تفاقمًا وإقلاقًا عندما تحللت الإمبراطورية.

لقد رأينا أن تلك الأصوات التى تحتج ضد المفهوم الجديد قد جعلت نفسها مسموعة منذ البداية الأولى. ولكن حين أصبحت البدعة الموقف المهيمن والرسمى للكنيسة، غير متسامحة مع وجهات النظر الأخرى داخل المجمع، نشأت طوائف جديدة ديمقراطية وشيوعية مرة بعد مرة بجانب الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا، على سبيل المثال، فى الوقت الذى اعترف فيه قنسطنطين بهذه الكنيسة، أصبحت طائفة اللادريين circumcelliones منتشرة فى أفريقيا الشمالية، الرهبان المتسولون أصحاب الوجد الصوفى الذين دفعوا إلى الحد الأقصى صراع اتباع دوناتس (Donatist) ضد كنيسة الدولة والدولة نفسها، مبشرين بالعداء لكل الأثرياء والأقوياء. كما فى الجليل فى زمن المسيح، كذلك فى أفريقيا الشمالية فى القرن الرابع، نهض السكان الفلاحين فى يأس ضد مضطهديهم، وتبين ممارسة عصب متعددة قطع الطريق الطريقة التى عبر بها احتجاجهم عن نفسه. كما كان الحال سابقا مع الغيورين، وربما أيضاً مع التلاميذ الأول ليعسوع، وضع اللادريون الآن لهذه العصب هدف التحرر والحرية من كل قهر. تعاركوا بجراءة متطرفة حتى مع القوات الإمبراطورية، التى سعت، يدا بيد مع الإكليروس الكاثوليكي، لإخماد الانتفاضة، التى استمرت لعدة عقود.

ولكن أخفق هذا الجهد، كما أخفق كل جهد آخر لإدخال الشيوعية إلى الكنيسة أيضاً بوسائل سلمية أو عنيفة.

لقد هزمت جميعا لنفس الأسباب التى حولت فى النهاية الشيوعية الأولية إلى عكسها، أسباب استمرت فى الوجود جنبا إلى جنب مع المثير المنتج لمثل هذه الجهود. بينما تزايد هذا المثير بالفاقة الناشئة، فلا يجب أن ننسى أن موراد الكنيسة كانت تتزايد أيضا، وقد مكنت الكنيسة من أن تبقى قسما ضخما متزايدا من البروليتاريا من أسوأ الإغواءات بواسطة مؤسساتها الخيرية، وهكذا جعلت البروليتاريا معتمدة على الإكليروس، وأفسدتها وخفقت داخلها كل حماس وكل المثل العليا.

حينما أصبحت الكنيسة كنيسة دولة، أداة للاستبداد والاستغلال أكثر قوة وأكثر جبروتاً من أى (أداة) ظهرت بعد فى التاريخ، بدا هلاك كل الاتجاهات الشيوعية فيها أخيراً أنه بلغ غايته. ومع ذلك فقد كان لهذه الاتجاهات أن تستمد قوة جديدة من كنيسة الدولة تحديداً.

حتى زمن الاعتراف بها من قبل الكنيسة، فإن انتشار المجمع الكنسية قد اقتصر كقاعدة على المدن الكبرى؛ استطاعت فى هذه المدن فقط أن تصون نفسها فى فترات الاضطهاد. فى المقاطعات، حيث من السهل مراقبة كل فرد، ربما تصون المنظمات السرية نفسها فقط حين تتمتع بدعم كامل السكان، مثلما هو الحال، على سبيل المثال، مع الجمعيات السرية الأيرلندية، فى القرون القليلة الماضية، فى معارضتها للنير الانجليزى. لقد واجهت دائماً حركة معارضة تقوم بها أقلية فى المجتمع أعظم الصعوبات فى المقاطعات، وينطبق هذا أيضاً على الحركة المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى.

حين كفت المسيحية عن أن تكون حركة معارضة واعترفت بها الدولة اختفت العقبات فى سبيل انتشارها فى المقاطعات. منذ هذا الوقت فصاعداً لم يقف شيء فى طريق تنظيم المجمع المسيحية فى المقاطعات. كانت المسيحية لمدة ثلاثة قرون – مثل اليهودية – تقريباً على وجه الحصر دين مدينة. أصبحت الآن وللمرة الأولى دين الفلاحين أيضاً.

جنباً إلى جنب مع المسيحية، غزت اتجاهاتها الشيوعية المقاطعات، لاقية ظروفًا مختلفة وأكثر ملائمة إلى حد بعيد مما فى المدينة، كما رأينا سلفاً فى مناقشتنا للإسنيين. اسيقظ الأخيرون مباشرة على حياة جديدة فى شكل مسيحى، بمجرد أن عرضت إمكانية تنظيمات شيوعية علنية فى المقاطعات، التى تشير إلى كيف كانت الحاجة التى حققتها قوة فى الوقت الذى اعترفت فيه الدولة بالمسيحية تحديداً، فى بدايات القرن الرابع، أسست الأديرة الأولى فى مصر، وسرعان ماتبعنها أخرى فى أقسام عديدة من الإمبراطورية.

سرعان مالم يلقى هذا الشكل من الشيوعية معارضة من السلطات الكنسية والقومية، وانما حتى حذته، مثله فى ذلك مثل التجارب الشيوعية فى أمريكا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر التى تعاطفت معها حكومتى فرنسا وإنجلترا. لم يخفقوا فى الاستفادة من جعل المحرضين الشيوعيين القلقين فى مدنهم الكبيرة ينعزلون عن العالم، ليكرسوا أنفسهم لزراعة مسالمة للكرنب فى البرية.

على خلاف التجارب الشيوعية للأوينيين، والفوريين والكابيين فى أمريكا، فإن تجارب الفلاح المصرى أنطون وأتباعه لقيت أكثر النجاحات بريقاً، كما حدث أيضاً للمستعمرات الشيوعية الفلاحية فى الولايات المتحدة فى القرنين الثامن والتاسع عشر، التى كانت مشابهة للغاية للحركة المصرية. يحب عديد من الأشخاص أن يعزوا نجاحهم للحماس الدينى، الذى يفتقر إليه أتباع اليوتوبيات الحديثة، بالقول بأن

لا شيوعية بلا دين. ولكن نفس الحماس الدينى الذى ألهم الرهبان فى الأديرة قد ألهم أيضاً مسيحيي المدن الكبرى فى القرون الأولى، ومع ذلك لم تكن تجاربهم الشيوعية شاملة، ولا ذات استمرارية طويلة.

سبب النجاح فى حالة ما والإخفاق فى الأخرى لا يوجد فى الدين، وإنما فى ظروفها المادية.

بالتضاد مع التجارب الشيوعية للمسيحية الأولية فى المدن الكبرى، فإن الأديرة، وكذلك المستعمرات الشيوعية فى البرية، لها ميزة أن الزراعة تتطلب اقترانا للمزرعة والعائلة، والزراعة الكبيرة لم تصبح فقط ممكنة، وإنما كانت قد حازت بالفعل مرحلة عليا من التطور فى نظام الاقتصاد المنزلي oikos للملاك العقاريين الكبار. على أى حال، تأسست عملية الإنتاج على النطاق الكبير هذه لنظام الاقتصاد المنزلي oikos، على العبودية. وضعت العبودية الحدود لإنتاجيتها ولوجودها أيضاً. أدى توقف إمداد العبيد للمزارع الكبيرة الخاصة بكبار الملاك لأن تختفى. أخذتها الأديرة وواصلتها، فى الواقع، تمكنت من تطويرها إلى نقطة أعلى، لأن الأديرة أحلت محل العمل العبودى عمل أعضائها الأحرار. بالنظر إلى الانحلال العام للمجتمع، أصبحت الأديرة فى النهاية هي الأماكن الوحيدة فى الإمبراطورية المضمحلة التى حفظت فيها البقية الأخيرة للتقنية القديمة من خلال عواصف فترة الهجرة حتى اكتملت فى عديد من النقاط.

بعيدا عن تأثيرات الشرق، خاصة من العرب، كانت الأديرة هي المواضيع التى بدأت منها الحضارة فى أوربا فى النمو خلال العصور الوسطى.

لقد كَيْفَ نمط الإنتاج التعاونى الأديرة بشكل رائع لشروط الإنتاج القروى نحو نهاية الفترة القديمة وفى العصور الوسطى المبكرة؛ وهذا يفسر نجاحها. من ناحية أخرى، كانت شروط الإنتاج مناقضة للعمل التعاونى فى المدن، وأمكن للشيوعية أن توجد فقط فى شكل شيوعية للاستهلاك فحسب، غير أن نمط الإنتاج، وليس نمط التوزيع أو الاستهلاك، هو الذى يحدد فى التحليل الأخير طابع العلاقات الاجتماعية. لقد قامت فقط فى الريف، فى الأديرة، جماعية الاستهلاك التى رغبت فيها المسيحية أصلا على أساس دائم فى جماعية الإنتاج. على هذا الأساس، ازدهرت أخويات الإسينيين لعدة قرون، حيث دمرت نهائيا بالإبادة المفاجئة للجماعة اليهودية، وليس كنتيجة لأسباب داخلية. لقد نشأ على جماعية الإنتاج ذلك الهيكل الكبير للرهبنة المسيحية وظل باقيا حتى اليوم.

ولكن لم كانت مستعمرات الشيوعية البيوتوبية الحديثة إخفاقا؟ لم يكن أساسها مختلفا عن الشيوعية الرهبانية، ولكن نمط الإنتاج تغير تماما منذئذ. مكان الصناعات المعزولة الفردية للعصور القديمة التى طورت فردية فى العمل، وجعلت تعاون العمال الحضريين صعبا، وألهمتهم بموقف فوضوى تجاه الإنتاج، نجد الآن منشآت ضخمة فى الصناعات الحضرية يشكل العامل فيها ترسا فقط يشغل مع تروس

أخرى لاحصر لها. عادات العمل بالتعاون، بالانضباط فى العمل، بخضوع الفرد لمتطلبات الكل فى الحالة الحديثة يحل محل الموقف الفوضى للعامل الفرد. ولكن فقط فى الإنتاج؛ أما الاستهلاك فأمر مختلف.

كانت شروط الحياة سابقا بسيطة للغاية وموحدة بالنسبة لجمهور السكان، حتى أثمرت وحدة فى الاستهلاك والحاجات، لم تجعل جماعية الاستهلاك بأى حال غير محتملة.

إن نمط الإنتاج الحديث، الذى يرمى كل الطبقات والأمم معا، يجمع منتجات العالم كله داخل المراكز التجارية الكبرى، ينتج منتجات جديدة بلا توقف، خالقا بلا كلل ليس فقط وسائل جديدة لإشباع الحاجات، وانما أيضاً خالقا الحاجات، وهكذا يؤسس فى جمهور السكان تنويعا مختلفة من الميول الشخصية والرغبات. نوع من الـ"فردية" أمكن أن يوجد سابقا فقط فى الطبقات الثرية والأرستقراطية. بمعنى آخر، عديد من أنماط الاستهلاك، آخذين الكلمة بأوسع معنى لـ"الاستمتاع" بالأشياء المادية. إن أخشن، أشد وسائل الاستهلاك مادية، الأطعمة، المشروبات، الألبسة، هى بالطبع، فى حالات كثيرة، خاضعة لمستوى موحد فى نمط الإنتاج الحديث. ولكن من جوهر نمط الإنتاج هذا ألا يحد استهلاك الجماهير لمثل هذه المواد، وانما أن يخلق بين العمال أيضاً طلبا متصلا لمواد أكثر تخص الحضارة، تعليمية، فنية، رياضية، ومواد أخرى، هذه الحاجات تميز نفسها أكثر فأكثر وتجد تعبيرا متنوعا فى كل فرد. وهكذا فإن فردية المتعة، ميزة الثرى والمتقف سابقا، منتشرة بين الطبقات العاملة أيضا، فى البداية فى المدن الكبرى، من ثم مخترقة تدريجيا بقية السكان. بالرغم من أن العامل الحديث مضطر لعمل تنازلات كبيرة للانضباط فى تعاونه مع زملاءه العمال، ويقر بأن مثل هذه التنازلات ضرورية، فإنه بالرغم من ذلك يقاوم بشكل مؤكد كل محاولات حكم استهلاكه، متعته. يصبح فى هذا الحقل فرديا أكثر فأكثر، أو اذا أحببت، فوضويا. سوف يفهم القارئ الآن كيف يجب أن يشعر بروليتارى المدينة الحديث فى مستعمرة شيوعية صغيرة فى البرية، التى لاتستطيع أن تكون أكثر من مؤسسة زراعية كبيرة ذات عمليات صناعية ثانوية. كما صرحنا سابقا، فإن الصناعة والاقتصاد المنزلى قد كانا دائما مرتبطين فى هذا الفرع من الإنتاج. كان هذا ميزة للشيوعية المسيحية، التى بدأت بجماعية الاستهلاك. كانت هذه الشيوعية فى المؤسسات الرهبانية فى المقاطعات، من ثم مضطرة لأن تقترن مع شيوعية إنتاج، التى أعطتها قوة عظيمة للمقاومة والتطور.

تبدأ الشيوعية الطوباوية الحديثة، بجماعية فى الإنتاج، وتجد أساسا متينا جدا فى هذه الجماعية، وقد كانت مضطرة من ناحية أخرى، بواسطة العلاقة الوثيقة بين الاستهلاك والإنتاج، فى مستوطناتها الصغيرة، لأن تضيف شيوعية استهلاك لشيوعية الإنتاج، والأولى تؤثر فى الأخيرة كما يثير القماش الأحمر ثورا، تنتج تشاحنا أبديا حول الأشياء الصغيرة من أكثر الأنواع تنفييرا.

فقط عناصر السكان التى بقيت كما هي لم تمسسها الرأسمالية الحديثة، الفلاحين غير المجريين، كان مازال يمكن أن يؤسسوا مستوطنات شيوعية فى القرن التاسع عشر داخل نطاق الحضارة الحديثة. ليس لدينهم علاقة بنجاحهم، سوى فى حدود أن الحماس الدينى كظاهرة اجتماعية، وليس كخاصية فردية، قد وجد الآن فى أشد الفئات تخلفا من السكان فحسب.

يمكن لشيوعية الإنتاج أن تطبق فى المستوطنات السكانية ذات الإنتاج الصناعى الكبير فقط فى مرحلة متقدمة حتى يمكن لفردية ممعنة فى الاستهلاك - بأوسع معنى للكلمة - أن تتحد معها. لقد كانت شيوعية الإنتاج هى ماواجهت فشلا فى المستعمرات الشيوعية غير الدينية للقرن التاسع عشر، لأن الرأسمالية كانت تمارس بنجاح مثل هذه الشيوعية لبعض الوقت. لقد كانت شيوعية فى تسوية standardization الاستهلاك الشخصى المناقض للغاية للعادات الحديثة، الذى فشل.

فى الأزمنة القديمة، وأيضا فى العصور الوسطى، لم يكن هناك أثر بين جماهير الشعب لتفرد individualiztion الحاجات. وهكذا لم تواجه الشيوعية الرهبانية عقبة كهذه، وأمكن أن تزدهر أكثر لأن نمط إنتاجها تفوق على الذى ساد عموما، بالتوافق مع رقيه الاقتصادى الخاص. روفينوس (٣٤٥-٤١٠ ب.م) الذى أسس دييرا هو نفسه على جبل الزيتون بالقرب من أورشليم، فى ٣٧٠ ب.م، يفيد بأنه عاش هناك تقريبا أشخاص عديدون فى الأديرة فى المقاطعات الريفية فى مصر كما فى المدن. بعد اعتبار الهامش اللازم لخيال متحيز مبالغ فيه، ليس هناك شك أن هذا التصريح كان مؤسس على عدد الرهبان والراهبات الذين لا بد وأن بدا غير عادى.

وهكذا فإن النظام الرهبانى أعطى فرصة جديدة للحماس الشيوعى للحياة فى المسيحية، مادام الأخير وجد هنا تعبيراً ولم يكن مضطراً أن يظهر كمعارضة هرطقية للبيروقراطية الكنسية المهيمنة، وإنما اتفق تمام الاتفاق مع الأخيرة.

ولكن لم يمكن لهذا الشكل من الشيوعية المسيحية أيضاً أن يصبح الشكل الشامل للمجتمع، وإنما كان قاصراً على فئة معينة. ومن ثم تحولت الشيوعية الجديدة أيضاً بالضرورة المرة بعد الأخرى إلى عكسها، التى كان رقيها الاقتصادى أعظم على الأرجح. كان العامل الأخير على الأرجح يحول المشاركين فيها إلى أرستقراطية، أرفع بالنسبة لبقية السكان، وأخيراً مهيمنة ومستغلة إياها.

لم تستطع الشيوعية الرهبانية أن تكون الشكل الشامل للمجتمع لا لشيء إلا لأن إدارتها للاقتصاد المشترك، التى تأسست عليها، تضمن رفض الزواج بالضرورة، كما فعل الإسينيون قبلاً، وكما فعلت فيما بعد المستوطنات الشيوعية الدينية (فى القرن التاسع عشر).

تطلب ازدهار الاقتصاد المشترك فقط، التخلي عن الزواج الفردي؛ حيث كان سيتسق تماماً معه نوع من الزواج الجماعي، كما ظهر أيضاً عند عدد من المستوطنات التي أشير إليها. ولكن هذه العلاقة بين الجنسين أيضاً ناقضت وحدة الشعور الاجتماعي العام للعصور الوسطى حتى يعترف بها عامة وتمارس علناً. كانت هذه الفترة بصفه عامة، تتسم بشعور بالكآبة جعل الامتناع عن كل متعة، الزهد، حلاً أكثر طبيعية، أضف إلى ذلك هؤلاء الذين مارسوا مثل هذا الامتناع أحاطوه بهالة خاصة. ولكن ممارسة العزوبة حكم على الرهبنة مقدماً بأن تبقى قاصرة على أقلية. هذه الأقلية قد تتزايد في وقت لحد بعيد، كما يبين المقتطف المقتبس أعلاه من روفينوس، ولكن حتى مبالغة روفينوس الواضحة لاتجروء على أن تعرض السكان الرهبان كأغلبية. و سرعان ماخمد الحماس الرهباني عند المصريين في زمن روفينوس.

حيثما أصبحت الشيعية الرهبانية راسخة ومتينة، تزايدت بالضرورة ثروة الدير. سرعان ما قدمت الصناعة الرهبانية أفضل المنتجات وأخصها، مادام الاقتصاد المشترك قد جعل تكاليف الإنتاج منخفضة تماماً. مثل نظام الاقتصاد المنزلي oikos للملاك العقاريين الكبار، أنتجت الأديرة لنفسها تقريبا كل شيء احتاجته من المواد الغذائية والمواد الخام. أظهر العمال حماساً أكثر من العبيد في علاقاتهم بكبار ملاك الأرض لأنهم كانوا أعضاء هم أنفسهم، متلقين كامل نتاج عملهم. أضف إلى ذلك، شمل الدير عددا من العمال مكنه من أن يختار لكل من صناعاته العاملين الأكثر ملائمة له، فأدخل هكذا تقسيما للعمل بعيد المدى. أخيرا كان الدير، باعتباره مناقضا للفرد، أبديا. الاختراعات وأسرار العمل التي قد تضيع بسهولة مع موت المخترع وعائلته، أصبحت مشروع عدة أعضاء في الدير، حيث تنتقل بواسطتهم إلى أخلافهم. أضف إلى ذلك، فإن الرهبانية، حيث أنها شخصية أبدية، لم تكن قلقلة من الخطر المدمر لتفتيت ميراثها بالإرث. لم تقسم أبدا تراكمات الملكية في شكل إرث.

وهكذا نمت ثروة الدير، وأيضا ثروة مجموعات من الأديرة أدارها رئيس مفرد وفق قواعد موحدة، وهي المسماة طوائف الرهبان. ولكن لم يصبح دير ما غنيا وقويا بشكل عاجل، نفس العملية التي جرت فيه هي التي ترددت في تنظيمات شيعية أخرى منذئذ، ضامة جزءا فقط من المجتمع، كما يمكن أن نلاحظ بعد في التنظيمات التعاونية المنتجة القائمة الآن. إن ملاك وسائل الإنتاج الآن يجدون من السهل جعل الآخرين يعملون من أجلهم أكثر من أن يعملوا هم أنفسهم، إذ كان يمكنهم ايجاد العمال الضروريين: العمال المأجورين المفلسين، العبيد، أو الأقنان.

بينما منح النظام الرهباني في بداياته حياة جديدة للحماس الشيعي في المسيحية، فإنه مع ذلك اتخذ أخيرا نفس الطريق الذي اتخذه إكليروس الكنيسة قبله، مثل الإكليروس، أصبح تنظيما للاستغلال والهيمنة.

مما لا ريب فيه، أن هذا التنظيم المتحكم لم يقبل دائماً أن يكون أداة عمياء فحسب لحكام الكنيسة، الأساقفة. إذا كانت الأديرة مستقلة عنهم اقتصادياً، تنافسهم في الثروة، ذات تنظيم دولي مثلهم، فقد باتت قادرة على معارضة الأساقفة حين لم يجرؤ أحد آخر أن يفعل ذلك.

وهكذا فقد ساعدوا عرضاً في أن يوهنوا إلى حد ما استبداد الأساقفة، ولكن هذه الرحمة كان مقدرها لها في النهاية أن تتحول إلى عكسها.

بعد انقسام الكنيسة إلى كنيسة شرقية وغربية، أصبح الإمبراطور متمتعاً بحق الولاء الإقطاعي *liege lord* على الأساقفة في الأولى. في الأخيرة لم تكن هناك سلطة دولة أمكن أن تحكم كامل مجال الكنيسة. من ثم كان أسقف روما هو الذي حصل أولاً على أسبقية على الأساقفة الآخرين في الكنيسة الغربية، بفضل أهمية أسقفية. تطورت هذه السابقة في مجرى القرون أكثر فأكثر إلى صيرورتها هيمنة على الأساقفة الآخرين. ولأن الملكية المطلقة في الأزمنة الحديثة تطورت من الصراع الطبقي بين النبالة الإقطاعية والبورجوازية، فإن الملكية المطلقة للبابا تطورت من الصراع الطبقي مع أرستقراطية الأساقفة والرهبان ملاك صناعات الأديرة الكبيرة. مع تعزيز البابوية، وصل المنحنى الهابط للكنيسة إلى ذروته، تتضمن كل التطورات اللاحقة في الدولة والمجتمع هزائم للكنيسة، التطور الآن ضد الكنيسة والكنيسة ضد كل تطور؛ وتصبح رجعية تماماً، أي مؤسسة مناهضة للمجتمع.

حتى بعد تحولها إلى العكس من مرحلتها الأولى، بعد أن أصبحت منظمة للهيمنة والاستغلال، نجحت الكنيسة بعد لبعض الوقت في تحقيق أشياء عظيمة. ولكن مع نهاية الصليبيين، لم يكن للكنيسة وظيفة أبعد تؤديها للجنس البشري. إسهامها، بعد أن أصبحت دين دولة، يكمن في إنقاذ وتطوير بقايا الحضارة القديمة كما وجدتها. ولكن عندما تطور نمط إنتاج جديد، أرفع بما لا يقاس بالنسبة للقديم، على أساس النظام الذي كان قد أنقذ واستكمل من قبل الكنيسة، حين كانت الرأسمالية هي النتيجة وظهرت شيوعية إنتاج شاملة، لم تستطع الكنيسة أن تكون شيئاً أكثر من عقبة في وجه التطور الاجتماعي. ولدت من الشيوعية، وهي الآن ألد أعداء الشيوعية الحديثة.

ألن تطور هذه الشيوعية بدورها نفس السيرورة الديالكتيكية مثل الشيوعية المسيحية وتصبح أيضاً آلية جديدة للاستغلال والهيمنة. هذا السؤال آخر ما يتطلب انتباهنا.

الفصل السادس: المسيحية والاشتراكية

إن المقدمة الشهيرة التي كتبها إنجلز في مارس ١٨٩٥، للطبعة الجديدة من الصراعات الطبقيّة في فرنسا من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠ لماركس تنتهي بهذه الكلمات:

“منذ قرابة ١٦٠٠ عام مضت، كان يعمل في الإمبراطورية الرومانية حزبا ثوريا خطيرا. فقد قوض الدين وجميع أسس الدولة؛ وأنكر صراحة أن تكون إرادة الإمبراطور هي القانون الأعلى؛ وقد كان بلا وطن؛ كان أمميا، وقد انتشر في جميع أقاليم الإمبراطورية من بلاد الغال حتى آسيا، وحتى ما وراء حدود الإمبراطورية. وقد عمل زمنا طويلا خفية وفي سرية، ولكنه شعر لبعض الوقت بأنه صار من القوة بحيث يستطيع أن يخرج علنا وجهارا. وقد كان أيضاً لهذا الحزب الثوري، المعروف باسم المسيحيين تمثيلا قويا في الجيش، فقد غدت فيالق برمتها مسيحية. وعندما كانت تؤمر، بحضور الاحتفالات الأضحوية الخاصة بالهياكل الوثنية القائمة، هناك لتخدم كحراس شرف، كان الجنود الثوريون يتجاسرون في اعتدادهم إلى حد تعليق رموز خاصة -صلبان- على خوذاتهم. برهنت الإجراءات الاعتيادية الانضباطية التي طبقها ضباطهم في الثكنات على عدم جدواها. لم يستطع الإمبراطور ديوكليتيان، أن يراقب بهدوء ويرى كيف يتقوض النظام والطاعة والانضباط في جيشه. أصدر قانونا ضد الاشتراكيين -عفوا- ضد المسيحيين. منعت اجتماعات الثوريين، أغلقت أماكن اجتماعاتهم أو حتى أزيلت، ومنعت الرموز المسيحية، الصلبان، إلى آخره، كما منعت في ساكسونيا مناديل الجيب الحمراء. لقد أعلن أن المسيحيين غير صالحين لشغل مناصب في الدولة، لم يتمكنوا حتى من أن يصبحوا عرفاء. نظرا لأنه لم يكن لديهم في هذا الوقت قضاة مدربون جيدا فيما يتعلق بـ “سمعة الشخص” مثلما يفترض قانون الهركولر المناهض للاشتراكيين، فقد كان المسيحيون ممنوعين ببساطة من حماية حقوقهم في المحكمة. ولكن بقي هذا القانون الاستثنائي هو أيضاً غير نافذ. نزع المسيحيون عن الجدران في تحد، بل إنهم، كما يقال أحرقوا قصر الإمبراطور في نيقوميديا على رأسه. وحينذاك انتقم الأخير منهم بواسطة اضطهاد عظيم للمسيحيين في ٣٠٣ ب.م. وكان ذلك آخر اضطهاد من نوعه. وقد كان أثره قويا إلى حد أن الأغلبية الساحقة من الجيش كانت تتألف بعد سبعة عشر عاما على انقضائه من المسيحيين، وإلى حد أن قنسطنطين، الحاكم الأوتوقراطي، الذي لقبه رجال الكنيسة “الكبير”، أعلن المسيحية دين دولة.

إن من يعرف إنجلز ويقارن هذه السطور الأخيرة من “العهد السياسي” لإنجلز مع النظرات التي عبر عنها إنجلز طوال حياته، لا يمكن أن يكون لديه أى شك بشأن نواياه وراء هذه المقارنة المرحّة. لقد أراد إنجلز أن يشير للطبيعة التي لا تقاوم والأساسية لتقدم حركتنا، التي قال إنها مدينة بحتميتها خاصة إلى تزايد أتباعها في الجيش، حتى أنها سرعان ما ستكون قادرة على إجبار حتى أكثر الأوتوقراطيين قوة أن يستسلم.

هذا الوصف مثير للاهتمام بصفة أساسية كتعبير عن التفاؤل الصحى الذى احتفظ به إنجلز حتى وفاته.

ولكن المقطع قد فسر أيضاً بشكل مختلف، مادام قد سبقه بتصريحات تفيد أن الحزب يزدهر على نحو أفضل حين يتابع الطرق الشرعية. لقد دافع بعض الأشخاص عن أن إنجلز فى "عهده السياسى" ينكر كامل عمل حياته ويعرض أخيراً الموقف الثورى، الذى دافع عنه لجيلين، باعتباره خطأ. استنتج هؤلاء الأشخاص أن إنجلز قد اعترف بأن مذهب ماركس - وهو أن القوة هى قابلة كل شكل جديد للمجتمع - لم يعد قابلاً للدفاع عنه. فى رسم مقارنة بين المسيحية والاشتراكية، لم يضع المفسرون من هذا الطراز تأكيداً على الطبيعة التى لاتقاوم والأساسية للتقدم، ولكن على إعلان قنسطنطين الطوعى للمسيحية كديانة دولة، لقد انتهت الأخيرة إلى النصر دون اضطرابات عنيفة فى الدولة، بوسائل سلمية فقط، من خلال المساعدة الودية للحكومة.

يعتقد هؤلاء الأشخاص أن الاشتراكية أيضاً سوف تتغلب هكذا. بدا هذا الأمل بالفعل مباشرة بعد موت إنجلز على وشك التحقق، حيث ظهر السيد والدك روسو باعتباره قنسطنطيناً جديداً فى فرنسا وعين أسقف المسيحيين الجدد، السيد ميليران، وزيره.

إن من يعرف إنجلز ويحكم عليه دون تحيز، سوف يعرف أنه لم يدخل حتى ذهن إنجلز أبداً أن يرتد عن معتقداته الثورية، وأن المقطع الأخير لمقدمته لايمكن من ثم أن يفسر بالمعنى الذى أشير إليه أعلاه. ولكن يجب أن نقر بأن هذا المقطع ليس فى غاية الوضوح. إن الأشخاص الذين لايعرفون إنجلز، الذين يتخيلون أنه قد راودته شكوك مفاجئة قبل وفاته تتعلق بجذوى كل عمل حياته، قد يفسر هذا المقطع، بمفرده، باعتباره يشير إلى أن طريق المسيحية إلى الانتصار هو نموذج للرحلة التى على الاشتراكية أن تقطعها.

إذا كان هذا هو رأى إنجلز بالفعل، فلم يكن هناك حكم أسوأ نطق به عن الاشتراكية، ولكان مساوياً لنبوءة ليس عن بلوغ النصر، وإنما عن هزيمة كاملة للهدف العظيم الذى اقترحه الاشتراكية.

إنه لمن المميز أن هؤلاء الأشخاص الذين يوظفون هذا المقطع بهذا الشكل يغفلون كل العناصر العظيمة والعميقة فى إنجلز، ويحيون بحماس جملاً - إذا احتوت بالفعل ما أدعوا أنه فيها - سوف تكون خاطئة كلية.

لقد رأينا أن المسيحية لم تحرز النصر حتى تحولت إلى عكس طابعها الأسمى تماماً؛ وأن انتصار المسيحية لم يكن انتصار البروليتاريا، وإنما الإكليروس الذى كان يستغل ويهيمن على البروليتاريا؛ وأن المسيحية لم تكن منتصرة كقوة مقوضة، وإنما كقوة محافظة، كدعامة جديدة للقمع والاستغلال، حتى انها لم تقضى فقط على القوة الإمبراطورية، العبودية، فقر الجماهير، وتركيز الثروة فى أيدى قليلة، وإنما

خلدت هذه الشروط. أحرز التنظيم المسيحي، الكنيسة، النصر بالتخلي عن أغراضه الأصلية وبالدفاع عن عكسها.

بالفعل، إذا كان على انتصار الاشتراكية أن يتحقق بنفس الطريقة التي حققتها المسيحية، فإن هذا سوف يكون سببا جيدا للتخلي عن، ليس الثورة، وانما عن الديمقراطية الاجتماعية؛ لا يمكن أن يوجه اتهام أشد ضد الديمقراطية الاجتماعية من موقف بروليتارى، والهجوم الذى يقوم به الفوضيون ضد الديمقراطية الاجتماعية سوف يكون مبررا أيضاً للغاية. بالفعل، السعى بواسطة العناصر البورجوازية الاشتراكية لوظيفة اشتراكية وزارية فى فرنسا، التى هدفت إلى تقليد الطريقة المسيحية فى جعل المسيحية مؤسسة دولة فى الماضى – وطبقت، بغرابة كافية، فى هذه الحالة، لتكافح كنيسة الدولة – لم يكن لها أثر آخر إلا أن تقوى النزعة النقابية شبه الفوضوية، المناهضة للاشتراكية.

ولكن لحسن الحظ التشابه بين المسيحية والاشتراكية لامحل له على الإطلاق فى هذا الصدد. مما لا شك فيه أن المسيحية فى أصلها حركة الفقراء، مثل الاشتراكية، وكتاهما من ثم لديها عديد من العناصر المشتركة، حيث كانت لدينا الفرصة لأن نشير إلى ذلك.

أشار إنجلز أيضاً لهذا التشابه فى مقال معنون "حول تاريخ المسيحية الأولية" فى الأزمنة الحديثة Neuezeit كتب قبل وفاته بوقت قصير، ويشير إلى كيف كان إنجلز مهتما بعمق بهذا الموضوع فى ذلك الوقت، كيف كان طبيعياً من ثم بالنسبة له أن يكتب عن التشابه الذى وجد فى مقدمته لكتاب الصراعات الطبقيّة فى فرنسا، يقول هذا المقال:

"يعرض تاريخ المسيحية الأولية توافقات ملحوظة مع الحركة العمالية الحديثة. مثل الأخيرة، كانت المسيحية أصلاً حركة المضطهدين، وقد ظهرت فى البداية كدين للعبيد والمعتقين، الفقراء، والمنبوذين، وللشعوب التى أخضعها أو شتتت شملها روما. كلا من المسيحية والاشتراكية تبشر بخلاص أت من العبودية والبؤس، تحيل المسيحية هذا الخلاص إلى حياة مقبلة فى السماء بعد الموت؛ أما الاشتراكية فسوف تحرزه فى هذا العالم من خلال تحويل المجتمع. كتاهما مطاردتان ومضطهدتان، أتباعهما خارج القانون، خاضعين لتشريع خاص، يعرضون، فى حالة، كأعداء للجنس البشرى، وفى الأخرى، كأعداء للأمة، الدين، العائلة، وللنظام الاجتماعى. ورغم كل الاضطهادات، وفى بعض الحالات ساعدت مثل هذه الاضطهادات على تحقيق النصر، كتاهما تتقدم على نحو لايقاوم. بعد ثلاثة قرون من بدايتها، المسيحية هى ديانة الدولة المعترف بها للإمبراطورية الرومانية، خلال أقل من ستين عاماً احتلت الاشتراكية موقعا بات فيه انتصارها النهائى مؤكداً بشكل مطلق".

هذا التشابه صحيح فى إجماله، مع بعض التحديدات القليلة بالطبع؛ يمكن بالكاد أن تسمى المسيحية ديانة العبيد؛ فهي لم تفعل شيئاً لهم. من ناحية أخرى، فإن التحرر

من البؤس الذى أعلنته المسيحية كان فى البداية ماديا تملأ، عليه أن يتحقق فى هذه الأرض، وليس فى السماء. هذا الطرف الأخير، على أية حال، يزيد التشابه مع حركة العمال الحديثة. يواصل إنجلز:

“إن التشابه بين هاتين الظاهرتين التاريخيتين يصبح واضحا حتى فى العصور الوسطى، فى الانتفاضات الأولى للفلاحين المضطهدين، وخاصة العامة الحضريين إن شيوعى الثورة الفرنسية، وكذلك ق-؛-ايتلج واتباعه قد أشاروا إلى المسيحية الأولية قبل أن يقول إرنست رينان: إذا أردتم أن تكونوا فكرة عن المجمع المسيحية الأولى قوموا بزيارة إلى القسم المحلى من جمعية العمال الأممية.”

“إن هذا الأديب الفرنسى الذى كتب الرواية الإكليريكية أصول المسيحية، وهى إنتحال للنقد الألمانى للكتاب المقدس لا يضارع فى وقاحته - لم يكن هو نفسه واعيا بما احتوت كلماته هذه من حقيقة. أننى أود أن أرى أى “أمى” عجوز، يقرأ، دعنا نقول، ما يسمى بالرسالة الثانية إلى الكورنثيين، دون أن يشعر بانفتاح جراح قديمة بمعنى معين على الأقل.”

يواصل إنجلز عندئذ الدخول فى تفاصيل أكثر فى مقارنة المسيحية الأولية والأممية، ولكنه لا يتتبع التطور اللاحق للمسيحية أو للحركة العمالية. الانهيار الجدلى للأولى لا يلقى انتباها منه، ومع ذلك إذا كان إنجلز قد واصل هذا الموضوع، لاكتشف آثار تحولات مماثلة فى الحركة العمالية الحديثة. فمثل المسيحية هذه الحركة مضطرة إلى خلق أجهزة دائمة فى مجرى نموها، من البيروقراطية المحترفة فى الحزب، إلى النقابات، التى بدونها لا يمكن أن تعمل، والتى هى ضرورة بالنسبة لها، التى يجب أن تستمر، وأن تحصل على واجبات هامة أكثر فأكثر.

هذه البيروقراطية - التى يجب أن تؤخذ بالمعنى الأوسع باعتبارها تشمل ليس فقط الموظفين الإداريين، وإنما أيضاً المحررين والمندوبين البرلمانين - ألن تصبح هذه البيروقراطية فى مجرى الأمور أرستقراطية جديدة، مثل الإكليروس الذى يترأسه الأسقف؟ ألن تصبح أرستقراطية مهيمنة على ومستغلة للجماهير العاملة وأخيرا حائزة على السلطة للتعامل مع سلطات الدولة بشروط متساوية، وهكذا تغوى بالألا تطيح بها وإنما تنضم إليها؟

هذا الحاصل النهائى سوف يكون مؤكدا إذا كان التشابه تاما. ولكن لحسن الحظ ليس هذا هو واقع الحال. بالرغم من التشابهات العديدة بين المسيحية والحركة العمالية الحديثة، هناك أيضاً اختلافات جوهرية. البروليتاريا اليوم مختلفة تماما بصفة خاصة عن البروليتاريا المسيحية الأولية. يحتمل أن النظرة التقليدية عن بروليتاريا حرة تتألف من المتسولين فقط مبالغ فيها؛ فلم يكن العبيد هم العمال الوحيدين. ولكنه من الحقيقى أن عمل العبد قد أفسد البروليتاريين الأحرار العاملين، الذين عمل أغلبهم فى بيوتهم. لقد كان نموذج البروليتارى الكادح الذى جاهد من أجله عندئذ،

مثله في ذلك مثل المتسول، هو تحقيق عيش بدون عمل على حساب الأغنياء، حيث كان يُتوقع أن يعتصروا الكمية الضرورية من المنتجات من العبيد.

أضف إلى ذلك كانت المسيحية في القرون الثلاثة الأولى حركة حضرية على وجه الحصر، ولكن بروليتاري المدن في هذا الوقت لم يكن لهم سوى مغزى ضئيل في تركيب المجتمع، الذي كانت قاعدته الإنتاجية تقريبا كلية هي تلك التي للعصور القديمة، وإن اقترنت بعمليات صناعية هامة تماما.

كنتيجة لكل هذا، فإن الحملة الأساسية للحركة المسيحية، البروليتاريين الأحرار الحضريين، عاملين ومتعطلين، لم يشعروا أن ذلك المجتمع يعيش على حسابهم، لقد جاهدوا ليعيشوا على حساب المجتمع دون تقديم أى مقابل. لم يلعب العمل دوراً في رؤيتهم للدولة المقبلة.

لقد كان من ثم طبيعياً بالطبع أنه بالرغم من كل الحقد الطبقي ضد الأغنياء، يصبح الجهد للحصول على معروفهم وكرمهم واضحاً مرة بعد أخرى، وواجه ميل البيروقراطية الإكليريكية لتفضيل الأعضاء الأغنياء في جمهور المجمع مقاومة ضئيلة مثلما جرى لعجرفة هذه البيروقراطية نفسها.

كان التدهور الاقتصادي والمعنوي للبروليتاريا في الإمبراطورية الرومانية قد تزايد أكثر بالانحلال العام لكل المجتمع الذي كان يصبح أفقر وأكثر يأساً، بينما كانت قواه المنتجة تتدهور أكثر فأكثر. هكذا فإن فقدان الأمل واليأس استولى على كل الطبقات، شل مبادرتها، سبب للجميع أن يتوقعوا الخلاص على أيدي قوى غير عادية وفوق طبيعية فقط، وجعلهم ضحايا عاجزة لأي مخادع ذكي، أو أى مغامر، ذو حيوية ووثاق بذاته، سبب لهم أن يتخلوا عن أى مقاومة مستقلة نحو أى من القوى المهيمنة باعتبارهم عاجزين.

يا لاختلاف البروليتاريا الحديثة ! إنها بروليتاريا الكدح، وهى تعرف أن كل المجتمع يقوم على أكتافها، ونمط الإنتاج الرأسمالى يحول مركز الجاذبية فى الإنتاج أكثر فأكثر من المقاطعات إلى المراكز الصناعية، حيث الحياة العقلية والسياسية أكثر فاعلية. إن عمال هذه المراكز، الأكثر حيوية وذكاء بين الجميع، يصبحون الآن العناصر التى تحكم أقدار المجتمع.

فى نفس الوقت يعزز نمط الإنتاج السائد القوى المنتجة بضخامة، ويزيد هكذا المطالب التى وضعها العمال على المجتمع، ويزيد قوتهم أيضاً على إنجاز هذه المطالب. الأمل، الثقة، الوعى بالذات، تلهمهم، كما ألهمت ذات مرة البورجوازية الناشئة، معطية إياها القوة على أن تكسر سلاسل الهيمنة والاستغلال الإقطاعية، الكنيسة والبيروقراطية، ومستمدة القوة الضرورية من النمو الكبير لرأس المال.

يتوافق أصل المسيحية مع انحلال الديمقراطية. تتسم القرون الثلاثة من تطورها السابقة على الاعتراف بها بتدهور دائم لكل بقايا الحكم الذاتى، وأيضاً بتحلل متلاحق للقوى المنتجة.

تنبثق الحركة العمالية الحديثة من نصر ضخم للديمقراطية، أى، من الثورة الفرنسية العظمى. إن القرن الذى انصرم منذئذ، بكل تغيراته وتقلباته، يمثل مع ذلك تقدماً مستمراً للديمقراطية، زيادة خرافية بحق فى القوى المنتجة وليس فقط توسعاً أعظم، وإنما أيضاً استقلالاً أعظم ووضوحاً فى جانب البروليتاريا.

على المرء أن يفحص فقط هذا التضاد حتى يصبح واعياً بأن تطور الاشتراكية ليس من الممكن أن ينحرف عن مجراه كما حدث (لمجرى) المسيحية. لانحتاج إلى أن نخاف من أنها ستطور طبقة جديدة من الحكام والمستغلين من مراتبها مشرقة فى غنيمتهما المستبدتين القدامى.

بينما تناقصت القدرة القتالية والروح القتالية للبروليتاريا بشكل متلاحق فى الإمبراطورية الرومانية تقوت هذه الخصائص فى المجتمع الحديث، وتُدرك التناقضات الطبقيّة بشكل أكثر حدة، وهذا وحده لا بد وأن يحبط كل محاولات إغواء البروليتاريا بأن تتخلى عن نضالها لأن أبطالها قد ميزوا. أدت أى من هذه المحاولات حتى حينه إلى عزلة الشخص الذى يفعلها، الذى هجرته البروليتاريا بالرغم من خدماته السابقة لها. ولكن ليس البروليتاريا فقط والبيئة السياسية والاجتماعية التى تتحرك فيها هى المختلفة كلية اليوم عن ظروف عصر المسيحية الأولى، بل إن الشيوعية اليوم وشروط تحقيقها مختلفة تماماً عن شروط الشيوعية القديمة.

النضال من أجل الشيوعية، الحاجة إلى الشيوعية، تنشأ اليوم من نفس المصدر، أى الفقر، ومادامت الاشتراكية هى فقط اشتراكية الشعور فهى تعبير عن هذه الحاجة فقط، وقد تعبر اتفاقاً عن نفسها حتى فى الحركة العمالية الحديثة فى اتجاهات تشبه تلك التى كانت لعهد المسيحية الأولى. إن أدنى فهم فقط للشروط الاقتصادية لشيوعية اليوم سوف يدرك على الفور كيف أنها تختلف عن الشيوعية المسيحية الأولى.

إن تركيز الثروة فى أيدٍ قليلة، الذى انطلق فى الإمبراطورية الرومانية يدا بيد مع تناقص دائم فى القوى المنتجة – الذى كان مسئولاً عن التناقض بصورة جزئية – أصبح اليوم نفس هذا التركيز قاعدة لتزايد عظيم فى القوى المنتجة. بينما لم يؤد توزيع الثروة عندئذ إنتاجية المجتمع بأدنى درجة، وإنما لائمه، فإنه سيكون مساوياً لشلل كامل للإنتاج اليوم. لا يمكن للشيوعية الحديثة أن تفكر بعد فى توزيع متساوٍ للثروة، إن موضوعها بالأحرى أن تؤمن أعظم زيادة ممكنة فى إنتاجية العمل وتوزيعاً أكثر عدالة لمنتجات العمل السنوية بواسطة دفع تركيز الثروة إلى أعلى

نقطة، محولة إياه من الاحتكار الخاص لمجموعات رأسمالية قليلة إلى احتكار للدولة.

ولكن الشيوعية الحديثة، إذا كانت ستلبى احتياجات الإنسان الجديد التى خلقتها الطرق الحديثة للإنتاج، يجب أن تستبقى تماما فردية الاستهلاك. لا تتضمن هذه الفردية عزلة الأفراد عن بعضهم الآخر عند الاستهلاك، انها قد تأخذ حتى شكل استهلاك اجتماعى للنشاط الاجتماعى، ليست فردية المتعة مساوية لإلغاء المشاريع الكبيرة فى إنتاج مواد الاستهلاك، ولا لإحلال الآلة محل العمل اليدوى، كما قد يحلم كثير من الاشتراكيين الجماليين. ولكن فردية الاستهلاك تتطلب الحرية فى اختيار المتع، أيضاً الحرية فى اختيار المجتمع الذى يستهلك فيه المستهلك.

ولكن جمهور السكان الحضريين فى أيام المسيحية الأولية لم يعرفوا أشكالاً للإنتاج الاجتماعى، ومن الصعب أن يقال بأن المشروعات الكبرى قد وجدت فى الصناعات الحضرية. ولكنها مرتبطة جيداً بالأشكال الاجتماعية للاستهلاك، خاصة الوجبات المشتركة، وغالبا ما قدمت من المجمع أو الدولة.

وهكذا كانت الشيوعية المسيحية الأولية شيوعية توزيع الثروة وتسوية الاستهلاك، بينما تعنى الشيوعية الحديثة تركيز الثروة وتركيز الإنتاج.

لم تحتاج الشيوعية المسيحية الأولية لأن تطوق كل المجتمع حتى تظهر. أمكن أن يبدأ تنفيذها داخل نطاق محدود، فى الواقع، قد تتخذ، داخل تلك الحدود، أشكالاً دائمة، كانت الأخيرة بالفعل ذات طبيعة أعاققت صيروتها شكلاً شاملاً للمجتمع.

ومن ثم أصبحت الشيوعية المسيحية الأولية بالضرورة شكلاً جديداً للأرستقراطية، وقد كانت مجبرة أن تنجز هذا الديالكتيك الداخلى حتى ضمن المجتمع كما كان آنذاك. لم يمكنها أن تلغى الطبقات، ولكنها أضافت فقط شكلاً جديداً من الهيمنة بالنسبة للمجتمع.

ولكن الشيوعية الحديثة بالنظر إلى التوسع الضخم لوسائل الإنتاج، والطابع الاجتماعى لنمط الإنتاج، والتركيز بعيد المدى لأكثر موضوعات الثروة أهمية، ليس لديها أقل فرصة لأن تثمر على أى نطاق أصغر من نطاق المجتمع بكامله. أخفقت كل محاولات تحقيق الشيوعية فى المؤسسات الصغيرة للمستوطنات الاشتراكية أو التعاونيات الإنتاجية. قد لا يمكن للشيوعية أن تنتج بتشكيل تنظيمات صغيرة داخل المجتمع الرأسمالى، التى سوف تمتص تدريجياً هذا المجتمع حين تتوسع، وانما فقط بحيازة السلطة الكافية للسيطرة وتحويل كامل الحياة الاجتماعية. هذه السلطة هى سلطة الدولة. إن استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية هو الشرط الأول لتحقيق الشيوعية.

إلى أن تصل البروليتاريا هذه المرحلة، لا يمكن أن يكون هناك تفكير فى الإنتاج الاشتراكى أو فى تناقضات الأخير المؤثرة فى تطوره التى سوف تحول المعقول إلى هراء والهبات إلى عذابات. ولكن حتى بعد أن تستولى البروليتاريا على السلطة السياسية، لن يأتى الإنتاج الاشتراكى إلى الوجود على الفور ككل ناجز، ولكن التطور الاقتصادى سوف يأخذ فجأة منعطفا جديدا، لن يعد فى اتجاه تأكيد الرأسمالية ولكن نحو تطور إنتاج اجتماعى. متى سوف يتقدم الأخير إلى نقطة تظهر فيها التناقضات والمساوئ، والذي يقدر له أن يطور المجتمع الجديد فى اتجاه جديد غير معروف الآن وغامض على نحو مطلق؟ هذا الوضع لا يمكن أن يوجز حاليا وليست هناك حاجة لأن يعالج هنا.

بقدر ما نستطيع أن نتتبع الحركة الاشتراكية الحديثة، فإنه من المستحيل بالنسبة لها أن تنتج ظواهر تطرح أى تشابه مع ظواهر المسيحية كدين دولة. ومن الحقيقى كذلك أيضاً أن الطريقة التى حازت بها المسيحية انتصارها لا يمكن بأى طريقة أن تخدم كنموذج للحركة الحديثة للطموحات البروليتارية.

إن انتصار البروليتاريا لن يكون بالتأكيد سهلا كنصر الأساقفة الطيبين من القرن الرابع.

ولكننا قد ندافع عن أنه ليس فقط أن الاشتراكية لن تطور أى تناقضات داخلية فى الفترة السابقة على هذا الانتصار الذى سوف يكون قابلا للمقارنة مع تلك التناقضات التى تحيط بالمراحل الأخيرة للمسيحية، وإنما أيضاً أنه لن تتحقق مثل هذه التناقضات فى الفترة التى تطورت فيها النتائج القابلة للتنبؤ بها لهذا النصر.

لقد طورت الرأسمالية الشروط لوضع المجتمع على أساس جديد كليا، مختلف تماما عن كل الأسس التى وقف عليها المجتمع حين ظهرت التمايزات الطبقية. بينما لم تكن هناك طبقة ثورية جديدة أو حزب – حتى تلك التى ذهبت أبعد من المسيحية فى الشكل الذى اعترف به قنسطنطين، وحتى حينما كانوا بالفعل سيلغون التمايزات الطبقية القائمة – قادرة على إلغاء كل الطبقات، وإنما أحلت دائما تمايزات طبقية جديدة محل القديمة، بينما تتوفر لدينا الآن الشروط المادية للقضاء على كل التمايزات الطبقية. لقد تحركت البروليتاريا الحديثة بهدى مصالحها الطبقية لتوظيف هذه الشروط فى اتجاه هذا الإلغاء، لأنها هي الآن الطبقة الأدنى، بينما فى أزمنة المسيحية كان العبيد أدنى من البروليتاريا.

تعين أن تختلط الاختلافات الطبقية والتعارضات الطبقية حتما مع التمايزات التى نتجت بين الحرف المختلفة، وبتقسيم العمل. التضاد بين الطبقات هو نتيجة لثلاثة أسباب: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، استخدام الأسلحة، العلوم. تنتج شروط تقنية واجتماعية معينة التمايز بين هؤلاء الذين يملكون وسائل الإنتاج والذين لا يملكون، فيما بعد، تنتج التمايز بين هؤلاء الذين تدربوا على استخدام الأسلحة وهؤلاء الذين بلا دفاع؛ أخيرا يأتى التمييز بين هؤلاء الضليعين فى العلوم والجهلة.

يخلق نمط الإنتاج الرأسمالى الشروط الضرورية لإلغاء كل التعارضات. إنه لا يعمل فقط باتجاه إلغاء الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج، ولكن بواسطة ثروته فى القوى المنتجة فهو يلغى أيضاً ضرورة قصر التدريب العسكرى والمعرفة على شريحة معينة. لقد نشأت هذه الضرورة بمجرد أن حاز التدريب العسكرى والعلم مرحلة عالية بالأحرى، مُمكناً هؤلاء الذين كان لديهم وقت فراغ ووسائل مادية تتجاوز احتياجات الحياة، أن يحوزوا أسلحة ومعرفة وأن يطبقا الاثنين بنجاح.

حيثما بقيت إنتاجية العمل قليلة وأنتجت فائضا ضئيلا، لم يكن كل واحد قادرا على أن يحصل على وقت كافٍ ووسائل وأن يلم جنبا إلى جنب بالمعرفة العسكرية أو العلم العام لزمه. فى الواقع، كان فائض أفراد عديدين مطلوبا لتمكين فرد واحد من أن يقوم بإنجاز فى الحقل العسكرى أو العلمى.

لا يمكن أن يحدث هذا سوى باستغلال كثيرين من قبل قلة. الذكاء المتزايد والقدرة العسكرية للقلة مكنتها من أن تضطهد وتستغل الجماهير الجاهلة العزلاء. من ناحية أخرى، أصبح الاستغلال والاضطهاد للجماهير تحديدا وسائل زيادة المهارة العسكرية ومعرفة الطبقات الحاكمة.

ظلت الأمم التى كانت قادرة على البقاء متحررة من الاستغلال والاضطهاد جاهلة وغالبا عزلاء، باعتبارها مناقضة للجيران المسلحين على نحو أفضل والمتعلمين بشكل أفضل. فى صراعات الوجود، هزمت أمم المستغلين والمضطهدين من ثم هؤلاء الذين احتفظوا بشيوعيتهم البدائية وديمقراطيتهم البدائية.

إن نمط الإنتاج الرأسمالى نفسه، بسبب الفائض الكبير الذى خلقه، قد مكن الأمم المختلفة من أن تلجأ إلى خدمة عسكرية شاملة، وهكذا استبعدت أرستقراطية المحاربين. ولكن تأتى الرأسمالية ذاتها بكل أمم السوق العالمى لمثل هذه العلاقات الوثيقة والدائمة كل منها مع الآخر حتى أن السلام العالمى يصبح ضرورة ملحة أكثر فأكثر، إن حربا من أى نوع هى جزء من حماقة قاسية. إذا أمكن التغلب على نمط الإنتاج الرأسمالى والعداء الاقتصادى بين الأمم المختلفة، فإن حالة السلام الأبدى التى رغبت فيها الآن الجماهير العظيمة للبشرية سوف تصبح واقعا. السلام الشامل الذى حققه الاستبداد الإمبراطورى للأمم المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى القرن الثانى من العصر المسيحى – وهى الميزة الوحيدة التى منحها الاستبداد لهذه الأمم – سوف يتحقق فى القرن العشرين للأمم العالم بواسطة الاشتراكية.

إن كامل أساس التعارض بين طبقات المحاربين وغير المحاربين سوف يختفى عندئذ.

ولكن أسس التضاد بين المتعلمين وغير المتعلمين سوف تختفى أيضاً. الآن، فقط، فقد رخص نمط الإنتاج الرأسمالى لحد ضخم أدوات المعرفة بالطباعة الرخيصة، جاعلا إيها فى إمكان الجماهير. وفى نفس الآن فإنه ينتج طلبا متزايدا على

المثقفين، الذين يدرّبهم في مدارس بأعداد ضخمة، دافعاً إياهم إلى البروليتاريا، على أى حال، حين يصبحون عديدين. وهكذا فإن الرأسمالية قد خلقت الإمكانيّة التقنيّة لتقصير شديد ليوم العمل، وحازت طبقات من العاملين بالفعل على ميزات معينة في هذا الاتجاه، مع توفر وقت أكثر للأنشطة التعليميّة.

مع انتصار البروليتاريا فإن هذه الجرائم سوف تتطور تماماً على الفور، خالقة واقعاً ممتازاً لإمكانيات التعليم العام للجماهير التي أنتجها نمط الإنتاج الرأسماليّ.

إن فترة ظهور المسيحية هي فترة أحزن تدهور ثقافيّ، لازدهار جهل لا معقول، لأكثر الخرافات غباوة، وفترة ظهور الاشتراكية هي فترة التقدم الصارخ في العلوم الطبيعيّة وحياسة سريعة للمعرفة من قبل الطبقات المتأثرة بالديمقراطية الاشتراكية.

فقد التناقض الطبقيّ الناشئ عن التدريب العسكريّ أساسه سلفاً، التضاد الطبقيّ الناشئ عن الملكية الخاصّة لوسائل الإنتاج سوف يفقد أساسه أيضاً بمجرد أن ينتج الحكم السياسيّ للبروليتاريا آثاره، ونتائج هذا الحكم سرعان ما سوف تصبح واضحة في تناقص التمييز بين المتعلمين وغير المتعلمين، الذي قد يختفي خلال جيل واحد.

ستكون الأسباب الأخيرة للتمييزات الطبقيّة والتناقضات الطبقيّة آنئذ قد توقفت.

لا بد للاشتراكية من ثم لا أن تحرز السلطة بوسائل مختلفة كليّة فحسب عما فعلت المسيحية، ولكنها لا بد وأن تنتج تأثيرات مختلفة كليّة. يجب أن تقضى والى الأبد على كل حكم طبقيّ.